القصص القرآني

بين الآباء والأبناء

«بحث يرصد بالدراسة والتحليل والاستنتاج جميع القصص القرآني
الذي ورد في شأن الآباء والأبناء
في خطة تعنى بالعلم والعبرة والموعظة»

تأليف
عماد زهير حافظ

دار القلم
دمشق

شكر وتقدير

لا يسعني بعد أن أنهيت هذه الرسالة إلاَّ أن أقدّم الشكر الجزيل لأستاذي المشرف الدكتور أبو ضيف مجاهد حسن الذي لم يدّخر جهداً بإبداء توجيهاته السديدة، وملاحظاته القيّمة في أثناء إعداد هذه الرسالة.

كما أنّي أتقدّم بالشكر لكلّ من ساهم بإخراج هذه الرسالة في شكلها النهائي.

القصص القرآني

بين الآباء والأبناء

الطّبْعَة الأولى
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

حُقوق الطبْع محفوظة

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص . ب : ١١٣/٦٥٠١

الإهـــداء

إلى الذين ذاقوا طعم الإيمان . . .

إلى الذين رضوا بالله ربّـاً، وبالإسلام ديناً،

وبمحمّد ـ صلّى الله عليه وسلم ـ نبيّاً ورسولاً . . .

أقدّم هذا العمل .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدّمَة

إنَّ الحمد لله نحمده ـ سبحـانه ـ ونستعينـه ونستغفره ونستهـديه ونعـوذ باللّهِ من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدي الله فلا مضلّ لـه، ومن يضلل فلا هــادي لــه. ونشهد أن لا إلَـه إلاَّ الله وحده لا شريك لـه، لـه الملك ولـه الحمد وهو على كلّ شيء قدير. ونشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، صلَّى الله عليه وعلى آلـه وصحبه والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين. أمَّا بعد:

فـإنَّه من فضـل الله عليّ أن يسّر لي البحث في مـوضوع جليـل عـظيم، استمـدّ عِظَمه من حيث أنَّه صادر عن كلام ربِّ العالمين ـ الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديـه ولا من خلفه تنزيـل من حكيم حميد﴾ [فصلت: ٤٢] ـ وهـذا الموضـوع يتناول جـانباً مهمّاً شغل حيِّزاً واسعاً من قصص كتاب الله الكريم وهو ما كان فيه بين الآباء والأبناء.

وإنِّي إذ أقدّم لهذا البحث في هذا الموضوع فسأبيِّن ثلاثة أمور:

أوّلهـا: أسباب اختياري لهذا الموضوع.

وثانيها: منهجي في البحث.

وثالثها: خطّة البحث.

* أمَّا أسباب الاختيار فأهمّها ما يلي:

١ ـ إسهام هذا الموضوع في جـانب الاستفادة من القصص القـرآنيّ الكريم، وذلـك حتى لا يكون القصص مجرّد آيات تتلى ويتسلى بها، بل ليكون ذا أثر كبير في حياة الأفراد والمجتمعات، لما لـه من المعاني والعبر والفوائد والعظات والدروس العظيمة.

٢ ــ إنَّ البحث في هـذا الجانب ــ وهـو فيما يتعلّق بـالآباء والأبنـاء ــ ليعطينـا تصوّراً دقيقاً عن حدود العلاقات بين هذين الطرفين وأهمّيتها وكيفية تحقيقها، وهذا ممّا يحفظ لكلّ واحد حقوقه ويحدّد لـه واجباته.

٣ ــ وإنَّ هذا الموضـوع ليعتبر مجـالاً خصباً يسـاعد المـربيّن ــ آباء وغيـرهم ــ على النجاح والوصـول إلى الأهداف المـطلوبة في مهمّتهم التـربويـة التي يزاولـونها مـع من يقومون بتربيتهم.

٤ ــ واختـرت هذا المـوضوع ــ أيضـاً ــ لما يحتـويه على مـواقف كثيـرة من مـواقف الـدعوة إلى الله ــ عـزّ وجلّ ــ من لـدن نوح ــ عليـه السلام ــ حتى صحـابـة رسـولنـا محمـد ﷺ، وبيان آثـار هذه المـواقف. . وهذا ممّـا يستفيـد منـه كـلّ داعيـة إلى الله، وخصوصاً أنّ هذه المواقف هي من جانب أنبياء الله ورسله وأوليائه الصالحين و ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ [الأنعام: ٩٠].

٥ ــ وكـذلك لمـا يحتويـه ــ أيضاً ــ من إبـراز أهمّية أمـر العقيدة، بـل وتصحيحها، والدفاع عنهـا، والوقـوف عند حـدودها. مـع التغلّب على العـاطفة ــ سـواء أكانت من جانب الآباء أو الأبناء ــ فإنّـا نلحظ الابن يعلن العقيدة الحقّـة ولو في وجـه أبيه، وكـذا نلحظ الأب المؤمن لا تـأخذه الشفقـة على مراعـاة ابنه في زيغـه وضلالـه من الاعتقـاد الحقّ. . .

٦ ــ وإضافةً إلى ما سبق من الأسباب فإنَّ مثل هذا البحث ليشارك ويُسْهم في جـانب التفسيـر الموضـوعيّ للقرآن الكـريم. . هـذا اللون من التفسيـر الـذي يُحتـاج إليـه في عصرنا، حيث يستشفّ منه الإنسان هدي القرآن الكريم فيما يصحّـح عـلاقاتـه مـع ربّه تعـالى، ومـع من حولـه من البشر. وبـالتالي يصبـح منهـج الإنسـان في حياتـه منهجـاً قرآنياً، وسلوكه سلوكاً شرعياً. وهذا مصداق قوله تعـالى: ﴿إنَّ هذا القـرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ [الإسراء: ٩].

* وأمَّا المنهـج في بحث هذا الموضوع فيتلخّص فيما يلي:

ــ قراءة مستوعبة لمعظم تفاسير القرآن الكريم في آيـات القصّة الـواحدة، ثم يتبـع تلك القراءة استخلاص أرجـح الأقـوال وأوضحها وألصقهـا بالنصّ القـرآني. ويصاحب ذلك البعد عن كلّ الآراء والأقوال الضعيفة.

ـ وبجانب استخلاص الأقوال القويّة في بيان النصّ القرآنيّ، أقصد إلى التقاط العبر والفوائد ــ التي يذكرها المفسّرون في ثنايا كلامهم حول الآيات القرآنية ــ بمختلف أوجهها.

ومع استخراج العبر والفوائد من كتب التفسير أرجع إلى الكتب التي تمسّ جانباً من جوانب موضوعنا لأخرج منها ما أراه مناسباً من العبر والفوائد، وذلك ككتب القصص القرآني، وكتب الدعوة والتربية وغيرها. . .

وإنّي لا أقتصر على الفوائد الموجودة في الكتب وإنّما قد أذكر ما استنتجه من رؤيتي كباحث.

كما أنّه من الفوائد التي أذكرها بعض الأحكام الفقهية التي يشير إليها القصص، وأرجع في ذلك إلى الكتب التي تعنى بذكر أحكام القرآن الكريم، وكذلك إلى بعض الكتب الفقهية التي تعالج نفس الأحكام. إلاّ أنّني لا أخوض في ذكر الاختلافات الفقهية؛ لأنّ هذا ليس من مجال بحثنا، ولكنّي أذكر الراجح منها ممّا رجّحه العلماء المختصّون في هذا العلم.

ومن الأمور التي اهتمّ بإبرازها الفوائد البلاغية القرآنية في الآيات؛ لما لها من كبير الأثر في تذوّق جمال النصّ القرآني، والتعبير الإلهي الرفيع.

وبجانب ذكري لهذه الفوائد البلاغية أورد في الهامش ما قد يخفى من معاني بعض المصطلحات البلاغيّة فأعرّف لها.

ـ البعد عن الإسرائيليات، مع وجودها بكثرة في جانب القصص القرآني، إلاّ أنّي أذكر ــ في النادر ــ منها بقدر محدود ودون استطراد، ما قد يزيل لبساً في آية معيّنة فيوضّح معناها، ولا يعارض الصحيح الثابت فيها. وعلى سبيل المثال لذلك قول إخوة يوسف ــ عليه السلام ــ حين وجد الصواع في رحل أخيه: (قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) ويقصدون أنّ يوسف قد سرق، فجاءت هنا من الإسرائيليات روايات توضّح معنى كلامهم هذا؛ وتنفي أن يكون يوسف قد سرق ــ على ما وضّحناه في موضعه ــ .

ـ الاهتمام بذكر أوجه القراءات المتواترة التي توجد في بعض الآيات التي تتناول

القصص، حيث أذكر هذا في الهامش؛ مع توضيح المعنى في الأصل إن ترتّب على اختلاف أوجه القراءة معنى جديد للآية.

– وقد أتطرّق في بعض المواضع إلى ذكر المعاني اللغوية لبعض الكلمات التي أرى من الجدير أن نبيّن الأصل اللغويّ لها؛ لما قد يترتب على ذلك من زيادة بيان، أو إزالة لبس، أو ترجيح معنى.. ولكن كلّ هذا إنّما يكون بقدر محدود؛ منعاً للإطالة والدخول فيما ليس له فائدة.

– وأمّا بالنسبة للأحاديث التي أذكرها في البحث، فإنّي لا أذكر إلّا الأحاديث الصحيحة أو الحسنة دون الضعيفة؛ لأنّ هذا ممّا يحفظ قيمة البحث العلميّة.

وإن كان الحديث الصحيح مروياً في الصحيحين أو في أحدهما فإنّي أكتفي بذكر موضعه فيهما أو في أحدهما دونما ذكر موضعه في كتب الحديث الأخرى؛ لأنّ هذا يغني القارىء في معرفة هذا الحديث.

وإنّي لأكتفي ـ أيضاً ـ في الحكم على الحديث ـ الموجود في غير الصحيحين ـ على أقوال علماء الحديث المعروفة أقوالهم بالدّقة والقوّة في الحكم على درجة الحديث دون العلماء المعروف تساهلهم في ذلك.

* وأمّا خطة البحث فأجملها فيما يلي:

– التمهيد للبحث: وتكلمت فيه عن أهمية القصص القرآني وأغراضه.

– الأبواب التي تتكلم عن القصص القرآني بين الآباء والأبناء، وكانت عشرة أبواب مرتين حسب التسلسل الزمني وهي:

الباب الأول: قصة نوح ـ عليه السلام ـ مع ابنه.

الباب الثاني: قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع أبيه وأبنائه.

الباب الثالث: قصة يعقوب ـ عليه السلام ـ مع أبنائه.

الباب الرابع: قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع أمّه.

الباب الخامس: قصة فتاتي مدين مع أبيهما.

الباب السادس: قصة داود وسليمان عليهما السلام.

الباب السابع: لقمان الحكيم مع ابنه.

الباب الثامن: قصة زكريا ويحيى عليهما السلام.

الباب التاسع: قصة مريم بنت عمران مع أمّها وابنها (عيسى) عليهم السلام.

الباب العاشر: مواقف بين الآباء والأبناء لعدد من الصحابة رضي الله عنهم.

ومن ثمّ كتبت خاتمة للبحث تشتمل على أهمّ النتائج التي نستخلصها من هذه الدراسة القرآنية الممتعة.

هذا وإنِّي أشكر الله سبحانه وتعالى على أن وفَّقني إلى إتمام هذا البحث مع اعترافي الخالص بالعجز والتقصير، فما أحسنت فمن الله وما أسأت فمن نفسي.

﴿سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون. وسلام على المرسلين. والحمد لله ربِّ العالمين﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢].

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

تمهيد

أهمّية القصص القرآني وأغراضه

في هذا التمهيد أعرض لأهمية القصص القرآني وأهمّ أغراضه ــ بصورة عامة ــ ليحسن لنا الدخول إلى موضوع بحثنا بعد استشعار هذه الأهميّة والأغراض. وأهمّها ما يلي:

١ ــ إنَّ قصص القرآن الكريم هو قصص لأمور واقعة، يساق للعبر وإعطاء المثلات، وبيان مكان الضالّين ومنزلة المهتدين، وعاقبة الضلال وعاقبة الهداية، وبيان ما يقوم به النبيّون ووراءهم كلّ الدعاة إلى الحق.

فإذاً هو قصص للعبرة، لا لمجرّد المتعة والتسلية. وهذا ما يقرره الله عزّ وجلّ في كتابه حيث قال ــ بعد ذكر قصّة يوسف ــ : ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب. ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كلّ شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ [يوسف: ١١١](١).

٢ ــ إنَّ القصص القرآني يصوّر لنا في أحداثه طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر في نفوس الناس، ويعرض نموذجاً متكرّراً للقلوب المستعدّة للإيمان، ونموذجاً مكرّراً للقلوب المستعدة للكفر(٢). وهذا ــ بلا شك ــ ممّا يعرّف الإنسان بحقيقة وطبيعة كلا الطريقين. وبصفات وملامح أتباعهما.

وانطلاقاً من هذا الكلام فإنَّ قصص الأنبياء ــ خاصّةً ــ يمثّل موكب الإيمان في

(١) انظر: محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى «القرآن» (القاهرة: دار الفكر العربي للنشر، دار غريب للطباعة) ص (١٦٢ ــ ١٦٣).

(٢) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ١٣٠٦/٣.

طريقة الممتدّ الواصل الطويـل. ويعرض قصّـة الدعـوة إلى الله واستجابـة البشريـة لها جيلاً بعد جيل، كما يعرض طبيعة الإيمان في نفوس هـذه النخبة المختـارة من البشر، وطبيعة تصوّرهم للعلاقة بينهم وبين ربّهم الذي خصّهم بهذا الفضل العظيم.

وتتبّـع هذا الموكب الكـريم في طريقـه اللاحب يفيض على القلب رضىً ونـوراً وشفافية، ويشعرها بنفاسة هذا العنصر العزيز ــ عنصر الإيمان ــ وأصـالته في الـوجود. كـذلك يكشف عن حقيقـة التصـور الإيمـاني ويميّـزه في الحسّ من سـائـر التصـوّرات الدخيلة(١).

٣ ــ وإنَّ للقصص القـرآني أهمّية كبـرى في توجيـه الدعـوة الإسـلاميـة؛ إذ أنَّ واقعيّة القـرآن وجدّيته تجعلان توجيهاته وتقريراته تعين الدعـوة الإسلاميـة على إصدار مواقف صحيحة ومدروسة تجاه ما تلاقيه.

وإنّـا لنلمح هذا حين كـان القصص يتنزّل على رسـول الله ﷺ في مكّـة، والقلّة المؤمنة معه محصورة بين شعابها، والدعوة الإسلامية مجمّدة فيها، والطريق شاقّ طويل لا يكـاد المسلمون يـرون لـه نهايـة! فكـان القصص يكشف لهم عن نهـايـة الـطريق، ويرسم معالمه في مراحله جميعاً، ويأخذ بأيديهم وينقل خطاهم في هذا الـطريق، وقد بات لاحباً مـوصولاً بمـوكب الدعـوة الكريم على مـدار التاريـخ البشـري، وبات بهـذا الركب الكريم مـأنوسـاً مألـوفاً لا مـوحشاً ولا مخـوفاً.. وهكـذا كان القـرآن يتحرّك في الصف المسلم، ويحرّك هذا الصف حركة مرسومة مأمونة.. وهكـذا يمكن اليوم وغـداً أن يتحرّك في الدعاة إلى الله ويحرّكهم في طريق الدعوة المرسوم.

إنَّ الـدعوة الإسـلامية في كـلّ زمان ومكـان لا بدّ لهـا من هذا القصص القـرآني تسلهمه وتستوحيه.. تستلهمه في منهجها وخطواتها ومراحلها، وتستوحيه فيما يصـادف هذه الخطوات والمراحل من استجابات، وما ينتظرها من عاقبة في نهاية الطريق(٢).

٤ ــ كما أنَّ في القصص ــ تبعاً لمـا ذكرنـا ــ تثبيتاً لقلب رسـول الله ﷺ وقلوب الأمّة المحمّدية ممّن معه وممّن جاء بعده.. تثبيت على دين الله، وتقوية لثقة المؤمنين بنصرة الحقّ وجنده، وخذلان الباطل وأهله. ومصداق هذا قول الله عـزّ وجل: ﴿وكـلّا

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ١/٥٥.

(٢) انظر: المرجع السابق ١٩٤٨/٤.

نقصّ عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحقّ وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ [هود: ١٢٠](١).

٥ ــ ومن أغراض القصص ــ أيضاً ــ إيضاح أسس الدعوة إلى الله، وبيان أصول الشرائع التي بُعث بها كلّ نبيّ. يقول تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنّه لا إلّه إلاّ أنا فاعبدون﴾ [الأنبياء: ٢٥]. فالدين كلّه من عند الله من عهد نوح ــ عليه السلام ــ إلى عهد خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، والمؤمنون كلّهم أمّة واحدة، ضاربة في جذور التاريخ، يضمّهم ركب واحد مبارك، والله هو ربّ الجميع وكثيراً ما وردت قصص عدد من الأنبياء في صورة واحدة معروضة بطريقة خاصّة لتؤيّد هذه الحقيقة(٢).

٦ ــ وممّا يهدف إليه القصص القرآني ــ كذلك ــ تصديق الأنبياء والمرسلين وإحياء ذكراهم وتخليد آثارهم، والإشارة إلى فضلهم ومكانتهم الرفيعة عند الله عزّ وجلّ(٣).

٧ ــ إثبات الوحي والرسالة: فكثيراً ممّا قصّه الله كان غيباً مجهولاً للنبيّ ﷺ ولقومه، فمثلاً ما نجده في قصص آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ــ عليهم السلام ــ من تفصيلات ما كان يعلمها النبيّ ﷺ ولا قومه. وهذا دليل على صدق الرسالة وإثبات الصلة بوحي الله.

ويدلّ على هذا ما قاله الله ــ بعد ذكره لقصّة نوح عليه السلام ــ ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إنَّ العاقبة للمتقين﴾ [هود: ٤٩](٤).

---

(١) انظر: مناع خليل القطان، مباحث في علوم القرآن، الطبعة الرابعة عشرة (بيروت ــ لبنان: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) ص ٣٠٧.

(٢) انظر: المرجع السابق ص ٣٠٧؛ عدنان محمد زرزور، علوم القرآن، الطبعة الثانية (بيروت، دمشق: المكتب الإسلامي، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) ص ٣٧٦.

(٣) انظر: مباحث في علوم القرآن للقطان ص ٣٠٧.

(٤) انظر: محمد شديد، منهج القصة في القرآن، الطبعة الأولى (جدة ــ المملكة العربية السعودية: دار عكاظ للطباعة والنشر، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م) ص (١٠٨ ــ ١٠٩)؛ علوم القرآن لعدنان زرزور ص (٣٦٩ ــ ٣٧٠).

٨ ـ وجاء القصص القرآني ـ أيضاً ـ لمقارعة أهل الكتاب بالحجّة فيما كتموه من البيّنات والهدى، وتحدّاهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿كلّ الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلاّ ما حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزّل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾ [آل عمران: ٩٣](١).

٩ ـ ثمّ إنّ القرآن الكريم يستخدم قصصه لجميع أنواع التربية والتوجيه التي يشملها منهجه التربوي: تربية الروح، وتربية العقل، وتربية الجسم، والتوقيع على الخطوط المتقابلة في النفس، والتربية بالقدوة والتربية بالموعظة، فهي سجلّ حافل لجميع التوجيهات(٢).

١٠ ـ كما أنّ القصص القرآني بيّن بعض الأحكام الفقهية الشرعية، وهذا ممّا يثبت هذه الأحكام ويدعمها؛ لأنّها تكون أحكاماً متفقاً عليها في كلّ الشرائع السماوية، وبيان أنّها غير قابلة للنسخ وأنّها مؤكّدة ثابتة، وفي القصّة تكون حكمة شرعيتها قائمة والغاية منها ثابتة. ومثال ذلك قصة قابيل وهابيل ابني آدم. . .(٣).

١١ ـ وأخيراً فإنّ القصص القرآني يمثّل واحداً من أبرز وسائل العرض الفنّي في القرآن الكريم. فهي على قلّة عدد الألفاظ المستخدمة في أدائها فإنّها حافلة بكلّ الشخوص، إلى دقّة في رسم الملامح، إلى اختيار دقيق للّحظة الحاسمة في القصّة لتوجيه القلب للعبرة، والتوقيع عليه بالنغم المطلوب.

وهذا كلّه ممّا يؤكّد أنّ القرآن الكريم يخلو من أيّ عيب أو قصور. . والقرآن هو مقياس على صحّة الأدب كما هو مقياس على صحّة اللغة(٤).

هذا من أهمّ ما يمكن أن نذكره حول أهمّية القصص القرآني وأغراضه. والله أعلم.

* * *

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن للقطان ص ٣٠٧.

(٢) محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، ٢ ج ، الطبعة الخامسة (بيروت، القاهرة: دار الشروق، ١٤٠١هـ/١٩٨١م) ١/ ١٩٤.

(٣) انظر: المعجزة الكبرى «القرآن» لأبي زهرة: ص ١٩٦.

(٤) انظر: علوم القرآن لعدنان زرزور ص ٣٥٧؛ منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب ١/ ١٩٤.

البابُ الأوّل

نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَام مَعَ ابْنِهِ

وفيه تمهيد، وفصلان:

الفصل الأول : بيـان القصّـة.

والفصل الثاني: العبر والفوائد.

تمهيد

في هذا الباب سنتكلّم عن موقف نوح[1] عليه السّلام مع ابنه الذي عارض دعوة الإيمان. ويحسن قبل الكلام حول هذا الموقف أن نذكر ـ تمهيداً لذلك ـ أمر دعوته عليه السّلام بصورة إجماليّة عامّة وموقف قومه منها.

فسيّدنا نوح عليه السّلام ـ كما هو معلوم ـ أوّل رسول أرسل من عند الله[2]. وأرسله إلى قومه الّذين عبدوا الأصنام من دون الله عزّ وجلّ، فجاءهم بالدّعوة إلى عبادة الله وحده وترك كلّ ما سواه ـ كما هو الشأن في دعوة كلّ الرّسل ـ ﴿قال يا قوم إنّي لكم نذير مبين. أن اعبدوا الله واتّقوه وأطيعون﴾[3].

وبدأ عليه السلام يدعو قومه تلبيةً لأمر ربّه، ولكنّه وجد منهم غاية العناد والتكذيب، وذلك بالرغم من تنوّع أساليبه في دعوتهم كما هو موضّح في السّورة المسمّاة باسمه. وقد بيّن القرآن الكريم أنّه لبث داعياً قومه مدةً طويلة من الزّمن، ولم يؤمن معه إلاّ قليل ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلاّ خمسين عاماً. . . ﴾ الآية[4] ﴿. . . وما آمن معه إلاّ قليل﴾[5].

---

(١) هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ ـ وهو إدريس ـ بن يرد بن مهلاييل بن قينن بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر عليه السلام (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، قصص الأنبياء، تحقيق محمد أحمد عبد العزيز، ٢ ج ، (القاهرة: دار مصر للطباعة، دار الحديث للنشر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م) ١/ ٦٠).

(٢) هو أوّل رسل الله إلى الأرض، وقد كان آدم أوّل الأنبياء ولم يكن رسولاً، ودليل ذلك ما رواه الإمام مسلم في حديث الشفاعة، وهو أنّ النّاس حين يذهبون إلى آدم عليه السّلام ثمّ يرسلهم إلى نوح يقول لهم: . . .ولكن ائتوا نوحاً أوّل رسول بعثه الله، وفي رواية أخرى يقولون له: يا نوح أنت أول رسل الله إلى الأرض. . . إلخ (انظر: مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق وإشراف: عبد الله أحمد أبو زينة، ٥ ج ، (القاهرة: طبعة كتاب الشعب، ١٣٩٠هـ) كتاب الإيمان، حديث رقم: ٢٩٥ ، ٢٩٩).

(٣) سورة نوح: آيتا ٢ ـ ٣. (٤) سورة العنكبوت: آية ١٤. (٥) سورة هود: آية ٤٠.

وكان عليه السّلام طوال هذه المدّة صابراً على تكذيبهم وأذاهم له، باذلاً كلّ جهده في تبليغ الرّسالة، حتى إذا ضاقت به كلّ السّبل، وعلم أنّه لن يؤمن معه إلاّ من آمن لجأ إلى الله يشكوهم إليه ﴿قال ربِّ إنَّ قومي كذبون. فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجّني ومن معي من المؤمنين﴾(١).

كما أنه دعا عليهم بالهلاك ﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً. إنَّك إن تذرهم يضلّوا عبادك ولا يلدوا إلاّ فاجراً كفّاراً﴾(٢). فاستجاب الله دعاءه؛ ولكنّ قبل أن يهلكهم ــ سبحانه ــ أراد أن يهيىء لنوح عليه السلام ومن معه من المؤمنين سبيل النّجاة، فأمره بصنع السفينة ﴿وأوحي إلى نوح أنّه لن يؤمن من قومك إلاّ من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون. واصنع الفلك بأعيننا ووحينا(٣) ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾(٤).

وصنع نوح السّفينة، حتى إذا جاء أمر الله وظهرت علامات ابتداء الطّوفان من تفجّر الماء من الأرض، وانهماره من السّماء، أمره الله أن يحمل في السّفينة من كلّ من الأحياء والحيوانات زوجين اثنين حتى يبقى النّسل على الأرض، وأمره بعد ذلك بحمل أهله المؤمنين ومن آمن من قومه فيها؛ حتّى ينجوا من عذاب الله ﴿حتى إذا جاء أمرنا وفار التنّور(٥) قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلاّ من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلاّ قليل﴾(٦). ثمّ وجّه نوح خطابه إلى من أمر بحمله ﴿وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرسيها إنَّ ربِّي لغفور رّحيم﴾(٧).

وفي هذه اللّحظات ــ لحظات النّجاة ــ يبدأ القرآن الكريم بقصّ موقف نوح عليه السلام مع ابنه الكافر. وهذا هو ما سنتعرض له بالبحث والدراسة واستخراج العبر والفوائد، والله المستعان سبحانه.

---

(١) سورة الشعراء: آيتا ١١٨ ــ ١١٩. (٢) سورة نوح: آيتا ٢٦ ــ ٢٧.

(٣) بأعيننا ووحينا: أي، تحت نظرنا وبحفظنا ورعايتنا وتعليمنا لك.

(٤) سورة هود: آيتا ٣٦ ــ ٣٧.

(٥) وفار التنور: أي فار الماء من التنور الذي يوقد به النار ويخبز فيه، وكان هذا آية ابتداء الطوفان من الله.

(٦) سورة هود: الآية ٤٠. (٧) سورة هود: الآية ٤١.

الفصل الأول

بيان القصّة

يُبيّن لنا القرآن الكريم قصة نوح مع ابنه في الآيات التّالية:

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ
ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ
لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾
وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ
وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ
الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ
مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ
أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَا نُوحُ
اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ
هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾(١).

وسنتناول بيان هذه الآيات التي وضّحت القصّة، عبر فقرات قصصية تتّضح من خلالها مجريات هذا الموقف:

---

(١) سورة هود: الآيات ٤٢ ــ ٤٩.

١ ـ نداء نوح عليه السّلام لابنه:

في بداية الآية التي تتكلم عن نداء نوح عليه السّلام لابنه ـ من أجل الركوب في سفينة النّجاة ـ يعرض الله وصفاً للحالة التي كانت عليها السّفينة في جريها على الماء؛ وذلك لبيان عِظَمِ الموقف ورهبته، وإنّما هي عناية الله ورحمته وحمايته لعباده المؤمنين وهم في هذه السّفينة التي تسير في خضم هذا الموج ﴿وهي تجري بهم في موجٍ كالجبال﴾.

والموج هو «ما ارتفع من الماء فوق الماء»[١].

* وحدوث الموج دليل على أنّه قد حصل في ذلك الوقت رياح شديدة. والجريان في الموج ظاهره أنّ السّفينة تجري في داخل الموج، وذلك يوجب الغرق، ولكنّ المراد أنّ الأمواج لمّا أحاطت بالسّفينة من كل جوانبها شُبّهت بما إذا جرت داخلها[٢]. وكذلك شبّه الله الموج بالجبال لعلوّه وارتفاعه وامتداده[٣].

ويصف الله تبارك وتعالى هذا الحدث العظيم في آيات أخر من كتابه الكريم: ﴿وحملناه على ذات ألواحٍ ودسر. تجري بأعيننا جزاءً لمن كان كُفِر﴾[٤]. ﴿إنّا لما طغى الماء حملناكم في الجارية. لنجعلها لكم تذكرةً وتعيها أذن واعية﴾[٥].

وبعد هذا الوصف العظيم نجد أنّنا أمام الهتاف الأبويّ من نوح عليه السّلام لأنه ﴿. . . ونادى نوح ابنه وكان في معزلٍ يا بنيّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين﴾.

وقبل الدّخول في تفصيل هذا الهتاف لا بدّ من بيان مسألتين اختُلف فيهما:

---

(١) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، ١٥ ج، الطبعة الثانية (بيروت: دار صادر للطباعة والنشر، ودار الفكر) ٢/٣٧٠.

(٢) انظر: فخر الدين الرازي أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني الشافعي، مفاتيح الغيب الشهير بالتفسير الكبير، ٣٢ ج، الطبعة الثالثة (بيروت: دار إحياء التراث العربي) ١٧/٢٣٠ ـ ٢٣١.

(٣) انظر: أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، ٣٠ ج، (بيروت: دار إحياء التراث العربي) ١٢/٣٧.

(٤) سورة القمر: الآيتان ١٣ ـ ١٤.

(٥) سورة الحاقة: الآيتان ١١ ـ ١٢.

المسألة الأولى: هل هذا هو ابن نوح حقيقة أم لا؟

أقول: والرَّاجح أنّه ابنه حقيقةً، وهذا ما ذهب إليه جمهور المفسّرين. وعلى رأسهم ابن عبّاس رضي الله عنه، وقتادة، وسعيد بن جُبير، ومجاهد، وعكرمة، والضّحاك، وميمون بن مهران، وثابت بن الحجّاج، وتبعهم ابن جرير الطّبري رحمه الله والرّازي وابن كثير وغيرهم.

وإليك أقوالهم وما استدلوا به:

قال ابن عبّاس رضي الله عنه: هو ابنه غير أنّه خالفه في العمل والنيّة.

وسُئل سعيد بن جبير عن ذلك فقال: كان ابن نوح: إنّ الله لا يكذب، قال تعالى: ﴿ونادى نوح ابنه﴾.

وقال عكرمة: أشهد أنّه ابنه: قال تعالى: ﴿ونادى نوح ابنه﴾.

وسأل رجل الضّحاك عن ابن نوح. فقال: ألا تعجبون إلى هذا الأحمق يسألني عن ابن نوح وهو ابن نوح: كما قال تعالى: ﴿ونادى نوح ابنه﴾. وقال: هو والله ابنه لصُلبه.

وقال ابن جرير ــ رحمه الله ــ فيما معناه: إنّ أولى الأقوال: هو أنّه ابنه، لأنّ الله تعالى ذكره، وقد أخبر نبيّه محمّداً ﷺ أنه ابنه فقال: ﴿ونادى نوح ابنه﴾، وغير جائز أن يُخبِر أنّه ابنه فيكون بخلاف ما أخبر.

والرَّازي يقول: والدليل عليه: أنّه تعالى نصّ عليه فقال: ﴿ونادى نوح ابنه﴾، ونوح أيضاً نصّ عليه فقال: يا بنيّ.

وابن كثير أيضاً قال: وهذا هو الصّواب الّذي لا شكّ فيه[1].

وأمّا الّذين ذهبوا إلى أنّه ليس ابنه في الحقيقة فعلى قولين:

---

(١) انظر: محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تفسير القرآن، ٣٠ ج، (بيروت ــ لبنان: دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ١٢/ ٣٢؛ الإمام الفخر الرازي، التفسير الكبير ١٧/ ٢٣١؛ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٤ ج، (بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م) ٢/ ٤٤٨.

الأول: أنّه كان ابن امرأته. وقيل أنّه قول محمد بن علي الباقر والحسن البصري ومجاهد وابن جريج وعبيد بن عمير. وقد قالوا أنّه روي أنّ علياً رضي الله عنه قرأ: ﴿ونادى نوح ابنها﴾ والضمير لامرأته. وقرأ محمد بن علي وعروة بن الزبير (ابنهَ) بفتح الهاء يريدان (ابنها) إلا أنّهما اكتفيا بالفتحة عن الألف.

ويروى أنّ قتادة سأل الحسن عنه فقال: والله ما كان ابنه. فقال له: إنّ الله حكى عنه أنّه قال: ﴿إن ابني من أهلي﴾، وأنت تقول ما كان ابناً له، فقال له الحسن: لم يقل: إنّه منّي، ولكنه قال: من أهلي، وهذا يدل على قولي. وقالوا أيضاً: يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إنّه ليس من أهلك﴾.

وقد قال بعضهم: إنّ المراد بابنه: أي الذي ربّاه.

وأما القول الثاني: إنّه ولد على فراشه عن زنا، والقائلون بهذا احتجوا بقوله تعالى: ﴿فخانتاهما﴾[(١)].

وردّ الجمهور على القول الأوّل بما يلي:

أولاً: أن نسبة هذا القول إلى الحسن ومجاهد كما يزعم من قال مأخوذة من قول الطبرسي، وهو كذب صريح عليهما. ذكره الألوسي[(٢)].

ثانياً: وأمّا قراءة من قرأ (ابنها) أو (ابنـهَ) فهي قراءة شاذة غير متواترة فلا يعتد بها، ولا تعارض الصحيحة والثابتة. وإن قلنا بوجود هذه القراءة فرضاً؛ فإنّه أضيف إلى أمّه ولم يضف إلى أبيه لأنّه كان كافراً مثلها، واستبعاداً له[(٣)].

ثالثاً: ليس في قوله: ﴿إنّه ليس من أهلك﴾ دلالة على أنّه ليس بابنه، إذ قوله: ﴿ليس من أهلك﴾ محتملاً من المعنى: فالمراد ليس من أهل دينك، وحذفت كلمة

---

(١) انظر التفسير الكبير للفخر الرازي ١٧/٢٣٢؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٤٤٨.

(٢) أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ٣٠ج ،(بيروت ــ لبنان: دار إحياء التراث العربي) ١٨/٥٢.

(٣) انظر: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيّان الأندلسي الغرناطي، تفسير البحر المحيط، ٨ ج ، الطبعة الثانية (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ٥/٢٢٦.

الدين، كما قال تعالى: ﴿واسأل القرية التي كنّا فيها﴾[1].

رابعاً: وصرف اللّفظ إلى أنّه ربّاه، فأطلق عليه اسم الإبن لهذا السبّب هو صرفٌ للكلام عن حقيقته إلى مجازه من غير ضرورة وهذا لا يجوز[2].

وأمّا القول الثاني فرُدّ عليه بما يلي:

إنّ احتجاجهم بقوله: ﴿فخانتاهما﴾[3] احتجاج باطل؛ لأنّ الخيانة هنا ليست هي الزّنا فإنّ منصب الأنبياء مصون عن هذه الفضيحة، لا سيّما وهو على خلاف نصّ القرآن: ﴿الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبون للطيبات والطيّبات للطيبين... الآية﴾[4]، وكذلك قوله: ﴿الزّاني لا ينكح إلّا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلّا زانٍ أو مشرك وحُرّم ذلك على المؤمنين﴾[5]. فالمراد من الخيانة هنا الخيانة في الدين.

وقد قال ابن عبّاس، وغير واحد من السلف: «ما زنت امرأة نبيّ قط».

وقول ابن عبّاس وغيره في هذا هو الصواب؛ فإنّ الله أغير من أن يُمكّن من امرأة نبي هذه الفاحشة؛ ولهذا غضب الله على الذين رموا أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها ــ زوج النبي ﷺ ــ وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه ﴿إنّ الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرّاً لكم بل هو خير لكم، لكلّ امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولّى كبره منهم له عذاب عظيم ــ إلى قوله: إذ تَلقونَه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيّناً وهو عند الله عظيم﴾[6]. فمجموع هذه الأقوال يبيّن بُطلان احتجاجهم[7].

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري: ١٢/٣٢.

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي: ١٧/٢٣٢.

(٣) سورة التحريم: الآية ١٠.

(٤) سورة النور: الآية ٢٦.

(٥) سورة النور: الآية ٣.

(٦) سورة النور: الآيات ١١ ــ ١٥.

(٧) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ١٧/٢٣٢؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٤٤٨؛ =

وهكذا بالردّ على الرأيين يرجح أنّه ابنه حقيقة. والله أعلم.

* **أما المسألة الثانية**: فهي في اسم ابنه هذا، فالأكثر على أنّ اسمه «كنعان» والآخرون على أنّه (يام)[1]. وليس هناك طريق صحيح عن معصوم يُثبت أحدهما دون الآخر؛ ولكن قد يشير رأي الأكثرية على أنّ الرّاجح «كنعان» وعلى كلّ حال فإنّ الخلاف في اسمه لا يزيد ولا ينقص شيئاً من القصة، وما جاءت من أجله، فالمهم المسمّى في ذلك وحقيقة حاله، والعبرة ـ كما هو معلوم ـ بالمُسمّيات لا بالأسماء.

* وبعد الانتهاء من بيان هاتين المسألتين، نعود إلى نداء الأب الّذي يريد النّجاة لابنه ﴿ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بنيّ[2] اركب معنا ولا تكن مع الكافرين﴾ . . . ينادي نوح عليه السّلام ابنه عند ركوب السّفينة وقبل سيرها، وقد كان ابنه كافراً.

واستبعد كيف ينادي نوح عليه السّلام من هو كافر مع أنّه قال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً﴾؟ ويجاب عن هذا بأنّ ابنه كان منافقاً، فظنّ نوح أنّه مؤمن؛ ولذلك ناداه[3]. والله أعلم.

وكان هذا النداء في حالة كون ابنه في مَعزِل، «والمعزل في اللغة: هو الموضع المنقطع عن غيره. وأصله من العزل وهو التنحية والإبعاد. وقوله: ﴿وكان في معزل﴾ لا يدلّ على أنّه في معزل من أيّ شيء؛ فلهذا السّبب ذكروا وجوهاً:

الأول: إنّه كان في معزل من السّفينة لأنّه كان يظنّ أنّ الجبل يمنعه من الغرق.

= ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ٥ ج (بيروت: مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع) ٣/١٠٩.

(١) انظر: أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، زاد المسير في علم التفسير، ٩ ج ، الطبعة الثالثة (دمشق؛ بيروت: المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ٤/١٠٩.

(٢) اختلف في قراءة (يا بنيّ) فقرأ «عاصم» بفتح الياء، وقرأ الباقون بكسرها (أنظر: أبو زرعة عبد الرحمن بن زنجلة، حجة القراءات، الطبعة الثانية، تحقيق سعيد الأفغاني (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م) ص ٣٤٠.

(٣) انظر: محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ٥ ج (بيروت: دار المعرفة) ٢/٤٩٩.

الثاني: إنّه كان في معزل عن أبيه وإخوته.

الثالث: كان فيمعزل من الكفّار، كأنّه انفرد عنهم فظنّ نوح عليه السّلام أنّ ذلك إنّما كان لأنّه أحبّ مفارقتهم»[1].

ولكن ما هو جواب الابن الذي يرى من أبيه كلّ الشفقة والرّحمة على حاله؟ هذا ما تبيّنه لنا الفقرة التالية:

٢ ـ إعراض الابن عن نداء أبيه:

يظهر لنا هذا الإعراض من ابن نوح في قوله تعالى: ﴿قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾. ويعني بذلك أنّه لن يركب مع أبيه والمؤمنين في السفينة، وسيصير إلى جبل يتحصن به، ويحفظه بارتفاعه من الماء؛ وحينئذ يكون الجبل مانعاً له من الغرق. وهذا القول ـ بلا شك ـ إنما هو جهل منه؛ حيث اعتقد أنّ الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال، وأنّه لو تعلّق في رأس جبل لنّجاه ذلك من الغرق، كما ظنّ ذلك كسائر المياه المعتادة في أزمنة السّيول؛ التي ربما يتّقى منها بالصعود إلى مرتفع، وجهل أيضاً أنّ هذا إنّما هو عذاب للكفرة، وإهلاك لهم ولا بد أن يعمّهم ويدركهم ولو كانوا في قمم الجبال العالية[2].

واستدلّ الفخر الرّازي ـ رحمه الله ـ بقول ابن نوح هذا على أنّه كان متمادياً في الكفر مُصرّاً عليه مكذّباً لأبيه فيما أخبر عنه[3].

هكذا كان موقف الابن... إعراضٌ عن دعوة أبيه!

ولكن ما هو موقف الأب الصّالح نوح عليه السّلام تجاه ما سمعه من ابنه؟ إنه موقف الأب المسؤول المخلص المبيّن لحقيقة الموقف ويظهر لنا ذلك في قوله: ﴿قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم﴾ بمعنى أنّه لا مانع اليوم من أمر الله الذي قد نزل بالخلق من الغرق والهلاك إلا من رحمه الله فأنقذه منه، لأنّه هو سبحانه الذي

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي: ١٧/٢٣٢.

(٢) انظر: جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري ١٢/٢٨؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٤٤٦.

(٣) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ١٧/٢٣٢.

يمنع من يشاء من خلقه ويعصم[1].

* أمّا التعبير عن الطّوفان بأمر الله فهو لأسباب منها ما يلي:

١ ــ تفخيماً لشأنه وتهويلاً لأمره.

٢ ــ تنبيهاً لخطأ ابن نوح في تسميته ماءً كسائر المياه.

٣ ــ تعليلاً للنفي المذكور فإنّ أمر الله لا يُردّ ولا يُغلب.

٤ ــ تمهيداً لحصر العصمة في جناب الله عزّ جاره[2].

وبعد هذه الكلمات السريعة من نوح لابنه يأتي الموج فيحسم الموقف ويُبيّن نتيجة الإعراض ﴿وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾ أي من الكفرة الذين حقّ عليهم الغرق والهلاك.

وتتميماً لبيان الحال آنذاك، وإسدالاً للستار على مشهد المعارضين لدعوة الله يقول سبحانه: ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجوديّ وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾. والمعنى: أنّ الله قال للأرض ــ بعد ما تناهى أمره في هلاك قوم نوح بما أهلكهم به من الغرق ــ يا أرض تشّربي الماء الذي عليك، ويا سماء أمسكي عن إنزال الماء.

ونلاحظ هنا أنّ السماء والأرض خوطبتا كأنهما تعقلان، وتوضيح ذلك: أنّ الأمر هنا أمر إيجاد لا أمر إيجاب، فلا يشترط فيه فهم ولا عقل؛ لأن الأشياء منقادة لله عزّ وجلّ[3] ومنه قوله تعالى: ﴿إنّما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ [النحل: ٤٠]. (والماء المراد بلعه هو ما على وجه الأرض من ماء الطّوفان، دون المياه المعهودة فيها من العيون والأنهار. وعبّر عنه بالماء هنا بعدما عبّر فيما سلف بأمر الله تعالى؛ لأن المقام مقام النقص والتقليل لا مقام التفخيم والتهويل)[4]. وبعد هذا الأمر

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ١٢/٢٨ ــ ٢٩.

(٢) روح المعاني للألوسي: ١٢/٦١.

(٣) انظر: أبو يحيى زكريا الأنصاري، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد علي الصّابوني (بيروت: دار القرآن الكريم، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ص ٢٦٥.

(٤) أبو السعود محمد بن محمد العمادي، تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ٩ ج (بيروت: دار إحياء التراث العربي) ٤/٢١١.

الإلّهي تأتي الطاعة الفوريّة ﴿وغيض الماء﴾ أي (ذهبت بـه الأرض ونشفته)[1] وبذلـك تمّ أمر الله وكمل ومضى بهلاك قوم نوح المكذبين، وأتبعه بنجاة أهـل الإيمان ﴿وقضي الأمر واستوت على الجودي﴾.

والجـوديّ: هـو اسم للجبـل الـذي رست عليـه سفينـة نـوح (وهـو بـالمـوصـل أو الجزيرة من أرض العراق)[2] (ويقال أكرم الله ثلاثة جبال بثلاثة نفـر: الجودي بنـوح عليه السّلام، وطور سيناء بموسى عليه السّلام، وحراء بمحمد ﷺ)[3].

وفي هذه الأثناء يصدر الحكم الإلّهي بشأن الكفرة الذين ظلموا أنفسهم بعدم اتباعهم الهـدى؛ وظلموا غيـرهم لصرفهم عن دين الله ﴿وقيـل بعداً للقـوم الـظالمين﴾. (وهي جملة مختصرة حاسمة معبّرة عن جوّها أعمق تعبيـر. بعداً لهم من الحيـاة فقد ذهبـوا، وبعداً لهم من رحمة الله فقد لعنوا وبعداً لهم من الذاكرة فقد انتهوا وما عادوا يستحقّون ذكراً ولا ذكرى!)[4].

وإنها لنهاية مخزية، وتلك نهاية كل من أعرض عن هدى الله وشرعه ونوره.

٣ ــ سؤال نوح عليه السلام ربّه في شأن ابنه:

يفاجأ نـوح عليه السـلام بما حصـل لابنه من الغـرق، فيدعـو الله سائـلاً إياه عن سبب غرقه، مع أنّه من أهله الذين وعد بنجـاتهم؛ وقد ظنّـه من أهله المؤمنين ﴿ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإنّ وعدك الحق وأنت أحكم الحـاكمين﴾. وهذا الدعاء ليس من باب الاعتراض على الله، فحاشا لنبـيّ كنـوح عليه السـلام أن يعترض على أمر الله، بل هو سؤال استعلام وكشـف منـه عن حال ولـده الذي غـرق، أي كيف غرق ابني وهو من أهلي الذين وعدتني بنجاتهم[5].

---

(١) جامـع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري: ١٢/ ٢٩.

(٢) المرجـع السابق: ١٢/ ٢٩.

(٣) أبـو عبد الله محمـد بن أحمد الأنصـاري القرطبـي، الجـامـع لأحكام القـرآن ٢٠ ج، الـطبعة الثانية (بيروت: دار الكتاب العربـي، ١٩٥٢م) ٩/ ٤٢.

(٤) سيـد قطب، في ظـلال القرآن، ٦ ج، الطبعـة السادسـة (بيـروت، القـاهـرة: دار الشـروق، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م) ٤/ ١٨٧٩.

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٢/ ٤٤٧.

والوعد من الله في إنجاء أهله المؤمنين قد جاء في قوله: ﴿فإذا جاء أمرنا وفار التنّور قلنا احمل فيها من كلٍ زوجين اثنين وأهلك إلاّ من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل﴾[1].

فقوله: ﴿وإنّ وعدك الحق﴾ معناه: إن كان وعدٌ تعده فهو الحقّ الثابت الذي لا شك في إنجازه والوفاء به، وقد وعدتّني أن تنج أهلي فما بال ولدي لم يكن من الناجين؟.

وختم دعاءه هذا بالاعتراف لله بحكمته وعدله؛ حتى لا يظنّ أنّ سؤاله للاعتراض على الله. وذلك قوله: ﴿وأنت أحكم الحاكمين﴾، (أي: أعلم الحكّام وأعدلهم؛ لأنّه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل)[2].

٤ ـ جواب العدل والحقّ من الله لنوح:

بعد هذا السؤال الاستعلامي من نوح عليه السلام يجيبه الله عزّ وجلّ جواب الحقّ والعدل: ﴿قال يا نوح إنّه ليس من أهلك إنّه عَملٌ غير صالح فلا تسئلن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾. فإنّ هذا الولد ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم؛ لأنّه كان لدينك مخالفاً ﴿إنّه عملٌ غير صالحٍ﴾[3]. وهذه الجملة تعليل لانتفاء كونه من أهله، وفيه إيذان بأنّ قرابة الدين غامرة لقرابة النسب، وجُعِل ذاته عملاً غير صالح، مبالغة في ذمّه، وقيل أيضاً: لكثرة إساءته، ومداومته على الفساد.

وقد قيل: إنّ الضمير في قوله: ﴿إنّه عمل غير صالح﴾ يرجع إلى سؤال نوح عليه السلام ربه[4].

---

(١) سورة هود: الآية ٤٠.

(٢) أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٤ ج (بيروت: دار المعرفة) ٢/٢٧٢.

(٣) قرأ الكسائي: ﴿إنه عَمِلَ غيرَ صالحٍ﴾ بنصب اللام والراء، وقرأ الباقون: ﴿عملٌ غيرُ صالحٍ﴾ بفتح الميم وضمّ اللام والراء (انظر: حجة القراءات لابن زنجلة ص ٣٤١ ـ ٣٤٢).

(٤) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ١٢/٣٢ ـ ٣٣؛ الكشاف للزمخشري ٢/٢٧٣؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ١٨/٣؛ روح المعاني للألوسي ١٢/٦٩.

وأقول: إنّ الرّاجح ما ذهبنا إليه أولاً من أنّ الضمير يرجع إلى ابنه؛ وذلك لأنّه لا يصح نسبة الفساد إلى نبيّ من الأنبياء، كيف وهو من أولي العزم من الرسل! ويؤيد كلامنا: القراءة الثانية التي قرأ بها الكسائي: ﴿إنّه عَمِلَ غيرَ صالحٍ﴾ بالنّصب، فالضمير هنا لا محالة راجع إلى ابن نوح، وقراءته سبعية متواترة يحتج بها.

ـ وطرح بعض المفسرين سؤالاً حول هذه الجملة فقالوا: لم أبدل فاسداً بغير صالح؟ وأجيب عنه: إمّا لأنّ الفاسد ربّما يطلق على ما فسد ومن شأنه الصّلاح فلا يكون نصاً فيما هو من قبيل الفاسد المحض كالمظالم؛ وإمّا للإشارة بأنّ نجاة من نجا إنّما هو بسبب صلاحه[1].

ـ وبعد أن بيّن الله لنوح حقيقة حال ابنه، نهاه عن مثل هذا السؤال ﴿فلا تسألن[2] ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾.

ـ وهو نهي فيه عتاب من الله لنبيّه بكلّ رفق وتلطّف، وكأن الله يقول له: إنّ مقامك عظيم فشأنك أن لا تسأل مثل هذا السؤال الذي لا تعلم أصواب هو أم لا؛ أو لا تعلم ما هي عاقبته ومآله، وهل يكون خيراً أو غير ذلك، وإني أعظك وعظاً تكون به من الكاملين وتنجو به من صفات الجاهلين. ويقول ابن العربي ـ حول هذا المعنى ـ: وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين ويعليه إلى مقام العلماء والعارفين[3].

---

(١) انظر: روح المعاني للألوسي ٦٩/١٢.

(٢) قرأ ابن كثير (فلا تسألنّ) بفتح النون مع التشديد، وقرأ أهل المدينة ﴿فلا تسألنّي﴾ بتشديد النون مع الياء، وقرأ قالون عن نافع وابن عامر (فلا تسألنِّ) مكسورة النون مشددة من غير ياء، وقرأ أبوعمرو (فلا تسألني) بتخفيف النون وسكون اللام مثبتة الياء، وقرأ أهل الكوفة ﴿فلا تسألنِ﴾ خفيفة النون محذوفة الياء (انظر: حجة القراءات لابن زنجلة ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤).

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤٨/٩؛ تفسير البيضاوي ١١٠/٣؛ أحمد الصاوي المكي، حاشية الصاوي على الجلالين (بيروت: دار إحياء التراث العربي) ٢١٧/٢؛ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، تحقيق محمد =

وليس ما قاله الله تعالى لنوح عليه السلام فيه قدحٌ بعصمة الأنبياء كما ذكر بعضهم، إنّما يحمل هذا العتاب على ترك الأولى، وحسنات الأبرار سيئات المقرّبين(١).

٥ ـ إعتذار نوح عليه السلام واستغفاره:

لمّا عوتب نوح عليه السلام رجع على نفسه باللّوم والنّدم ممّا وقع منه، وسأل الله المغفرة والرّحمة: ﴿قال ربّ إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم، وإلاّ تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾.

ونلاحظ هنا أنّه بدأ اعتذاره بالاستعاذة بالله، مبالغة في التوبة وإظهاراً للرغبة والنشاط فيها، وتبركاً بذكر ما لقّنه الله تعالى، وهو أبلغ من أن يقول: أتوب إليك أن أسألك؛ لما فيه من الدلالة على كون ذلك الأمر هائلاً محذوراً لا محيص منه إلاّ بالاستجارة بالله تعالى، وأنّ قدرته قاصرة على النجاة من المكاره إلاّ بذلك.

وبعد استجارته بالله طلب منه المغفرة والتوبة على ما صدر منه من السؤال.

وأخيراً ختم اعتذاره برجائه الله أن يقبل هذا الاعتذار والأسف، وإلاّ سيكون من الذين خسروا أعمالهم(٢).

٦ ـ أمان الله وبركته على نوح والمؤمنين:

وقَبِل الله اعتذار نوح عليه السلام، ومنّ عليه بعد ذلك بنعم عظيمة يوضّحها قوله: ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منّا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك... الآية﴾.

وقوله: ﴿اهبط﴾ تحتمل معنيين:

= زهري النجار، ٨ ج، الطبعة الأولى (الرياض ـ المملكة العربية السعودية: طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ١٤٠٤هـ) ٣/٤٢٧.

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ١٨/٤.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود ٤/٢١٣.

الأوّل: النزول من الجبل إلى الأرض المستوية؛ لأن الله أخبر من قبل أن السفينة استوت على الجوديّ، وفي تلك الأثناء خرج نوح ومن معه من السفينة.

الثاني: النزول من السفينة إلى أرض الجبل. والأول أرجح لمناسبته طبيعة الحال. والله أعلم.

– وأمّا أولى النعم فهي السلامة والمقصود بها الأمن. والوعد بالأمن من الله يحتمل وجهين:

الوجه الأول: أنّه تعالى أخبر في الآية المتقدمة أنّه تاب عن زلته، فكان نوح محتاجاً إلى أن يبشره الله بالسلامة من عدم رضاه سبحانه عليه، فلمّا قيل ﴿يا نوح اهبط بسلام منّا﴾ حصل له الأمن من جميع المكاره المتعلقة بالدين.

والوجه الثاني: أنّ ذلك الطّوفان لمّا كان عامّاً في جميع الأرض، وعلم نوح من ذلك أنه ليس في الأرض ما ينتفع به من النبات والحيوان، كان كالخائف في أنّه كيف سيعيش وكيف سيدفع جميع الحاجات عن نفسه من المأكول والمشروب، فقال له الله: ﴿يا نوح اهبط بسلام منّا﴾، فحين ذلك زال عنه الخوف؛ لأن هذه الكلمات الرّبانية تدل على حصول السلامة من الآفات، ولا يكون ذلك إلّا مع الأمن والسعة في الرّزق[1].

أقول: ويمكن الجمع بين الوجهين ولا منافاة بينهما؛ إذ أنّ السلامة ــ كما هو معلوم ــ مطلوبة في أمر الدين والدنيا معاً من قِبل المؤمنين.

– وهذا السلام ليس خاصاً بنوح ومن معه من المؤمنين، بل بكل مؤمن صادق الإيمان إلى أن تقوم الساعة ﴿وأمم ممن معك﴾. يقول محمد بن كعب القرظي: دخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة[2].

– وأمّا النعمة الأخرى فهي البركة ﴿وبركات عليك وعلى أمم ممن معك﴾. والبركة هي ثبوت الخير ونماؤه وزيادته.

---

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ١٨/٦ ــ ٧.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٤٤٨.

وللبركة هنا معنيان:

الأول: إنّ الله سبحانه جعل ذريّته هم الباقين إلى يوم القيامة، فكل العالم من ذرّيّة أولاده الثلاثة، ولم يُعقّب من كان معه في السفينة غيرهم[١]. وهذا المعنى يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وجعلنا ذرّيّته هم الباقين﴾[٢]، وكذلك قول النبي ﷺ «سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الرّوم»[٣].

وقد قيل: إن نوحاً ـ عليه السلام ـ آدم الأصغر، أو أبو البشر الثاني؛ لأنّ جميع من بقي كانوا من نسله[٤].

الثاني: وهو شامل للخيرات النّامية في نسل نوح عليه السلام، وما يقوم به معاشه ومعاشهم من أنوع الأرزاق[٥].

أقول: والمعنى الثاني أولى، لشموله معنى البركة في كلّ شيء، وهو المناسب لظاهر القرآن إذ لم يُنصّ في الآية تخصيص البركة بالذّريّة فقط؛ وإضافة على هذا فإنّ زيادة الذرّيّة ونماءها تتطلب نماء كلّ شيء ـ وزيادته وفيضانه ـ من الخيرات والأرزاق. والله أعلم.

وهذه النعم إنما تخصّ المؤمنين من ذرية ـ نوح عليه السلام ـ دون المخالفين لشرع الله والمعارضين لدعوته؛ لأنّه سيكون لهؤلاء متاع في الدنيا، ثم عذاب أليم في الآخرة جزاء مخالفتهم ﴿وأمم سنمتعهم ثم يمسّهم منّا عذاب أليم﴾ فهذا الانجاء ليس

---

(١) انظر: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن، تفسير لباب التأويل في معاني التنزيل، ٧ ج ، الطبعة الأولى (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) ٣/٢٣٦.

(٢) سورة الصافات: الآية ٧٧.

(٣) رواه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب: ٣٨، حديث: ٣٢٣٠ ـ ٣٢٣١، وقال عنه الترمذي: وهذا حديث حسن غريب (أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، الجامع الصحيح ـ سنن الترمذي، ٥ مج (بيروت: دار إحياء التراث العربي) ٥/٣٦٥، تحقيق وتعليق: إبراهيم عطوة عوض)؛ الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد: ٢٠/٣٩ (أحمد بن عبد الرحمن البنا، الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد (القاهرة: دار الشهاب).

(٤) التفسير الكبير للفخر الرازي: ١٨/٧٢٦.

(٥) انظر: تفسير أبي السعود ٤/٢١٥.

بمانـع أنّ من كفر بعـد ذلك من ذريـة أولاد نوح، أن يَحـلّ بهم عقاب الله وإن وجـدوا من المتـاع في الدنيـا ما وجـدوا فإنهم سيؤخـذون بعد ذلـك أخـذ عـزيـز مقتـدر على ما فرّطوا(١).

وهـذه الآية هي أبـدع نهـايـة لهـذه القصّـة التي بـدأت بين الأب المؤمن والابن الكافر. . . النهاية التي تصوّر حقيقة الرّابطة بين فرد وفرد، وبين جيـل وجيل. . . إنهـا العقيـدة الواحـدة التي تـربط المؤمنين كلّهم في إلـه واحـد، وربّ واحـد، يلتقّـون في الدّينونة بلا منازع ولا شريك(٢).

* * *

(١) انظر: تفسير الشيـخ عبد الرحمن بـن ناصر السعدي ٣/٤٢٨.

(٢) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/١٨٨١.

الفصل الثاني

العِبَر والفوائد

أولاً ـ العبر والفوائد من نداء نوح عليه السلام لابنه:

١ ـ نلاحظ في قوله تعالى: ﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال﴾ فوائد عدّة أهمّها ما يلي:

* قمة التصوير الإلهي في رسم حالة الرّعب والهول الشديدين في إهلاك المجرمين الكافرين... التصوير الذي يُظهر عظم قدرة الله تبارك وتعالى وجبروته وعزّته وانتقامه من الجبّارين المتكبرين؛ ممّا يحذّر من يأتي بعد هؤلاء ـ ويسمع ما حصل بهم ـ أن لا يقفوا في جانب المعاداة لله ولرسله ولأوليائه.

* حالة المؤمنين من الثبات والاطمئنان والثقة بالله تعالى، وعدم خوفهم من الغرق، وهم في سفينة بسيطة بين أمواج عظيمة كالجبال في ارتفاعها وامتدادها، وهم بينها كأنّهم في واد سحيق، ولكن هي ثقة أولياء الله بحماية الله ورعايته لهم ﴿... ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[١]، وما دام الله قد وعد بالنجاة فلا بدّ من الاطمئنان، والثقة ـ كل الثقة ـ بوعده سبحانه ﴿... ومن أوفى بعهده من الله...﴾[٢].

وهذه الحالة التي ينبغي أن يكون عليها كلّ مؤمن بالله حقاً، في ثقته واطمئنانه وتوكّله على الله فإنّه: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه...﴾[٣].

(١) سورة يونس: الآية ٦٢.

(٢) سورة التوبة: الآية ١١١.

(٣) سورة الطلاق: الآية ٣.

* سنة الله في وجوب اتخاذ الأسباب والوسائل من قِبل عباده المؤمنين؛ فالله قد حكم بنجاتهم ولكن مع ذلك أرشدهم إلى فعل أسباب النجاة، مع أنّ الله قادر على أن يهلك من خالف نوحاً بأيسر السبل. مثل إرسال طير أبابيل أو صواعق تحرقهم أو رياح تدمّرهم أو غير ذلك، وقادر أيضاً سبحانه أن ينجيهم بدون سفينة.

ولكن هي الأسباب الواجبة، ولتتحقق العبرة من الطرفين، فلو كان بغير ذلك لما تحققت العبرة المطلوبة. والله أعلم.

ويذكرني هذا الموقف بحادث هجرة النبيّ ﷺ، فالله كان قادراً على أن يظهره فضلاً عن أن يوصله إلى المدينة بطريقة أو بأخرى ـ بمثل ما حدث في الإسراء والمعراج ـ ولكنّه ﷺ أخذ بالأسباب وخطّطَ لهجرته ـ كما هو معلوم ـ واتخذ جميع التدابير اللازمة كما لو كان النجاح متوقفاً على هذا التخطيط وتلك التدابير والوسائل، ثم اعتمد على خالق الأسباب سبحانه وتعالى، وهكذا أحداث السيرة النبوية كلّها من القيام بالغزوات وغيرها. . . إلخ، وإنما هي سنّة الأسباب الواجبة الأخذ، ولتتحقق العِبر والدروس لمن جاء من بعد على مرّ الأزمان.

٢ ـ وفي نداء نوح عليه السلام لابنه بكلمة (يا بنيّ) فائدة جليلة؛ إذ أنّ نداءه بالتصغير «فيه تحنن ورأفة ورحمة»[(١)]، وبهذه الكلمة يستجيش فيه عاطفة البنوّة لعلّه يهتم لندائه وينتبه لما يقال له ويستمع ثم ينتفع وتكون الاستجابة المطلوبة.

وهذا الأسلوب في ابتداء الخطاب مع الأبناء بهذه الكلمة هو من الحكمة بمكان في تربية الأبناء، فعلى الآباء والمربين أن يخاطبوا أبناءهم ـ وإن كانوا على خطأ ـ بالألفاظ التي يستجيشون بها مشاعرهم، وأن يشعروهم بحنانهم ورأفتهم بهم، لعل هذا ـ يجعل منهم آذاناً صاغية فيلبّون ويطيعون.

ومن هنا ـ أيضاً ـ يأخذ الداعية إلى درساً وعبرة، وذلك بأنّ عليه أن يخاطب مدعوّيه بما يظهر لهم فيه مودّته لهم، وشفقته عليهم، وبما يؤثر فيهم ويُحرّك عواطفهم، وليناديهم بأحب الأسماء إلى قلوبهم؛ لعلهم يسمعون فيجيبون ويهتدون. وهذا من الحكمة ـ ولا شك ـ في باب الدعوة إلى الله ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيّان: ٥/٢٢٦.

والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إنّ ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾[1].

٣ ـ إنّ موقف نوح عليه السلام مع ابنه يلاحظ من ناحيتين:

أوّلها: من حيث كونه أباً، فواجبه يحتم عليه النصيحة لابنه، ولآخر لحظة في حياته؛ حتى لا يعاتبه الله على فساد ابنه وضلاله. وذلك يدل عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾[2]. ويدل على هذه المسؤولية أيضاً قول النبي ﷺ: «... كلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيّته... الحديث»[3].

ثانيها: من حيث كونه داعية إلى الله، فواجبه الدّعوي يحتّم عليه أن لا يفتأ عن الدّعوة إلى الله ولآخر لحظة من لحظات إمكان التبليغ؛ فلعلّ نداءه الأخير هذا يصل إلى (مكان الإيمان من قلب مدعوّه فيؤمن، أو يلمس ناحية الشعور فيه فيذعن)[4].

وهذا ـ بلا شك ـ دليل على قمة الإصرار في تبليغ دعوة الله؛ وفي أصعب الظروف وأحرج الأوقات، وها هو ذا عليه السلام وفي آخر اللحظات وعند ظهور علامات الطوفان يدعو ابنه.

ثانياً ـ العبر والفوائد من إعراض ابن نوح عن دعوة أبيه:

١ ـ يَمْثُل أمامنا في هذا الموقف شخصيتان اثنتان: شخصية ذلك الأب

---

(١) سورة النحل: الآية ١٢٥.

(٢) سورة التحريم: الآية ٦.

(٣) رواه البخاري: كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، حديث: ١٨ (محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري (بيروت: عالم الكتب، الطبعة الرابعة: ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ٢/٣٣).

(٤) محمد أحمد جاد المولى، قصص القرآن (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م) ص ١٩ ـ ٢٠.

الملهوف على نجاة ابنه وردّه إلى الحقّ والصّواب، وشخصية الولد العاقّ لأبيه؛ حيث إنّه كذّب بما جاء من الحقّ وكفر به ولم يثق بما أخبره به.

فالأب نوح عليه السلام كان مثالاً للأب المؤمن الذي عرف واجبه تجاه ابنه والابن (كنعان) كان مثالاً للولد العاقّ الكافر الذي خالف أباه في دعوة الإيمان وكذّبه، ونافق في ذلك، ولم يعرف حقّ طاعة أبيه فكان من الخاسرين.

وانطلاقاً من هذا التصوير يستشعرالإنسان عظم الموقف، أب مؤمن بل نبيّ من الأنبياء، وابن ليس قد ارتكب معصية من المعاصي فحسب، بل ارتكب أعظمها وهي الكفر بالله.

ولا يمكننا القول بأنّ نوحاً عليه السلام قد فرّط في تربية ابنه على الإيمان فحاشا لنبي الله أن يهمل هذا الأمر المهمّ، بل إن ابنه ليَجِدُ منه أكثر ممّا يجد غيره من الاهتمام، وقد لاحظنا اهتمامه بابنه وهو في آخر اللحظات وهذا يدل على قولنا. ولكن القول الصحيح أنّ البيئة الكافرة الغالبة آنذاك، كان لها أثر في شخصية هذا الولد، فتأثّر بها، وبعداً عن لوم أبيه لم يظهر كفره بل نافق فأظهر الإيمان وأبطن الكفر ـ وقد ذكر بعض المفسرين أن الناس في عهد نوح كانوا على ثلاثة أصناف: صنف كافر مظهر لكفره، وصنف مؤمن، والصنف الثالث منافق ـ ويضاف إلى عامل البيئة الخارجية وجود زوجة نوح الكافرة، وقد تكون هي أمّاً لذات الولد نفسه، وبالتالي قد يكون لها أثر في كفره، وهذا لا يستبعد، بل قد يكون عاملاً مهماً في نشأة الولد على غير دين أبيه الصحيح.

وهكذا فإنّ وجود هذين العاملين المؤثرين قد يصرف الولد عن اتباع نهج أبيه ـ إن لم يختر طريق الهدى والحقّ ـ مع ما يبذله الأب من جهد في تربيته، فالابن هنا يتلقى من أبيه مبادىء الإيمان، ويتلقى من الطرف الآخر في البيت ـ الطرف صاحب العطف والحنان الزائدين (الأم) ـ مبادىء الكفر والضلال، وكذلك يتلقاها من البيئة الكافرة المحيطة. وهذا ممّا ينبت الشكّ في دين أبيه المؤمن، ومن معه من القلة، ومن شكّ إلى ظلام دامس وكفر بالله.

وليس معنى هذا أنّ من كان في حالة مماثلة لابن نوح كان هذا مصيره

وهو الكفر، إنّما هو الاختيار، بل إنّ الغالب في أبناء الأنبياء والرسل أن يكونوا على دين آبائهم. والله أعلم.

وأخلص مما تقدم ذكره بتوجيهات عامة نستلهمها من هذا الموقف:

* إنّ على الآباء أن يحرصوا على اختيار الزوجات الصالحات لما لهن من كبير الأثر على الأولاد ونشأتهم، ويتبع هذا من يُربين الأولاد.

* إنّ على الآباء توفير البيئة الصالحة لأولادهم، وملاحظة أولادهم فيمن يصحبون ويجتمعون بهم، لما للبيئة من عظيم الأثر في ما يعتنقه الأولاد من المبادىء والأفكار.

* إنّ على الآباء أن يهتموا منذ الصغر على توجيه أبنائهم التوجيه الإيماني الصحيح حتى يشبّوا على الالتزام به والدعوة إليه.

* إنّ على الأبناء طاعة آبائهم الصالحين فيما يأمرونهم به من الإيمان بالله وطاعة الله عزّ وجلّ واتباع سنة نبيهم محمد ﷺ.

٢ ــ وإنّ موقف نوح عليه السلام مع ابنه ليذكّرني بموقف بعض الآباء والأمهات الذين أسلموا في عهد النبي ﷺ بمكة، مع أولادهم الذين أبوا إلّا الكفر والضلال، وقد أنزل الله فيهم قرآناً يبيّن حالهم هذا. وذلك في قوله ﴿والذي قال لوالديه أفٍ لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إنّ وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأوّلين. أولئك الذين حقّ عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجنّ والإنس أنهم كانوا خاسرين﴾[1].

---

(١) سورة الأحقاف: الآيتان ١٧ ــ ١٨.

والصحيح أنّ سبب نزول هاتين الآيتين في بعض الآباء والأمهات الذين أسلموا بمكة ولم يسلم أبناؤهم فدعوهم إلى الإسلام.

أمّا من زعم أنّها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصدِّيق (رضي الله عنه) فقوله ضعيف، لأنّ عبد الرحمن أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وكان من خيار أهل زمانه، كما أنّ الله قد أثبت الخسران لمن ذكر في الآخرة وهذا لا ينطبق عليه رضي الله عنه، وممّا يؤيّد هذا أنّ البخاري قد روى في صحيحه عن يوسف بن ماهك، قال: كان مروان على الحجاز استعمله معاوية، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية، لكي يبايع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً، فقال: =

فهما ــ كما نلاحظ ــ يدعوانه إلى الإيمان والإقرار ببعث الله عباده ومجازاتهم على أعمالهم، وهو يقول لهم: قذراً ونتناً لكم أتعدانني أن أخرج من قبري بعد فنائي وبلائي؛ ولو كنت مبعوثاً لكان قد بعث من هلك قبلي من القرون.

وإن قولهما: ﴿ويلك آمن إنّ وعد الله حق﴾ يشبه قول نوح لولده: ﴿يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين﴾ وقوله: ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾. وكانت نهاية أولئك الأبناء الذين كذّبوا وأبوا الإيمان بأن حقّ عليهم القول أنهم خاسرون في الآخرة ولا محالة، وهذا يشبه قوله عزّ وجلّ: ﴿إلاّ من سبق عليه القول... الآية﴾[1].

ــ ومرّة أخرى نقف ــ هنا ــ أمام مشهد الولد العاق وهو يجحد برّ أبويه أوّل ما يجحد، فيخاطبهما بالتأفف الجارح الخشن الوقح، ثم يجحد الآخرة بالحجة الواهية... والوالدان يريان الجحود ويسمعان الكفر ويفزعان ممّا يقوله الولد العاق لربّه ولهما، ويرتعش حسّهما لهذا التهجّم والتطاول، ويهتفان به أن آمن... وهذا أعظم إحسان يصدر منهما لولدهما أن يدعواه إلى ما فيه سعادته الأبدية... وهما بذلك يبذلان غاية جهدهما ويسعيان في هدايته أشدّ السعي، حتى أنّهما من حرصهما عليه يستغيثان الله له استغاثة الغريق[2].

= خذوه. فدخل بيت عائشة رضي الله عنها، فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إنَّ هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿والذي قال لوالديه أف لكما...﴾ الآية. فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلاّ أنّ الله أنزل عُذري (كتاب التفسير حديث: ٣٢٣). وهذا نص صريح في ذلك. وإضافةً إلى ما سبق فإنّ (الذي) هنا بمعنى (الذين)؛ لأنها مبتدأ خبرها (أولئك) والإخبار عن لفظة الذي بصيغة الجمع صريح في أنّ المراد بالذي العموم لا الإفراد. والله أعلم (انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨/٢٣ ــ ٢٤؛ تفسير الخازن ٦/١٦٠ ــ ١٦١؛ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ١٠ مج (المملكة العربية السعودية: طبع على نفقة الأمير أحمد، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) ٧/٣٨٧؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/١٥٨ ــ ١٥٩).

(١) سورة هود: الآية ٤٠.

(٢) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٦/٣٢٦٣ ــ ٣٢٦٤؛ تفسير عبد الرحمن السعدي ٧/٤٨ ــ ٤٩.

وإنها للأبوة الرفيقة المشفقة على أولادها... وهكذا كان المثال في أوّل الأمم، ونجده هنا في آخرها؛ وذلك لأنّ الإيمان هو الإيمان، والكفر هو الكفر، وصورهما تتكرر في كل زمان ومكان.

والفطن من اتخذ من مواقفهما العبر واتعظ.

٣ ـ ونقف ـ هنا ـ مع قول نوح لابنه: ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾؛ لنطّلع على عِظَم الأسلوب الذي سلكه نوح عليه السلام في هذا الخطاب بهدف ردّ ابنه إلى حظيرة الإيمان:

إنّه سلك في قوله هذا طريقة نفي الجنس المنتظم لنفي جميع أفراد العاصم، ذاتاً وصفة، للمبالغة في نفي كون الجبل عاصماً بالوجهين المذكورين، وزاد (اليوم) للتنبيه على أنّه ليس كسائر الأيّام التي تقع فيها الوقائع وتلمّ فيها الملمّات المعتادة التي ربّما يتخلص منها بالالتجاء إلى بعض الأسباب العادية.

وعبّر عن الماء في محل إضماره بأمر الله ـ أي عذابه الذي أشير إليه ـ؛ تفخيماً لشأنه وتهويلاً لأمره وتنبيهاً لابنه على خطئه في تسميته ماءً لوهمه أنّه كسائر المياه التي يُتفصّى منها بالهرب إلى بعض المهارب المعهودة، وتعليلاً للنفي المذكور، فإنّ أمر الله لا يغالب ولا يرد، وتمهيداً لحصر العصمة في جناب الله عزّ جاره بالاستثناء، كأنه قيل: ﴿لا عاصم من أمر الله إلاّ هو﴾.

وإنما قيل: ﴿إلا من رحم﴾ تفخيماً لشأنه الجليل بالإبهام ثم التفسير، وبالإجمال ثم التفصيل، وإشعاراً بعليّة رحمته في ذلك بموجب سبقها على غضبه.

وكلّ هذا لكمال عنايته عليه السلام بتحقيق ما يرجوه من نجاة ابنه، ببيان شأن الهلاك وقطع أطماعه الفارغة وصرفه عن التعلل بما لا يغني عنه شيئاً، ومن ثمّ إرشاده إلى الاعتصام بالحق عزّ حماه، وباللجوء إليه سبحانه[1].

وهذا الأسلوب الذي سلكه نوح عليه السلام مع ابنه ـ فيه إشارة للآباء والمربين والدعاة إلى الله، أن يسلكوا مع مدعوّيهم ـ من الأبناء وغيرهم ـ أفضل الأساليب، مع

---

(١) انظر: نفسير أبـي السعود ٤/٢١١.

تنوعها واختلافها وتدرّجها، حتى تكـون أبعد أثـراً وأعمق تأثيـراً، وتكون بـالتالي أدعى لاستجابتهم عاجلاً أو آجلاً.

٤ ــ ومن قـوله: ﴿وقيـل يـا أرض ابلعي مـاءك ويـا سمـاء أقلعي وغيض المـاء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ نستفيد ما يلي:

* إنّ من كمال تصوير العبرة أن تُجعل هذه الآية الكريمة بعد الآيـة التي قبلها، من غير أن تكمل قصـة نوح مـع ابنه ومنـاجاتـه لربّـه، فظاهـر الترتيب أن تُجعـل الآيات: (٤٥ ــ ٤٦ ــ ٤٧) بعد الآية (٤٣)، ووجه هذا التقديم والتأخيـر بينهما: هـو أن قدّمت الآية المتمّمة لأصل القصة المبيّنـة لوجـه العبرة منهـا بأروع التعبيـر الذي يقـرع أبواب القلوب بأبلـغ قوارع التأثير، فالآية (٤٣) تصوّر لقارئهـا عظمـة الطوفـان بأعـظم الصور هولاً ورعباً، ثم تتلوها الآية (٤٤) فتكون الفاصلة بكشف ذلك الكرب العظيم بكلمتين موجزتين من كلمات التكوين الإلهي قضي بهما الأمر بنجاة المؤمنين وهلاك الكافرين، ولو فصل بينهما بهذه الآيات الثلاث اللّاتي وضعن بعدهما لضاع تسعـة أعشار بـلاغتها وتأثيرهما في العبرة والموعظة المقصودة من القصة[1].

* إنّ هذه الآية الكريمة تدلّ على عظمة الله وعلوّه وكبريائه؛ فكـلّ كلمة فيهـا تشير إلى ذلك.

وأوّل هذه الكلمات قوله: (وقيل) فإنها تدلّ على أنّـه سبحانـه في الجلال والعلوّ والعظمة؛ بحيث أنّه متى قيل: (قيل) لم ينصرف العقل إلاّ إليه، ولم يتوجه الفكر إلاّ إلى ذلك القائل هو هو سبحانه. وهذا التنبيه جاء من هذا الـوجه؛ لأنـه قد تقرر في العقول أنّه لا حاكم في العالمين ولا متصرف في العالم السفلي والعلوي إلاّ هو سبحانه.

وثانيها ــ قوله: ﴿يا أرض ابلعي ماءك ويـا سماء أقلعي﴾؛ فـإنّ الحسّ يدل على عظمة هذه الأجسام وشدّتها وقوّتها، فإذا أشعر العقل بوجود موجود قاهـر لهذه الأجسـام

(١) انـظر: محمد رشيـد رضا، تفسيـر المنار، ١٢ مـج، الـطبعـة الثـانيـة (بيـروت: دار المعـرفـة) ١٢/٨٢ ــ ٨٣.

مستولٍ عليها متصرّف فيها كيف شاء وأراد؛ صار ذلك سبباً لوقوف القوة العقلية على كمال جلال الله وعلوّ قهره وعظمته وكمال قدرته ومشيئته.

وثالثها ــ أنّ السّماء والأرض من الجمادات. فقوله عزّ وجلّ: ﴿يا سماء... يا أرض...﴾ مشعر بحسب الظاهر على أنّ أمره وتكليفه نافذ في الجمادات، وعند هذا يقرر بطريق الأولى أنّ حكمه نافذ على العقلاء، وهذا يقرّر ــ بلا شك ــ عظمته وجلاله تقريراً كاملاً؛ ولأنّ توجيه صيغة الأمر بحسب الظاهر على هذه الجمادات القوية الشديدة يقرر ذلك أيضاً.

أقول: ولا مانع أن يكون الله قد جعل ــ بقدرته العظيمة ــ في هذه الجمادات عقلاً وسمعاً وكأنّها صارت مكلّفة، وخاطبها الله حين ذلك، وهذا يدل على عظمته وجلاله أيضاً، وهذا المعنى له شواهد في القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿...وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير... الآية﴾[1] ﴿...وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم... الآية﴾[2].

ورابعها ــ قوله: ﴿وقضي الأمر﴾. فإنّ الذي قدّره وقضاه واقع جزماً وحتماً في وقته وأوانه ومكانه الذي أريد فيه أن يكون؛ ولا رادّ لقضائه ولا مانع من نفاذ حكمه في أرضه وسمائه. وهذا دالّ أيضاً على عظمة الله وجلاله وكبريائه[3].

أقول: والآية في مضمونها تصوّر لنا قدرة الله عزّ وجلّ اللاّ محدودة، وسيطرته على الكون كلّه أرضه وسمائه بما فيه ومن فيه من جمادات وغيرها، وأنّ أمره عزّ وجلّ كما يصدر على العقلاء يصدر عل غيرهم، وأنّ الكون كلّه منقاد لله عزّ وجلّ وأنّ ذلك إن دلّ فإنّما يدلّ على أنّه الواحد ولا إلـه غيره، ولا متصرّف بالكون سواه.

وأَوْلَى لنا ــ معاشر العقلاء ــ أن ننقاد لله عزّ وجلّ في أمره ونهيه... ولنتعظ ولنتدبر ولنعتبر...

* وفي ختام الآية عبرة. فقوله: ﴿وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ فيه تعريض بأنّ

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٧٩.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١٧.

(٣) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ١٧/ ٢٣٤.

سالكي مسالك هؤلاء في الظلم والتكذيب يستحقون مثل هذا البعد من الله، والدعاء عليهم بذلك. . .

فأولى للظالمين والمكذبين والمعاندين أن يعتبروا ويرجعواعن تكذيبهم وظلمهم حتى لا يُنزل الله بهم ما أنزل بأمثالهم.

* وفي آخر ما يستفاد من هذه الآية العظيمة نقول: إنّها قد احتوت على وجوه عديدة من الإعجاز البياني، وبلغت الغاية في بلاغتها.

فهذا أبو حيّان ــ المفسر ــ يسوق في تفسيره واحداً وعشرين نوعاً من البديع فيها، وقد ألّف ــ أيضاً ــ السيد محمد إسماعيل الأمير رسالة فيها سماها: (النّهر المورود في تفسير آية هود).

وهذه الأنواع البديعية هي كالتالي: المناسبة، المطابقة، المجاز، الاستعارة، الإشارة، التمثيل، الإرداف، التعليل، صحة التقسيم، الاحتراس، الإيضاح، المساواة، حسن النّسق، الإيجاز، التسهيم، التهذيب، حسن البيان، التمكين، التجنيس، المقابلة، الذم، وآخرها الوصف[١].

ويدلّ على هذا الإعجاز ما روي من أنّ كفار قريش قصدوا أن يعارضوا القرآن فعكفوا على لباب البرّ ولحوم الضأن وسلاف الخمر أربعين يوماً؛ لتصفوا أذهانهم، فلمّا أخذوا فيما قصدوه وسمعوا هذه الآية قال بعضهم لبعض: هذا الكلام لا يشبه كلام المخلوقين فتركوا ما أخذوا فيه وتفرقوا.

ويروى كذلك أنّ ابن المقفع وكان ــ كما في القاموس ــ فصيحاً بليغاً، بل قيل: إنّه أفصح أهل وقته، أراد أن يعارض القرآن فنظم كلاماً وجعله مفصّلاً وسمّاه سوراً، فاجتاز يوماً بصبي يقرؤها، فرجع ومحا ما عمله، وقال: اشهد أنّ هذا لا يعارض أبداً وما هو من كلام البشر[٢].

---

(١) انظر: محاسن التأويل للقاسمي ١٣١/٩.
(٢) انظر: تفسير روح المعاني للألوسي ٦٣/١٢.

ثالثاً ـ العبر والفوائد من سؤال نوح ربّه في شأن ابنه:

١ ـ إنّ العبد المؤمن ليبتلى على قدر إيمانه. وقد سئل النبي ﷺ: أيّ الناس أشد ابتلاءً؟ فقال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرّجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه؛ وإن كان في دينه رقّة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»(١).

وها هو ذا نوح عليه السلام ـ وهو من أنبياء الله ـ يبتلى ابتلاءً شديداً، فإضافة إلى تكذيب قومه وأذاهم له، يبتلى بابنه فيجده في صفّ الكافرين، وقد ابتلي بزوجته ـ أيضاً ـ من قبل. ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾(٢). وإنّه لمن أعظم البلاء أن يجد الإنسان أهل بيته في الصفّ المعادي له الكافر بدينه!!

ولكنّه عليه السلام واجه ذلك بالصّبر، ولم يقنط، بل سعى في إنقاذ ابنه ودعوته إلى الإيمان.

وهذا ما ينبغي أن يُنهج نهجه من كل مؤمن ابتلي بمثل هذا الابتلاء.

ولا عجب أن تأخذ نوح الدهشة لمّا شاهد ابنه قد غرق مع الكافرين؛ وقد كان يظنه مؤمناً ولا عجب أن تغيب عنه حقيقة قد أخبره الله بها ـ وهي أنّ من سيغرق هم الكافرون وأنّه منج المؤمنين ولا محالة ـ لا عجب وهو في تلك اللحظة الحرجة، وهو يرى ابنه قد ذهب مع الكافرين!! لا عجب أن تتحرك عواطف الأبوّة في نفسه... وهو بشر يشعر بشعور البشر. وهذا لا يخالف صبره وتحمّله، وثقته بالله وربط هِمّته به.

٢ ـ في قوله عليه السلام: ﴿وإنّ وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين﴾ نلمس معنى جميلاً، وهو أنّه لم تشغله عاطفة الأبوّة عن مراعاة الاتجاه وأدبه وحسن السؤال لربّه(٣)؛ وما ذاك إلاّ لمعرفته الحقّة بجلال ربّه وعظمته، وأنّ ما يقدّره الله عليه فهو له

---

(١) رواه الترمذي: كتاب الزهد، باب: ٥٦، حديث: ٢٣٩٨، وقال عنه: حديث حسن صحيح.

(٢) سورة التحريم: الآية ١٠.

(٣) انظر: محاسن التأويل للقاسمي ٩/١٣٢.

خيـر. وفي الحـديث: «عجبـاً لأمـر المؤمن إنّ أمـره كلّه خيـر. وليس ذلـك لأحـد إلاّ للمؤمن إن أصـابته سـرّاء شكر فكـان خيراً لـه، وإن أصـابته ضـرّاء صبـر فكـان خيـراً لَـهُ»(١).

وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حال المؤمن في أيّ مقام ـ خصـوصاً فيمـا إذا كان في مثل حالة نوح عليـه السلام ـ محسناً التوجّـه إلى الله، متأدّبـاً في دعائـه إيّاه؛ لأنـه يناجي صاحب العزة والجلال والإكرام، وعليه أن يستشعر أنّ ما قضي فهو خير لـه.

رابعاً ـ العبر والفوائد من جواب العدل والحق من الله:

١ ـ ﴿إنّه ليس من أهلك إنّه عمل غير صـالـح﴾. تدلّنـا هذه العبـارة على عدة فوائد أهمّها ما يلي:

* أنّ العبرة بقرابة الدّين لا بقرابة النسب.

فـإنّ في هذه الصـورة كانت قـرابة النسب حـاصلة من أقوى الـوجوه، ولكن لمّـا انتفى الدّين نفى الله قرابة النسب، وذلك مع أنّ الإسلام أعطى لصلة النسب حـظاً كبيراً من الرّعاية والعناية، والإنسان أيضاً بطبعه مجبول على مراعاتها والقيام بواجباتها، ولكنّها مشروطة بقرابة الدين(٢).

وحول هذا المعنى يقول سيد قطب فيما خلاصته:

إنّ هذه الوشيجة التي يتجمـع عليها الناس في هذا الدّين وشيجة مزيدة تتميّز بها طبيعة هذا الدين، وتتعلق بآفاق وآماد وأبعـاد وأهداف يختص بهـا ذلك النهـج الـرّباني الكريم.

إنّ هذه الوشيجة ليست وشيجة الـدم والنّسب، وليست وشيجة الأرض أو الـوطن أو القوم أو العشيرة أو اللون واللّغـة أو الجنس والعنصر، أو الحـرفة والـطبقة، كـلّ هذه الوشائـج قد توجـد ثم تنقطـع العـلاقة بين الفـرد والفرد، فـالرابط الـوحيد هـو الإيمان لا غير.

---

(١) رواه مسلم: كتاب الزهد، حديث رقم: ٦١، ٨٤٤/٥.

(٢) انظر: عفيف عبد الفتاح طبّارة، مـع الأنبياء في القرآن الكريم، الطبعة الحادية عشرة (بيـروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٢م) ص ٨١.

وضرب الله أمثلة كثيرة تبيّن هذا التصوّر القويم: إبراهيم مع أبيه ـ زوجتا نوح ولوط ـ أصحاب الكهف ـ امرأة فرعون. . . إلخ.

ويقول تعالى في ذلك: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودة. . . الآية﴾[1]، وقال: ﴿لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير﴾[2]، وقال سبحانه أيضاً: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولّهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾[3].

وهكذا تقررت تلك القاعدة الأصلية الحاسمة في علاقات المجتمع الإسلامي وفي طبيعة بنائه وتكوينه العنصري الذي تتميز به عن سائر المجتمعات الجاهلية قديماً وحديثاً إلى آخر الزمان، ولم يعد هناك مجال للجمع بين الإسلام وبين إقامة المجتمع على أيّة قاعدة أخرى غير القاعدة التي اختارها الله لأمته المختارة.

إنّ العقيدة تمثّل أعلى خصائص الإنسان التي تفرقه عن عالم البهيمة لأنّها تتعلق بالعنصر الزائد في تركيبه وكينونته عن تركيب البهيمة وكينونتها، وهو العنصر الروحي الذي به صار هذا المخلوق إنساناً في هذه الصّورة؛ فينبغي أن تكون هذه الخصيصة هي التي تجمع لأنّها هي المميّزة بين الإنسان والحيوان، ولا تكون آصرة التجمع عنصراً يتعلق بشيء يشترك فيه الإنسان مع البهائم[4].

وبالتالي فإنّ الأهل في الحقيقة بالنسبة للمؤمن هم المؤمنون الذين تربطه بهم عقيدة التوحيد. ﴿إنه ليس من أهلك﴾.

* وفي قوله: ﴿إنه ليس من أهلك﴾ إشارة إلى قطع الولاية بين المؤمن والكافر؛ ولو كانت هناك قرابة نسب بينهما ﴿إنّما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا. . . الآية﴾[5]؛

---

(١) سورة الممتحنة: الآية ١.
(٢) سورة الممتحنة: الآية ٣.
(٣) سورة التوبة: الآية ٢٣.
(٤) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب: ٤/١٨٨٥ ـ ١٨٩٢.
(٥) سورة المائدة: الآية ٥٥.

وذلك لأن سبب الولاية هو الإيمان، وإذا عدم الإيمان عدمت الولاية ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم. . . الآية﴾[1].

* وفي هذه الآية تسلية وعزاء للآباء الصّالحين عند فساد أبنائهم.

فهذا نبيّ الله نوح عليه السلام وهو من أولي العزم من الرّسل، نجد أنّ ابنه كافراً، فإذا وجد بعض الآباء فساداً من بعض أبنائهم فليعتصموا بالله وليستعينوا به سبحانه في طلب صلاحهم، وليسلكوا معهم ما سلكه نوح عليه السلام في محاولاته مع ابنه ونصيحته له، مع الرّضا بما يقدّر الله سبحانه إن لم يستجيبوا وعدم السخط.

* وكذلك ممّا يستفاد (أنّه لا علاقة للصلاح بالوراثة والأنساب، بل يختلف ذلك باختلاف استعداد الأفراد وما يحيط بهم من البيئة والآراء والمعتقدات، ولو كان للوراثة تأثير لكان جميع أولاد آدم سواء، ولكان سلائل أبناء نوح المؤمنين الذين نجوا معه في السفينة كلهم مؤمنين)[2].

وتوضيح هذا الكلام: أنّه ليس المعنى أنّ الأب إذا كان صالحاً والبيئة فاسدة فإنه يفسد الولد؛ بل الغالب أنّ الأبوين إذا كانا صالحين انعكس ذلك على أبنائهما؛ وإن كانت البيئة فاسدة وفي الحديث: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه. . . الحديث»[3]، ولكن إذا كان الولد لديه استعداد للفساد فإنّ البيئة الفاسدة تساعده وتجرفه معها، فكفر ابن نوح ـ كما أسلفنا ـ كان سببه الجوّ العام الكافر. ولو تحققت البيئة الصالحة مع صلاح الآباء كان الأبناء صالحين إن شاء الله تعالى، وإن كان هناك شواذ فالشاذ لا حكم له. والله أعلم.

ـ ومرة أخرى أنبّه على أنّه يجب على الآباء والمربين أن يوفّروا البيئة الصالحة

---

(١) سورة المجادلة: الآية ٢٢.

(٢) أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، ٣٠ ج (بيروت: دار إحياء التراث العربي) ٤٢/١٢.

(٣) رواه البخاري: كتاب الجنائز، حديثي رقم (١١٣، ١١٤)١٩٨/٢؛ كتاب التفسير، تفسير سورة الروم حديث (٢٦٨) ٢٠٧/٦.
ورواه مسلم: كتاب القدر، الأحاديث (٢٣ ـ ٢٧) ٥١٢/٥ ـ ٥١٦.

لأبنائهم؛ وأن يعملوا جاهدين على أن يكون رفاق أبنائهم صالحين حتى يشبّوا صالحين؛ فإن الصحبة لها الأثر الكبير. وفي الحديث: «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»[1]، وقد قالوا قديماً: الصاحب ساحب، وقال أهل المعرفة: لا تقل لي من أنا؟ بل قل لي: من أصاحب؟ فتعرف من أنا؟ وما أحسن ما قاله الشاعر:

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدي[2]

* يبيّن لنا القرآن الكريم ـ في قوله: ﴿إنّه عمل غير صالح﴾ ـ أنّه ينشد توجيه الإنسان إلى أنّ أعماله الصّالحة هي المعوّل عليها في نيل السعادة الأخروية، وأنّه ليس للقرابات أي تأثير في نجاته من عذاب الله إن كان عاصياً[3]. فالتبعة فردية ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. وأنّ سعيه سوف يرى. ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾[4]، ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون﴾[5]، ﴿. . . كل امرىء بما كسب رهين﴾[6].

وهكذا؛ فإن (حكم الله في خلقه العدل بلا محاباة لولي ولا نبيّ)[7]، فالكلّ سواسية أمام الله. ومن يغترّ بنسبه أو مكانته في الدنيا فإنّما هو جاهل بكتاب الله وحقيقة العدل الإلهي ﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم. . . الآية﴾[8].

---

(١) رواه الترمذي: كتاب الزهد، باب: ٤٥، حديث: ٢٣٧٨، ٤/٥٨٩. وقال عنه: هذا حديث حسن غريب، وأخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب: ١٩، حديث: ٤٨٣٣، ٥/١٦٨ (أبو داود سليملن بن الأشعث السجستاني الأزدي، سنن أبي داود، الطبعة الأولى، إعداد وتعليق: عزت عبيد الدعاس، ٥ مج (حمص ـ سورية: دار الحديث: ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م).

(٢) انظر: عبد الله ناصح علوان، تربية الأولاد في الإسلام، ٢ مج، الطبعة الثالثة (بيروت: دار السلام، ١٤٠١هـ/١٩٨١م) ١/٢٩٤.

(٣) انظر: مع الأنبياء في القرآن الكريم لطبّارة ص ٨١.

(٤) سورة النجم: الآيات ٣٩ ـ ٤١.

(٥) سورة الجاثية: الآية ١٥.

(٦) سورة الطور: الآية ٢١.

(٧) تفسير المراغي: ١٢/٤٠.

(٨) سورة غافر: الآية ١٧.

خامساً ــ العبر والفوائد من اعتذار نوح عليه السلام لربه:

قال تعالى: ﴿قال ربِّ إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي بـه علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾.

يستفاد من هذه الآية ما يلي:

١ ــ إنّ هـذه الآية تضمنت شـروط التوبـة؛ لأنّ فيها إخبـاراً عما سيكـون عليـه الحال في المستقبل؛ إذ أنه قال عليه السلام: ﴿إني أعوذ بـك أن أسألـك ما ليس لي بـه علم﴾ أي لا أعود إلى هذا العمـل أبداً. ثمّ إن فيهـا الندم على العمـل والاعتذار عمـا مضى، وذلـك قولـه: ﴿وإلا تغفر لي وتـرحمني أكن من الخاسـرين﴾. وحقيقة التـوبة تقتضي أمـرين: أحدهمـا في المستقبل وهـو العـزم على التـرك، والآخـر في المـاضي وهو الندم على ما مضى[1].

٢ ــ وفي هذه الآية إشارة إلى الحالة التي ينبغي أن يكون عليها الدّاعية إلى الله حين وقوعه في خطأ. فهو رجّاع إلى الحق والصواب فوراً، مستغفر ربّه طالب المعـذرة منه سبحانه، عازم على عدم العودة إلى مثله. وهذا هو مثال الداعية الصادق المخلص.

فينبغي ــ بـالتـالي ــ أن يحـذر الـدعـاة من الاغتـرار بـأنفسهم، والاستمـرار في أخطائهم، والمعاندة عليها، وعدم الرّجوع إلى الحق والصواب.

ومن كان على غير هذا الخلق النبيل فالأولى لـه أن يترك ما هو فيه حتى لا تهلك الدعوة بـه وبأمثاله؛ وحتى لا يقتدي الناس بـه في خلقه السيِّـىء ويكونوا في مستقبلهم مثله، فيصبحوا وبالاً على الدعوة والدعاة.

سادساً ــ العبر والفوائد من أمان الله وبركته على نوح والمؤمنين:

١ ــ إنّ الله عظّم شأن نوح عليه السـلام بإيصـال السلامـة والبركـات منه إليـه، لأنّه قـال: ﴿بسلام منّـا﴾. وهذا يـدلّ على أنّ الأنبيـاء والصـديقين لا يفـرحـون بـالنّعمة من حيث أنّهـا نعمة، ولكنّهم إنّمـا يفرحـون بـالنعمـة من حيث أنّهـا من الحقّ سبحانه.

---

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرّازي ١٨/٥.

وبالتالي يكـون فرحهم بـالحقّ، وطلبهم للحقّ، وتوجههم إلى الحقّ وهـذا مقام شريف لا يعرفه إلّا خواصّ الله تعالى؛ فإن الفرح بالسلامة والبركة من حيث هما سلامة وبركة غير، والفرح بهمـا من حيث أنّهما من الحقّ سبحـانه غيـر، فالأول نصيب عـامة الخلق، والثاني نصيب المقربين(١).

أقول: وهذه درجة عالية ينبغي التفكّر فيها والاعتبار منهـا، ومحاولـة استشعارهـا فيما أنعم الله علينا؛ حتى نستطيـع الوصول إليها.

٢ ــ ونستفيد من هنا فـائدة أخـرى وهي أنّه مـا من كربـة إلّا ويتبعها فـرج، وإن عظم الجزاء مع عظم البـلاء، وكلّما اشتـدت الأزمات كـان الفرج أوسـع؛ ولهـذا كان جـزاء نوح من الله عـظيماً، فكـان أن مكّنه الله في الأرض بعـد أن طهّرها من الكفـرة المفسدين، ولم يبق على وجه المعمورة إلّا كلّ مؤمن موحّد. كمـا أنّ الله أخذ منـه ابناً كافراً وأبدله بـه أبنـاء مؤمنين، وإضافـة إلى هذا كله فإنّ الله جعل أهـل الأرض ــ من بعده ــ جميعاً من ذريته ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾(٢).

ومن هنا يتبيّن لنا أيضاً أنّ ابتلاء الدعاة إلى الله لـه حكمـة عظيمـة، عند الله عـزّ وجلّ من أوجهها ما يلي:

ــ أنه قد يكون الخير كل الخير للداعية المبتلى في ابتلائـه ﴿وعسى أن تكرهـوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً...﴾(٣)، وبهذا الشعور يسير الداعية في طـريق دعوتـه بلا يأس ولا قنوط، ومن ثمّ فإنه لن يترك الطريق من أجل ابتلاء أصابه، بل يدفعه ذلـك إلى الصبر والثبات.

ــ أمّ النصر إنّما يكـون بعد الابتـلاء والصبر ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجـاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم﴾(٤).

وهكـذا فإنّ النّصـر لا يـأتي إلّا مـع تقـديم التضحيـات، والبـذل، والصبـر على

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي: ١٨/٧ ــ ٨.
(٢) سورة الصافات: الآية ٧٧.
(٣) سورة النساء: الآية ١٩.
(٤) سورة محمد: الآية ٣١.

المحن والابتلاءات، وإنّ النّصر مع الصّبر وإنّ الفرج مع الكرب وإنّ مع العسر يسراً[1].

وهذا ما نبّه إليه الله عزّ وجل في آخر آية من حديثه عن نوح عليه السلام، فوصّى رسوله محمداً ﷺ بالصبر ـ ويدخل في الوصيّة كل مؤمن ـ؛ حتى يكونوا من المتقين الذين يهبهم الله النّصر والعزة والتمكين في الأرض ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾.

ويقول الشهيد سيد قطب في هذا المقام: «هذه هي الصّورة الهائلة التي يجب أن تقف طلائع البعث الإسلامي في كلّ مكان وفي كلّ زمان أمامها حين تطاردها الجاهلية؛ وحين تغلبها الجاهلية!

إنّها تستحق أن يسخّر الله لها القوى الكونية الهائلة... وليس من الضروري أن تكون هي الطوفان. فما الطوفان إلاّ صورة من صور تلك القوى! «وما يعلم جنود ربك إلاّ هو».

وإنّه ليس عليها إلاّ أن تثبت وتستمر في طريقها؛ وإلاّ أن تعرف مصدر قوتها وتلجأ إليه؛ وإلاّ أن تصبر حتى يأتي الله بأمره، وإلاّ أن تثق أنّ وليها القدير لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. وأنّه لن يترك أولياءه إلى أعدائه، إلاّ فترة الإعداد والابتلاء، وأنها متى اجتازت هذه الفترة فإنّ الله سيصنع لها وسيصنع بها في الأرض ما يشاء.

وهذه هي عبرة الحادث الكوني العظيم...»[2].

وبهذه العبرة العظيمة نكون قد انتهينا من كلامنا في هذا الباب ـ على ما يسّره الله لنا فيه ـ راجين منه سبحانه التوفيق والسداد، والحمد لله.

* * *

---

(١) انظر: محمد سرور بن نايف زين العابدين، منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، الطبعة الأولى (الكويت: دار الأرقم، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ١/٧٦ ـ ٧٧.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب: ٤ /١٨٩٣.

الباب الثاني

إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام

مع أبيه وأبنائه

وفيه فصلان:

الفصل الأول : إبراهيم عليه السلام مـع أبيه.

وفيه تمهيد ومبحثان:

المبحث الأول: بيان القصة.

المبحث الثاني: العبر والفوائد.

الفصل الثاني : إبراهيم عليه السلام مـع أبنائه.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مـع ابنه إسماعيل عليه السلام.

المبحث الثاني: مـع ابنه إسحاق عليه السلام.

المبحث الثالث: مـع أبنائه أجمعين.

الفصل الأول

إبراهيم عليه السلام مع أبيه

تمهيد

ولد إبراهيم[1] عليه السلام ببابل، وهي أرض الكلدانيين[2]، ونشأ بها وكان قومها حينذاك يعبدون الأصنام.. ينحتونها بأيديهم، ثم يجعلونها أرباباً من دون الله، وكان يحكمهم ملك اسمه: النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، وكان هذا الملك طاغية جبّاراً، وقد دعا قومه إلى عبادته[3].

وفي هذه البيئة الكافرة ينشأ إبراهيم عليه السلام، ولكن تأخذه يد العناية الإلّهية وتجعله سبباً في إزالة الضّلال على الأرض. ويؤتيه الله الرّشد في صغره ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنّا به عالمين﴾[4]، أي كان أهلاً لذلك؛ فبصّره الله بالحقيقة العظمى: أنّ الله واحد، وأنّه المهيمن وحده على هذا الكون، وأنّه هو الذي ينبغي أن يعبد.

وبعد أن تبيّن له هذا الحقّ عزم على تبليغه للناس وردّ الناس عمّا هم فيه من الوثنية والشرك بالله إلى عبادة الله:

﴿إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون. قالوا وجدنا آباءنا لها

---

(١) هو إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن راغو بن فالغ بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام (قصص الأنبياء لابن كثير: ١/١١٧). «وهذا كما ذكره النسّابون».

(٢) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير ١/١١٧.

(٣) المرجع السابق: ١/١٢٨.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٥١.

عابدين. قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلالٍ مبين. قالوا أجئتنا بالحقّ أم كنت من اللاعبين. قال بل ربّكم ربّ السموات والأرض الذي فطرهنّ وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾[1].

ومضى عليه السّلام في دعوته إلى الله، مع ما يلاقيه من الصّدود والتكذيب من قومه، كما أنّه أوذي وفتن في سبيلها، وبلغ أذى قومه أنّهم أرادوا حرقه بالنار فألقوه فيها ولكنّ الله جعلها برداً وسلاماً عليه:

﴿قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين. قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم. وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾[2] فأبطل كيدهم وأنجاه.

وخصّ إبراهيم عليه السلام أباه بالدعوة بدايةً؛ لأنّه أحقّ الناس بإخلاص النصيحة له.

وكان أبوه ممّن يعبد الأصنام، بل كان ممّن يصنعها[3].

وهذا يدلّ على أنّ أباه كان غارقاً في عبادة الأصنام والأوثان، وداعياً إلى عبادتها بصنعه لها.

وحول الآيات التي تحكي دعوة إبراهيم لأبيه وحواره معه لطلب هدايته سيكون حديثنا في هذا الفصل، مع الاستشهاد بالآيات الأخرى التي تمسّ الحوار من جانبٍ لآخر.

والله المستعان سبحانه.

* * *

(١) سورة الأنبياء: الآيات ٥٢ ــ ٥٦.

(٢) سورة الأنبياء: الآيات ٦٨ ــ ٧٠.

(٣) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير ١/١١٩.

المبحث الأول

بيان القصّة

إنَّ الآيات التي تتكلّم عن قصّة إبراهيم مع أبيه وما جرى بينهما ــ بصورة خاصّة ــ هي ما ذكرها الله في سورة مريم عليها السلام في قوله:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ
وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ
صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ
أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى
يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ
إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ
أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ
وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾(١).

مسألة:

وقبل البدء في بيان هذه الآيات يجدر بنا أن نمر على مسألة اختلف فيها وهي: ما اسم أبي إبراهيم؟

وفي هذه المسألة قولان:

الأول: إنّ اسمه آزر، كما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر

(١) سورة مريم: الآيات ٤١ ــ ٥٠.

أتتّخذ أصناماً آلهةً إنّي أراك وقومك في ضلال مبين﴾[1].

والثاني: أن اسمه (تارح) بالحاء المهملة، وهذا قول جمهور أهل النسب، ونقل عن أهل الكتاب (تارخ) بالخاء المعجمة[2].

والذين قالوا بهذا القول اختلفوا في (آزر) الذي في الآية السابقة الذكر من هو؟ ولهم أقوال نذكرها كما يلي:

- قال الضحاك عن ابن عبّاس: إن أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزر بل كان (تارخ)، وآزر هو اسم لصنم، وقال بعضهم: إنّه سمي بالصنم للزوم عبادته واستغراقه في خدمته. وبهذا القول قال مجاهد والسّدي كذلك[3].

- وقيل: إنَّ في الكلام تقديماً وتأخيراً، والتقدير: أتتخذ آزر أصناماً.

- وقيل: إنَّ آزر نعت لأبيه. قال الضحاك: معناه الشيخ الهرم، وقال الزجّاج: المخطىء، وقال الفرّاء وسليمان التيمي: المِعوجّ[4].

- وقيل: إنّه لما صار مع النمرود قيّماً على خزانة آلهته سماه آزر. قاله الثعلبي في العرائس[5].

- وقيل: يكون أحدهما لقباً والآخر علماً. فاسمه بالسريانية تارح؛ وآزر لقبه المشهور به[6].

- وقيل أيضاً: إنَّ آزر هو عمّ إبراهيم، وليس اسم أبيه.

وهذا القول هو قول الشيعة؛ بزعمهم أنَّ آباء الأنبياء لا يكونون كفاراً[7].

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٧٤.

(٢) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير ١/١٢٠.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/١٤٩ ـ ١٥٠؛ تفسير أبي السعود ٣/١٥١.

(٤) انظر: تفسير أبي السعود ٣/١٥١.

(٥) انظر: تفسير القرطبي ٧/٢٢.

(٦) تفسير أبي السعود ٣/١٥١.

(٧) انظر: تفسير البحر المحيط لأبي حيّان ٤/١٦٤.

أقول: والقول الأول هو أنَّ اسم أبيه: آزر، هو الصحيح والراجح. وذلك لوجوه:

– إنَّ الله عزّ وجلّ أخبر به أنَّه أبوه في الآية التي ذكرناها سابقاً.

وهذا هو القول المحفوظ من قول أهل العلم دون القول الآخر. وبهذا قال عمدة المفسرين ابن جرير الطبري[1].

وكذلك فإنَّ الله ذكر في آيات أخرى لفظ أبيه دون ذكر آزر ﴿إذ قال إبراهيم لأبيه...﴾، وذكر في هذه الآية (آزر) فيجتمع من ذلك أنّ اسم أبيه آزر. وقوله أيضاً: (يا أبت) يدلّ على أنّه أبوه.

ـ إنَّ رسول الله ﷺ ذكره في الحديث الصحيح على أنَّه اسم أبيه فقال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة. فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟... الحديث»[2] فهذا الحديث نصّ على أنَّ اسم أبيه آزر.

ـ وأمَّا ما ذكره المؤرخون والنسّابون من أنّ اسمه (تارخ) فإنَّما ذكروه بناءً على ما في التوراة، وإنَّ من المقطوع به أنّ التوراة والإنجيل قد دخل إليهما تحريف كبير ولم يعد هناك مجال للوثوق بما فيهما من النصوص وخصوصاً إذا عارضت نصاً صحيحاً.

يقول الشيخ أحمد شاكر رحمه الله: (أمّا أنَّ اسم والد إبراهيم (آزر) فإنَّه عندنا أمر قطعي الثبوت بصريح القرآن في هذه الآية بدلالة الألفاظ على المعاني.

وأمَّا التأويل والتلاعب بالألفاظ، فما هو إلَّا إنكار مقنع لمضمون الكلام ومعناه، وسواء أكان اسمه في قول أهل النسب نقلاً عن الكتب السابقة (تارح) أو لم يكن، فلا أثر له في وجوب الإيمان بصدق ما نصّ عليه القرآن، وبدلالة لفظ (لأبيه) على معناه الوضعي في اللغة، والقرآن هو المهيمن على ما قبله من كتب الأديان السابقة. ثم

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري: ٧/١٥٨ ـ ١٥٩.

(٢) رواه البخاري: كتاب الأنبياء، باب: ٨، حديث (٦٠)؛ فتح الباري: حديث (٣٣٥٠)، ٦/٣٨٧.

يقطع كل شك، ويذهب بكلّ تأويل الحديث الصحيح الذي رواه البخاري، وليس بعد هذا مجال للتلاعب)[1].

- وأمَّا أنّه نعت لأبيه، وأنه خاطبه بيا مخطىء أو يا معوج وغيرها من الألفاظ التي تحمل معنى التحقير فهذا بعيد؛ لأنه لا يمكن أن يكون خاطب أباه بهذه الكلمات التي فيها التحقير والإهانة له، وكما أنَّه يدل على هذا أنَّه حين هدّده أبوه بقوله: ﴿أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم. . .﴾ الآية لم يكن له جواب على هذه الجفوة القاسية وهذا التهديد العنيف إلاَّ بأن قال له: ﴿سلام عليك سأستغفر لك ربي. . .﴾ الآية[2].

- ثمّ إنّ قول من قال إنَّه سمّي بالصنم الذي كان يلزم عبادته وخدمته، من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مكانه فضعيف ولا يقف أمام النصوص الصحيحة الصريحة.

- ومن قال بأنّ آزر لقبه وتارح اسمه؛ فنقول: إنَّ هذا اللقب (آزر) في لغتهم المخطىء أو العرج أو المعوج؛ وهذا كما قلنا لا يصح من إبراهيم أن يطلقه على أبيه.

- والّذين قالوا: إنَّ (آزر) عمّه وليس أباه سواء كان هذا كلام الشيعة أو غيرهم، لزعمهم أن آباء الأنبياء لا يكونون كفاراً؛ فالأمر ليس فيه ما يخلّ بمقام إبراهيم عليه السلام أو ينقص من شأنه. وقد ورد في القرآن الكريم ما يدلّ على كفر أبيه، وكذلك في الحديث السابق الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه وفيه أنّ إبراهيم قال لله: يا رب إنَّك وعدتني ألاَ تخزني يوم يبعثون، وأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله: إنّي حرمت الجنة على الكافرين. . . الحديث.

بل إنّ هناك حكمة في كفر بعض أرحام الأنبياء الأقربين وهي: (تقرير أصل التوحيد الهادم لقاعدة الوثنية بالفصل بين ما هو لله تعالى وما هو لرسله، وهو أنّ الرسل عليهم السلام لم يرسلوا إلاَّ مبشرين ومنذرين، وما عليهم إلاَّ تبليغ دين الله وإقامته، وليس لهم من الأمر شيء، ولا يملكون لأحد ضرّاً ولا نفعاً، وليس عليهم هدى أحد

---

(١) هامش التحقيق لتفسير زاد المسير لابن الجوزي: ٣/ ٧٠.

(٢) انظر: عبد الوهاب النجّار، قصص الأنبياء، الطبعة الثالثة (بيروت: دار إحياء التراث العربي) ص ٩٤.

ولا رشده بالفعل، وإنَّما عليهم هداية التعليم والحجّة، فلا يهـدون من أحبوا ولا يغنـون من الله شيئاً؛ وإن كـان أقرب الناس وأحبه إليهم في النسب والمعاملة الدنيوية)[1].

– وإضـافةً إلى هـذا فـإنَّ إطـلاق كلمـة الأب على العمّ مجـاز لا يصـح في اللغـة إلاَّ بقـرينة مـانعة من إرادة المعنى الأصلي، وسيـاق الحـديث أيضـاً يعيّن هـذا المعنى الأصلي[2].

وبما سبق ـ من الوجوه والردود ـ يظهر لنا أنّ الصحيـح والراجـح أن أبا إبراهيم هو آزر. والله أعلم.

وبعد بيان هذه المسألة نعود للكـلام حول مـوقف إبراهيم عليـه السلام مـع أبيـه ونبدؤه بما يلي:

١ ـ نصـح إبراهيم عليه السلام لأبيه:

قبل البدء في بيان النصيحة يمدح الله عزّ وجـلّ نبيه إبـراهيم قائـلاً: ﴿واذكر في الكتـاب إبراهيم إنَّـه كان صـديقاً نبيـاً﴾ أي أنَّه من أهـل الصّـدق في حـديثـه وأخبـاره ومواعيده لا يكذب. وإضافة إلى هذا فإنَّه نبـيّ أوحى الله إليه ونبّأه[3].

وقوله (نبياً) وصف خاص لأنّ كلّ نبـيّ صديق وليس كلّ صدّيق نبـيّ، فالصديقية مرتبة تحت النبوّة[4]يـقـول تعالى: ﴿ومن يطـع الله والـرسول فـأولئك مـع الـذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾[5].

هذا الصدّيق النبـيّ شأنه أن يخلص النصيحة لأبيه لكونه أقرب الناس إليه؛ ليرده عن عبادة غير الله ويهديه إلى عبادة الواحد الأحد سبحانه المستحق لها، ولذلـك كانت نصيحته التي ذكرها القرآن مفصّله في الآيات التي ذكرناها سابقاً من سورة مريم.

---

(١) انظر: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ٧/٥٤٥.
(٢) انظر: المرجع السابق ٧/٥٤٤.
(٣) تفسير ابن جرير الطبري: ١٦/٦٨.
(٤) انظر: حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٣٨.
(٥) سورة النساء: الآية ٦٩.

ويبدأ نصيحته عليه السلام بطريقة لطيفة، حيث يصدّرها بكلمة (يا أبتِ) التي تشعر أباه بالصّلة القلبية بينه وبين ابنه إبراهيم؛ فيستميل أباه بذلك ويستعطفه.

وإضافة إلى ابتدائه بهذه الكلمة فإنه يسلك معه طريقاً غير مباشر في النهي عن عبادته الأصنام، إنه يسلك معه الأسلوب الاستفهامي عن سبب عبادته لها: ﴿يا أبت[1] لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾، (وهو استفهام إنكاري فيه معنى التوبيخ)[2]؛ ويقصد به دلالته على الذي يستحق العبادة وهو الله.

ومعناه: أي ماذا تصنع بعبادة الوثن الذي لا يسمع ولا يبصر شيئاً، ولا يدفع عنك ضرّ شيء، وإنّما هو صورة مصوّرة لا تضرّ ولا تنفع.

وكأنّه يقول له: اعبد الذي إذا دعوته سمع دعاءك، وإذا أحيط بك أبصرك فنصرك، وإذا نزل بك ضرّ دفع عنك[3].

وبعد هذه البداية ــ التي تدعو إلى الانتباه ــ يبيّن له حقيقة حاله وأنّه صاحب رسالة هدى ﴿يا أبت إنّي قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً﴾. أي: وإن كنت من صلبك وتراني أصغر منك، فاعلم أنّي قد اطّلعت على علم من الله لم تعلمه أنت ولا اطلعت عليه، ولا جاءك بعد؛ ولذلك أرجو منك اتّباعي حتى أدلك على الطريق المستقيم الموصل إلى نيل المطلوب والنجاة من المهروب[4].

والعلم المراد به هنا هو علم الدّلالة على الطريق السويّ، ويدخل فيه علم التوحيد والشرع، والعلم بالآخرة وغير ذلك.

وتدلّ هذه المحاورة على أنّ ذلك كان بعد ما نبيء إبراهيم عليه السلام؛ لأنَّ كلمة (جاءني) تفيد تجدّد العلم، والذي جاءه هو الوحي الذي أتىٰ به الملك[5].

---

(١) قرأ ابن عامر: (يا أبتَ) بفتح التاء، وقرأ الباقون بكسرها (انظر: حجّة القراءات لابن زنجلة ص ٤٤٤).

(٢) انظر: فتح القدير للشوكاني ٣/٣٣٥.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ١٥٨/٧ ــ ١٥٩.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١٢٣/٣.

(٥) انظر: البحر المحيط لأبي حيّان ١٩٤/٦.

ثمّ أفصح لـه عن سبب بعده عن الطريق المستقيم ﴿يا أبت لا تعبد الشيطان إنَّ الشيطان كان للرحمن عصيّاً﴾.

فالسبب هو طاعة الشيطان فيما يزينه لـه من عبادة الأصنام.

وجعل ذلك عبادة للشيطان لأنَّه هو الآمر بها والداعي إليها والراضي بها كما قال الله تعالى: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألاَّ تعبدوا الشيطان إنَّه لكم عدو مبين﴾[1].

وممّا لا شكّ فيه أنّ في هذا الكلام تثبيطاً لأبيه عمّا هو عليه من الشرك؛ لأنه مع خلوّ ما يعبده من النفع واستلزامه للضرّ فإنَّه ــ أيضاً ــ في الحقيقة عبادة للشيطان[2].

وأردف عليه السلام قوله هذا بذكر العلّة للنهي ﴿إنَّ الشيطان كان للرحمن عصيّاً﴾ فمن هذا شأنه ينبغي أن لا يطاع؛ لأنه اختار لنفسه معصية الله فلن يختار إلاَّ هي لمن يتبعه.

وأتى بالصيغة التي تدلّ على كثرة عصيانه لله، للإشارة إلى أنّه ينبغي الاحتراز منه كلّ الاحتراز[3].

ــ وذكر لفظ (الرَّحمن) دون غيره لعدة أمور أهمّها ما يلي:

١ ــ التنبيه على سعة رحمة الله، وبالتالي فإنَّ من هذا وصفه هو الذي ينبغي أن يعبد ولا يعصى.

٢ ــ الإعلام بشقاوة الشيطان؛ حيث أنه عصى من هذه صفته، وارتكب من ذلك ما طرده من هذه الرحمة، وفي هذا إظهار لكمال شناعة عصيانه.

٣ ــ الإشارة إلى أنّ المعاصي تمنع العبد من رحمة الله الواسعة، وتغلق عليه أبوابها؛ كما أنّ الطاعة أكبر الأسباب لنيل الرحمة الإلَهية والأولى الاتجاه إلى طاعة الله الرحمن[4].

---

(١) سورة يس: ٦٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/١٢٣؛ تفسير البيضاوي ٤/٨.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود ٥/٢٦٧.

(٤) انظر: البحر المحيط ٦/١٩٤؛ تفسير أبي السعود ٥/٢٦٧؛ تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ٥/١١٢.

ويختم إبراهيم عليه السلام نصحه لأبيه بتحذيره من سوء عاقبة عبادة غير الله؛ واتباع الشيطان فيقول له: ﴿يا أبت إني أخاف أن يمسّك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً﴾.

وهذه هي العاقبة السيئة... إنّها عذاب من الله الرحمن، وإظهار كلمة الرحمن هنا للإشعار بأنّ وصف الرَّحمانية لا يدفع حلول العذاب[1].

وهذا العذاب قد يكون عذاباً في الدنيا والآخرة، ويُحمل العذاب في الدنيا إمَّا على الخذلان من الله فيصير موالياً للشيطان. وإمَّا بأن يبتلى على كفره بعذاب ويكون سبباً لتماديه على الكفر وصيرورته إلى ولاية الشيطان. كما قال تعالى: ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾[2].

وذكر ــ عليه السلام ــ الخوف والمسّ ونكّر العذاب؛ إمَّا مجاملة لأبيه أو لخفاء عاقبته عليه[3].

أمَّا قوله: ﴿فتكون للشيطان ولياً﴾ فمعناه: إنَّه إذا استوجب عذاب الله كان مع الشيطان في النّار، والولاية سبب للمعيّة، وإطلاق اسم السبب على المسبب مجاز؛ وإن لم يجز حمله على الولاية الحقيقية لقوله تعالى: ﴿الأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدو إلَّا المتقين﴾[4]، وقوله: ﴿ثمَّ يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويعلن بعضكم بعضاً...﴾ الآية[5]، وحكي ــ أيضاً ــ عن الشيطان قوله: ﴿إنِّي كفرت بما أشركتمون من قبل...﴾ الآية [6].

وممَّا يدلّنا عليه قول إبراهيم عليه السلام هذا لأبيه أنّ ولاية الشيطان أسوء حالاً من العذاب نفسه وأعظم؛ والسبب في ذلك أنَّنا نجد في مقابله أنّ رضوان الله أعظم

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود ٥/٢٦٧.
(٢) انظر: البحر المحيط لأبي حيّان ٦/١٩٤. والآية رقم: ١٦٨ من سورة الأعراف.
(٣) انظر: تفسير البيضاوي ٤/٨.
(٤) سورة الزخرف الآية ٦٧.
(٥) سورة العنكبوت: الآية ٢٥.
(٦) سورة إبراهيم: الآية ٢٢.

من الثواب على ما قال تعالى: ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيّبة في جنّات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم﴾[1]. فوجب أنْ تكون ولاية الشيطان أسوء حالاً من العذاب وأعظم[2].

٢ ـ الردّ العنيف الساخط من آزر!

وبعد هذا النّصح بالأسلوب اللطيف الحكيم من الابن البارّ؛ يقف الأب ـ آزر ـ ليردّ مقابل ذلك كلّه بالقسوة والعنف والتهديد ﴿قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنّك واهجرني مليّاً﴾.

إنَّه يفاجىء ابنه بهذا الاستفهام الإنكاري الذي يحمل في طيّاته كلّ التقريع والتوبيخ والتعجيب[3]، ﴿أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم﴾ أي أمعرض ومنصرف عنها لا تريد عبادتها ولا ترضاها.

وهكذا، فبعد أن دعاه إلى التوحيد، وذكر له الدلالة على فساد عبادة الأوثان، وأردف تلك الدلالة بالوعظ البليغ وأورد كلّ ذلك مقروناً باللّطف والرفق؛ قابله بجواب يضاد ذلك، قابل حجته بالتقليد؛ إذ أنّه لم يذكر في مقابل حجته إلاّ قوله: ﴿أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم﴾. فأصرّ على ادّعاء إلهيتها جهلاً وتقليداً دونما دليل، وقابل رفقه في قوله: ﴿يا أبت﴾ بالعنف؛ حيث لم يقل: يا بنيّ بل قال: يا إبراهيم[4].

ثم يُتبع الأب استفهامه هذا بتحذيره وتهديده ابنه ـ إن لم يترك ذكر آلهته بسوء ـ برجمه بالكلام وذلك السبّ والقول القبيح. أمّا إذا كفّ عن ذلك فإنّه سيتركه سوياً سليماً من عقوبته. (قال بهذا المعنى: ابن عبّاس رضي الله عنهما، والضحاك، وقتادة، وعطية، ومالك، وغيرهم. واختاره ابن جرير الطبري)[5].

---

(١) سورة التوبة: الآية ٧٢.

(٢) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢١/٢٢٦.

(٣) انظر: فتح القدير للشوكاني ٣/٣٣٦.

(٤) انظر: البحر المحيط لأبي حيّان ٦/١٩٤؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/١٢٣؛ تفسير أبي السعود ٥/٦٢٨.

(٥) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ١٦/٦٩.

٣ ـ حلم إبراهيم عليه السلام:

وقد صدق الله قوله: ﴿إنَّ إبراهيم لحليم أوّاه منيب﴾[١]؛ فما كان جوابه لأبيه بعد توبيخه وتقريعه وتهديده له إلاَّ أن قال له: ﴿سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيّاً﴾.

أي يقول له: أمنة منّي لك أن أعاودك فيما كرهت، ولن يمسّك منّي مكروه ولا أذى، وسأسأل لك ربي أن يستر عليك ذنوبك بعفوه، ولا يعاقبك عليها؛ إنَّ ربي عهدته بي لطيفاً يجيب دعائي إذا دعوته[٢].

وقوله: ﴿سأستغفر لك ربي﴾ هو وعد من إبراهيم لأبيه باستغفاره له، وقد وفّى بذلك الوعد كما قال تعالى عنه: ﴿واغفر لأبي إنَّه كان من الضآلين﴾[٣] وقوله: ﴿ربنا اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾[٤].

ولكن لمَّا تبيّن له أنّه عدوّ لله تبرأ منه، ولم يستغفر له بعد ذلك: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلاَّ عن موعدة وعدها إيَّاه فلمَّا تبيّن له أنّه عدوّ لله تبرأ منه إنَّ إبراهيم لأوّاه حليم﴾[٥].

ويحتمل أنّه علم أنّه عدوّ لله عند موته على الشرك، أو بوحي من الله تعالى أنّه لن يؤمن أبداً[٦].

أمَّا استغفاره لأبيه مع كون الاستغفار ليس جائزاً للكفرة؛ فيجوز أن يكون إبراهيم عليه السلام أوّل نبيّ أوحي إليه أنّ الله لا يغفر لكافر؛ لأنَّ هذا طريقه النقل لا غير، وكانت هذه المقالة منه لأبيه قبل أن يوحى إليه بعدم الجواز. قاله ابن عطيّة[٧].

---

(١) سورة هود: الآية ٧٥.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ١٦/٧٠.

(٣) سورة الشعراء: الآية ٨٦.

(٤) سورة إبراهيم: الآية ٤١.

(٥) سورة التوبة: الآية ١١٤.

(٦) انظر: تفسير أبي السعود ٤/١٠٨.

(٧) تفسير البحر المحيط لأبي حيّان ٦/١٩٥ ـ ١٩٦.

ومع هذا السلام والأمن من إبراهيم لأبيه كان لا بدّ من بيان المفاصلة في الأمر، فالسلام ليس معناه الضعف والاستسلام لرغبة المعارض لدين الله. وهذه المفاصلة يقولها عليه السلام واضحة قويّة: ﴿وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربّي عسى ألاّ أكون بدعاء ربّ شقيّاً﴾.

فيبيّن لهم أنّه مجتنبهم ومتبرّىء منهم وممّا يعبدون من دون الله، وسيدعو الله وحده بإخلاص العبادة له وإفراده بالعبودية، ومن ثمّ يرجو أن لا يكون خائباً ضائع السعي مثلهم في دعاء آلهتهم[1].

وفي تصديره كلامه بـ (عسى) إظهار للتواضع وهضم للنفس، والتنبيه على أنّ الإجابة والإثابة تفضّل من الله غير واجبتين عليه، وأنّ ملاك الأمر خاتمته، وهو غيب عليه، وهذا كما في قوله: ﴿والّذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾[2].

وقيل: إنّ الدعاء هنا يشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة؛ وهو أنّه سأل الله أن يهب له ولداً وأهلاً يستأنس بهم في اعتزاله، ويطمأنّ إليهم عند وحشته، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فلمّا اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاًّ جعلنا نبياً﴾[3].

وهذا القول أوْلى لأنّ الجمع بين العبادة والمسألة ـ هنا ـ ممكن ولا مانع منه، والآية التي جاءت بعد قوله هذا مباشرةً تدلّ عليه وتؤيّده. والله أعلم.

٤ ـ إكرام الله لنبيّه إبراهيم عليه السلام:

ولمّا اعتزل إبراهيم قومه وما كانوا يعبدون من دون الله، أكرمه الله بأن آنس وحشته من بعد فراقهم؛ وأبدله بمن هو خيراً منهم، حيث وهب له أبناءً أنبياء، وأسبل عليهم نعمه ظاهرةً وباطنةً ﴿فلمّا اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاًّ جعلنا نبياً. ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليّاً﴾.

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ١٦/ ٧٠؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ١٢٤.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٨٢.

(٣) انظر: تفسير البيضاوي ٤/ ٩؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ٢١/ ٢٣٠؛ تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ٥/ ١١٤؛ تفسير القرطبي ١١/ ١١٣. والآية رقم: ٤٩ من سورة مريم.

وإنَّ من أعظم النعم على الإنسان أن يهبه الله أولاداً صالحين، فكيف بنبيّ الله إبراهيم عليه السلام وقد أعطاه الله أولاداً صالحين، وجمع لهم مع الصلاح النبوّة!!

أمَّا الرّحمة الموهوبة لهم فإنّها تشمل الخير الدينيّ والدنيويّ من العلم والمنزلة والشرف في الدنيا والنعيم في الآخرة. ويدخل في هذه الرّحمة ما جعله الله لهم من الثناء والذكر الحسن عليهم من الناس إلى الأبد ﴿وجعلنا لهم لسان صدق علياً﴾ وهذا من استجابة الله لدعاء إبراهيم عليه السلام حين دعاه بقوله: ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾[٥]. يقول ابن السعدي: (وهذا أيضاً من الرّحمة التي وهبها لهم؛ لأن الله وعد كلّ محسن أن ينشر له ثناءً صادقاً بحسب إحسانه، وهؤلاء من أئمة المحسنين، فنشر الله لهم الثناء الحسن الصادق غير الكاذب العالي غير الخفيّ، فذكرهم ملأ الخافقين، والثناء عليهم ومحبتهم امتلأت بها القلوب، وفاضت بها الألسنة، فصاروا قدوة للمقتدين، وأئمة المهتدين، ولا تزال ذكراهم في سائر العصور متجددة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم)[٢].

مسألة:

وقد يسأل سائل: لماذا لم يورد الله هنا إسماعيل ـ في معرض ذكره لرحمته على إبراهيم ـ مع إسحاق ويعقوب؟

والجواب على هذا السؤال من وجوه عدّة:

أوّلها: (لأن إبراهيم لمّا اعتزل قومه خرج بزوجه سارة، وهي قد اعتزلت قومها أيضاً إرضاءً لربّها ولزوجها، فذكر الله الموهبة الشاملة لإبراهيم وزوجه، ولأنَّ هذه الموهبة لمّا كانت كفاءً لإبراهيم على مفارقته أباه وقومه كانت موهبة من يعاشر إبراهيم ويؤنسه وهما إسحاق ويعقوب، وقد كان إسماعيل عليه السلام بعيداً عنه)[٣].

وثانيها: لبيان أنّه جعل له نسلاً وعقباً أنبياء أقرّ الله بهم عينه في حياته ولهذا قال: ﴿وكلاً جعلنا نبيّاً﴾[٤].

---

(١) انظر: تفسير البحر المحيط لأبي حيّان ١٩٦/٦، والآية رقم: ٨٤ من سورة الشعراء.

(٢) تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي: ١١٥/٥.

(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ١٢٤/١٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١٢٤/٣.

وثالثها: لعلّه أراد أن يذكر إسماعيل بفضله على الانفراد[1].

ورابعها: أنّه قيل: خصّصا بالذكر لأنهما شجرتا أنبياء بني إسرائيل، والقصد هنا ذكر أنبياء بني إسرائيل وهم بأسرهم أولاد إسحاق ويعقوب، وإسماعيل لم يخرج من صلبه إلاّ محمداً ﷺ[2].

وآخرها: قيل: لأنَّ إسحاق وهب من حرّة وكانت عجوزاً عقيماً، وإسماعيل ولد من أمة فكانت المنّة في هبة إسحاق أظهر[3].

وهذه الوجوه جميعها راجعة إلى اجتهادات المفسرين، وهي مسألة لا يترتب عليها شيء، وأيّاً كان السبب فلا ضير، وكلها محتملة والله أعلم بمراده.

وبهذا الكرم الربانيّ لعبده وخليله يختم الله عزّ وجل هذا الموقف العظيم الدالّ بكل آياته على عظمة شخصية إبراهيم عليه السلام، من قوة إيمانه باللّه، وكمال نصحه لأبيه.

وبه نختم كلامنا حول هذه الآيات، وننتقل بعدها للكلام عمّا نستفيده من هذا الموقف.

* * *

(١) تفسير البيضاوي: ٤/٩.

(٢) انظر: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيىٰ زكريا الأنصاري ص ١٧٠.

(٣) انظر: المرجع السابق ص ١٧٠.

المبحث الثاني

العِبَر والفوائد

١ ـ العبر والفوائد من نصح إبراهيم عليه السلام ـ بصورة عامة ـ لأبيه:

* نلاحظ ابتداءً وصف الله عزّ وجلّ لخليله إبراهيم عليه السلام بالصدّيقية قبل وصفه بالنبوّة؛ لأنّه كان صادقاً مع قومه قبل النبوّة، كما كان صادقاً أميناً في تبليغ الرسالة وفي انقياده لأوامر الله عزّ وجلّ[١].

ويذكّرني التعليل الأول بما كان عليه النبيّ ﷺ قبل النبوّة، فقد كان قومه ـ كما هو معلوم ـ يلقبونه بالصادق الأمين.

ومن هذا يستفيد الدعاة إلى الله درساً بأنّ استقامة الداعية وحسن سيرته في نشأته أدعى إلى نجاحه في دعوته النّاس؛ إذ لا يجدون ما يعيّرونه به في سلوكه الشخصي قبل الدعوة.

وبهذا يكون الداعية ـ أبداً ـ رافع الرأس ناصع الجبين، لا يجد أعداء الدعوة سبيلاً إلى غمزه بماض قريب أو بعيد، ولا يتخذون من هذا الماضي المنحرف تكأةً للتشهير به ودعوة الناس إلى الاستخفاف بشأنه[٢].

كما أنّ هذا أدعى لقبول ما يدعوهم إليه والانتفاع به لكونه قدوة لهم في ماضيه

---

(١) انظر: منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله لمحمد سرور ص ٩٤.

(٢) انظر: مصطفى السباعي، السيرة النبوية دروس وعبر، الطبعة الرابعة (بيروت: المكتب الإسلامي ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م) ص ٣٥.

وحاضره، وأوّل الدعوة إنّما يكون بالقدوة الصّالحة؛ إذ أنّ الناس لا تؤثر فيهم المواعظ والخطب بقدر ما تؤثر النماذج الحية المتحركة بهذا الدّين.

* وقد ذكرنا في المبحث السابق أنّ آزر أبا إبراهيم كان يعبد الأصنام، بل كان ممّن ينحتها ويبيعها، وهو أقرب الناس إلى إبراهيم عليه السلام وألصقهم به، وأولاهم بالهداية، وأجدرهم بإخلاص النصيحة؛ فمن البرّ به أن يهديه سواء السبيل[1].

وهذا واجب كلّ داعية أن يبدأ مع أقربائه وأهله بدعوتهم إلى الخير تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾[2]. وهذا أمر توجّه إلى النبيّ ﷺ في بدء دعوته، وقد بدأ ﷺ أوّل ما بدأ بدعوة أهله وأقربائه؛ وذلك لأنّه إذا آمن أهله ولبّوا دعوته كانوا له سنداً قوياً فيحمونه ويؤازرونه ويدافعون عن دعوته بكلّ ما يستطيعون.

ولا بدّ من البدء مع الأقربين حتى تبرأ ذمة الداعي إلى الله من التفريط في حقّ أهله.

وقد نجد بعض الدعاة يهتمّون بدعوة النّاس من غير أهلهم وليس لهم أدنى اهتمام بأقربائهم، وهذا ـ لا شك ـ من الخطأ العظيم بمكان، فينبغي أن يوازن الداعية بين اهتمامه لكلا الجانبين.

* وكون آزر من الناحتين للأصنام، والداعين إلى عبادتها، فهو إذن داعية إثم ومبعث فتنة، فهدايته قربى إلى الله عظيمة، واستئصال لبذور الشرّ واجتثاث لجذور الضلال[3].

ولهذا أيضاً جدّ ابنه إبراهيم في دعوته.

وهذا يدلّنا على أهمية دعوة مصدر الشر ومبعث الفتنة، وعدم إغفاله. ولا بدّ من المحاولة الجادّة تلو المحاولة في هدايته وإيصال الدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة عسى أن يهتدي؛ إذ أنّ أثره على المجتمع كبير، فقد يهتدي بسبب هدايته الكثير من النّاس الّذين أخذوا عنه واقتدوا به من قبل.

---

(١) انظر: قصص القرآن لمحمد أحمد جاد المولى ص ٣٣.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢١٤.

(٣) انظر: قصص القرآن لمحمد أحمد جاد المولى ص ٣٣.

* وفي تصدير نصائحه لأبيه بقوله: (يا أبت) أي بلفظ الأبوّة التي هي أقوى الروابط وأوثقها؛ استهلال جذّاب يستميل بـه قلب أبيـه، ويكسر حـدّته؛ حتى يستطيـع تبليغه رسالة الله ويقيم الحجة أمامه وهو هادىء غير ثائر(١).

وهـذا الأسلوب أدعى لاستماعـه الذي هـو طريق لانتفـاعـه، وهـو من الأدب في مخاطبة الآباء ومن الإحسان في دعـوتهم؛ إذ أنه يختلف أسلوب الـدعوة مـع الآباء عن غيرهم من الناس، بحكم مكانتهم وما ينبغي تجاهها على حدّ قوله: ﴿. . .وصاحبهمـا في الدنيا معروفاً. . . الآية﴾(٢).

وهكـذا ينبغي أن يلجأ الـداعيـة ـ أولاً ـ إلى استعمـال العـاطفـة لعلّهـا تفسـح الطريق للعقل أن يتفكّر ويتدبّر فيتّعظ وينتفـع.

وبصـورة عامّـة يجب على الداعيـة أن يُحسِن اختيـار الأسلوب الّـذي يـدعـو بـه الآخرين، كلّ على حسب ما يناسب حـاله، ممّـا يكون لـذلك أكبـر الأثر في استمـالة قلب المدعو للاستماع ومن ثمّ انتفـاعه بمـا يسمـع إن شاء الله. وهـذا من الحكمة في الدعوة وقـد أمر الله بـذلك فقـال: ﴿ادع إلى سبيل ربـك بالحكمـة والموعـظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن. . . الآية﴾(٣)، وقال: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئـة ادفـع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنّه ولي حميم﴾(٤).

فبحسن الأسلوب يصبـح العدو صديقاً؛ والبعيد من الهداية قريباً منهـا، وكما أنّ لكلّ شيء أسباباً فللهداية أيضاً أسباب وأوّل أسبابها الأسلوب الحسن اللطيف؛ ولذلك خـاطب الله نبيّـه محمـداً ﷺ قـائـلاً لـه: ﴿ولـو كنت فـظّاً غليظ القلب لانفضـوا من حولك. . . الآية﴾(٥).

---

(١) انظر: منهـج الأنبياء في الدعوة إلى الله لمحمد سرور ١/ ٩٤ ـ ٩٥.
(٢) سورة لقمان: الآية ١٥.
(٣) سورة النحل: الآية ١٢٥.
(٤) سورة فصّلت: الآية ٣٤.
(٥) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

٢ ـ العبر والفوائد من قوله: ﴿يا أبت لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾:

* إنّ إبراهيم عليه السلام مع إنكاره على أبيه أشدّ الإنكار أن يعبد غير الله؛ إلاّ أنّه لحلمه وحكمته أخرج استفهامه الإنكاري في طريقة لطيفة تقترب من الاستفهام التنبيهي، وبهذا الاستفهام يوقع الحجة بحسن أدب، فهو لم يصرح بضلاله بل طلب العلّة التي تدعوه إلى عبادة ما يستخف به العقل الصحيح؛ فإنّ الأصل في العبادة أن يتوجّه بها الإنسان إلى من هو أعلى وأعلم وأقوى منه، وأن يرفعها إلى مقام أسمى وأسنى من مقامه، فكيف يتوجّه بها إلى ما هو في مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان، لا يسمع ولا يبصر ولا يملك ضرّاً ولا نفعاً، والشيء ولو كان حيّاً مميّزاً سميعاً بصيراً مقتدراً على النفع والضرّ، ولكن كان ممكناً لاستنكف العقل القويم عن عبادته، وإن كان أشرف الخلق كالملائكة والنبيين لما يراه مثله في الحاجة والانقياد للقدرة الواجبة[1].

* وفي استفهام إبراهيم عن سبب العبادة لفت للنظر عميق يبعث على الشكّ والبحث[2].

وهذا أسلوب جيّدٌ في نقض الدّعاوي الباطلة التي يتمسّك بها أهل الضلال؛ لأنّ بعث الشّك في النفس الضالّة ممّا هي متمسّكة به طريق إلى بحثها عن البديل الحقّ الذي ينبغي أن يتوجه إليه.

كما أنّه يعلّمنا ـ هنا ـ سيدنا إبراهيم كيفية الدعوة مع غير المؤمنين، وهو سلوك سبيل الإقناع العقلي أولاً؛ إذ أنّ هذا الصّنف من المدعوّين غير مؤمن ـ أساساً ـ بكلّ ما عند المؤمنين بالله من الكتاب والسنة، وبالتالي فلن يستجيب إذا ذكّر ببعض الآيات

---

(١) انظر: حسن محمد باجودة، تأمّلات في سورة مريم (القاهرة: دار النصر للطباعة الإسلامية ـ دار الاعتصام، ١٩٧٨م) ص ٨٧ ـ ٨٨؛ تفسير البيضاوي ٤/٨؛ في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/٢٣١١.

(٢) محمد محمود حجازي، التفسير الواضح، الطبعة الأولى، ٢ مج (بيروت: دار الكتاب العربي ١٤٠٢هـ) ٢/١٠.

أو الأحاديث. فلا بدّ من إقامة البرهان والحجة العقلية أولاً، ثمّ يتبع ذلك الاستشهاد بما تيسّر من الكتاب والسنة.

٣ ـ العبر والفوائد من قوله تعالى: ﴿يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً﴾:

* وفي هذه الآية يستمر إبراهيم عليه السّلام في خطاب أبيه بالأسلوب اللّيّن الرفيق؛ استمالة لقلبه شيئاً فشيئاً عساه أن يذعن لأمر الله الذي جاءه به.

ولم يصف أباه بالجهل، ولا وصف نفسه بالعلم الكامل لأنّ ذلك ممّا يُنفّر، بل قال له: إنّي قد أعطيت شيئاً من العلم قليلاً ولم تُعطه؛ ولا ضير عليك في شيء إن اتبعتني، فإنّك بهذا اتبعت ابنك حتى يهديك إلى الصراط المستقيم.

وكأنّه يقول له: هب يا أبي أنّا سائران في الطريق وأنا على علم به، أفلا يكون من الخير أن تتّبعني حتى تصل إلى برّ السلامة، وأنت أبي على كلّ حال وأنا ابنك البارّ.

* وإضافة إلى هذا فهو لم ينسب العلم إلى نفسه؛ إنّما ردّه إلى الذي جاءه منه فهداه به وهو الله سبحانه. ولو أنّه أصغر من أبيه سنّاً وأقلّ تجربة ولكن المدد العلويّ الذي جاءه جعله يفقه ويعرف الحقّ، فمدار القيمة العلميّة لا يرجع إلى كِبَرِ السنّ أو صغره، فقد يكون صغير السن أعلم ممّن هو أكبر كما كان الشأن في ابن عباس رضي الله عنه وغيره... وليست هناك غضاضة في أن يتّبع الوالد ولده إذا كان الولد على الحقّ؛ فالقصد اتباع الحقّ والصّواب[1].

* أمّا قوله: ﴿فاتبعني﴾ فهو واحد من الأدلّة ـ التي لا يكاد يأتي عليها الحصر في القرآن الكريم ـ على أنّ دور الأمّة بخصوص العقيدة قاصرٌ في كلّ زمان وفي كلّ مكان على الاتّباع، فليس هناك مجال مطلقاً للتغيير أو التبديل، أو الزيادة أو النقص، فقد جاء ـ مثلاً ـ على لسان يوسف عليه السلام: ﴿واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب... الآية﴾[2].

---

(١) انظر: التفسير الواضح لمحمد حجازي ٢/١٠؛ في ظلال القرآن لسيد قطب ٢/٢٣١١.
(٢) سورة يوسف: الآية ٣٨.

وجاء كذلك على لسان المصطفى ﷺ في قوله تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾[1].

فكلّ ما كان خارجاً عن الاتّباع فهو من البدع المنهيّ عنها[2].

* وقوله: ﴿أهدك صراطاً سويّاً﴾ يقطر إخلاصاً وحباً وحناناً وبراً[3]. وهكذا ينبغي أن يسعى الأبناء في هداية آبائهم بكلّ إخلاص، ويشعروهم بمحبتهم؛ وحنانهم عليهم. وفي السعي في هدايتهم أداء لواجب البرّ بهم، بل إنّ هذا هو أعظم البرّ بالآباء؛ لأنّ فيه سعادتهم في الدّارين.

وإنّ الواقع ليرينا أنّ أعظم ما يكنّه الآباء لأبنائهم من البرّ بهم، ويذكرونهم به، إنّما هي كلمات نصحوهم بها في أمر دينهم فكان لها الأثر الحسن في حياتهم من بعد.

٤ ـ العبر والفوائد من قوله تعالى: ﴿يا أبت لا تعبد الشيطان إنّ الشيطان كان للرّحمن عصياً﴾:

* يستعمل عليه السلام هنا النّهي الصّريح في هذه المرّة بقوله: ﴿لا تعبد﴾.

ونلحظ في هذا تطوره في الأسلوب؛ فمن قبل قال: (لم تعبد)، فهو قد تدرّج حتّى وصل إلى مرحلة النهي الصّريح.

وهذا التدرّج دليل على حلمه ـ عليه السلام ـ من جهة، ودليل على تشبث آزر بعبادة الأصنام من جهة أخرى.

ومع ذلك فإنّه في نهيه أباه عن عبادة من لا يستحق العبادة، يجيء على لسانه النّهي عن عبادة الشيطان، ولا يجيء على لسانه لا تعبد ما لا يسمع ولا يبصر... إلخ.

ولا يخفى أنّ قوله عليه السلام لا زال يتمشى مع ما عرف به من حلم، ومع

---

(١) سورة يوسف: الآية ١٠٨.

(٢) تأملات في سورة مريم لباجودة ص ٩١ ـ ٩٢.

(٣) المرجع السابق: ص ٩٢.

فكرة التدرّج التي يسير عليها في حديثه[1].

والتدرج ـ ممّا لا شكّ فيه ـ أنّه من الحكمة المطلوبة في باب الدعوة إلى الله؛ وذلك لكبير أهميته في استجابة المدعوّين، إذ أنّ الأمر المطلوب عرضه على المدعو إذا ألقي بداية عليه دونما مقدّمات تهيِّىء لتقبّله واستحسانه ورضاه به؛ فإنّه سيؤدّي ذلك إلى إنكاره، بل وقد يؤدّي إلى النفرة من الداعية ودعوته التي يدعو إليها.

ومن هنا نقول: أنّه لا بدّ على كلّ داعية إلى الله، أن يضع لمن يدعوه مراحل وأساليب يتدرّج بها معه، مرحلة بعد مرحلة؛ حتى يصل إلى غايته المرجوّة بالتدرّج الحكيم.

ويكون بهذا قد انتظر الثمرة حتى نضجت، ولم يقطفها قبل نضوجها.

ومن فوائد التدرّج أيضاً أنّه وإن لم يستجب المدعو في النهاية ـ لما عرض عليه ـ فلن يكون نافراً من الدعوة وأهلها، بل قد يكون نصيراً لها في يوم من الأيام.

* ويحضرني مع ذكر التدرّج أن أنبّه إلى جانب آخر من جوانب الحكمة في الدعوة قد يسير هو والتدرّج في آن واحد، وهو جانب التنويع في العرض؛ لأنّ التكرار لنفس الأفكار بأسلوب واحد قد يورث الملل عند المدعو. وقد لا يجدي مع المدعو أسلوب معيّن، ويجدي معه أسلوب آخر، إلى أن يأتي الأسلوب المناسب الذي يلمس قلبه فيذعن.

وبالتالي، فإنّه ينبغي أن لا ييأس الداعية إلى الله من عدم قبول الناس لدعوته، بل عليه أن يستخدم كلّ المفاتيح التي يمكن استخدامها للوصول إلى قلب المدعوّين حتى يملك عليهم قلوبهم فيؤثّر فيهم، ومن ثمّ يكون قد وصل إلى هدفه وهو هداية الآخرين.

* ويذكر الفخر الرازي سؤالاً ـ قد يخطر على بال الكثير ـ ويجيب عليه، ويجدر بنا أن نورد كلامه في هذا لما له من الفائدة:

أمّا السؤال فيقول عنه: «فإن قيل إنّ هذا القول يتوقّف على إثبات أمور.

---

(١) انظر تأمّلات في سورة مريم لباجودة ص ٩٢.

أحدها: إثبات الصانع أي الله. **وثانيها**: إثبات الشيطان. **وثالثها**: أنّ الشيطان عاص لله. **ورابعها**: أنه لمّا كان عاصياً لم تجز طاعته في شيء من الأشياء. **وخامسها**: أنّ الاعتقاد الذي كان عليه ذلك الإنسان (آزر) كان مستفاداً من طاعة الشيطان، ومن شأن الدلالة التي تورد على الخصم أن تكون مركّبة من مقدّمات معلومة مسلّمة لديه، ولعلّ أبا إبراهيم كان منازعاً في كلّ هذه المقدّمات، وكيف والمحكيّ عنه أنّه ما كان يثبت إلّهاً سوى نمرود، فكيف يسلّم بوجود الإلّه الرحمن، وإذا لم يسلّم بوجوده، فكيف يمكنه تسليم أنّ الشيطان كان عاصياً للرحمن، ثم إنّه على تسليم ذلك، فكيف يسلّم الخصم بمجردّ الكلام أن مذهبه مقتبس من الشيطان، بل لعلّه يقلب ذلك على خصمه؟».

(ويجيب عليه بقوله): «الحجّة المعوّل عليها في إبطال مذهب آزر هو الذي ذكره أولاً من قوله: ﴿لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر... الآية﴾ فأمّا هذا الكلام فيجري مجرى التخويف والتحذير الذي يحمله على النظر في تلك الدلالة. وعلى هذا التقدير يسقط السؤال»[1].

* ومن البلاغة القرآنية ـ في هذه الآية ـ ما يلي:

ـ إنّ إعادة النداء بقوله: ﴿يا أبت﴾ لزيادة تأكيد ما أفاده النداء الأول والثاني، من استجلاب حنان وعطف أبيه؛ للرغبة في أيمانه[2].

ـ وعبّر عن عبادة الأصنام بعبادة الشيطان إفصاحاً عن فسادها وضلالها، فإنّ نسبة الضلال والفساد إلى الشيطان مقرّرة في نفوس البشر، ولكن الذين يتّبعونه لا يفطنون إلى حالهم، ويتّبعون وساوسه تحت ستار التمويه مثل قولهم: ﴿إنّا وجدنا آباءنا على أُمّة وإنّا على آثارهم لمقتدون﴾، ففي الكلام هنا إيجاز[3].

ـ وقوله: ﴿إنّ الشيطان كان للرحمن عصيّاً﴾ فيه: أنّ ذِكر وصف «عصياً» الذي هو من صيغ المبالغة في العصيان، مع زيادة فعل كان؛ للدلالة على أنّه لا يفارق

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي: ٢١/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٦/ ١١٦.

(٣) انظر: المرجع السابق ١٦/ ١١٦.

عصيانه وأنّه متمكّن منه، فلا جرم أنّه لا يأمر إلّا بما ينافي الرحمة، أي بما يفضي إلى النقمة؛ ولذلك اختير وصف الرّحمـٰن من بين صفات الله تنبيهاً على أنّ عبادة الأصنام توجب غضب الله فيفضي إلى الحرمان من رحمته. فمن كان هذا حاله فهو جدير بأن لا يُتّبع.

وإظهار اسم الشيطان في مقام الإضمار لإيضاح إسناد الخبر إلى المسند إليه، ولزيادة التنفير؛ لأنّ في ذكر صريح اسمه تنبيهاً إلى النفرة منه، ولتكون الجملة موعظة قائمة بذاتها[1].

٥ ــ العبر والفوائد من قوله تعالى: ﴿يا أبت إنّي أخاف أن يمسّك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليّاً﴾:

* يختم ــ عليه السلام ــ نصحه لأبيه بتخويفه من سوء العقاب الذي يناله إن ظلّ على ضلاله، ولكنّه قرن هذا التخويف بالأدب الجمّ الذي لا يفارقه في كلّ نصائحه؛ فقوله: ﴿يا أبت﴾ دليل على أنه لو استمرّ حديثه لصدّر كلّ فكرة بهذه البداية الدالّة على حسن صحبته لوالده[2].

* وقوله: ﴿إنّي أخاف أن يمسّك عذاب﴾ تدل على ما يحمله قلبه ــ عليه السلام ــ من الشفقة على أبيه في أن يظلّ عابداً للشيطان فيناله عذاب الله، فهو يخاف على أبيه بسبب ذلك مجرّد المسّ الدالّ على أقلّ كميّة ممكنة من العذاب، وعند تأمّلنا لكلمة (عذاب) نجد أنّها جاءت منكّرة وليست معرّفة، وتنكيرها يتمشّى مع المسّ وتؤكّد معها أنّ كميّة العذاب محدودة[3].

وهذا هو ما ينبغي أن يكون عليه شأن الداعية إلى الله مع أهله خاصّة ومع الناس عامّة؛ أن يحمل لهم في قلبه كلّ الشفقة عليهم... الشفقة التي تدفعه إلى أن يخلص في دعوتهم لينقذهم من عذاب الله وولاية الشيطان.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٦/١١٧.

(٢) انظر: تأمّلات في سورة مريم لباجودة ص ٩٤.

(٣) انظر: المرجع السابق ص ٩٤.

* ومن أدبه عليه السلام أنّه لم يصرّح بلحوق العذاب، بل أخرج ذلك مخرج الخائف[1].

وهذا ــ لا شكّ ــ من الأدب في مخاطبة الآخرين، فلا يقال لهم: إنّ العذاب لا محالة واقع بكم؛ لأنّ هذا القول يدعوهم إلى اليأس من رحمة الله ومن ثَمّ النفرة من دينه،وإضافة إلى هذا فإنّ أمر الخاتمة ممّا لا يعلمه الإنسان، وإنّما مردّ ذلك إلى الله، فلو قال ذلك لكان كلامه تألّياً على الله.

* ومن أدبه ــ أيضاً ــ أنّه أتى بلفظ المسّ في قوله: ﴿أن يمسّك﴾؛ لأنّ المسّ ألطف من المعاقبة، فلا يجيء على لسانه: أن ينالك أو أن يلحق بك[2].

وهذا من الرفق المطلوب في الدعوة إلى الله.

فعلى الدعاة أن يقتدوا بأبي الأنبياء في دفقه بمن يدعوه، وليكونوا رفقاء بمن ينصحون، فالرفق أمرٌ وسببٌ مطلوب لوصول الداعية إلى ما يريده من مدعوّيه، وإضافة إلى هذا فإنّه يثاب عليه، وقد قال النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «يا عائشة إنّ الله رفيق يحبّ الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه»[3].

كما أنّ بالرفق تُكسَب القلوب؛ وبالعنف تنفر النفوس. قال ﷺ: «إنّ الرّفق لا يكون في شيء إلاّ زانه ولا ينزع من شيء إلاّ شانه»[4].

* ونلاحظ في كلام إبراهيم ــ عليه السلام ــ لأبيه أنّه لا يفتأ لسانه عن ذكر الله بلفظ (الرحمن)، فهو يؤثره على كلّ لفظ سواه من أسماء الله الحسنى؛ وذلك ليحمل أباه على التفكير والتدبّر في السبب الذي يجعل الله البَرّ الرحيم يعذبه فلعلّه يقلع عنه[5].

---

(١) انظر: البحر المحيط لأبي حيان ٦/١٩٤.

(٢) انظر: تأمّلات في سورة مريم لباجودة ص ٩٤؛ البحر المحيط لأبي حيان ٦/١٩٤.

(٣) رواه مسلم: كتاب البرّ، باب فضل الرفق، حديث رقم ٧٨، ٥/٤٥٣.

(٤) رواه مسلم: كتاب البر، باب فضل الرفق، حديث رقم ٧٩، ٥/٤٥٣.

(٥) انظر: تأمّلات في سورة مريم لباجودة ص ٩٥.

وكـأنّـه يقـول لـه: تبْ إلى الله من كُفْـرِكَ بـه، وأسلم لـه فـإنّ الإسـلام يجبّ ما قبله، وربّنا يرحم ويغفر وهو التوابُ الرحيم.

* وهكذا يتبيّن لنا أنّ إبـراهيم عليه السـلام ــ في حديثـه مع أبيـه آزر ــ لم يعرض لجانب واحد من القضيّة إنّما عرض لقضيّة كاملة ذات جوانب متعـدّدة، في طريقـة من الكلام جميلة تدلّ على علم وحلم وبر.

وكان لهذا العرض الجميل المنطقي المتدرّج أثر على والده، وكفـانا دليـلاً على ذلـك أنّه تـركَ لابنه الفـرصة كـاملة كي يقول كـلّ ما عنـده، ويقلّب الأمر على وجـوهه المختلفة، دون أن يحمل هذا الأب المفتون بآلهته على أن يقـاطـع ابنه أثنـاء حديثـه؛ فضلاً عن أن يبطش بـه، وعلى الـرغم من أنّه يهاجم الآلهة التي لهـا المنزلـة الرفيعـة في نفس آزر، وهو لم يصرّح بـرغبته عن الآلهـة فقط، ولكنّه نصّ على البـديل الحقّ، وتعرّض كذلك لعدوّ الإنسان الشيطان الرجيم وتعرّض أيضـاً للبعث والنار والجـزاء. . . وهكذا[1].

٦ ــ العبر والفوائد من ردّ آزر العنيف لابنه في قوله تعالى: ﴿أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنّك واهجرني مليّـاً﴾:

* إنّ بهذه القسوة قابل آزر نصيحة ابنه المؤدّب المهذّب إبراهيم عليـه السلام. . . قابل الرفق بالعنف، والوعظ بالسفاهة، والتعطّف بالفظاظة والغلظة.

وذلك هو شأن الإيمان مع الكفر، وشأن العقل الذي هذّبه الإيمان والقلب الـذي أفسـده الكفر والبعـد عن الله عـزّ وجـلّ، فكـلّ إنـاء بمـا فيـه ينضـح، وكـلّ ينفق ممّـا عنده[2].

وفي هذا الموقف الأبويّ العنيف تسلية للنبـي ﷺ آنذاك على ما كـان يلاقيـه من الأذى من عمّه أبـي لهب، ومن قومه عامّة. وكذلـك للصحابـة الذي كـانوا يعـانون من آبائهم وأمّهاتهم المشركين.

---

(١) انظر: المرجع السابق ص ٩٦.

(٢) انظر: حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٣٩؛ تفسير المراغي ١٦/٥٧؛ في ظلال القـرآن لسيد قطب ٤/٢٣١٢.

وهو تسلية وتثبيت ــ أيضاً ــ لمن جاء من بعد ذلك من المؤمنين الّذين يلاقون من أهليهم وذويهم ــ الذين فسدت فطرتهم وبعدوا عن الحقّ وصدّوا عنه ــ الأذى والإعراض.

وإنّ من الأمور المعلومة أنّ أشدّ ما يكون على نفسيّة الداعية إلى الله أن يجد أهله وذويه يعارضونه في دعوته ويؤذونه بالفعال والمقال، ويهجرونه ويصدّون عنه الناس.

وإنّ هذا لهو من سلسلة الامتحانات التي يمتحن الله بها عباده المؤمنين ليميّز بينهم وليعرف صدقهم.

فلا علاج في هذا الموقف إلاّ الصبر والتجلّد أمام هذه المواقف المؤثّرة والله خير معين.

* إنّ موقف آزر غير ودّي البتّة تجاه ابنه، مع أنّه جرى في العرف والطبيعة البشرية أن يكون جانب العطف والشفقة من الأب أكثر، ولكن هنا نرى العكس.

وهذا يدلّ على أثر الكفر والشرك بالله في تغيير الفطرة البشرية والطبيعة الإنسانية. وهذا ما نشاهده جليّاً واضحاً في كفرة هذا الزمان البعيدين عن دين الله، فكم من الحوادث التي أصبحت أمراً طبيعيّاً في حياة هذه الفئة من الناس، فحوادث قتل الآباء والأمّهات لأبنائهم وعدم إكتراثهم لذلك. وغير ذلك من التصرّفات اللاإنسانية المنبئة عمّا يفعل الكفر والبعد عن الله في انحراف وفساد الفطرة الإنسانية.

ألا فليعتبر أولوا الألباب.

* وفي ردّ آزر على إبراهيم ــ بقوله: ﴿أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم...﴾ ــ دعوة منه لابنه أن يعبد إلّهه وألاّ يرغب عن ذلك.

وإنّه لمن عظائم الأمور أن يدعو الأب ابنه إلى عبادة غير الله وترك ما هو عليه من الحقّ والإيمان.

فإذا لم يكن إيمان الولد قوياً راسخاً فإنّه قد يركن إلى قول أبيه ويخرج بذلك من النور إلى الظلمات؛ أمّا إذا كان إيمانه قوياً كإيمان إبراهيم عليه السلام فإنّه ــ بإذن الله ــ سيبقى في النور ولن يخرج منه إلى الظلمات.

فالواجب هو أن يقوم الآباء بدعوة أبنائهم إلى الحقّ وتثبيتهم عليه؛ لا دعوتهم إلى الضلال وإخراجهم من النور إلى الظلمات. فلنعتبر!

٧ ـ العبر والفوائد من حلم إبراهيم عليه السلام، والظاهر في قوله تعالى: ﴿قال سلام عليك سأستغفر لك ربّي إنّه كان بي حفيّاً. وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربّي عسى ألاّ أكون بدعاء ربّ شقيّاً﴾.

* نشاهد في هذا القول قمّة البرّ الذي تمتّع به إبراهيم عليه السلام، فمع جهل أبيه عليه وتهديده له لم ينس حق الصحبة بالمعروف: ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً... الآية﴾[١].

* وفي قوله: ﴿سلام عليك﴾ نلمح قمّة الحلم الذي وصل إليه إبراهيم عليه السلام، وبهذه الصفة كان عليه السلام من أولي العزم من الرسل: ﴿ولمن صبر وغفر إنّ ذلك لمن عزم الأمور﴾[٢].

وهذه الصفة العظيمة لازمة لكلّ داعية إلى الله؛ لأنّ لها أكبر الأثر في استجابة الناس، كما أنّ معها يثبت الأجر حتى لو لم يستجب أحد. وقد مدح الله عباده المؤمنين بهذه الصفة فقال: ﴿...والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحبّ المحسنين﴾[٣].

ويذكّرني موقف الخليل ـ هذا ـ مع أبيه بذاك الصحابي الجليل الذي جاء إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله إنّ لي قرابة أصلهم ويقطعوني وأحسن إليهم ويسيئون إليّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليّ. فقال ﷺ: «لئن كنت كما قلت فكأنّما تسفّهم الملّ ولا يزال معك من الله تعالى ظهير عليهم ما دمت على ذلك»[٤].

---

(١) سورة لقمان: الآية ١٥.

(٢) سورة الشورى: الآية ٤٣.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٣٤.

(٤) رواه مسلم: كتاب البرّ، حديث رقم (٢٠)، ٥/٤٢٣.

والمَلّ بفتح الميم هو الرماد الحارّ، ومعناه: كأنّما تطعمهم الرماد الحارّ، وهو تشبيه لما يلحقهم =

وكما يقال: إنّ الحلم هو سيد الأخلاق.

والداعية الحليم هو الذي ينجح في دعوته، أمّا الذي يغضب ولا يعفو ولا يتجاوز عن سيّئات الناس وأذاهم، فإنّه لا محالة سيترك هذا المجال لعدم اتّصافه بصفة الصبر اللازمة لأصحاب هذا الطريق.

وها هو ذا لقمان الحكيم حين أوصى ابنه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ أوصاه بالصبر على ما يصيبه في أداء هذا الواجب: ﴿يا بنيّ أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانْهَ عن المنكر واصبر على ما أصابك إنّ ذلك من عزم الأمور﴾[1].

وزيادة على هذا فإنّ الحلم دليل على عدم الانتصار للنفس، لأنّه متى أراد الداعية أن ينتصر لنفسه فإنه سيخرج عن الجادّة وعن التصرّف السليم، وهكذا كان الخليل عليه السلام، وهكذا ينبغي أن يكون الدعاة، لا ينتصرون لأنفسهم، فإن غضبوا غضبوا لله، ولا يتعالون على المدعوّين في نقاشهم معهم، بل وينبغي أن يتركوا لهم كلّ الفرصة لعرض ما يريدون؛ وذلك حتى يسهل قيادهم إلى اتباع دين الله[2].

* وإنّ قوله: ﴿سلام عليك﴾ تحمل ـ أيضاً ـ معنى التوديع والمتاركة، ومقابلة السيئة بالحسنة[3].

وتلك صفات عباد الرحمن: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾[4]، ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾[5].

وإنّما يقال هذا القول بعد بذل كلّ المحاولات لهداية المدعوّين، وعدم وجود الاستجابة، ولم تعد تنفع معهم أيّة محاولة.

= من الألم بما يلحق آكل الرماد الحارّ من الألم، ولا شيء على هذا المحسن بل ينالهم الإثم العظيم في قضيّة إدخالهم الأذى عليه.

(١) سورة لقمان: الآية ١٧.

(٢) انظر: منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله لمحمد سرور ١/٩٦.

(٣) انظر: تفسير البيضاوي ٤/٩.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٦٣.

(٥) سورة القصص: الآية ٥٥.

وهذا هو شأن الداعية وصفته المميّزة، إذا أسيء إليه قابل بالحسنة وأعرض عمّن جهل عليه اتباعاً لأمر ربّه: ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون﴾(١).

وبهذا يكسب الداعية مدعوّيه: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنّه وليّ حميم﴾(٢).

ونذكر في هذا المقام كلاماً للشيخ عبد الرحمن السعدي حيث يقول: «وقد أمرنا الله باتّباع ملّة إبراهيم عليه السلام، فمن اتّباع ملّته سلوك طريقه في الدعوة إلى الله بطريق الحكمة والعلم، واللين والسهولة، والانتقال من رتبة إلى رتبة، والصبر على ذلك، وعدم السآمة منه، والصبر على ما ينال الداعي من أذى الخلق بالقول والفعل، ومقابلة ذلك بالصفح والعفو؛ بل بالإحسان القولي والفعلي»(٣).

* وفي قول إبراهيم عليه السلام: (سأستغفر لك ربّي) امتداد في بيانه لحقيقة الدعوة، فإذا كان قد نفى السمع والبصر والقدرة عن الآلهة من قبل، فإنّه أثبت لله في كلامه هذا ما يليق به من صفات، ومن يغفر الذنوب إلّا القادر على كلّ شيء.

وكذلك فللفظ الربّ في قوله مغزى بعيد ووقع حميد؛ يهيّئان للانتقال إلى الجزئية الأخيرة في الآية: ﴿إنّه كان بي حفيّاً﴾ الدالّة على إكمال النعمة وإتمام الفضل، إذ الودّ إنّما يكون من نصيب عباد الله المؤمنين الصالحين، وقد جاءت الإشارة إلى ذلك صراحة في آخر هذه السورة ـ سورة مريم ـ في قوله تعالى: ﴿إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّاً﴾(٤).

فأين توجد هذه المعاني الرائعة من نفي أبسط الصفات عن تلك الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني شيئاً. وكأن إبراهيم يريد من أبيه أن يقارن بين هذه المعاني الخاصّة بالسميع والبصير القادر على كلّ شيء، وبين حقيقة تلك الأصنام

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٩٦.
(٢) سورة فصّلت: الآية ٣٤.
(٣) تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي: ١١٣/٥.
(٤) سورة مريم: الآية ٩٦.

العاجزة. وإن لم تكن المقارنة في الحال فلتكن بعد ذلك، فالمهمّ أن يحمل فكر والده على العمل والتدبّر[1].

* وقوله: ﴿وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربّي عسى ألّا أكون بدعاء ربّ شقيّا﴾ ينتقل فيه إلى خطاب الجماعة، بعد أن استخدم قبله ضمير المفرد المخاطب.

وهذا أيضاً من حلمه وبرّه؛ فقد كان يستخدم ضمير المفرد حين تحدّثه فيما يتصل بأبيه وخاصّة فيما يتمنّاه له من خير، أمّا حين جاء دور الردّ على أبيه بعد التهديد والوعيد لم يردّ عليه بجملة مماثلة، بل يقول له: ﴿وأعتزلكم﴾ فيدخله في مجموع المخاطبين العابدين لغير الله أدباً وبرّاً وحلماً بأبيه. فما أعظم أسلوب خليل الله في الدعوة إلى الله.

كما أنّ اختياره لكلمة (الاعتزال) دون كلمة (الهجر) يشير إلى ذلك أيضاً؛ فالهجر كلمة تعني البعد البيّن، ومن متعلقاته البغض، أمّا الاعتزال فإنّه يعني البعد وعدم المشاركة والموافقة في الرأي. وإضافة إلى هذا فإنّ الهجر يحمل معنى اليأس من الاستجابة، والاعتزال يحمل من الأمل في الهداية وتكرير المحاولة إذا سنحت الفرصة[2].

ولا يلام عليه السلام في اعتزاله هذا ومفاصلته لأبيه وقومه؛ لأنّه قد بذل كلّ ما في وسعه من إرشادهم وهدايتهم ولم يجد منهم إلّا العناد والتكذيب والصدود، بل والأذى بالقول والفعل. فلا بدّ إذن بعد هذا من المفاصلة والاعتزال.

وهذا حال الداعية الذي يدعو مراراً ويبذل كلّ جهوده ولكن لا مجيب ولا مستجيب، فعليه أن يعتزل المكذبين الضالّين وما يدينون به من الباطل، وأن يشتغل بإصلاح نفسه وتهذيبها، وبإصلاح من معه من المؤمنين. وذلك ما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم. . . الآية﴾[3].

---

(١) انظر: تأمّلات في سورة مريم لباجودة ص ١٠٠.
(٢) انظر: المرجع السابق ص ٩٩ ـ ١٠٣.
(٣) سورة المائدة: الآية ١٠٥.

٨ ـ العبر والفوائد من إكرام الله لنبيّه :

إنّ الله عزّ وجلّ جاعل مع العسر يسراً، ومن بعد الهمّ فرجاً ومخرجاً، وما ذلك إلاّ لأوليائه المتقين المتوكّلين عليه حقّ التوكّل. يقول تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكّل على الله فهو حسبه إنّ الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾(١).

وهذا إبراهيم الخليل عليه السلام ترك قومه واعتزلهم إرضاء لله تبارك وتعالى، فأبدله الله خيراً ممّا كان فيه. ﴿فلمّا اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاّ جلعنا نبياً. ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليّاً﴾.

ويؤكد الرازي ما ذكرناه بقوله: «اعلم أنّه ما خسر على الله أحد؛ فإنّ إبراهيم عليه السلام لمّا اعتزلهم في دينهم وفي بلدهم، واختار الهجرة إلى ربّه حيث أمره، لم يضرّه ذلك ديناً ولا دنيا، بل نفعه فعوّضه أولاداً أنبياء، ولا حالة في الدنيا والدين لبشر أرفع من أن يجعله الله رسولاً إلى خلقه، ويلزم الخلق بطاعته والانقياد له، مع ما يحصل فيه من عظيم المنزلة في الآخرة، فصار جعله إيّاهم أنبياء من أعظم النعم في الدنيا والآخرة»(٢).

وبهذه العبرة الجليلة نختم الكلام حول موقف إبراهيم عليه السلام مع أبيه آزر. والحمد لله.

وننتقل بعدها إلى الحديث عنه مع أبنائه. والله المستعان.

* * *

---

(١) سورة الطلاق: الآيتان ٢ ـ ٣.

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي: ٢١/ ٢٣٠.

الفصل الثاني

إبراهيم عليه السلام مع أبنائه

المبحث الأول

مع ابنه ـ الأكبر ـ إسماعيل عليه السلام

المطلب الأول

البشارة به

أولاً ـ بيان البشارة به:

تظهر لنا البشارة بإسماعيل عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وقال إنِّي ذاهب إلى ربي سيهدين. ربِّ هب لي من الصالحين. فبشّرناه بغلام حليم﴾[1]، وذلك بعد أن دعا إبراهيم عليه السلام قومه إلى عبادة الله وترك كلّ ما سواه، وحاجّهم في ذلك فأجمعوا على إلقائه في النار ليحرقوه، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً.

﴿وإنَّ من شعيته لإبراهيم. إذ جاء ربه بقلبٍ سليم. إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون. أئفكاً آلهةً دون الله تريدون. فما ظنّكم بربِّ العالمين. فنظرنظرة في النجوم. فقال إنِّي سقيم. فتَوَلّوْا عنه مدبرين. فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون. مالكم لا تنطقون. فراغ عليهم ضرباً باليمين. فأقبلوا إليه يزِفّون. قال أتعبدون ما تنحتون. والله خلقكم وما تعملون. قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم. فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين﴾[2].

---

(١) سورة الصَّافات: الآيات ٩٩ ـ ١٠١.

(٢) سورة الصَّافات: الآيات ٨٣ ـ ٩٨.

فأبطل الله كيدهم، وحينذاك وبعد أن رأى منهم ما رأى من الإعراض والأذى؛ قرّر مفارقتهم واعتزالهم، وطلب من الله أن يعطيه أولاداً صالحين مطيعين حتى يكونوا عوَضاً عن قومه وعشيرته، وليحملوا الرّسالة من بعده فقال: ﴿ربِّ هب لي من الصالحين﴾. فاستجاب الله دعاءه وبشّره ﴿فبشّرناه بغلام حليم﴾ وهذا الغلام الذي بُشّر به إنّما هو إسماعيل، إذ أنّه أوّل ولد بُشّر به إبراهيم عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق عليه السلام باتفاق المسلمين وأهل الكتاب.

وذلك أنّه حين فارق قومه من أرض «فدان آرم» بالعراق، توجّه هو وزوجته سارة وابن أخيه لوط الذي آمن ــ ﴿فآمن له لوط وقال إنّي مهاجرٌ إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم﴾[1] إلى أور الكلدانيين ثم إلى حاران، ثمّ اتّجهوا إلى أرض فلسطين، وسكن إبراهيم ولوط في تلك الأنحاء وكانت أرض الكنعانيين، فحدث جدبٌ في الأرض فانتقل إبراهيم إلى مصر وكان على مصر آنذاك ملوك الرعاة وهم العماليق (الهكسوس). وكانت سارة عمرها في ذلك الوقت سبعين عاماً أو أكثر، وكانت عاقراً لا تلد، وكان ملك مصر قد أعطاها جاريةً مصريةً تُدعى هاجر، وقد تألمت سارة إذ لم تجد لإبراهيم نسلاً وهي قد شاخت ولا يُرجى لها أن تكون أماً، فوهبته هاجر، فدخل بها فأتت منه بهذا الغلام الذي بُشّر به من قبل وهو إسماعيل[2].

واشتملت البشارة على ذكوريّة المولود، وبلوغه سنّ الحلُم، ووصفه بالحلم أيضاً.

ونلاحظ هنا أن الله عزّ وجلّ وصف إسماعيل بالحلم كما وصف أباه من قبل، وقيل: ما نعت الله الأنبياء عليهم السلام بأقلّ ممّا نعتهم بالحلم، وذلك لعزّة وجوده ولا شكّ أن الحلم هو رأس الصلاح وأصل الفضائل. قال الحسن البصري رحمه الله: (ما سمعت الله يُجلّ عباده شيئاً أجلّ من الحلم)[3].

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٢٦.

(٢) انظر: قصص الأنبياء لعبد الوهّاب النجار ص ٨٣ ــ ٩٢.

(٣) انظر: البحر المحيط لأبي حيّان ٣٦٩/٧؛ الكشاف للزمخشري ٣٤٧/٣؛ محاسن التأويل للقاسمي ١١٧/١٤؛ أبو الحسن علي بن حبيب الماوردي البصري، تفسير النكت والعيون، الطبعة الأولى ٤ مج (الكويت: مطابع مقهوي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، =

ثانياً ــ العبر والفوائد:

* يتبيّن لنا من حال إبراهيم عليه السلام ودعائه في طلب الولد الصالح ــ حتى يعينه على أمر الدعوة والتبليغ ويحملها من بعده للناس ــ ما ينبغي أن يكون عليه الداعية تجاه دعوته والرغبة في استمرارها وبقائها.

فوجود الأنصار للدعوة مما يضمن استمرارها ودوامها وانتقالها من جيلٍ إلى جيل.

وفي هذا دلالةً ــ أيضاً ــ على أن الدعوة إلى الله لا يكفي أن يقوم بشؤونها فرد واحد بذاته، بل لا بدّ له ممن يعينه عليها. وهذا مصداق لقوله تعالى ﴿ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخيْر ويأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾[1].

* ينبغي على من يطلب الولد أن ينهج نهج الخليل في طلبه الولد الصالح، وأن يدعو الله بهذا. وقد ذكر الله أنّ من صفات عباده المتقين طلب ذلك ﴿والذين يقولون ربّنا هبْ لنا من أزواجنا وذريّاتنا قرّة أعيُن واجعلنا للمتقين إماماً﴾[2]. وقرة العين بهم لا تكون إلَّا إذا كانوا من السالكين سبيل الصلاح.

كما أنّ الولد الصالح هو ممّا ينفع الله به العبد بعد موته. يقول النبيّ ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلَّا من ثلاثة إلَّا من صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[3].

* إنَّ الصلاح يُعتبر أفضل الصفات، بدليل أنّ الخليل عليه السلام طلبه لنفسه فقال: ﴿ربِّ هبْ لي حُكماً وألحقني بالصالحين﴾[4]، وطلبه ــ أيضاً ــ، لولده فقال: ﴿ربِّ هبْ لي من الصالحين﴾، وطلبه كذلك نبيّ الله سليمان بعد كمال درجته في

= التراث الإسلامي، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) ٣/٤٢١.

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٧٤.

(٣) رواه مسلم: كتاب الوصية، حديث رقم ١١، ٤/١٦٧.

(٤) سورة الشعراء: الآية ٨٣.

الدين والدنيا فقال: ﴿. . . وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾[1]. فهذا وغيره يدلّ على أن الصلاح أشرف مقامات العباد[2].

* إنَّ الله سبحانه قد استجاب دعاء خليله الذي تجرّد له وترك وراءه كلّ شيء وجاءه بقلب سليم. وهذا شأن الله مع كل من تجرّد له وانقطع إليه وإلى دعوته بأن يستجيب لدعائه ويعطيه سؤله. فعلى الدعاة أن يقتدوا بسيّدنا إبراهيم عليه السلام في صدقه وإخلاصه وتجرّده حتى يحقق الله الخير على أيديهم، وينشر لهم من رحمته ما يشاء.

* ويؤخذ من قوله تعالى: ﴿فبشّرناه بغلامٍ حليم﴾ دلالةٌ على استحباب البشارة والتهنئة بالمولود. فإنه يستحب للمسلم أن يبادر إلى مسرّة أخيه المسلم إذا ولد له مولود وذلك ببشارته وتهنئته. وفي هذا تقوية للأواصر وتمتين للروابط بين العوائل المسلمة. وإن فاتته البشارة استحب له تهنئته بالدعاء له ولطفله الوليد.

ونجد أن القرآن الكريم ذكر البشارة بالولد في مناسبات عدة إرشاداً وتعليماً للأمة الإسلامية فمع هذه الآية قال تعالى: ﴿وقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى. . . الآية)[3]، وقال تعالى: ﴿فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يُبشرك بيحيىٰ. . .﴾ الآية[4]، وفي آية أخرى أيضاً ﴿يا زكريا إنَّا نبشرك بغلامٍ اسمه يحيىٰ لم نجعل له من قبل سميّاً﴾[5].

وهذا ما يسعى إليه كتاب الله ــ دائماً ــ في إرشاده الأمّة بما يزيد من تآلف أسرها وأفرادها ونشر المحبة بينهم[6].

* ومرة أخرى نقف عند أهمية خلق الحلم، فإنَّ الله لمَّا بشّر إبراهيم بالولد قرن

---

(١) سورة النمل: الآية ١٩.
(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي: ١٥١/٢٦.
(٣) سورة هود: الآية ٦٩.
(٤) سورة آل عمران: الآية ٣٩.
(٥) سورة مريم: الآية ٧.
(٦) انظر: تربية الأولاد في الإسلام لعبد الله علوان ٦٧/١ ــ ٦٨.

بشارته بصفة الحلم، وما اختار غيرها من الصفات الطيّبة، وما ذاك إلّا لأهميتها، وتميّز من يتخلّق بها. وخصوصاً وأن إبراهيم كان قد طلب الولد ليعينه على أمر الدعوة فمن كمال البشارة أن تُقْرن بهذه الصفة التي تعطي إشارةً إلى صلاحية هذا الولد لأن يدعو ويستمر في دعوته، إذ أنّ بهذه الصفة ـ كما هو معلوم ـ يجذب الداعية قلوب الناس إليه، ويشوّقهم إلى سماع دعوته، ومن ثمّ انتفاعهم إذا شاء الله.

ومقابل هذه الصفة تأتي صفة الفظاظة وغلظة القلب، إذ أنها تسبب النفور وتورث العداوة وتقضي على روح التقبل للخير عند الناس، وتعزل الدعاة عن العامّة وتؤخّر مسيرة الدعوة، وبها يتملك اليأس والقنوط قلوب الناس[1] ﴿فبما رحمة من الله لِنت لهم ولو كنت فظّاً غليظ القلب لا نفضّوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر. . .﴾ الآية[2].

ألا فليتخلق الدعاة بهذا الخلق العظيم ﴿. . . وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾[3].

المطلب الثاني

ترك إسماعيل وأمّه في وادٍ غير ذي زرع

أولاً ـ بيان القصة:

أمر الله نبيه إبراهيم عليه السلام بحمل ابنه إسماعيل وأمّه إلى مكة، فذهب به وبأمّه إلى هذا الوادي المقفر والذي لا يوجد به أحد.

وبعد أن تركهم ابتهل داعياً إلى الله بقوله:

﴿ربنا إنِّي أسكنْت من ذرّيتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلّهم يشكرون﴾[4].

---

(١) انظر عبد الله ناصح علوان، أخلاقية الداعية، الطبعة الأولى (بيروت: دار السلام للطباعة والنشر ١٤٠٥هـ) ص ٢٦ ـ ٣٠.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

(٣) سورة النور: الآية ٢٢.

(٤) سورة إبراهيم: الآية ٣٧.

ولا يوجد في القرآن الكريم غير هذه الآية ممّا يُبيّن هذه القصة، ولكن جاء الحديث النبوي ففصّل ما أجمله لنا القرآن. ففي صحيح البخاري وردت هذه القصة مفصلة موضّحة كالتالي:

(قال ابن عبّاس: أول ما اتّخذ النساء المِنْطَق[1] من قِبل أم إسماعيل اتّخذت منطقاً لتُعَفّي[2] أثرها على سارة. ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذٍ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جِراباً فيه تمر وسِقاء فيه ماء، ثمّ قفّى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء، فقالت ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا. قال: نعم. قالت: إذاً لا يُضيّعنا ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنيّة[3] ــ حيث لا يرونه ــ استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه: (ربنا إنّي أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرّم... حتى بلغ يشكرون).

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوّى أو قال يتلبّط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصّفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم ترَ أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً فلم ترَ أحداً، ففعلت ذلك سبع مرّات. قال ابن عبّاس: قال النبي ﷺ: فذلك سعي الناس بينهما. فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه[4]. تريد نفسها، ثمّ تسمّعت فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غوَاث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فَبَحَثَ بعقِبه

---

(١) هو ما يُشَدّ به الوسط.

(٢) أي لتخفيه عليها بالترائي لها بزيّ الخادمة.

(٣) هي أعلى المسيل في رأس الجبل.

(٤) أي قالت لنفسها: اسكتي.

أو بجناحه حتى إذا ظهر الماء فجعلت تُحوِّضُه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف. قال ابن عبّاس: قال ﷺ: يرحم الله أمّ إسماعيل لو تركت زمزم أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً، قال فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضّيعة[1]، فإنّ ههنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإنَّ الله لا يُضيّع أهله. وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرّابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك حتى مرّت بهم رفقة من جُرْهُم أو أهل بيت من جُرْهُم مقبلين من طريق كَدَاء فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائفاً[2]، فقالوا: إنَّ هذا الطائر ليدور على ماء لَعَهْدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جَرْياً أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا. قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك. فقالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء. قالوا: نعم. قال ابن عبّاس: قال ﷺ: فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحبّ الأنس، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشبّ الغلام وتعلّم العربية منهم وأنفَسَهم وأعجبهم حين شبّ، فلما أدرك زوّجوه امرأةً منهم وماتت أم إسماعيل. . .) الحديث[3].

ولنا في هذه الرواية الصحيحة غنىً عن غيرها من الروايات.

ثانياً ــ العبر والفوائد:

* نشهد في هذه الحادثة قوة الإيمان والثقة بالله المتمثلتين في شخص إبراهيم الخليل عليه السلام؛ حيث أنّه انقاد لأمر الله في ترك ولده وأهله في هذا المكان الجدب، بل ولم يتردد لحظة واحدة في تطبيقه. فهو بهذا لم يستجب لنداء العاطفة فيتراخى عن تنفيذ أمر الله، وإنّما هي طاعة الله المحرّكة له ورضا الله هو المقدّم على ما سواه.

ومن المعلوم أنّ الزوجة والولد هما ممّا يتعلق بهما الإنسان وتشغله أمورهما،

(١) أي الهلاك.

(٢) هو الذي يتردد على الماء ويحوم حوله.

(٣) رواه البخاري: كتاب الأنبياء، باب يَزِفّون النّسلان في المشي، حديث رقم (١٦٦)، ٤/٢٨٢ ــ ٢٨٤).

وقد يُـؤدي هذا التعلق عند بعض الناس ممّن لم يُلامس الإيمان شغـاف قلوبهم إلى أن يُقدّموا مصالحهما على طاعة أوامر الله عزّ وجلّ، أما إبـراهيم عليه السـلام، ومن اتبـع هديه وكان في مثل إيمانه فإنه لا تصرفه كلّ الجواذب الدنيوية أو الأرضية عن طاعة الله وطلب محبته ورضاه.

ويصدق على هذا قول النبـيّ ﷺ «ثلاث من كُنّ فيـه وجد بهنّ حـلاوة الإيمان: أن يكـون الله ورسولـه أحبّ إليه ممـا سواهمـا. . .» الحديث[1] وهـذا بـلا شـكّ درْس يستفيد منه كل داعية إلى الله.

* إنّ هاجر كانت مثالاً للزوجة الصالحـة التي تعين زوجها على طـاعة الله والـدّعوة إلى دينه، وإنّها لكلمة عظيمة تلك التي قالتهـا لإبراهيم عليـه السلام! كلمـة تدلّ على صدق إيمانها وعظيم ثقتها باللّه، وتوكلها عليه سبحانـه: آللّه أمرك. . . إذاً لا يضيّعنـا، وكأنها تقول: ما دام هذا أمراً من الله فإنّا نلبّـي ونطيـع، ولن يتركنا الله للهلاك.

وكان ما حصل لهم من مظاهر عناية الله من نبـع ماء زمزم، وقدوم قبيلة جُـرْهُم، ومما لا يعلمه إلاّ الله من أمور العناية والرعاية لهم. وتلك نتيجة صدق الإيمان والتوكّـل على الله ﴿ومن يتـوكل على الله فهـو حسبه. . .﴾ الآيـة[2]، ﴿ومن يتـق الله يجعل لـه مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب. . .﴾ الآية[3].

ألا فليقتدين الزوجات في حسن المعاونـة والمساعـدة لأزواجهنّ على طاعـة الله وتبليـغ أمــر الــدعــوة، وليحملن أنفسهنّ على أن يـكنّ في صفّ الــواثقــات بــالله والمتوكلات عليه والصادقات. . ومـا أحوجنا اليوم إلى مثـل هـؤلاء اللاّتي يكنّ عنصـراً إيجابياً في مجال الدعوة إلى الله.

* ونرى أنّ إبراهيم عليه السلام بعد أن ترك زوجته وولده توجّه إلى الله متضرعاً إليه بدعاءٍ خاشـعٍ بأن يجعل أهله مقيمين للصلاة شاكرين لـه على نعمه.

---

(١) رواه البخاري: كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، حـديث رقم (١٥)، ١/١٨؛ ورواه مسلم: كتاب الإيمان، حديث رقم (٦٣)، ١/٢١٧.

(٢) سورة الطلاق: الآية ٣.

(٣) سورة الطلاق: الآية ٢.

فهو عليه السلام قد تجرّد لله كل التجرّد وخلص إليه كلّ الخلوص، وفعل ما أمره به؛ وإن كان من شيء بعد ذلك فإنّما هو بيد الله.

وهكذا يكون المؤمن المطمئن إلى قدر الله، الذي ملىء قلبه يقيناً بالله، يترك أهله وولده طاعة لله ثم يستودعهما الله الذي لا تضيع ودائعه، ويدعو لهما بالصلاح في الدين والدنيا والله خير مجيب لعبده وخليله ونبيّه الكريم.

وقد تمرّ بالداعية إلى الله أحداث تضطره إلى أن يترك أولاده وأهله لتأدية واجب ديني عليه، فما على الدّاعية آنذاك إلاّ أن يقتدي بأبي الأنبياء عليه السلام.

* وتتجلّى لنا رحمة الأم بولدها بين هاجر وإسماعيل؛ إذ هي لا تريد أن ترى ابنها يتلوّى من العطش والجوع فذلك يفتت كبدها عليه ويؤلمها شفقةً على حاله، فتنطلق مسرعة وتقطع المسافات الطويلة فوق الجبال الوعرة من أجل أن تجد إغاثة تسعف ولدها بها حتى يبقى على قيد الحياة. وما هذه الرحمة إلاّ دليل على فضل مكانة الأمّ ومنزلتها العظيمة.

ومن أجل هذا الحنان والعطف قدّمت الأمّ بالبر؛ لأنّ الولد قد يتساهل في حقّ أمه عليه لما يرى من ظواهر عطفها ورحمتها وحنانها، فجاءت الشريعة موصية الولد بأن يكون أكثر برّاً بها حتى لا يتساهل في حقّها ولا يتغاضى عن احترامها وإكرامها[1].

المطلب الثالث

قصة رؤيا ذبحه

أولاً ــ بيان القصّة:

يذكر الله هذه القصة في قوله ﴿فلمّا بلغ معه السعي قال يا بنيّ إنِّي أرى في المنام أنِّي أذبحك فانْظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤْمر ستجدني إنْ شاء الله من الصابرين. فلمَّا أسْلَما وتلَّه للجبين. وناديناه أنْ يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا إنَّا كذلك نجزي المحسنين. إنَّ هذا لهو البلاء المبين. وفديناه بذبح عظيم. وتركنا عليه

(١) انظر: تربية الأولاد في الإسلام لعبد الله علوان ١/ ٣٨٥.

في الآخرين. سلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين. إنَّه من عبادنا المؤمنين﴾[1].

وقبل البدء في بيان هذه القصة الجليلة يجدر توضيح مسألة قد اختلف فيها المفسّرون وهي:

أيّ ولَدَيْ إبراهيم هو الذبيح، إسماعيل أم إسحاق؟

والصحيح والراجح الذي يعوّل عليه أنّ الذبيح هو إسماعيل عليه السلام.

أمَّا الذين قالوا بأنّه إسحاق عليه السلام احتجّوا بما يلي:

١ ـ قال حمزة الزيّات عن أبي ميسرة رحمه الله قال: قال يوسف عليه السلام للملك في وجهه: ترغب أن تأكل معي وأنا والله يوسف بن يعقوب نبيّ الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله[2].

٢ ـ عن عبيد بن عمير عن أبيه قال: قال موسى عليه السلام: يا رب يقولون: بإله إبراهيم وإسحاق ويعقوب فيم قالوا ذلك؟ قال: إنَّ إبراهيم لم يعدل بي شيء قطّ إلَّا اختارني، وإنَّ إسحاق جاد لي بالذبح وهو بغير ذلك أجود، وإنَّ يعقوب كلَّما زدْته بلاءً زادني حسن ظنّ.

وروي مثل هذا عن كعب الأحبار أنَّه إسحاق[3].

٣ ـ عن العبّاس بن عبد المطلب عن النبي ﷺ قال في حديث ذكره: هو إسحاق[4].

٤ ـ وقالوا يدلّ عليه كتاب يعقوب إلى يوسف: من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله.

وقالوا أيضاً أنَّه قد سُئِل النبي ﷺ أيّ النسب أشرف؟ فقال: يوسف بن يعقوب

---

(١) سورة الصافات: الآيات ١٠٢ ـ ١١١.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/١٧.
(٣) المرجع السابق: ٤/١٧.
(٤) انظر: المرجع السابق ٤/١٧.

نبـي الله بن إسحاق ذبيـح الله بن إبراهيم خليل الله[1].

وقد حكى البغويّ القول بأنّه إسحاق عن عمـر وعلي ابن مسعود والعبّـاس رضي الله عنهم، ومن التـابعين عن كعب الأحبار وسعيـد بن جبير وقتـادة ومسـروق وعكـرمـة وعطاء ومقاتل والزهري والسّديّ. وقـال: وهي رواية عكـرمة وسعيـد بن جبير، عن ابن عباس[2].

وقد اختار هذا الرأي ابن جرير الطبري[3].

وأمّا القائلون بأنّ الذبيـح هو إسماعيل احتجّوا بما يلي:

١ ــ إنّ الآيات السابقـة الذكـر تدلّ على أنّـه إسماعيـل؛ فإنّ الله حين فـرغ من قصة المذبوح من ابْنَيْ إبراهيم قال: ﴿وبشّرنـاه بإسحـاق نبياً من الصـالحين﴾ فعلم أنّ الأول غير الثاني (إسحاق) وبذلك يكون هو إسماعيل عليه السلام.

والبشارة بإسماعيل لمـا كانت عقب دعـاء إبراهيم أن يهب الله لـه من الصـالحين عطفت هنا بفاء التعقيب، وبشارتـه بإسحـاق ذكرت معـطوفة بـالواو عـطف القصة على القصـة، والعطف يـدلّ على أنّ البشارة الأولى شيء غيـر المبشّر بـه في الثـانية؛ لأنّـه لا يجوز حمل كتاب الله على أنّ معناه فبشرناه بإسحاق، ثم بعد انتهاء قصة ذبحه يقول أيضاً: وبشّرناه بإسحـاق، فهو تكـرار لا فائـدة فيه يُنـزّه عنه كـلام الله، ومعلوم أيضاً أنّ العطف يقتضي المغايرة[4].

٢ ــ إنّ الله لمّا ابتلى إبراهيم عليه السلام بـذبـح ابنه، كـان الظاهـر أن الابتلاء وقـع حين لم يكن لإبراهيم ابن غيره لأن ذلـك أكمل في الابتـلاء. وحكى الله عنه أنـه قـال: ﴿إنّي ذاهب إلى ربـي سيهدين﴾ ثم طلب من الله ولـداً يستأنس بـه في غـربته، فقـال: ﴿ربِّ هبْ لي من الصالحين﴾، وهـذا السؤال إنّما يحسن قبـل أن يحصـل لـه الولد.

---

(١) انظر: الكشاف للزمخشري ٣/ ٣٥٠؛ تفسير أبـي السعود ٧/ ٢٠٠.

(٢) انظر: تفسير البغوي في هامش تفسير الخازن ٦/ ٢٦ ــ ٢٧.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ٢٣/ ٥٤ ــ ٥٥.

(٤) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٣/ ١٤٩.

فثبت أن المطلوب بهذا الدعاء هو إسماعيل، ثم إنَّ الله تعالى ذكر عقيبه قصّة الذبيح فوجب أن يكون الذبيح هو إسماعيل[1].

٣- ثمّ إنَّ قوله تعالى: ﴿فبشَّرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾[2] يدلّ على أنّه إسماعيل، إذ لو كان الذبيح إسحاق لكان الأمر بذبحه إمَّا أن يقع قبل ظهور يعقوب منه أو بعد ذلك، والأول باطل لأنه تعالى لمَّا بشَّرها بإسحاق وبشّرها معه بأن يحصل منه يعقوب، فقبل ظهور يعقوب منه لم يجز الأمر بذبحه وإلاَّ حصل الخلف في قوله: ﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ وحاشا لله[3]، بل وكيف يعقل أن يؤمر إبراهيم بذبحه وهو صغير وهو عنده علم يقين بأنّه يعيش حتى يأتي منه يعقوب وكأنّ ذلك عبث وحاشا لله.

٤ ــ إنَّه قد وردت أخبار كثيرة تدل على تعليق قرني الكبش المفديّ به إسماعيل بالكعبة، وهذا يُشير إلى أن الذبح كان بمكة، ولو كان الذبيح إسحاق لكان الذبح بالشام. قال ابن عبّاس: والذي نفسي بيده لقد كان أوّل الإسلام وإنَّ رأس الكبش لمعلَّق بقرنيه في ميزاب الكعبة وقد يبس.

وقال الأصمعي: سألت أبا عمرو بن العلاّء عن الذبيح إسحاق كان أم إسماعيل؟ فقال: يا أصمعي أين ذهب عقلك؟! متى كان إسحاق بمكة، إنَّما كان إسماعيل وهو الذي بنى البيت مع أبيه.

ويدلّ عليه أيضاً ورود بعض الأخبار وفيها أنّ الشيطان عرض لإبراهيم عليه السلام ليصرفه عن ذبح ابنه فرجمه ومن هذه الحادثة كانت سنة رمي الجمرات في الأجيال بعده[4]، والله أعلم.

٥ ــ واحتجوا أيضاً بما روي في المستدرك من أنّ عبد الله بن سعيد الصنابحي قال: حضرنا مجلس معاوية بن أبي سفيان فتذاكر القوم إسماعيل بن إبراهيم وإسحاق

---

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٦/١٥٤.

(٢) سورة هود: الآية ٧١.

(٣) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٦/١٥٤.

(٤) انظر: المرجع السابق ٢٦/١٥٤؛ التحرير والتنوير ٢٣/١٥٨ ــ ١٥٩.

عليهما السلام، فقال بعضهم: الذبيح إسماعيل. وقال بعضهم: بل إسحاق الذبيح. فقال معاوية: سقطتم على الخبير. كنّا عند رسول الله ﷺ فأتاه الأعرابيّ، فقال: يا رسول الله خلفت البلاد يابسة والماء يابساً، هلك المال وضاع العيال فعد عليَّ بما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين، فتبسم ﷺ ولم ينكر عليه. فقلنا يا أمير المؤمنين: وما الذبيحان. قال: ابن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إنْ سهّل أمرها أن ينحر بعض ولده، فأخرجهم فأسهم بينهم فخرج السهم لعبد الله فأراد ذبحه فمنعه أخواله من بني مخزوم وقالوا: ارض ربك وافدِ ابنك. قال: ففداه بمائة ناقة. فهو الذبيح وإسماعيل الثاني[1].

٦ ـ إنَّ الله وصف إسماعيل عليه السلام بالصبر دون إسحاق في قوله ﴿وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين﴾[2]. وهو صبره على أمر الذبح، ووصفه بصدق الوعد بقوله: ﴿إنَّه كان صادق الوعد. . .﴾ الآية[3]. لأنَّه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفّى له بذلك، وكذلك وصف إسماعيل بالحلم ﴿فبشرناه بغلامٍ حليمٍ﴾[4] ووصف إسحاق بالعلم دون الحلم ﴿فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشّروه بغلامٍ عليمٍ﴾[5].

٧ ـ ويقول الإمام ابن القيّم في ذكره لأدلّة هذا القول (إنَّ الله سبحانه أجرى العادة البشرية أنَّ بكر الأولاد أحبّ إلى الوالدين ممن بعده، وإبراهيم عليه السلام لمّا سأل ربه الولد ووهبه له تعلّقت شعبة من قلبه بمحبته؛ والله تعالى قد اتّخذه خليلاً، والخلّة منصب يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة وأن لا يشارك بينه وبين غيره فيها. فلمّا أخذ الولد شعبة من قلب الوالد، جاءت غَيْرة الخلّة تنتزعها من قلب الخليل، فأمره بذبح المحبوب، فلمّا أقدم على ذبحه وكانت محبة الله أعظم عنده من

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري: كتاب التاريخ ٢/٥٥٤، وتعقبه الذهبي في التلخيص ولم يقرّه وقال: إسناده واهٍ.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٨٥.

(٣) سورة مريم: الآية ٥٤.

(٤) سورة الصّافات: الآية ١٠١.

(٥) سورة الذاريات: الآية ٢٨.

محبة الولد، خلُصت الخلّة حينئذٍ من شوائب المشاركة فلم يبق في الذبح مصلحة؛ إذ كانت المصلحة إنَّما هي في العزم وتوطين النفس عليه، فقد حصل المقصود وفُدِي الذبيح، وصدّق الخليل الرؤيا وحصل مراد الربّ تبارك وتعالى. ومعلوم أنّ هَذا الامتحان إنَّما حصل عند أول مولود، ولم يكن ليحصل في المولود الآخر دون الأول، بل لم يحصل في المولود الآخر دون الأول، بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلّة ما يقتضي الأمر بذبحه وهذا في غاية الظهور)[1].

٨ ــ ومن أدلّة ابن القيم كذلك قوله: (إنَّ سارة إمرأة الخليل غارت من هاجر وابنها أشدّ الغيرة فإنَّها كانت جارية، فلمَّا ولدت إسماعيل وأحبه أبوه اشتدت غيرة سارة، فأمره الله سبحانه أن يُبعِد عنها هاجر وابنها ويسكنها في أرض مكة لتبرد عن سارة حرارة الغيرة، وهذا من رحمته ورأفته تعالى، فكيف يأمره سبحانه بعد هذا أن يذبح ابنها، ويدع ابن الجارية بحاله، بل حكمته البالغة اقتضت أن يأمره بذبح ولد السّرّيّة فحينئذٍ يرق قلب السيدة عليها وعلى ولدها، وتتبدل قسوة الغيرة رحمةً، ويظهر لها بركة هذه الجارية وولدها)[2].

ويشير صاحب التحرير والتنوير إلى أمر حسن فيقول: «قد أشارت هذه الآيات إلى قصة الذبيح ولم يسمّه القرآن هنا لعله لئلا يُثير خلافاً بين المسلمين وأهل اكتاب في تعيين الذبيح من وَلَدَيْ أبراهيم، وكان المقصد تألّف أهل الكتاب لإقامة الحجّة عليهم في الاعتراف بنبوّة محمد ﷺ وتصديق القرآن، ولو لم يكن ثمّة مقصد مهم يتعلق بتعيين الذبيح ولا في تخطئه أهل الكتاب في تعيينه، وأمارة ذلك أن القرآن سمّى إسماعيل في مواضع غير قصة الذبيح، وسمّى إسحاق في مواضع، ولم يُسمّ هنا قصداً للإبهام مع عدم فوات المقصود من الفضل؛ لأنّ المقصود من القصة التنويه بشأن إبراهيم عليه السلام، فأيّ ولديه كان الذبيح كان في ابتلائه بذبحه وعزمه عليه وما ظهر في ذلك من المعجزة تنويه عظيم بشأن إبراهيم»[3].

---

(١) ابن قيّم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرنؤوط، الطبعة السادسة، ٥ مج (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ١/٧٤ ــ ٧٥.

(٢) المرجع السابق: ١/٧٥.

(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور٢٣/١٥٦.

ونقل القول بأنه إسماعيل عن أبي هريرة وأبي الطفيل عامر بن واثلة وعبد الله بن عمر وابن عباس ومعاوية رضي الله عنهم من الصحابة، ومن التابعين: سعيد بن المسيّب والشعبي والحسن البصري ومجاهد والربيع بن أنس وعلقمة والكلبي ومحمد بن كعب القرظي والإمام أحمد بن حنبل[1].

* ورُدّ على أدلة من قال بأنّه إسحاق كالآتي:

١ ــ يقول ابن كثير ــ رحمه الله ــ في الرد على ما أشرنا إليه بالرقمين (١، ٢) في أدلة من قال بإسحاق: «إن هذه الأقوال ــ والله أعلم ــ كلّها مأخوذة عن كعب الأحبار، فإنه لمّا أسلم في الدولة العمريّة جعل يحدّث عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ عن كتبه قديماً، فربما استمع له عمر فترخّص الناس في استماع ما عنده، ونقلوا ما عنده غثّها وسمينها، وليس لهذه الأمة والله أعلم حاجةٌ إلى حرف واحد ممّا عنده»[2].

٢ ــ وفي الرد على ما أشرنا إليه بالرقم (٣) يقول ابن كثير ــ أيضاً ــ: «وفي إسناد هذا الحديث ضعيفان وهما الحسن بن دينار، والبصري (متروك)، وعلي بن زيد بن جدعان منكر الحديث»[3]، وعليه فإنّ هذا الحديث لا يصلح في مقام الاحتجاج.

٣ ــ وفي الردّ على ما أشرنا إليه بالرّقم (٤) يقول أبو السعود رحمه الله: «الصحيح أنه ﷺ قال: «يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، في سؤاله أي النسب أشرف؟ والزوائد من الراوي، وما روي من أن يعقوب كتب إلى يوسف مثل ذلك لم يثبت»[4].

٤ ــ وزيادة على ما ذكر من الردّ، فإنه يروي لنا ابن إسحاق عن بريدة بن سفيان الأسلمي عن محمد بن كعب القرظي أنه حدّثهم: أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز

(١) انظر: تفسير البغوي على هامش الخازن ٦/٢٧؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/١٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/١٧.
(٣) المرجع السابق ٤/١٧.
(٤) تفسير أبي السعود ٧/٢٠٠.

وهو خليفة إذ كـان معه بـالشام، فقـال لـه عمر: إنّ هـذا لشيء ما كنت أنـظر فيه وإني لأراه كما قلت، ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام وكان يهودياً فأسلم وحسن إسلامـه وكان يُرى أنه من علمائهم فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك، قال محمد بن كعب: وأنا عند عمـر بن عبد العـزيز فقـال لـه عمر: أيّ ابني إبـراهيم أمِرَ بـذبحه؟ فقـال: إسماعيـل والله يا أميـر المؤمنين، وإنّ يهود لتعلم بـذلك، ولكنهم يحسـدونكم معشـر العرب على أن يكـون أباكم الـذي كان من أمـر الله فيه والفضـل الذي ذكـر الله تعالى لـه لصبره لمـا أمر بـه، فهم يجحـدون ذلك ويـزعمون أنـه إسحاق لأنّ إسحـاق أبوهم[1].

ويؤيّد هذا ما ذكره الإمام ابن القيم في كتابه زاد المعاد حيث يقول: «وإسماعيل هو الذبيـح على القول الصواب عند علماءالصحابة والتابعين ومَـنْ بَعدهـم. وأمـا القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهـاً، وسمعت شيـخ الإسلام ابن تيميّـة ـ قدس الله روحـه ـ يقول: هـذا القول إنمـا هو متلقى عن أهـل الكتاب، مـع أنه بـاطلٌ بنص كتابهم؛ فإنّ فيه: إن الله أمر إبراهيم أن يذبـح ابنه بكره، وفي لفظ: وحيده، ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن أسماعيل هو بكر أولاده، والذي غـرّ هؤلاء أن في التوراة التي بـأيديهم: اذبـح ابنـك أسحاق، قـال: وهذه الـزيادة من تحـريفهم وكذبهم لأنهـا تنـاقض قولـه: اذبـح بكرك ووحيـدك. ولكن اليهود حسـدت بني إسـرائيـل على هـذا الشـرف، وأحبوا أن يكـون لهم، وأن يسـوقـوه إليهم ويحتـازوه لأنفسهم دون العـرب، ويأبـى الله إلا أن يجعل فضله لأهله[2].

وهكذا يظهر لنا فيـمـا أوردناه من أدلـة وردود وحقائق أن الـذبيـح هو إسمـاعيل عليه السلام.

وبعد بياننا لهذه المسألة نبـدأ في إيضاح قصـة رؤيا ذبـح إسمـاعيل عليـه السلام كما يلي:

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١٨/٤.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم ١/٧١ ـ ٧٢.

١ ـ عرض الرؤيا على إسماعيل عليه السلام:

وحين بلغ إسماعيل السنّ التي يطيق فيها معاونة أبيه على العمل[١]، جاءت الرؤيا بالأمر بذبحه، فجاء إبراهيم عليه السلام يعرضها عليه ﴿يا بنيّ إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى. . .﴾، ويعرضها عليه بغاية الشفقة والرحمة الواضحة في ابتدائه بكلمة: يا بنيّ ـ «ورؤيا الأنبياء وحي»[٢]، وحق يجب تنفيذها ـ ويعرض الأمر عليه ـ أيضاً ـ بصيغة السؤال والاستشارة (فانظر ماذا ترى) ـ وهذا من حسن العرض في الأمور الشاقة المطلوبة ـ أي ما تريك نفسك من الرأي.

وهذه مشاورة ليست ليرجع إلى رأيه ومشورته ولكن ليعلم ما عنده فيما نزل به من بلاء الله فيثبّت قدمه، ويصبّره إن جزع، ويأمن عليه الزلل إن صبر وسلّم، وليعلمه حتى يراجع نفسه فيوطّنها ويهوّن عليها ويلقى البلاء وهو كالمستأنس به، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله قبل نزوله[٣].

٢ ـ موقف الابن المطيع:

لم يرفض الابن (إسماعيل عليه السلام) ذلك الأمر العظيم، بل لم يتردد أو يتلجلج بل قال مطيعاً لله ولرسوله مستجيباً واثقاً: ﴿يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ أي الذين يصبرون ويحتسبون الأجر عند الله في سبيل مرضاته، وصدق فيما وعد به أباه ولهذا قال تعالى: ﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسلاً نبياً﴾[٤].

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ٢٣/٤٩. وقيل كان عمره آنذاك: ١٣ سنة، وقيل: ٧ سنين. والأول ما عليه الجمهور وهو الأصح والله أعلم.

(٢) رواه البخاري في رواية طويلة وفيها: أن عبيد بن عمير قال: رؤيا الأنبياء وحي ثم تلى ﴿يا بنيّ إني أرى في المنام. . . الآية﴾، وعبيد من كبار التابعين ولأبيه صحبة (انظر: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، إشراف طبع: محب الدين الخطيب، قرأ أصله تصحيحاً وتحقيقاً وأشرف على مقابلة نسخه: عبد العزيز بن باز، ١٣ مج (الرياض: مكتبة الرياض الحديثة، ١٣٧٩هـ) ٤ كتاب الوضوء، ٥ باب التخفيف في الوضوء، حديث: ١٣٨).

(٣) انظر: الكشاف للزمخشري ٣/٣٤٨.

(٤) سورة مريم: الآية ٥٤.

٣ ـ تحقيق الرؤيا:

واستعدّ الأب وابنه لتنفيذ ما أمرا به ﴿فلما أسلما وتلّه للجبين﴾ أي لما أسلما أمرهما لله فوّضاه إليه، واتفقا على التسليم لأمره والرضا بقضائه، وصرعه على جبينه(١).

وفي هذا الوقت ينادى إبراهيم: ﴿وناديناه أن يا إبراهيم. قد صدقت الرؤيا...﴾

وهذا جواب قوله: ﴿فلما أسلما وتلّه للجبين﴾، والواو هنا مقمحة صلة مجازه: ناديناه، كقوله تعالى: ﴿فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجب وأوحينا إليه لتنبئنّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾(٢).

وإنه لصدّق الرؤيا بعزمه وإتيانه بالمقدمات، وقد تمّ الغرض من الرؤيا حيث ظهر منه عليه السلام كمال الطاعة والانقياد لأمر الله وكذا من إسماعيل عليه السلام.

وقد قيل إنّ في قوله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقاً نبياً﴾ إشارة إلى هذا المعنى حيث أنه صدّق الرؤيا بالحقّ(٣).

ويقال: إنّ إبراهيم عليه السلام أمرّ السكّين على حلق إسماعيل فلم تعمل شيئاً بمانع من القدرة الإلٓهية، روي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وفي قولٍ آخر: إنه لم يمرّ السكين، بل لما أضجعه وأراد أن يمرّ السكين جاءه النداء(٤).

أقول: ولا أثر لهذه الجزئية البسيطة، فما أورده الله عزّ وجلّ من وصفٍ للفعل الذي قام به إبراهيم وابنه عليهما السلام الدالّ على كمال الطاعة لله لكافٍ في إظهار الصورة المطلوب بيانها.

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٢٣/٥٠، والجبين: ما عن يمين الجبهة أوعن شمالها وللوجه جبينان والجبهة بينهما.

(٢) انظر: تفسير البغوي على هامش الخازن ٦/٢٩، والآية رقم: ١٥ من سورة يوسف.

(٣) انظر: تفسير الخازن ٦/٢٩ ـ ٣٠؛ تفسير البيضاوي ٥/٩.

(٤) انظر: حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٣٤٣.

ثم بيّن الله سبب تفريجه لهذه الشدة عنهما في قوله: ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾؛ فالسبب إنما هو بلوغهما درجة الإحسان التي هي أعلى مقامات العبودية لله تبارك وتعالى[1].

وفي بيان هذا السبب ثناء من الله عليهما بهذه الصفة الرفيعة.

وفيه أيضاً وعد من الله لا يتخلّف عن عباده الذين يحسنون ويطيعون ويعملون في رضاه أن يؤتيهم مثل ما آتاهما ويجزيهم بمثل ما جزاهما به من فضله وكرمه وتفريجه.

وقبل أن يُتمّ الله القصة أشار إلى أن هذا الأمر إنما هو اختبار وابتلاء ومحنة شديدة فقال: ﴿إنّ هذا لهو البلاء المبين﴾. أي الابتلاء البيّن الذي يتميّز فيه المخلص من غيره[2]، وهذا ـ أيضاً ـ فيه زيادة ثناء من الله على عبديه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام؛ إذ أنهما واجها هذا الابتلاء الصعب بكل طاعة وانقياد وصبر.

٤ ـ الفداء:

وتأتي القصة إلى نهايتها ـ بعد تحقق الغرض من الرؤيا ـ وتشاء قدرة الله أن يجعل مكان إسماعيل كبشاً عظيماً: ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ وبهذا الذبح أنقذه الله من الذبح.

وقد اختلف المفسرون في أن الذبح لم سمّي عظيماً؟ فقال بعضهم: لأنه كان قد رعى في الجنة.

وقال آخرون: لأنه كان ذبحاً متقبلاً. وقال آخرون: لأنه ذبح بالحقّ، حيث ذبح بدين إبراهيم عليه السلام.

وقيل: سمّي عظيماً لعظم قدره إذ أنه فُديَ به نبي ابن نبي، وقيل أيضاً: لكونه عظيم الجثة سمين[3].

أقول: وهذه الأقوال الأول منها يحتاج إلى نقل صحيح، بل هو مأخوذ من

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي ٩/٥.

(٢) انظر: المرجع السابق ٩/٥.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ٢٣/٥٥ ـ ٥٦، تفسير البيضاوي ٩/٥؛ تفسير القرطبي ١٥/١٠٧.

الإسرائيليات، وأما باقي الأقوال فهي استنتاجات لا أكثر من ذلك، وهي في حدّ ذاتها لا تعارض النصوص، فلا مانع إذاً من ذكرها؛ ولكن الأوْلى من ذلك عدم التخصيص إذ يقول الإمام ابن جرير الطبري: «ولا قول في ذلك أصح مما قال الله جلّ ثناؤه، وهو أن يقال فداه الله بذبح عظيم، وذلك أن الله عمّ وصفه إياه بالعِظَم دون تخصيصه فهو كما عمّه به»(1).

وتتمّ بنهاية هذه الآية قصة رؤيا ذبح إسماعيل عليه السلام، ثم يجيء التعقيب عليها بذكر جزاء الله وفضله على أبي الأنبياء عليه السلام ﴿وتركنا عليه في الآخرين. سلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين. إنّه من عبادنا المؤمنين﴾ أي أبقى الله عليه فيمن بعده إلى يوم القيامة ثناءً حسناً جميلاً، فما من أمّة إلا تصلي عليه وتحبه.

وكذا السلام عليه دائماً. وهذا السلام يحتمل عدة أمور: فهو إما أمنة من الله في الأرض لإبراهيم أن لا يذكر من بعده إلا بالجميل من الذكر، وإما سلامة له من الآفات. مثل قوله تعالى: ﴿سلام على نوح في العالمين﴾ [الصافات: ٧٩]، أو تحية عليه من الله كقوله تعالى: ﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى﴾ [النمل: ٥٩]. وكذلك يجزي الله من تابع إبراهيم عليه السلام في إحسانه وقوة إيمانه وإخلاصه(2).

ثانياً ـ العبر والفوائد:

١ ـ العبر والفوائد من عرض الرؤيا على إسماعيل عليه السلام:

* في بداية الكلام عن العبر والفوائد لا بد من بيان مسألة قد ترد على خاطر الكثير وهي: كيف يؤمر إبراهيم بذبح ولده وهو معصية والأمر بالمعصية لا يجوز؟ ويردّ على هذا: بأنّ المعاصي والطاعات ليست بأوصاف ذاتية للأعيان، وإنما الطاعات عبارة عما تعلق به الأمر من الأفعال، والمعصية عبارة عما تعلق به النهي من الأفعال، فلما تعلّق الأمر بذبح الولد إسماعيل من إبراهيم صار طاعة وابتلاءً، ولهذا قال تعالى: ﴿إنّ هذا

---

(1) تفسير ابن جرير الطبري ٢٣/٥٦.

(2) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ٢٣/٥٧؛ تفسير القرطبي ١٥/١١٢؛ تفسير عبد الرحمن السعدي ٦/٣٩١.

لهو البلاء المبين﴾ في الصبر على ذبح الولد والنفس[1].

* ولعل من الأمر الملاحظ: إن التكليف بالذبح جاء عن طريق الرؤيا في المنام ولم يأت في حال اليقظة، مع أن الله قادرٌ على أن يجعل ذلك في اليقظة!!؛ وهذا ـ والله أعلم بمراده ـ لزيادة البلاء، ولتكون مبادرتهما إلى الامتثال أدلّ على كمال الانقياد والإخلاص لله تعالى[2].

* وفي عرض الرؤيا من إبراهيم على ابنه تظهر لنا شفقته ورحمته به؛ إذ أنه يخاطبه بكلمة (يا بنيّ) التي توحي بالاهتمام بشأنه والمراعاة لشعوره، ومما يهيِّىء إسماعيل لتقبل ما يعرضه بكل سرور وترحيب.

ومع أن الموقف صعب وفصْل ولا مجال للرفض، ولكن لا يمنع هذا كله أن يعتني إبراهيم بطريقة وأسلوب العرض، وكلاهما واقع به الابتلاء والمحنة.

* وفي قوله: ﴿فانظر ماذا ترى﴾ زيادة في الرأفة وحسن العرض، فإنه لم يقل له: إني سأذبحك. بل عرض الأمر على طريق المشاورة وأخذ الرأي.

وفي هذه المشاورة ـ أيضاً ـ تواضع من الأب لابنه. وهذا ـ لا شك ـ أنه من أساليب التربية الصحيحة؛ إذ أن الأب بهذا الأسلوب يعطي ابنه ثقة في نفسه ويجعل له شخصيته القادرة على اتخاذ القرار المناسب.

ويذكر الفخر الرازي أن الحكمة في مشاورة إبراهيم عليه السلام لابنه هنا من أجل «أن يطلع ابنه على هذه الواقعة ليظهر له صبره في طاعة الله فتكون فيه قرّة عين لإبراهيم حيث يراه قد بلغ في الحلم إلى هذا الحدّ العظيم، وفي الصبر على أشدّ المكاره إلى هذه الدرجة العالية، ويحصل للابن الثواب العظيم في الآخرة والثناء الحسن في الدنيا»[3].

* وإن المتأمّل في الظروف التي ورد فيها هذا الأمر الرباني ليدرك ـ حقيقة ـ إنّما هو ابتلاء عظيم؛ فقد بلغ إسماعيل أجمل سنّ وأحبّها إلى والديه، وهو في المرحلة

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٥/١١١ ـ ١١٢.

(٢) انظر: تفسير البيضاوي ٥/٩.

(٣) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٦/١٥٦.

التي يمكن الانتفاع به فيها، وكذلك فهو وحيد أبويْه، وإبراهيم وهو في هذه السن الكبيرة قد يُظنّ أنه لا ينجب بعدها، فلنا أن نتصور ــ فقط ــ أن يؤمر الإنسان بذبح فلذة كبده ووحيده!!. ولكن هذا كله لا يقف في وجه الإيمان الصادق، الذي لا يجد أمامه إلا رضا الله تعالى.

ويتحدث سيد قطب ــ رحمه الله ــ عن هذا الموقف ــ فيما خلاصته ــ بما يلي: يا لله ويا لروعة الإيمان والطاعة والتسليم... إنه يلبي ويستجيب دون أن يعترض ودون أن يسأل ربّه لماذا أذبح ابني الوحيد؟! وإنّه لا يلبي في انزعاج، ولا يستسلم في جزع، ولا يطيع في اضطراب، وإنما هو القبول والرضى والطمأنينة والهدوء، ويبدو ذلك في كلماته لابنه وهو يعرض عليه الأمر الهائل في هدوء واطمئنان عجيب ﴿قال يا بنيّ إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى﴾ كلمات المالك لأعصابه، المطمئن للأمر الذي يواجهه، الواثق بأنه يؤدي واجبه، وهي في الوقت ذاته كلمات المؤمن الذي لا يهوله الأمر فيؤديه في اندفاع وعجلة ليخلص منه وينتهي، ويستريح من ثقله على أعصابه. والأمر شاقّ ما في ذلك شك، فهو لا يطلب إليه أن يرسل بابنه الوحيد إلى معركة، ولا يطلب إليه أن يكلفه أمراً تنتهي به حياته، إنما يطلب إليه أن يتولى هو بيده ذبحه، وهو مع هذا يتلقى الأمر هذا التلقي ويعرضه هذا العرض، ويطلب إليه أن يتروّى في أمره، وأن يرى فيه رأيه!

أنه لا يأخذ ابنه على غرّة لينفذ إشارة ربه وينتهي، إنما يعرض الأمر عليه كالذي يعرض المألوف من الأمر؛ فالأمر في حسّه هكذا. ربه يريد فليكن ما يريد على العين والرأس، وابنه ينبغي أن يعرف وأن يأخذ الأمر طاعة واستسلاماً لا قهراً واضطراراً لينال هو الآخر أجر الطاعة، وليسلّم وليتذوّق حلاوة التسليم(١).

* وتتضح لنا ــ هنا ــ حقيقة الإيمان، فإنه ليس ادّعاءات ترددها الألسن، وليس هو نظرية من النظريات يغوص العقل في كشف خفاياها، إنما هو الاندماج الكلّي في إرادة الله التي تتركّز في العمل بأوامره، والتضحية بكل غال ونفيس في سبيله(٢).

---

(١) انظر: في ظلال القرآن الكريم لسيد قطب ٥/٢٩٩٤ ــ ٢٩٩٥.

(٢) انظر: مع الأنبياء في القرآن الكريم لعفيف طبارة ص ١٢٩.

وها هي ذي الطاعة والتسليم والتضحية تتجلى واضحة في هذا الموقف الجليل.

وإن التضحيـة ـ بلا شـك ـ لهي أرفـع صور الإيمـان وأجلّها وأظهـرها لحقيقـة الإيمان المتغلغل في النفوس المؤمنة الصادقة ﴿أحسب الناس أن يُتركـوا أن يقولـوا آمنّا وهم لا يُفتنــون. ولقـد فتنّــا الـذين من قبلهم فليَعلمنّ الله الّـذيـن صـدقـوا وليعلمنّ الكاذبين﴾[1].

ومـا أحوجنـا إلى هذا الـدرس في هذا الـزمن الـذي أصبـح فيـه المـال والـولـد والزوجة يستأثرون بحب الإنسـان الذي آثـرهـم على كل شيء، حتى أصبحـوا معبودين لـه من دون الله، يقدم رضاهم على رضا الله ولا يبالي!!!

وإنه ـ لما ـ أحقـر الإنسان إذا تعلق بـزينة الحيـاة الدنيـا الفانيـة وترك الحقيقـة الخالدة التي هي سبب وجوده ومصدر استمرار حياته، وبيدها شقاوته أو سعادته ولنتذكر قول الله عز وجل:

﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابـاً وخير أملاً﴾[2].

٢ ـ العبر والفوائد من موقف الابن المطيـع:

نقف هنا ـ مرة أخـرى ـ مع صـورة من صور التضحيـة في هذه القصـة: صورة التضحيـة بالنفس في سبيـل طاعـة الله وطلب رضاه. وإنهـا لأعلى الصـور، فمـا عنـد الإنسان شيء هو أعزّ عليه من روحـه وأغلى، ولكن ها هـو ذا إسماعيـل يسلم روحه لله بدون ثمن سوى رضاه. وإنها لقمّة الإيمان والشعور بـأنّ روح الإنسان إنمـا هي أمانـة عنده لم يهبها هـو لنفسه وإنمـا وهبها الـوهّاب سبحـانه، فهـو المتصرف فيهـا متى شاء وأراد، فلا بد إذاً من تسليم الأمانة إذا طلبها واهبها ومعطيها عزّ وجلّ.

وبلا تردد ولا تلجلـج ولا تمحّل ولا سؤال قطّ، وإنما هي الإجابة الفورية بالقبول والرضا ﴿يا أبت افعل ما تؤمر ستجـدني إن شاء الله من الصـابرين﴾... قبـول المؤمن

---

(١) سورة العنكبوت: الآيتان ٢ ـ ٣.

(٢) سورة الكهف: الآية ٤٦.

لأمر الله، ورضا الواثق بما عند الله من الأجر والثواب، وإنها لا تساوي النفس شيئاً إذا كانت مانعة عن الوصول إلى رضا الله.

* وبمناسبة ذكر صفة الرضا التي تحلّى بها إسماعيل عليه السلام نريد أن نبيّن ـ للفائدة ـ أهم ثمرات الرضا مما ذكره ابن القيم في مدارج السالكين وهي كما يلي:

ـ إن الرضا يخلّص من الهمّ والحزن والغم وشتات القلب وكسْف البال وسوء الحال والظنّ بالله، ويوجب للإنسان الطمأنينة وبرد القلب وسكونه وقراره.

ـ والرضا ينزل السكينة على العبد التي لا أنفع له منها، ومتى نزلت السكينة استقام وصلحت أحواله وصلح باله.

ـ وهو يفتح باب السلامة، فيجعل القلب نقيّاً من الغش والدّغل والغلّ.

وهو يفتح باب اليقين في الله، فيسلم الراضي من باب الشك في الله وقضائه وقدره، وحكمته وعلمه.

ـ وإن من ملأ قلبه من الرضا بالقدر، ملأ الله صدره غنىً وأمناً وقناعة وفرّغ قلبه لمحبته والإنابة إليه والتوكّل عليه.

ـ والرضا يثمر الشكر، الذي هو من أعلى مقامات الإيمان، بل هو حقيقة الإيمان

ـ ثم إنّ الرضا يبعد الشيطان؛ فإن الشيطان يظفر بالإنسان غالباً عند السخط والشهوة.

ـ والرضا ـ كذلك ـ يخرج الهوى من القلب، فالراضي هواه تبع لمراد ربّه منه، فلا يجتمع الرضا واتباع الهوى في القلب أبداً.

ـ والراضي واقف مع اختيار الله له، معرض عن اختياره لنفسه.

ـ وأعظمها أن الرضا يوجب رضا الله عن صاحبه، ورضا الله أكبر من الجنة وما فيها لأن الرضا صفة الله والجنة خلقه قال تعالى: ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم﴾ [التوبة: ٧٢]، ولما كان هذا الجزاء أفضل الجزاء كان

سببه أفضل الأعمال(١).

* وأما ذكر إسماعيل لجملة (إن شاء الله) في قوله: ﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾؛ فإنما أتى بها تبركاً، وإشارة إلى أنه لا حول له عن المعصية إلا بعصمة الله، ولا قوة على الطاعة إلا بمعونة الله وتيسيره(٢).

وهذه هي الهمة المطلوبة... الهمة المرتبطة بالحقّ سبحانه؛ إذ أن الهمّة إذا تعلقت بالله طلباً صادقاً خالصاً محضاً، فتلك هي الهمة العالية التي لا يقدر معها على المهلة، ولا يتمالك صبره لغلبة سلطانها عليه، وشدّة إلزامها إيّاه بطلب المقصود. وصاحب هذه الهمّة سريع وصوله وظفره بمطلوبه(٣).

وهذا هو الأدب مع الله من إسماعيل، ومعرفة حدود قدرته وطاقته في الاحتمال، والاستعانة بربه على ضعفه ونسبه الفضل إليه في إعانته على التضحية ومساعدته على الطاعة(٤).

* كما أنه لما استثنى وفقه الله للصبر فكان من الصابرين وفي أعلى مقامات الصبر؛ إذ أن الصبر ــ كما ذكر الإمام ابن القيّم ــ ثلاثة مقامات: صبر لله: رجاء ثوابه وخوف عقابه، وهو أعلاها، وصبر بالله، وصبر على أحكامه.

والصبر لله فوق الصبر بالله وأعلى درجة منه وأجلّ؛ لأن الصبر لله متعلق بإلاهيته، والصبر به متعلق بربوبيته، وما تعلق بإلاهيته أكمل وأعلى مما تعلّق بربوبيته، ولأن الصبر له: عبادة، والصبر به: استعانة، والعبادة غاية والاستعانة وسيلة، والغاية مرادة لنفسها والوسيلة مرادة لغيرها، ولأن الصبر به مشترك بين المؤمن والكافر والبَرّ والفاجر، فكل من شهد الحقيقة الكونية صبر به. وأما الصبر له فمنزلة الرسل والأنبياء

---

(١) انظر: ابن قيّم الجوزية: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد حامد فقي، الطبعة الثانية، ٣ مج (بيروت ــ لبنان: دار الكتاب العربي، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م) ٢/٢٠٥ ــ ٢٣٠؛ عبد المنعم صالح العلي العزّي، تهذيب مدارج السالكين (الأمارات العربية المتحدة: وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف) ص ٣٧٦ ــ ٣٧٩.

(٢) انظر: حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٣٤٢.

(٣) مدارج السالكين لابن قيّم الجوزيّة: ٣/٣ ــ ٤؛ تهذيب مدارج السالكين للعزّي ص ٥٠٧.

(٤) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/٢٩٩٥.

والصدّيقين وأصحاب مشهد ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾، ولأن الصبر لـه: صبر فيما هو حق لـه، محبوب لـه مرضيّ لـه. والصبر بـه قـد يكون في ذلـك وقد يكـون فيما هو مسخوط لـه، وقد يكون في مكروه أو مباح فأين هذا من هذا؟

وأما الصبر على أحكامه، فإنه صبر على أقداره، والصبر لله ــ لا شك ــ أعلى منه؛ لأن الصبر على أحكامه صبر ضرورة، أما الصبر لله فيه اختيار وإيثار ومحبة، ولذلك كان صبر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى على ما نالهم في الله باختيارهم، ومقاومتهم قومهم: أكمل من صبر أيوب على ما ناله في الله من ابتلائه وامتحانه بما ليس مسبباً عن فعله.

وكذلك صبر إسماعيل الذبيح ــ هنا ــ، وصبر أبيه إبراهيم عليهما السلام على تنفيذ أمر الله أكمل من صبر يعقوب على فقد يوسف. فيعلم من هذا أن الصبر لله أعلى مقامات الصبر، وحظي بهذا المقام إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام[1].

* ومن صبره وحلمه عليه السلام ــ كذلك ــ أنه خاطب أباه في جوابه له بقوله: يا أبت... بهذه الكلمة التي تحمل كل المودة وإظهار القربى؛ فشبح الموت لا يزعجه ولا يفزعه ولا يفقده رشده، بل لا يفقده أدبه ومودته[2].

٣ ــ العبر والفوائد من تحقيق الرؤيا والفداء:

ويستوقفنا هذا المشهد الرائع الذي نشاهد فيه نبل الطاعة وعظمة الإيمان وطمأنينة الرضا وراء كل ما تعارف عليه بنو الإنسان... نجد إبراهيم عليه السلام يكب ابنه على جبينه استعداداً والابن يستعلي بإيمانه كأبيه فيستسلم، فكلاهما قد أسلما، وهذا هو الإسلام في حقيقته... ثقة وطاعة وطمأنينة ورضى وتسليم... وبعد ذلك تنفيذ. ولم يبق إلا تنفيذ الذبح، وفي هذه اللحظة الحاسمة يأتي النداء العلويّ بالإيقاف لأن الغرض من التكليف قد ظهر وغايته قد تحققت، ولم يعد إلا الألم البدني والدم المسفوح والجسد الذبيح، وهذا لا يعني شيئاً في ميزان الله، وهكذا... فقد

---

(١) انظر: مدارج السالكين لابن قيّم الجوزية ٢/١٥٧ ــ ١٧٠؛ تهذيب مدارج السالكين ص ٣٦٠ ــ ٣٦١.

(٢) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/٢٩٩٥.

نجحا في الامتحان فلم يبق في النفس ما تكنّه عن الله أو تعزّه عن أمره أو تحتفظ به دونه، ويفدي الله هذه النفس التي أسلمت بكبش عظيم، ومضت بذلك سنة النحر في الأضحى، ذكرى لهذا الحادث العظيم الذي يرتفع منارة لحقيقة الإيمان وجمال الطاعة وعظمة التسليم، والذي ترجع إليه الأمة الإسلامية، لتعرف حقيقة أبيها الذي تتبعه، ولتعرف طبيعة العقيدة التي تقوم بها وعليها، وتتجه إلى ربها كما اتجه في طاعة راضية واثقة ملبّية لا تسأل ربها لماذا؟ ولا تختار طريقاً سوى طريق طاعته ورضاه، ولتعرف أن الله لا يريد أن يعذبها بالابتلاء ولا يؤذيها بالبلاء؛ إنما يريد سبحانه أن تأتيه طائعة ملبية مستسلمة لا تقدم بين يديه ولا تتألّى عليه، فإذا عرف منها الصدق أعفاها من التضحيات والآلام واحتسبها لها وفاءً وأداءً وأكرمها كما أكرم أباها[1].

* ويستفاد من هذا الموقف: إنه من يتق الله يجعل له من أمر شدته مخرجاً ويفرّج عنه كربته؛ إذ أن الخليل وابنه إسماعيل ـ عليهما السلام ـ كانا في قمة التقوى لله، وقاما بما أمرا به بكل تسليم، ففرج الله عنهما وجعل لهما من أمرهما مخرجاً.

وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكّل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾[2].

*** مسألة في العقيدة:**

إن في أحد القولين المشهورين أن إبراهيم عليه السلام أمرّ السكين على حلق ابنه فلم تعمل شيئاً بمانع من القدرة الإلّهية، ومن هذا القول وغيره استُدلّ على أنّ الأمور العادية لا تؤثر شيئاً لا بنفسها ولا بقوة أودعها الله فيها، وإنما المؤثر هو الله تعالى. فتخلّف القطع بالسكين في ولد إبراهيم ـ عليه السلام ـ كما تخلّف الإحراق بالنار في إبراهيم عليه السلام، وكما تخلّفت سيولة الماء عند انفلاق البحر لموسى عليه السلام[3].

---

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/٢٩٩٥ ـ ٢٩٩٧.
(٢) سورة الطلاق: الآيتان ٢ ـ ٣.
(٣) انظر: حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٣٤٣.

* **مسألتان في أصول الفقه:**

(أولهما) ـ إن قصة الذبيح تؤيد أحد القولين المشهورين عند أهل الأصول في حكمة التكليف؛ هل هي للامتثال فقط، أم هي مترددة بين الامتثال والابتلاء؛ لأنه قد بيّن الله في هذه الحادثة أن حكمة تكليفه لإبراهيم بذبح ولده ليست هي امتثاله ذلك بالفعل، لأنه لم يرد ذبحه كوناً وقدراً، وإنما حكمة تكليفه بذلك مجرّد الابتلاء والاختبار، هل يصمّم على امتثال ذلك أم لا؟ كما صرّح بذلك في قوله: ﴿إن هذا لهو البلاء المبين. وفديناه بذبح عظيم﴾ فتبين لنا بهذا أن التحقيق في هذه المسألة: أن حكمة التكليف مترددة بين الامتثال والابتلاء[1].

(وثانيهما) ـ إنه يصح النسخ قبل التمكن من الفعل، فإن الله تعالى شرع لإبراهيم عليه السلام ذبح ولده ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء. وخالفت طائفة من المعتزلة في هذه المسألة، وحججهم ظاهرة البطلان لا داعي لذكرها والإطالة فيها[2].

* **مسائل فقهية:**

– استدلّ بقوله تعالى: ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ على أن من نذر أن يذبح ولده تلزمه شاة؛ وذلك لأن الله تعالى جعل ذبح الولد عبارة عن ذبح الشاة شرعاً، فألزم الله إبراهيم ذبح الولد وأخرجه عنه بذبح شاة. وبذا قال الإمام أبو حنيفة والإمام مالك، أمّا الشافعي فقال: لا شيء عليه بل يستغفر الله لأنها معصية، وأمّا الإمام أحمد: ففي رواية عنه ألزم عليه كفّارة يمين، وفي روايةٍ أخرى كقول أبي حنيفة ومالك عملاً بفداء ولد إبراهيم عليه السلام[3].

– وإنه بمناسبة هذه الحادثة التي سنّ الله بها الأضحية نودّ أن نشير إلى أهم الأحكام المتعلقة بالأضحية ولكن دون الإطالة والبحث في أوجه الخلاف وغيرها مما لا يسعه مجال بحثنا؛ إذ أن هذا محله في كتب الفروع الفقهية، ومن أهم هذه

---

(١) انظر: أضواء البيان للشنقيطي ٦/٦٩٣ ـ ٦٩٤.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/١٦؛ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، مذكرة أصول الفقه على روضة الناظر (المدينة المنورة: المكتبة السلفية) ص ٧٢.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥/١١١ ـ ١١٢؛ وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلّته، الطبعة الثانية، ٨ مج (دمشق: دار الفكر، ١٤٠٥هـ) ١/٤٨٥.

الأحكام ما يلي:

حكمها سنّة مؤكدة. وهو قول الجمهور.

والذي يضحّى به بالإجماع: الأزواج الثمانية: وهي الضأن والمعز والإبل والبقر، وأفضل ما يضحّى به منها عند الإمام مالك: الضأن ثم البقر ثم الإبل؛ نظراً لطيب اللحم، ولأن النبيّ ﷺ ضحّى بكبشين ولا يفعل إلاَّ الأفضل، ولو علم الله خيراً منه لفدى به إسماعيل.

وذهب أكثر العلماء إلى أنه يستحب أن يتصدق الرجل بثلث الأضحية، ويطعم الثلث، ويأكل هو وأهله الثلث لقوله تعالى: ﴿فكلوا منها واطعموا القانع والمعتّر﴾.

واختلف العلماء في الذبح يوم النحر، فقال مالك: بعد صلاة الإمام وذبحه إلاَّ أن يؤخر تأخيراً يتعدى به فيسقط الاقتداء به وراعى أبو حنيفة الفراغ من الصلاة دون ذبح الإمام، والشافعي راعى دخول وقت الصلاة ومقدار ما توقع فيه الخطبتين، فاعتبر الوقت دون الصلاة. ولكن لا خلاف بينهم في أنه لا يجزىء ذبح الأضحية قبل طلوع الفجر من يوم النحر.

وأمَّا الأيام التي ينحر فيها ـ على الراجح ـ ثلاثة: يوم النحر ويومان بعده. قال بهذا الجمهور، والشافعي يرى أنها أربعة: يوم النحر وثلاثة بعده(١).

ونذكر أخيراً صفات الحيوان المضحّى به: فصفات الأصحية ثلاثة أنواع: مستحبة، ومانعة الإجزاء، ومكروهة.

أمَّا المستحبة بالاتفاق: فهي أن يكون كبشاً سميناً أقرن أملح (أبيض) فحلاً، والسبب في استحبابها هو أنها صفات لأضحية النبي ﷺ.

وأمَّا الصفات المانعة الإجزاء فهي أربعة بالاتفاق: العور البيّن، والمرض البيّن، والعرج، والعجف (الهزال)، وأضاف الفقهاء عيوباً أُخَر بالقياس على هذه الأربعة هي في معناها أو أقبح منها، كالعمى وقطع الرجل وغيرها.

وأمَّا الصفات المكروهة: فقال الفقهاء: الشرقاء (المشقوقة الأذن)، الخرقاء (التي يخرق أذنها الوسم)، والمدابَرَة (التي يقطع شيء من مؤخر أذنها)، والمقابَلَة (التي

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٢/٤٣ ـ ٤٧، ١٥/١٠٧ ـ ١١٠.

يقطع شيء من مقدم أذنها)، والمجزوزة (التي جزّ صوفها قبل الذبح لينتفع به)، والحولاء (التي في عينها حول). وهذا ما كرهه الحنفية، وعند المالكية أضافوا العضباء (الناقصة الخلقة أو المكسورة القرن)، والتي كسرت بعض أسنانها لكبر ونحوه، وعند الشافعية: الجلحاء (وهي التي لم يخلق لها قرن)، والقصماء (التي انكسر غلاف قرنها)[1]. والله أعلم.

المطلب الرابع
قصّة بناء الكعبة

أولاً ــ بيان القصّة:

في هذه القصة الكريمة تظهر لنا مشاركة إسماعيل لأبيه إبراهيم ــ عليهما السلام ــ المشاركة بكل وجوهها الحسّية والمعنوية. وهذا ما نشهده من خلال الآيات الكريمة التالية:

﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلًّى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهّرا بيتي للطائفين والعاكفين والركّع السجود. وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا البلد آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم باللَّهِ واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتّعه قليلاً ثم أضطرّه إلى عذاب النار وبئس المصير. وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنَّك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمَيْن لك ومن ذريتنا أمّة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنَّك أنت التوّاب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم إنَّك أنت العزيز الحكيم﴾[2].

أمّا بياننا لهذه القصة ومعالجتنا لها يتضح عبر الفقرات الآتية:

١ ــ الأمر بالبناء:

لقد ورد أن الكعبة بحيال البيت المعمور، وكذا معابد السماوات السبع. قال

---

(١) انظر: الفقه الإسلامي وأدلّته لوهبه الزحيلي ٦١٧/٣ ــ ٦٢٤.

(٢) سورة البقرة: الآيات ١٢٥ ــ ١٢٩.

بعض السلف: إن في كل سماء بيتاً يعبد الله فيه أهل كل سماء، وهو فيها كالكعبة لأهل الأرض، فأمر الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يبني له بيتاً يكون لأهل الأرض كتلك المعابد لملائكة السماوات[1].

وهذا الأمر من الله كما جاءت الإشارة إليه في القرآن جاء كذلك في حديث رسول الله ﷺ الذي سبق وأن ذكرنا جزءاً منه ـ وفيه أنّه ﷺ قال ـ مخبراً عن إبراهيم عليه السلام: ـ (. . . ثم لبث عنهم ـ أي عن إسماعيل وأهله ـ ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلمّا رآه قام إليه وصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد. ثم قال: يا إسماعيل إنَّ الله أمرني بأمر. قال: فاصنع ما أمرك ربك. قال وتعينني ـ وفي رواية أنّه قال له: إنَّ الله قد أمرني أن تعينني عليه ـ فقال له: وأعينك ـ إذن أفعل ـ. قال: فإنَّ الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها. . .) الحديث[2]. ويتضح لنا هنا شيئان:

الأول: الاستجابة من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لأمر الله.

الثاني: إنّ قول إبراهيم عليه السلام: «فإنَّ الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها. . .». يشير إلى أنَّ الله قد أرشد نبيه إبراهيم إلى مكان البيت الذي يريد بناءه ودليل هذا أيضاً قوله تعالى: ﴿وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت. . .﴾ الآية[3]، أي عيّنّا له محلّه. وقد استدل بهذه الآية كثير ممن قال: إنَّ إبراهيم أوّل من بنى البيت العتيق وأنه لم يبن قبله، ويؤيد قولهم ما ثبت في الصحيح عن أبي ذر رضي الله عنه أنَّه قال: قلت: يا رسول الله أيّ مسجد وضع في الأرض أوّل؟ قال: المسجد الحرام. قلت ثم أي؟ قال المسجد الأقصى. قلت: كم كان بينهما؟ قال: أربعون سنة. . . الحديث[4]. ومصداق هذا قوله تعالى: ﴿إنَّ أوّل بيت

(١) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير ١/١٤٩ ـ ١٥٠.

(٢) رواه البخاري: كتاب الأنبياء، حديث رقم (١٦٦) ٤/٢٨٢ ـ ٢٨٦، الرواية الأخرى حديث (١٦٧) ٤/٢٨٧.

(٣) سورة الحج: الآية ٢٦.

(٤) رواه البخاري: كتاب الأنبياء، حديث رقم (١٦٨)، ٤/٢٨٨.

وضع للناس للّذي ببكّة مباركاً وهدى للعالمين﴾[1].

ويقول ابن كثير ـ فيما خلاصته ـ : لم يجىء في خبر صحيح عن معصوم أنّ البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام، ومن تمسّك في هذا بقوله: (مكان البيت) فليس بناهض ولا ظاهر؛ لأن المراد مكانه المقدر في علم الله. وما ورد من طواف الملائكة حوله، وطواف سفينة نوح أربعين يوماً حوله وغير ذلك، فإن كل هذا مأخوذ من أخبار بني إسرائيل، ومقرّر أنّ أخبارهم لا تصدق ولا تكذّب فلا يحتج بها، وإذا ردّها الحق فهي مردودة، وقد ذكرنا الآيات والأحاديث الصحيحة التي تردّ على ذلك ـ والحمد لله ـ فالصحيح كما قال الله بأنّه أوّل بيت وضع للناس لعبادتهم ونسكهم يطوفون حوله ويصلون به ويعتكفون عنده، ومن بناه إبراهيم وابنه إسماعيل، ومثل هذا ورد عن النبي ﷺ[2].

٢ ـ تنفيذ الأمر:

وبعد اتفاق التعاون بين الأب وابنه عليهما السلام شرعا في تنفيذ أمر الله ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنّك أنت السميع العليم﴾، وقد قال النبي ﷺ في تتمة الحديث السابق الذكر: «. . . فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه، وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ﴿ربّنا تقبّل منّا إنّك السميع العليم﴾، قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿ربنا تقبّل منا. . .﴾ الآية»[3]، وفي الرواية الأخرى قوله: «حتى إذا ارتفع البناء وضعف الشيخ عن نقل الحجارة فقام على حجر المقام فجعل يناوله الحجارة ويقولان: ﴿ربنا تقبّل منا إنّك أنت السميع العليم﴾[4].

وأمّا القواعد فهي جمع قاعدة، وهي الأساس والأصل لما فوقه وهي صفة غالبة

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٩٦.

(٢) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير ١/ ١٥٠؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ص ١/ ٣٨٣.

(٣) رواه البخاري: كتاب الأنبياء، حديث (١٦٦)، ٤/ ٢٨٧.

(٤) رواه البخاري: كتاب الأنبياء، حديث (١٦٧)، ٤/ ٢٨٨.

ومعناها الثابتة، ورفع الأساس البناء عليها؛ لأنها إذا بني عليها نقلت من هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع وتطاولت بعد التقاصر(١).

وهما ــ كما هو ملاحظ ــ لا ينفكان من الدعاء لله بتقبل ما هما فيه من طاعته.. يرجوان الله أن يتقبل منهما ويخافان أن لا يثابا على عملهما وأن لا يرضى الله عنهما به!!!

وإنَّه لمشهد عظيم يذكره الله في كتابه تاريخاً وعبرةً للناس أجمعين؛ لأنه مشهد بناءبيته الدّال على عظمته وحرمته، وخضوع الجميع له سبحانه بكل ذلّة وإنابة.

ومما يظهر لنا هنا ــ أيضاً ــ حكمة الله عزّ وجلّ في أمره إبراهيم ــ من قبل ــ بحمل ولده وزوجه إلى هذا الوادي: وهي ما أراده الله عزّ وجلّ من بناء بيته في هذا المكان، والذي جعل من بعد قبلة للمسلمين في عهد خاتمة الرسالات وفي زمن أفضل الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله ﷺ.

ونُفِّذ الأمر الربّاني، ولكن بقيت هناك أشياء في نَفسَيْ الخليل وابنه عليهما السلام ترويها لنا الفقرة التالية:

٣ ــ الدعاء الخاشع:

ويدعوان ــ عليهما السلام ــ بدعاءٍ خاشع جليل، امتدّ أثر استجابته إلى الأجيال كلها ويبقى إلى قيام الساعة ووجود الموحّدين لرب العالمين.

وأوّل جمل هذا الدعاء قولهما: ﴿ربنا واجعلنا مسلِمَيْن لك ومن ذريتنا أمّة مسلمة لك﴾ فطلبا أولاً أن يجعلهما الله مسلمين له، وطلب الإسلام منهما مع أنّهما مسلمان إنّما هو طلب للثبات على الإسلام، والمعنى أنّهما يرجوان من الله أن يجعلهما مستسلمين لأمره خاضعين لطاعته لا يشركان معه في الطاعة أحداً سواه ولا في العبادة غيرة دوام حياتهما.

ثم خصّا بعض الذرية بما خصّا به ذواتهما ﴿ومن ذريّتنا أمّة مسلمة لك﴾، وإنّماخصا بعض الذرّية لا جميعهم؛ لأنّ الله قد أعلم إبراهيم أنّ من ذريته من لا ينال

---

(١) تفسير النسفي: ١/٧٤.

عهده لظلمه وفجوره[1].

وثاني جمل هذا الدعاء قولهما ﴿وأرنا مناسكنا﴾ وذلك أنّ الله أمر خليله بدعوة الناس للحج فقال: ﴿وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾[2] فطلبا منه ــ عقب هذا الأمر ــ أن يعرّفهما مناسك الحج حتى يبلغوها الناس. فاستجاب الله دعاءهما وأوضح لهما مناسك الحج، حيث قيل: إنّ جبريل عليه السلام أرى إبراهيم المناسك كلها[3]. وجميع الأجيال ــ من بعده وإلى ما شاء الله ــ متعبّد للّه بهذه المناسك.

وثالثها: قولهما: ﴿وتب علينا إنّك أنت التوّاب الرحيم﴾، فهما يطلبان التوبة من الله، وهما إذ يطلبانها لا لذنوب ارتكباها بل هما معصومان؛ وإنّما قد يكون ذلك لتركهما الأوْلى وحسنات الأبرار سيئات المقربين. وقد يقصدان بدعائهما التوبة على الظلمة من أولادهما وذريتهما، فيكون ظاهر الكلام الدعاء لنفسيهما والمعنيّ به ذريتهما. أو لعلّ قولهما هذا ليكون سنّة يقتدي بها من جاء بعدهما، فتتخذ الناس تلك البقعة الطاهرة موضع تنصّل من الذنوب وتوبة إلى الله[4]. والله أعلم.

ثم ختما دعاءهما بخير ختام ﴿ربّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم إنّك أنت العزيز الحكيم﴾.

يقول ابن جرير الطبري موضحاً هذه الخاتمة العظيمة ــ فيما خلاصته ــ:

وهذه دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لنبينا محمد ﷺ خاصة، وهي الدعوة التي كان النبي ﷺ يقول عنها: «أنا دعوة إبراهيم وبشرى عيسى عليهما السلام، ورأت أمّي حين حملت بي أنّه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام. . .» الحديث[5].

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ١/٤٣٣.

(٢) سورة الحج: الآية ٢٧.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/١٨٤.

(٤) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ١/٤٣٣ ــ ٤٣٥.

(٥) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ٢/٦٠٠، وقال عنه: صحيح الإسناد، ووافقه =

كما شملت هذه الـدعوة صفـات هذا النبـي الكـريم، **وأولها** ـ ﴿يتلو عليهم﴾: أي يقرأ عليهم كتابك الذي توحيه إليه.

وثـانيها: ـ (ويعلمهم الكتـاب والحكمـة): والكتـاب هـو القـرآن الكـريم، أمَّـا الحكمـة فاختلف فيهـا؛ فقال قتـادة: هي السنة، وقـال بعضهم: هي المعرفـة بالـدين والفقه فيه واتباعه، وقال ابن زيد: الحكمة الدين الذي لا يعرفونه إلَّا بـه يعلمهم إيَّاها.

وثالثها ـ (ويزكيهم): والتزكية ـ هنا ـ التطهير من الشـرك باللَّه وعبـادة الأوثان، والتنمية بالخير والإكثار بطاعة الله. وقولهما: ﴿إنَّك أنت العزيـز الحكيم﴾ ـ في نهايـة هذا الدعاء العظيم ـ مشير إلى ما يختلـج بـه قلباهما من التضرع والخشوع لله وكأنهما يقولان: إنَّك يا رب أنت العزيز القوي الذي لا يعجزه شيء أراده؛ فافعل بنـا وبذريتنـا مـا سألنـاه وطلبناه منـك، وأنت الحكيم الذي لا يـدخل تـدبيره خلل ولا زلـل فاعـطنـا ما ينفعنا وينفـع ذرياتنا ولا ينقصك ذلك ولا ينقص خزائنك سبحانك(1).

وهكذا تمّت القصة بهذا الدعاء الخاشـع الـذي نعيش من خيره الـذي جعله الله فيه.

ثانياً ـ العبر والفوائد:

١ ـ **العبـر والفوائـد من قولـه تعالى**: ﴿وإذا يـرفـع إبراهيم القـواعـد من البيت وإسماعيل ربنا تقبّل منا إنَّك أنت السميـع العليم﴾.

* إنَّ من أجمل الأحوال وأحسنها أن يكون الأب والابن كلاهما يجتهدان في طاعـة الله ونيل رضاه، وهذا ما نلاحظه في قصّة بناء الكعبـة؛ فإنَّ الخليـل عليه السـلام يقول لابنه إسماعيل: إنَّ الله قد أمرني أن تعينني فيه. فيقول: إذن افعل بـلا سؤال ولا تـردد ولا هروب من الطاعة.

والأب إبـراهيم عليه السـلام قد أعـطى القدوة الصـالحة لابنـه ـ من قبـل ـ في طاعة الله وبذل الغالي والرخيص في سبيل مـرضاتـه، وهـا هـو ذا الابن قد تـربّـى على

= الذهبي على حكمه هذا، ولـه شاهد يقوّيه. وصحّحه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٥٤٥/٤.

(1) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ١/٤٣٥ ـ ٤٣٦.

هذا المنهج الأبوي الكريم.. قد أعطاه القدوة في مراحل شتّى من حياته: حين تركه وأمه في واد غير ذي زرع تلبيةً لأمر الله، وحين جاءه برؤيا ذبحه فأراد ذبحه منقاداً مختاراً طاعة الله لا يقدم شيئاً عليها!! وإنّها للقدوة التي تربّي وتغرس القيم العليا غرساً.

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نشير إلى أن تربية الأبناء على طاعة الله إنّما تكون أولاً بالقدوة الصالحة الماثلة أمامهم، فالقدوة هي أنجح وسائل التربية الفاضلةالتي تؤثر في تكوين الولد إسلامياً.

والأبناء مهما كان استعدادهم للخير قوياً، ومهما كانت فِطَرهم نقية سليمة فإنهم لن يستجيبوا لمبادىء الخير وأصوله ما لم يروا مربيهم في ذروة الالتزام بمنهج الله ـ إلاَّ من رحم الله ـ ولعلّ أعظم الانحرافات الخلقية التي نجدها في مجتمعاتنا اليوم من قِبَل أبناء المسلمين إنّما هي نتيجة فقدان القدوات الصالحة المربية.

* وإنّه ليخشع القلب وهو يتصور إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ وهما يقومان بهذا العمل الجليل.. بناء بيت الله في الأرض، وإنّه لشرف عظيم لهما من الله، وإنّها لمنزلة عالية رفيعة لهما عند الله؛ أن كلفهما ببناء بيته ولم يكلّف غيرهما ممن سبق أو لحق.

وإن القلم ليعجز عن وصف هذا الحدث العظيم بكل ما فيه من مظاهر العظمة والجلال والتوحيد لله، وما فيه من الشعور بالخضوع والتذلل والرهبة بكل معانيها، وحُق لهما ـ عليهما السلام ـ وهما في هذا الموقف أن يبتهلا ويدعوا ربهما، فإن لم يكن الدعاء في هذا الموقف فأين يكون!! وحُقّ لهما أن يخافا ألاّ يقبل منهما عملهما هذا وهما في هذا الأمر الجليل والمشهد العظيم.

* وإنّها لدرجة عظيمة تلك التي يعمل فيها الإنسان العمل الصالح وهو يخاف أن لا يتقبل منه، وهذا كما حكى الله عن حال المؤمنين الصادقين في قوله: ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾[1]. أي يبذلون ويتقربون إلى الله ثم يخافون أن لا يتقبل منهم.

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٦٠.

يقول الشهيد سيد قطب واصفاً هذه الحالة: (. . . هم يأتون من الطاعات ما استطاعوا، ولكنّهم بعد هذا كلّه ﴿يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾ لإحساسهم بالتقصير في جانب الله، بعد أن بذلوا ما في طوقهم، وهو في نظرهم قليل. وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله ﴿الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾ هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عزّ وجلّ؟ قال: «لا يا بنت الصدّيق! ولكنه الذي يصلّي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عزّ وجلّ»[1].

إنَّ قلب المؤمن يستشعر يد الله عليه، ويحسّ آلاءه في كل نفس وكل نبضة. . . ومن ثم يستصغر كل عبادته، ويستقل كل طاعاته، إلى جانب آلاء الله ونعمائه.

كذلك هو يستشعر بكل ذرّة فيه جلال الله وعظمته، ويرقب بكل مشاعره يد الله في كل شيء من حوله. . ومن ثم يشعر بالهيبة، ويشعر بالوجل، ويشفق أن يلقى الله وهو مقصر في حقه، لم يوفه حقه عبادة وطاعة ولم يقارب أياديه عليه معرفة وشكراً»[2].

ومن جهة أخرى فإن هذا الشعور دليل على الإخلاص، إذ أنّ من الإخلاص خجل المؤمن من عمله، وهو شدة حيائه من الله إذ لم يَرَ ذلك العمل صالحاً له مع بذل مجهوده فيه، فهو قد جمع إحساناً في مخافة، وسوء ظن بنفسه[3].

* إنَّ طلب القبول من الخليل وابنه يدلّ على أنّ بناء المساجد قربة الله عزّ وجلّ؛ لأن القبول يتضمن الأجر والثواب من الله[4]، ويدل على هذا قول النبيّ ﷺ «من بنى مسجداً لله بنى الله له بيتاً في الجنة»[5].

وفي هذا الحديث حثٌّ على بناء المساجد وأنّه من أعظم القربات إلى الله تعالى.

---

(١) رواه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب (٢٤)، حديث (٣١٧٥)؛ رواه ابن ماجة: الزهد، باب (٢٠)، حديث (٤١٩٨). (دار الفكر تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي).

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ٢٤٧٢/٤.

(٣) انظر: مدارج السالكين لابن القيم الجوزية ٢/ ٩٥. أو تهذيب المدارج للعزي ص ٣٢٤.

(٤) انظر: أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصّاص الحنفي، أحكام القرآن، الطبعة الأولى، ٣ مج (لاهور باكستان: نشر سهيل أكيديمي) ١/ ٨١.

(٥) رواه البخاري: كتاب الصلاة، باب من بنى مسجداً، حديث (١١٠)، ١/ ١٩٥؛ ورواه مسلم: كتاب المساجد، حديث (٢١)، ٢/ ١٦٥.

* **فائدة بلاغية:**

في قوله: ﴿وإذ يرفع﴾ ورد التعبير بصيغة المضارع حكاية عن الماضي، ولذلك وجه معروف في محاسن البيان، وهو استحضار الصورة الماضية وكأنّها مشاهدة بالعيان، فكأن السامع ينظر ويرى إلى البنيان وهو يرتفع والبنّاء هو إبراهيم وإسماعيل[1].

٢ ــ العبر والفوائد من دعائهما عليهما السلام:

* إنَّ في دعائهما ــ ﴿ربنا واجعلنا مُسْلِمَيْن لك﴾ ــ ما يدلّ على كمال سعادة ما هما فيه، فإنَّ كمال سعادة العبد أن يكون مسلماً لأحكام الله تعالى وقضائه وقدره، وأن لا يكون ملتفتاً إلى أحد سواه سبحانه.

وهذه هي السعادة الحقيقية التي شمّر إليها المشمرون حتى ينالوها، فالمؤمن الصادق هو الذي يجد سعادته في طاعة الله، والإخلاص له في كل شيء وعدم التوجّه إلى أحد سواه.

* وقد دعوا لذريتهما، والدعاء للأولاد هو من الصفات التي مدح الله بها عباده، حيث ذكرها سبحانه في تعداده لصفات عباد الرحمن، فقال تعالى: ﴿والذين يقولون ربنا هبْ لنا من أزواجنا وذرياتنا قرّة أعين واجعلنا للمتقين إماماً﴾[2].

فعباد الرحمن يرجون أن تعقبهم ذريَّة تسير على نهجهم فتقرّ بهم أعينهم، وتطمئن بهم قلوبهم، ويتضاعف بهم عدد «عباد الرحمن»، وهذا شعور فطري إيماني عميق.. شعور الرغبة في مضاعفة السالكين في الدرب إلى الله. وفي أوّلهم الذريّة والأزواج، فهم أقرب الناس تبعة، وهم أوّل أمانة يسأل عنها الرجال. وهي الرغبة كذلك في أن يحسّ المؤمن إنّه قدوة للخير يأتم به الراغبون في الله، وكذلك ذريته[3].

---

(١) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، الطبعة الرابعة، ٣ مج (بيروت: دار القرآن الكريم، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م) ١/٩٥.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٧٢.

(٣) انظر: في ظلال القرآن لسيدقطب ٥/٢٥٨٠ ــ ٢٥٨١.

وهكذا.. فإنَّ المسلم الحق ينظر لمصلحته ومصلحة الآخرين من أبناء أمّته، فهو لا يريد صلاح أولاده لنجاتهم هم فقط، ولكن ليصلح بهم غيرهم وينجون معهم أيضاً.

* ويقول الشهيد سيد قطب حول دعائهما: (ومن ذريتنا أمّة مسلمة لك...): «(ثم هو طابع الأمّة المسلمة.. التضامن.. تضامن الأجيال في العقيدة (ومن ذريتنا أمّة مسلمة لك) وهي دعوة تكشف عن اهتمامات القلب المؤمن، إنَّ أمر العقيدة هو شغله الشاغل، وهو همّه الأول، وشعور إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بقيمة النعمة التي أسبغها الله عليهما.. نعمة الإيمان.. تدفعهما إلى الحرص عليها في عقبهما، وإلى دعاء الله ربهما ألاَّ يحرم ذريتهما هذا الإنعام الذي لا يكافئه إنعام. لقد دعوا الله ربهما أن يرزق ذريتهما من الثمرات ولم ينسيا أن يدعواه ليرزقهم من الإيمان، وأن يريهم جميعاً مناسكهم، ويبيّن لهم عباداته، وأن يتوب عليهم؛ بما إنّه هو التوّاب الرحيم)[(١)].

* ومن دعائهما كانت أعظم النعم وهي بعثة رسولنا محمد ﷺ الذي بعثه الله رحمة للعالمين وكان خاتم رسله وخيرهم على الإطلاق.

وتحققت هذه الدعوة وفق قدر الله وتدبيره بنصّها الذي تعيده سورة الجمعة هنا لتذكّر بحكاية ألفاظ إبراهيم عليه السلام. يقول تعالى:

﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين. وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم﴾[(٢)].

كما قال إبراهيم!! حتى صفة الله في دعاء إبراهيم ﴿إنَّك أنت العزيز الحكيم﴾ هي ذاتها التي تعقّب على التذكير بمنّة الله وفضله في سورة الجمعة ﴿وهو العزيز الحكيم﴾[(٣)].

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ١/١١٤ ـ ١١٥.

(٢) سورة الجمعة: الآيتان: ٢، ٣.

(٣) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٦/٣٥٦٥.

ومن نعمة الله على هذه الأمّة ـ أيضاً ـ أن كان هذا الرسول منهم لا من غيرهم، وذلك لوجوه:

أحدها: ـ ليكون محلهم ورتبتهم في العزّ والدين أعظم؛ لأن الرسول والمرسل إليه إذا كانا معاً من ذريته كان أشرف لطلبته إذا أجيب إليها.

وثانيها ـ أنّه إذا كان منهم فإنهم يعرفون مولده ومنشأه، فيقرب الأمر إليهم في معرفة صدقه وأمانته.

وثالثها ـ إنّه إذا كان منهم كان أحرص الناس على خيرهم وأشفق عليهم من الأجنبيّ لو أرسل إليهم[1].

وهذا ما شاهدنا آثاره جليّة واضحة في سيرة نبينا محمد ﷺ.

* ومن البلاغة القرآنية ـ هنا ـ نقول:

إنَّ تكرار النداء بقوله ﴿ربَّنا﴾ فيه إظهار الضراعة إلى الله، وإظهار أن كلّ دعوة من هذه الدعوات مقصودة بالذات؛ ولذلك لم يكرر النداء إلَّا عند الانتقال من دعوة إلى أخرى، فإن الدعوة الأولى لتقبل العمل، والثانية لطلب الاهتداء والثبات، والثالثة لطلب تمام الهداية ببعثة الرسول في ذريتهما[2]. والله أعلم.

* * *

---

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٤/٦٥.

(٢) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١/٧١٩ ـ ٧٢٢.

المبحث الثاني

إبراهيم عليه السلام مع ابنه إسحاق

وفيه مطلب واحد، وهو: «قصة البشرى بإسحاق»

أوّلاً ــ بيان القصّة:

تحدث القرآن الكريم عن هذه البشرى في ثلاثة مواضع:

ــ في سورة هود بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾[1].

ــ وفي سورة الحجر بقوله: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾[2].

---

(١) سورة هود: الآيات ٦٩ ــ ٧٣.

(٢) سورة الحجر: الآيات ٥١ ــ ٥٦.

ـ وآخرها في سورة الذاريات بقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾[1].

وسنتناول هذه القصة بفقرات متسلسلة ــ تبين مجرياتها عبر هذه الآيات الكريمة ــ وهي كما يلي:

١ ــ ضيافة إبراهيم للملائكة المبشّرين:

يخبرنا الله ــ تبارك وتعالى ــ عن مجيء ملائكته الكرام إلى إبراهيم لتبشيره بإسحاق في قوله: ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى...﴾ الآية، وأكّد الله هذا الخبر بحرف (قد)؛ للاهتمام به. ثم يحكي الله لنا أنهم حين دخلوا عليه حيّوه فقالوا له: (سلاماً)، فرد عليهم بتحية أفضل من تحيتهم حيث قال لهم: (سلام)[2] ووجه أفضليتها أنّه قالها بالرفع، والرفع يدل على الثبوت والدوام، وهذا على حدّ قوله تعالى: ﴿وإذا حيّيتم بتحيّة فحيوا بأحسن منها أو ردوها...﴾ الآية[3].

وعندما دخلوا عليه لم يعرفهم، وأبان لهم ذلك في رده على تحيتهم كما في آية الذاريات: ﴿قال سلام قوم منكرون﴾؛ إذ لم يخبروه بدايةً عن حالهم ومن هم؟!، ولكن لم تهمه هذه القضية وأسرع في إحضار الطعام إكراماً لهم: ﴿فما لبث أن جاء بعجل حنيذ﴾ وفي آية الذاريات: ﴿فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين﴾. وكلا

---

(١) سورة الذاريات: الآيات ٢٤ ــ ٣٠.

(٢) قرأ حمزة والكسائي: (سلم) بكسر السين وإسكان اللام من غير ألف فيهما، وقرأ الباقون بفتح السين واللام وألف بعدها. (انظر: محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ٢ مج (بيروت ــ لبنان: دار الكتب العلمية) ٢/٢٩٠.

(٣) سورة النساء: الآية ٨٦.

التعبيرين: ما لبث ــ فراغ[1]، تدل على إسراعه في إحضار الطعام، فراغ: بمعنى أنّه انسلّ خفية في سرعة. وتضمّنت الآيتان صفة العجل ــ وهو فتيّ البقر ــ وطريقة طهوه؛ ففي آية الذاريات بيّن الله أنه عجل (سمين) أي كثير اللحم، وفي آية هود أشار إلى أنّه (حنيذ) أي مشويّ على الرضف وهي الحجارة المحمّاة.

وبهذا فإنه قد أتاهم بخير ما عنده وفي أسرع وقت لأن ــ من المعروف ــ أن الشي هو أسرع الطرق في طهو الطعام[2]، وهذا يشير إلى غاية كرمه عليه السلام لضيوفه.

٢ ــ فزعه عليه السلام من ضيوفه:

ولما جاءهم بالعجل أدناه منهم، وعرضه عليهم وقال لهم: (ألا تأكلون)، فرأى أنّ أيديهم لا تمتد إليه. وفي هذه اللحظة فزع إبراهيم وخاف من ضيوفه؛ وذلك لأن من يقدم إليه الطعام ثم لا يأكل منه فإنه يخيف ويشعر بأنه ينوي خيانة أو غدراً بحسب تقاليد أهل البدو[3]. قال تعالى: ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة...﴾ الآية، والوجس: هو الصوت الخفي ويطلق على ما يعتري النفس من الشعور والخواطر عند الفزع[4]. وفي آية الحجر أوضح شعوره هذا وقال لهم: ﴿إنا منكم وجلون﴾ أي خائفون.

وحين علمت الملائكة ما هو فيه من الخوف والفزع لم يبقوه على فزعه بل أخبروه بحقيقتهم وطمأنوه: ﴿قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط﴾ فنحن ملائكة وأتينا بأمر هلاك قوم لوط؛ وفي طريقنا إليهم مررنا عليك.

وفي هذه اللحظة تظهر شخصية جديدة في القصة وهي سارة

(١) راغ: أي مال في المشي إلى جانب، ومنه روغان الثعلب، والمعنى: أنه حاد عن المكان الذي نزلوا به إلى أهله. (التحرير والتنوير: ٢٦/٣٥٨).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٤٥١ ــ ٤٥٢.

(٣) كان إبراهيم عليه السلام قد هاجر من أرض الكلدانيين (مسقط رأسه في العراق) وعبر الأردن وسكن بأرض كنعان في البادية.

(٤) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ١٢/١٢٨.

زوج سيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿وامرأته قائمة فضحكت. . .﴾، وكانت تقوم بخدمتهم، ولما سمعت كلامهم ضحكت استبشاراً بهلاك قوم لوط لكثرة فسادهم وغلظ كفرهم بالله وعنادهم[1].

٣ ــ البشارة بإسحاق عليه السلام:

وبعد أن زال الخوف والفزع عن إبراهيم أفصحت له الملائكة بالبشارة التي جاءوا من أجلها إليه؛ وهي البشارة بإسحاق.

وقد كان لإبراهيم عليه السلام موقف تجاه هذه البشارة، كما أن لزوجته سارة موقفاً مشابهاً. فنذكر أولاً موقف إبراهيم عليه السلام عند سماعه البشارة:

يقول تعالى: ﴿قالوا لا توْجل إنّا نبشّرك[2] بغلام عليم. قال أبشّرتموني على أن مسّني الكبر فبم تبشّرون[3]. قالوا بشّرناك بالحق فلا تكن من القانطين. قال ومن يقنط[4] من رحمة ربّه إلا الضالون﴾.

ونلاحظ أنّ الله حكى قولهم وبشارتهم لإبراهيم عليه السلام هنا في «الحجر» بقوله: ﴿إنا نبشّرك بغلام عليم﴾ وكذا في «الذاريات» ﴿وبشّروه بغلام عليم﴾، ولكنّه ــ عزّ وجلّ ــ لم يفصّل في موقف إبراهيم عليه السلام إلّا في «الحجر».

وقوله: ﴿عليم﴾ أي يكون نبياً عالماً بالشريعة الربانية، وهو كقوله تعالى في آية الصافات: ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾[5].

ولما بشّروه قال لهم متعجباً: ﴿قال أبشّرتموني على أن مسّني الكبر فبم

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٤٥١ ــ ٤٥٢.

(٢) قرأ الجمهور: (نُبَشّرك) بضم النون وفتح الموحدة وتشديد الشين، وقرأ حمزة وحده: (نَبْشُرك) بفتح النون وسكون الموحدة وضم الشين. (انظر: النشر لابن الجزري ٢/٢٣٥).

(٣) (فبم تبشرون قرأ نافع وابن كثير بكسر النون. وفتحَها الباقون وشدّدها ابن كثير، وقرأ الباقون بتخفيفها (النشر ٢/٣٠٢).

(٤) قرأ الجمهور: (يقنط) بفتح النون، وقرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب وخلف بكسر النون، وهما لغتان في قنط (النشر ٢/٣٠٢).

(٥) سورة الصافات: الآية ١١٢.

تبشّرون﴾، وتفسير قوله على أنّه يقول لهم: أتيتموني بهذه البشارة وأنا قد بلغت من الكبر ما بلغت ولا يُتصوّر أنّي أنجب في هذا السنّ.

و(على) ـ هنا ـ بمعنى (مع) وهي دالّة على شدّة اقتران البشارة بمسّ الكبر إيّاه، وأكّد تعجبه ـ أيضاً ـ بإتيانه بالاستفهام التعجبي في قوله: ﴿فبم تبشّرون﴾ أي بأي شيء تبشّروني، وفي قوله ـ هذا ـ نُزّل الأمر العجيب المعلوم منزلة الأمر غير المعلوم لأنه يكاد أن يكون غير معلوم.

ولما سمعت الملائكة منه هذا الكلام نهوْه عنه وأعلموه أنّ ذلك يعتبر استبعاداً لرحمة القدير ـ مع علمه بأن المبشرين هم رسل من الله ـ واستبعاد تلك الرحمة يفضي إلى القنوط. وهو قولهم: ﴿فلا تكن من القانطين﴾.

ويمكننا تحليل هذا الموقف فنقول: إنّه لما استبعد ـ عليه السلام ـ ذلك استبعاد المتعجب من حصوله كان ذلك أثراً من آثار رسوخ الأمور المعتادة في نفسه بحيث لم يقطعه عنها الخبر الذي يعلم صدقه؛ فبقي في نفسه بقية تردد من حصول ذلك، فقاربت حاله حال من ييأس من أمر الله، ولكونه ـ عليه السلام ـ مبرءاً من أن يقنط وعظوه بطريقة مناسبة لمقامه فنهوه عن أن يكون في زمرة القانطين تحذيراً له مما يدخله في تلك الزمرة.

وهذا النهي يشابه قول الله لنوح ـ عليه السلام ـ فيما مرّ بنا: ﴿إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾[1].

وقد ذكّرت موعظة الملائكة إبراهيم مقاماً نسيه فاستدرك قائلاً: ﴿قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾ وهو استفهام إنكار في معنى النفي؛ ولذلك استثنى منه (إلا الضّالّون) يعني بذلك أنّه لم يذهب عنه اجتناب القنوط من رحمة الله ولكنّه امتلكه المعتاد فتعجب، فصار ذلك كالذهول عن المعلوم فلما نبّه تذكّر[2].

وأما موقف سارة تجاه البشارة فقد حكاه الله في هود والذاريات، وذلك لأن البشارة كانت لهما معاً، ويحتمل أن البشارة حصلت في وقت واحد وحكى الله قول كل

---

(١) سورة هود: الآية ٤٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٤/٥٨ ـ ٦٠.

منهمـا، ويحتمل حصـولها في وقتين متقـاربين فبشروه أولاً بـانفراد، ثم جـاءت امرأتـه بعده[1]. والله أعلم.

وكما ذكرنا أن موقف سارة شبيه بموقف زوجها ـ عليـه السلام ـ وهـو التعجب، ولكن اختلفت الصـورة والعبارة، فهي حينمـا أخبرت بهـا صـرخت صـرخـة عـظيمـة، وضـربت بيدهـا على جبينها، بمعنى أنّهـا لطمت تعجبـاً كما تتعجب النسـاء من الأمـر الغريب: ﴿فأقبلت امرأته في صرّة فصكّت وجهها وقالت عجوز عقيم﴾ وكـأنها تقـول: كيف ألد وأنا عجوز وقد كنت في حال الصبا والشباب لا أحبل[2].

وفي آية هود أضيف قولها: ﴿يـا ويلتى﴾ مع بيـان حالتهـا تلك، و(ويلتي) كلمة أصلها (يا ويلي) وتقال عندما يفجؤ الإنسان أمر مهّم من بلية أو فجيعة أو فضيحة تعجبـاً منه أو استنكاراً لـه أو شكوى منه[3].

ونـلاحظ أن آية الـذاريـات ذكـرت حـركـات التعجب، وفي آيـة هـود ذكـر لفظ التعجب؛ وذلك لتكتمل الصورة بكل ما فيها، ويكون ذلك أبلـغ في التعبيـر وأوقـع في الحِسّ.

وكمـا أنّ سارة في تعجبهـا عرّفت بحـالها الـذي لا يلائم الحبـل؛ عرّفت بحـال زوجها الشيـخ المسنّ فأشارت إليه قائلة: (وهذا بعلي شيخاً) أي كبيراً لا يولد لمثله.

والتعجب ـ كما في آية أخـرى ـ شمل أمـرين، إذ بشروهـا بإسحـاق ويعقوب. يقول تعالى: ﴿فبشّرناها بإسحـاق ومن وراء إسحاق يعقـوب﴾، فيولـد لها ولـد ويعيش وتعيش هي حتى يولد لابنها ولد، وهذا أدخل في العجب وأبلـغ في البشارة؛ لأن شأن أبناء الشيوخ أن يكونوا مهزولين لا يعيشون غالباً إلا معلولين، ولا يولد لهم في الأكثـر، وأيضـاً فإن شـأن الشيوخ الـذين يولـد لهم أن لا يدركـوا يفـع أولادهم فضـلاً عن أولاد أولادهم. وهذا ما دفعهـا إلى أن تؤكد تعجبهـا وتصرّح بـه في قـولها: (إنّ هـذا لشيء عجيب)[4].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٤/٥٨.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٢٣٦.

(٣) انظر: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ١٢/١٢٩.

(٤) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٢/١١٩ ـ ١٢١.

وحين رأت الملائكة ما بلغها من التعجب خاطبوها بقولهم: ﴿أتعجبين من أمر الله...﴾ الآية وهذا استفهام إنكاري لاستفهامها التعجبي، أي لا ينبغي لك أن تتعجبي من شيء هو من أمر الله الذي لا يعجزه شيء، كما جاء في آية الذاريات: ﴿قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم﴾ الحكيم في أقواله وأفعاله، العليم بما يستحقونه من الكرامة[1]، ولذلك جاء قوله تعالى هناك: ﴿رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾.

ويقول النسفي رحمه الله ــ في هذا المقام ــ: «وإنما أنكرت الملائكة تعجبها لأنها كانت في بيت الآيات ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادات؛ فكان عليها أن تتوقر ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيت النبوة، وأن تسبح الله وتمجده مكان التعجب. وإلى ذلك أشارت الملائكة حيث قالوا: ﴿رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ أرادوا أنّ هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزّة، ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوة، فليست بمكان عجيب، وهو كلام مستأنف علل به إنكار التعجب كأنه قيل: إيّاك والتعجب لأن أمثال هذه الرّحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم»[2].

ثانياً ــ العبر والفوائد:

١ ــ العبر والفوائد من ضيافة إبراهيم للملائكة المبشّرين:

* يستدل من قوله تعالى: ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً...﴾ الآية على أنّ السلام الذي هو تحيّة الإسلام، هو تحيّة الملائكة أيضاً[3]. وكذلك أخبر الله أنّها تحيتهم لعباده المؤمنين في الآخرة في آيات عديدة من كتابه كقوله في سورة الرعد مثلاً: ﴿...والملائكة يدخلون عليهم من كل باب. سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾[4] وكقوله في سورة الزمر ــ أيضاً ــ ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٢٣٦.

(٢) تفسير النسفي ٢/١٩٧.

(٣) انظر: عماد الدين بن محمد الطبري المعروف بالكيا الهراسي، أحكام القرآن، الطبعة الأولى، ٤ مج (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ) ٣/٢٢٦.

(٤) سورة الرعد: الآيتان ٢٣ ــ ٢٤.

الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾[1].

* إنّ الكرم من خلق الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين، فها هو ذا إبراهيم ـ عليه السلام ـ يعطينا القدوة في الكرم والسخاء؛ فإن الآيات الكريمة أخبرت أنّه ـ عليه السلام ـ كان في غاية الكرم لضيوفه مع أنه لا يعرفهم من قبل!! ويدلّنا على غاية كرمه ما يلي:

ـ إحضاره الطعام بسرعة ومن حيث لا يشعرون، ومن دون أن يسألهم هل يأتي بالطعام أم لا. ويدلّ على هذا قوله: ﴿فما لبث أن جاء بعجل حنيذ﴾؛ فإن الفاء في قوله: ﴿فما لبث﴾ للدلالة على التعقيب إسراعاً في إكرام الضيف. وإتيانه بالعجل الحنيذ وهو المشوي دليل كذلك على إسراعه في إحضار الطعام؛ لأنّ الشيّ ـ كما بينا من قبل ـ هو أسرع طرق الطهو، فهو أعون على تعجيل إحضار الطعام للضيف.

وكذلك قوله في الآية الأخرى: ﴿فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين. فقربه إليهم﴾ يدل على إسراعه في إحضار الطعام، إذ أن الفاء جاءت هنا لعطف الأفعال (فراغ ـ فجاء ـ فقربه) لتدل على أن هذه الأفعال وقعت في سرعة. وقوله: (فراغ) الذي معناه ـ كما ذكرنا ـ أنه انسلّ في خفية، ما يدلّ على أنه أتاهم به من حيث لا يشعرون. وهذا كله يدلنا على زيادة كرم الخليل عليه السلام لضيوفه[2].

ـ ويدل على كرمه ـ أيضاً ـ أنه جاءهم بأفضل ما عنده؛ فقدّم إليهم عجلاً سميناً.

ـ كما أنّه قرب الطعام إليهم، فلم يضعه وقال اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم. وهذا من آداب الضيافة والزيادة في الكرم أيضاً.

ـ ومن أدبه في ضيافتهم أنّه لم يأمرهم أمراً يشقّ على سامعه بصيغة الجزم فقال: كلوا، بل قال: (ألا تأكلون) على سبيل العرض والتلطف. وهذا ـ بلا شك ـ زيادة في الإكرام مع تمكّن الضيف من الطعام.

---

(١) سورة الزمر: الآية ٧٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٢/١١٧؛ نفس المرجع ٢٦/٣٥٩ ـ ٣٦٠.

ــ ونـلاحظ أنه نـظر في ضيوفـه بعد تقـريب الطعـام إليهم هـل أكلوا أم لا. وهـذا ــ كذلك ــ من أدب الضيافة؛ إذ أن لصاحب البيت أن ينظر في ضيفه هل يأكل أم لا. وذلك ينبغي أن يكون بتلفت ومسارقة لا بتحديد النـظر، فإن تحـديد النـظر مما يـزعـج الضيف ويحرجه، وقد روي أنّ أعرابياً أكل مع هشام بن عبـد الملك، فرأى هشـام في لقمة الأعرابـي شعرة. فقال لـه: أزل الشعرة عن لقمتك، فقال لـه: أتنظر إليّ نظر من يرى الشعرة في لقمتي؟! والله لا أكلت معك. وخرج من عنده وهو يقول:

وللمـوت خيـر من زيـادة بـاخــل يـلاحظ أطراف الأكيـل على عمْد

فهـذه الأمور التي ذكـرنـاهـا لتـدل بـوضـوح على مـا تحلّى بـه الخليـل ــ عليـه السلام ــ من غاية الإكرام لضيوفه، وفيه لنا خير قدوة[1].

* إن تعجب إبـراهيم عليه السـلام وزوجه سـارة من البشارة بـإسحاق لا يـدلّ على أنّهما أنقصا من قدرة الله ومشيئته العليا، وإنما هو غلبة الأمـر المعتاد والسنّـة الجاريـة، ودليـل هـذا أنّـه تنبّـه عليـه السـلام بـأدنى تنبيـه: ﴿قـال ومن يقنط من رحمـة ربـه إلا الضالون﴾.

وهكذا فإن قدرة الله عزّ وجلّ لا يحدها ولا يقيدها ناموس من نواميسـه أو سنّة من سننه؛ إذ هو خالق السنن والنواميس سبحانه.

وللشهيـد سيد قـطب كلام في هـذا المقام وهـو قـولـه:(ولا عجب من أمـر الله، فالعادة حين تجري بأمر لا يكون، معنى هذا أنها سنة لا تتبدل، وعندما شاء الله لحكمة ــ يـريدهـا ــ وهي هنا رحمتـه بأهـل هذا البيت وبـركاتـه الموعـودة للمؤمنين فيـه يقـع ما يخالف العادة، مع وقوعه وفق السنة الإلّهية التي لا نعلم حـدودها، ولا نحكم عليهـا بما تجري بـه العادة في أمد هو على كل حال محدود، ونحن لا نستقرىء الحوادث في الوجود. (ثم يردّ على من يقيدون مشيئة الله بما يعرفون من نواميس وسنن بما يلي):

والذين يقيّـدون مشيئة الله بما يعرفونه هم من نواميسـه لا يعرفـون حقيقة الإلّهيـة كما يقررها الله في كتابه، وقوله الفصل، وليس للعقـل البشري قـول في ذلك القـول،

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٢٣٥؛ تفسير القرطبي ٩/ ٦٥ ــ ٦٦.

وحتى الذين يقيدون مشيئة الله بما يقرر الله سبحانه أنه ناموسه لا يدركون حقيقة الإلَهية. نعم إنّ الله يجري هذا الكون وفق النواميس التي قدّرها له... ولكن هذا شيء والقول بتقييد إرادته بهذه النواميس بعد وجودها شيء آخر، إنّ الناموس يجري وينفذ بقدر من الله في كل مرة ينفذ فيها، فهو لا يجري ولا ينفذ آلياً. فإذا قدّر الله في مرة أخرى أن يجري الناموس بصورة أخرى غير التي جرى بها في مرات سابقة كان ما قدّره الله ولم يقف الناموس في وجه هذا القدر الجديد... ذلك أن الناموس الذي تندرج تحته كل النواميس هو طلاقة المشيئة بلا قيد على الإطلاق، وتحقق الناموس في كل مرة يتحقق فيها بقدر خاص طليق»(١).

* وقد استدل من قوله تعالى: ﴿...رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنّه حميد مجيد﴾ على ما يلي:

- إن منتهى السلام: (وبركاته). كما أخبر الله هنا عن صالحي عباده وهم الملائكة(٢).

- إن أزواج النبي ﷺ يعتبرن من أهل بيته؛ لأن الملائكة سمّت امرأة إبراهيم من أهل بيته، وكذلك قال الله في مخاطبة أزواج النبي ﷺ بقوله: ﴿ومن يقنت منكنّ لله ورسوله وتعمل صالحاً﴾ إلى قوله: ﴿وأطعْن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ [سورة الأحزاب: ٣١ - ٣٣] قد دخل فيه أزواج النبي ﷺ لأن ابتداء الخطاب لهنّ(٣).

ويستدل من هنا على أن زوجة الرّجل تعتبر من أهل بيته(٤).

* * *

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ١٩١٢/٤.
(٢) انظر: تفسير القرطبي ٧١/٩.
(٣) انظر: أحكام القرآن للجصّاص ١٦٦/٣.
(٤) انظر: تفسير القرطبي ٧١/٩.

المبحث الثالث

إبراهيم عليه السلام مع أبنائه أجمعين

وفيه مطلب واحد، وهو: «وصيته لأبنائه».

وقبل الخوض في وصيته عليه السلام لأبنائه يجدر بنا أن نوضّح تعريف الوصية. فالوصية أصلها: الوصل. من قولهم: أرض واصية أي متصلة النبات، ويقال: وصاه إذا وصله، وفصاه إذا فصله، كأنّ الموصي يصل فعله بفعل الوصي[1]. ويقول الألوسي ـ رحمه الله ـ: «التوصية هي التقدم إلى الغير بفعل فيه صلاح وقربة، سواء كان حالة الاحتضار أوْ لا، وسواء كان ذلك التقدم بالقول أو الدلالة. وإن كان الشائع في العرف استعمالها في القول المخصوص بحالة الاحتضار»[2].

وبعد تعريفنا لكلمة الوصية نشرع في بيان وصية إبراهيم ـ عليه السلام ـ لأبنائه وذكر ما نأخذه منها من العبر والفوائد.

أولاً ـ بيان الوصية:

ذكر الله وصية إبراهيم لأبنائه في سياق الآيات التي تتحدث عن وجوب التمسك بملته، والتي تبين أن من ترك ملته رغبة عنها إلى غيرها فإنما هو جاهل بموضع حظ نفسه فيما ينفعها ويضرها في معادها كاليهود والنصارى الذين انحرفوا عن الطريق الصحيح. فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ومن يرغب عن ملّة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في

---

(١) انظر: الطاهر أحمد الزاوي، ترتيب القاموس المحيط للفيروزأبادي، الطبعة الثالثة ٤ مج (بيروت: دار الفكر) ٤/٦٢٢.

(٢) روح المعاني للألوسي ١/٣٨٩.

الآخرة لمن الصالحين. إذ قـال لـه ربه أسلم قـال أسلمت لرب العـالمين. ووصّى بها إبـراهيم بنيـه ويعقـوب يـا بَنِـيّ إنّ الله اصـطفى لكم الـدين فـلا تمـوتُنّ إلا وأنتم مسلمون﴾[1].

وبيان هذه الوصية كالتالي:

١ ـ موضوع الوصية:

أمّا موضوعها فهو: الحثّ على التمسك بالإسلام وعدم تركه أبداً.

٢ ـ كلمات الوصية:

وكلماتها كما ذكر الله تعالى: ﴿يا بَنِـيّ إن الله اصطفى لكم الدين فـلا تموتُنّ إلا وأنتم مسلمون﴾.

ويبدأ وصيته لهم بتذكيرهم بنعمـة الله وفضله عليهم؛ بأن اختـار لهم هذا الـدين الكـامل من بين الأديـان، وفضلهم بـه. وبعد أن هيـأ قلوبهم وأذهـانهم بـاستشعـارهم النعمة التي ذكرهم بها، أخذ يعرض لهم ما أراد أن يـوصيهم بـه وهو أن يتمسكـوا بهذه النعمـة ـ التي فضلهم الله بها واختـارها لهم ـ ولا يمـوتـوا إلا وهم عليهـا. بمعنى أن لا يفارقوا هذا الدين أيام حياتهم كلها؛ وذلك لأنه لا يدري أحد متى تأتيه منيته، وكـأنه يقـول لهم: اثبتوا على دين الإسـلام حتى لا تـأتيكم المنيـة وأنتم على غيـره فتمـوتـوا وربكم ساخط عليكم فتهلكوا[2].

ويقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره موضحاً هذه الوصية: «أي أحسنوا في حال الحياة والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليـه، فإن المـرء يموت غـالباً على مـا كان عليه، ويبعث على ما مات عليه، وقد أجرى الله الكريم عادته بأن من قصـد الخير وُفق لـه ويُسّر لـه ومن نوى صالحاً ثبت عليه»[3].

٣ ـ ذِكْر أبنائه الذين وصّاهم:

لإبراهيم عليه السـلام ثلاثـة عشر ولـداً: أكبرهم إسمـاعيل وأمّـه هاجـر القبطيـة

---

(١) سورة البقرة: الآيات ١٣٠ ـ ١٣٢.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ١/ ٤٣٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ١٨٥ ـ ١٨٦.

المصرية، ويليه إسحاق من سارة بنت عم الخليل، ثم تزوج بعد وفاة سارة بقنطور بنت يقطن الكنعانية فولدت له ستة من الولد وهم: مدين، وذمران، وسرج، ويقشان، ونشق، والسادس لم يسمّ. ثم تزوج بعدها بحجون بنت أمين فولدت له خمسة وهم: كيسان، وسورج، وأميم، ولوطان، ونافس. «هكذا ذكره أبو القاسم السهيلي في كتابه التعريف والأعلام»[1].

ويحتمل أن جميع أولاده هؤلاء حضروا هذه الوصية، أو أنه حضرها بعضهم. ويحتمل ــ كذلك ــ أن هذه الوصية تكررت لأبنائه جميعاً كلٌّ على حسب عهده وزمن وجوده. والله أعلم.

ثانياً ــ العبر والفوائد:

* نستنبط من وصية إبراهيم عليه السلام: أن الوصية بعقيدة التوحيد وما تشتمل عليه من سلوك ومكارم أخلاق هي أهم ما يوصي به الأب أبناءه في كل أطوار حياتهم حتى يلقوا ربهم وهم عليه.

وإن الدين المعني به هنا هو الدين الإسلامي الحنيف على حدّ قوله تعالى: ﴿ملّة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل...﴾ الآية[2]، و(أل) في الدين للتعريف على حد قوله ــ هناك ــ ﴿إن الدين عند الله الإسلام...﴾ الآية[3] وقوله: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه...﴾ الآية[4] وقوله أيضاً: ﴿...ورضيت لكم الإسلام ديناً...﴾[5]، ومن هنا يعلم أيضاً أن الدين الإسلامي هو الدين ولا دين غيره منذ أن بعث الله الرسل لقوله تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى...﴾ الآية[6]. ويتضح لنا

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ١/١٦٤.

(٢) سورة الحج: الآية ٧٨.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٩.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٨٥.

(٥) سورة المائدة: الآية ٣.

(٦) سورة الشورى: الآية ١٣.

من هذه الآية الأخيرة أن إبراهيم عليه السلام ــ نفسه ــ كان قد وُصّي من الله عز وجلّ بهذا الدين، وهو من بعد أوصى بـه أبناءه.

فينبغي على الآباء أن يكونوا في غاية الحرص على أبنائهم بتوجيههم وإرشادهم على اتباع دين الله والتمسك بـه، فإن هذا خير ما يقدمه الوالد لـولده؛ إذ بـه ينقـذه من سخط الله وعذابه، ويضعه في محل رضـوانـه ومحبتـه عـزّ وجـلّ.

كمـا أنّ مـن فوائـد الاهتمام بصـلاح الأولاد هو الإبقـاء على صلاح الـذرية التي تتلوهم من بعدهم في الأغلب، لأنهم هم ــ كذلك ــ سيهتمون بـأبنائهم هـذا الاهتمام لكونهم على طريقة آبائهم من الصلاح والدعوة إليه.

ومما يذكره الفخر الرازي حول ما يستفاد من هـذه الوصيـة قولـه: «إعلم أن هذه الحكاية اشتملت على دقائق مرغبة في قبول الدين:

(أحدها) إنـه تعالى لم يقل: وأمر إبـراهيم، بل قـال: ووصى. . . ولفظ الوصيـة أوكد من الأمر، لأن الوصية عنـد الخوف من المـوت، وفي ذلك الـوقت يكون احتيـاط الإنسان لدينه أشد وأتمّ، فأذا عرف أنـه عليه السـلام في ذلك الـوقت كان مهتمـاً بهذا الأمر متشدداً فيه، كان القول إلى قبوله أقرب.

(وثانيها) إنه عليه السلام خصص بنيه بذلك، وذلك لأن شفقة الرجل على أبنـائه أكثر من شفقته على غيـرهم، فلما خصصهم بـذلك في آخـر عمره علمنـا أن اهتمامـه بذلك كان أشد من اهتمامه بغيره.

(وثالثها) إنـه عمّم بهذه الـوصية جميـع بنيـه ولم يخصّ أحداً منهم. وذلـك يـدلّ على شدة الاهتمام.

(ورابعهـا) إنه عليـه السلام أطلق هـذه الوصيـة غير مقيـدة بـزمـان معين ومكـان معين، ثم زجرهم أبلـغ الزجر عن أن يموتوا غير مسـلمين، وذلك يـدّل ــ أيضاً ــ على شدة الاهتمام بهذا الأمر.

(وخامسها) إنـه عليه السلام ما مزج بهذه الوصية وصيـة غيرهـا، وهذا يـدل على شدة الاهتمام بالأمر.

ولما كان إبراهيم عليه السلام هو الرجل المشهود له بالفضل وحسن الطريقة وكمال السيرة، ثم عرف أنه كان في نهاية الاهتمام بهذا الأمر، عرف حينئذ أن هذا الأمر أولى الأمور بالاهتمام وأحراها بالرعاية والقبول»[1].

وبهذه الوصية نكون قد انتهينا من هذا الفصل (إبراهيم عليه السلام مع أبنائه)، وبنهاية هذا الفصل ينتهي البحث في هذا الباب (إبراهيم عليه السلام مع أبيه وأبنائه). والحمد لله.

* * *

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٤/٧٢ ــ ٧٣.

الباب الثالث
يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَام
مع أبنائه

وفيه تمهيد وفصلان:

الفصل الأول : يعقوب عليه السلام مع أبنائه في قصة يوسف.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: كيد الأخوة بيوسف.

المبحث الثاني: تعرف يوسف على إخوته.

المبحث الثالث: اجتماع الشمل.

والفصل الثاني: وصية يعقوب لأبنائه.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: بيان الوصية.

المبحث الثاني: العبر والفوائد.

تمهيد
الباب الثالث

وفي هذا الباب سنبحث فيما ورد عن النبي يعقوب عليه السلام ــ حفيد أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ــ مع أبنائه.

ولم يذكر في القرآن الكريم عن ذلك سوى قصته مع يوسف وإخوته وما كان من الأحداث التي وردت في سورة يوسف عليه السلام، وكذلك وردت وصيته لأبنائه عند احتضاره: ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت. . .﴾ الآية[1].

ويجدر بنا هنا أن نذكر ما ورد عن أهل الكتاب في عدد زوجات يعقوب وأبنائه لما قد يكون له صلة ببحثنا:

فيعقوب عليه السلام له أربع زوجات رزق منهن باثني عشر ولداً.

وأول زوجاته: (ليا). ورزق منها: روبيل، شمعون، لاوي، يهوذا، إيساخر، وزابلون.

والثانية: (راحيل). ورزق منها: يوسف، وبنيامين.

والثالثة: (بلهى). وهي أمة لراحيل أهدتها ليعقوب، ورزق منها: دان، ونفتالي.

والرابعة: (زلفى). وهي أمة لليا أهدتها يعقوب، ورزق منها: جاد، وأشير[2].

ومما ينبغي الإشارة إليه أن الله قد خصّ يوسف عليه السلام بالنبوة ــ على

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٣٣.

(٢) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير ١/ ٢٠٠.

الصحيح ـ من بين أولاد يعقوب عليه السلام. وقد جاء في القرآن الكريم على لسان أحد المؤمنين وهو يعظ قومه: ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً﴾ [غافر: ٣٤].

أما قوله تعالى: ﴿إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط. . .﴾ الآية [النساء: ١٦٣] وما ذكر في غيرها من أن الأسباط قد أوحى الله إليهم؛ فليس المراد ـ هنا ـ أنهم أولاده الاثنا عشر هؤلاء أنبياء، بل المراد هنا حفدته ذراري أبنائه، والسبط من اليهود كالقبيلة من العرب وهم الذين يرجعون إلى أب واحد، وقد أصبح كل واحد من أولاد يعقوب أباً لسبط من أسباط بني إسرائيل فجميع بني إسرائيل انحدروا وتناسلوا من أولاد يعقوب الاثني عشر، فالمقصود أنه قد ظهرت في هذه الأسباط النبوة؛ فسبط لاوي فيه (موسى، هارون، الياس، واليسع). وسبط يهوذا فيه: (داود، سليمان، زكريا، يحيى، وعيسى)، وسبط بنيامين فيه: (يونس) عليهم السلام[1].

وبعد بيان ما تقدم فإنّه سيكون بحثنا في هذا الباب مشتملاً على فصلين:

أما الفصل الأول فيختص بقصة يعقوب عليه السلام مع ابنه يوسف عليه السلام وإخوته مما جاء ذكره في سورة يوسف، ويتكون هذا الفصل من ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: كيد الإخوة بيوسف. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: بيان القصة في هذا المبحث. وفيه:

يوسف يعرض رؤياه على أبيه ـ أخوة يوسف يدبرون المكيدة ـ إلقاء يوسف في الجبّ ـ التقاط يوسف وبيعه.

والمطلب الثاني: العبر والفوائد.

أما المبحث الثاني فهو: تعرف يوسف على أخوته. وفيه مطلبان:

الأول: بيان القصة وفيه:

---

(١) انظر: مع الأنبياء في القرآن الكريم لطبارة ص ١٥٦.

قدوم أخوة يوسف مصر ـ عودتهم إلى أبيهم يعقوب ـ رجوعهم إلى يوسف ثانية واحتجازه بنيامين ـ استعطاف يوسف لترك بنيامين.

والمطلب الثاني يشتمل على العبر والفوائد من القصة.

والمبحث الثالث والأخير بعنوان: اجتماع الشمل. وفيه ـ أيضاً ـ مطلبان:

الأول: بيان القصة في هذا المبحث وفيه:

أمر يعقوب لأبنائه بالبحث عن يوسف وأخيه ـ تعرّف الأخوة على يوسف ـ تلقي يعقوب خبر سلامة يوسف ـ تحقق رؤيا يوسف.

والثاني: العبر والفوائد.

وأما الفصل الثاني فيختص بوصية يعقوب عليه السلام لأبنائه عند احتضاره، ويشتمل هذا الفصل على مبحثين اثنين:

أولهما: بيان الوصية.

وثانيهما: العبر والفوائد المستفادة من الوصية.

والله نسأل التوفيق والرشاد، وبه نستعين.

* * *

الفصل الأول

يعقوب عليه السلام مع يوسف وإخوته

المبحث الأول

كيد الإخوة بيوسف

المطلب الأول

بيان القصة

١ ـ يوسف يعرض رؤياه على أبيه:

تبدأ القصة بعرض الرؤيا التي رآها يوسف على أبيه يعقوب عليهما السلام، قال تعالى:

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾[1].

والظاهر إنما أخبره بالرؤيا لأنه علم بإلهام أو بتعليم سابق من أبيه أن للرؤيا تعبيراً، وعلم أن الكواكب والقمر كناية عن موجودات شريفة، وأن سجود المخلوقات

(١) سورة يوسف: الآيات ٤ ـ ٦.

الشريفة لـه كناية عن عظم شأنه[٢].

وقد تكلم المفسرون عن تعبير هذه الرؤيا فقالوا: إنّ الأحد عشر كوكباً عبارة عن إخوته، وكانوا أحد عشر رجلاً سواه، والشمس عبارة عن أمّه، والقمر عبارة عن أبيه. (روي هذا عن ابن عباس والضحاك وقتادة وسفيان الثوري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم). وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة من وقت رؤيته لها؛ وذلك حين رفع أبويه على العرش ـ وهو سريره ـ وإخوته بين يديه وخرّوا له سجّداً ﴿. . . وقال يا أبت هذا تأويل رُؤيايَ من قبل قد جعلها ربي حقاً. . .﴾ الآية [يوسف: ١٠٠].

وحين سمع يعقوب من ابنه هذه الرؤيا ـ التي تعبيرها خضوع إخوته وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً بحيث يخرون له ساجدين إجلالاً واحتراماً وإكراماً ـ خشي أن يخبر أحداً من إخوته بها فيحسدونه على ذلك الفضل ويبغون له الغوائل نتيجة حسدهم، ولهذا قال له: ﴿يا بنيّ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً﴾، ويا بني ـ كما هو معلوم ـ تصغير (ابن) وأتى بها للشفقة عليه، أو لصغره لأنه كان ابن اثنتي عشرة سنة، والكيد هو إخفاء عمل يضر المكيد. أي بمعنى: أنهم يحتالون حيلة يضرونه بها؛ والحال أن الشيطان ظاهر العداوة للإنسان فلا يألو جهداً في إغواء إخوته وإضلالهم وحملهم على ما لا خير فيه، وهو استئناف كأنّ يوسف قال: كيف يصدر ذلك عن إخوتي الناشئين في بيت النبوة فقيل له: إن الشيطان يحملهم على ذلك.

وقوله هذا هو تحذير له مع ثقته بأن التحذير لا يثير في نفسه كراهة لإخوته؛ لأنه وثق بكمال عقله وصفاء سريرته ومكارم خلقه، ومن كان هذا حاله كان سمحاً عاذراً معرضاً عن الزلات.

وبعد أن نبهه ـ عليه السلام ـ على أن لرؤياه شأناً عظيماً يستتبع منافع وحذّره إشاعتها المؤدية إلى كيد إخوته له شرع في تعبيرها وتأويلها على وجه إجمالي فقال له فيما معناه: إنّه كما سخّر لك الله تلك الأجرام العظام واختارك وأراك إياها ساجدة لك كذلك يختارك ويصطفيك لنبوته ويعلّمك من تأويل الأحاديث (تعبير الرؤيا)، ويتمّ

---

(١) تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٢/٢٠٨ ـ ٢٠٩.

نعمته عليك بإرسالك والإيحاء إليك، ولهذا قال لـه: ﴿كما أتمّها على أبويـك من قبل إبراهيم وإسحاق إنّ ربك عليم حكيم﴾ وهو أعلم حيث يجعـل رسالتـه، ويعطيهـا لمن يستحقها بحكمته سبحانه[1].

٢ ــ إخوة يوسف يدبّرون المكيدة:

يظهر الله لنا تدبيرهم في قوله:

﴿۞ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ۝١٣ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝١٤﴾[2].

اجتمع الإخوة وبدءوا حديثهم بتقرير حقيقة لمسوها جميعاً؛ وهو أن أباهم يعقوب يحب يوسف وأخاه بنيامين أكثر منهم، والحال أنهم عصبة ــ والعصبة والعصابة العشرة فصاعداً، سمّوا بذلك لأن الأمور تعصب بهم[3] ــ فهم أنفع له فيما يستطيعون من تقديم الخير له والأعمال أكثر منهما، ونسبوا إلى أبيهم أنه في ذهاب عن طريق التعديل اللائق وتنزيل كل منهم منزلته التي يستحقها؛ وهذا بُعْد ظاهر فيه وواضح[4].

وهم قد لاحظوا ذلك ليس من اختلاف معاملة أبيهم لهم؛ إنما من بعض القرائن

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٢/٤٦٨ ــ ٤٦٩؛ تفسير البيضاوي ٣/١٢٧؛ تفسير أبي السعود ٤/٢٥١ ــ ٢٥٤؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ١٨/٨٧ ــ ٩١؛ تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٢/٢١٤.

(٢) سورة يوسف: الآيات ٧ ــ ١٤.

(٣) تفسير البيضاوي ٣/١٢٧.

(٤) انظر: تفسير أبي السعود ٤/٢٥٥.

الدالّة على هذا الحب. ولا يعقل أن لا يساوي يعقوب عليه السلام في المعاملة بين أبنائه وهو نبي من أنبياء الله ويعلم أن هذا أمر لا يجوز، ولكنّما هو الميل القلبي الذي لا يملكه الإنسان ولا يؤاخذ عليه لاستحالة تصرفه فيه.

ثم شرعوا في اختيار الطريقة التي يتخلصون بها من يوسف ــ ولم يدمجوا أخاه بنيامين معه شفقة عليه لصغره ــ فأشار أحدهم بأن يقتلوه أو يرموه في أرض منكورة مجهولة بعيدة من العمران؛ وهذان يضمنان هلاكه ومحوه من الوجود، وأكّد رأيه لإخوته وقوّاه بأنه عند ذلك يخلص لهم وجه أبيهم فيقبل عليهم بكليّته ولا يلتفت عنهم إلى غيرهم ولا يساهمهم أحد في محبته. وبعد هذا العمل سوف يتوبون إلى الله فيقبل الله توبتهم ويقبل أبوهم اعتذارهم ويكونون قوماً صالحين.

ولكن هذا الرأي لم يناسب الجميع حيث أشار أحدهم إلى رأي آخر لا إفراط فيه مع تحقيق الهدف المرجوّ وهو إبعاد يوسف عن أبيه: ﴿قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابت الجبّ يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين﴾ إذاً هو الإلقاء في غيابت[1] الجب. والجب هو البئر. وسميت جباً لأنها قطعت قطعاً ولم يحصل فيها غير القطع من طيّ وغيره، وأما قوله: ﴿في غيابت الجب﴾ أي في أسفله وقاعه، وسمي بذلك لغيبوبته عن أعين الناس. والألف واللام في الجب تقتضي المعهود السابق، بمعنى أنه جبّ معروف لديهم، واختلف المفسرون فيه، فقال قتادة: هو بئر بيت المقدس، وقال وهب: هو بأرض الأردن، وقال مقاتل: هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب[2]. وإنما عيّنوه للعلّة التي يريدونها وهي أن يلتقطه بعض السيارة، أي بعض الطوائف أو القوافل المارّة التي تسير في الأرض؛ وفي طريقها تمرّ بهذا الجب لتستقي منه فتجده فيه فتلتقطه ثم تبيعه أو تأخذه وتحمله معها، فيكون ذلك محققاً لغرضهم.

ثم ختم كلامه ــ صاحب هذا الرأي ــ بقوله: ﴿إن كنتم فاعلين﴾ ليبيّن لهم أنه

---

(١) قرأ نافع: (في غيابات الجب) بالألف، وقرأ الباقون: (غيابت) (حجة القراءات لابن زنجلة ص ٣٥٥).

(٢) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ١٨/ ٩٥ ــ ٩٦؛ تفسير البيضاوي ٣/ ١٢٨.

لم يبتّ هذا القول عليهم، وإنما عرضه عليهم؛ وذلك تأليفاً لقلوبهم وتوجيهاً إلى رأيه وحذراً من أن ينسبوا إليه التحكّم والافتيات[1].

وحاز هذا الرأي على موافقتهم واستقرّ رأيهم عليه.

وبعد هذا الاتفاق الذي أبرموه بينهم في خفاءذهبوا يحتالون على أبيهم ليسمح لهم باصطحاب يوسف ليلعب ويرتع معهم: ﴿قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنّا على يوسف وإنا له لناصحون. أرسله معنا غداً يرتع ويلعب[2] وإنا له لحافظون﴾. ولعل يعقوب ــ عليه السلام ــ كان لا يأذن ليوسف بالخروج معهم للرمي أو للسبق خوفاً عليه من أن يصيبه سوء من كيدهم أو من غيرهم؛ ولم يكن يصرّح لهم بأنه لا يأمنهم عليه، ولكن حاله في منعه من الخروج كحال من لا يأمنهم عليه فنزّلوه منزلة لا يأمنهم، وأتوا بالاستفهام المستعمل في الإنكار على نفي الائتمان.

كما أنهم خاطبوه في بداية كلامهم معه بقولهم: ﴿يا أبانا﴾؛ تحريكاً لسلسلة النسب بينهم وبينه وتذكيراً لرابطة الأخوّة بينهم وبين يوسف ليتسببوا بذلك إلى استنزاله ــ عليه السلام ــ عن رأيه في حفظه منهم لمّا أحسّ منهم علامات الحسد، وأتبعوا استفهامهم الإنكاري ــ هذا ــ بأن كذبوا عليه في أنّ حالهم مخالف لما يظنّه بهم فهم له ناصحون مريدون له الخير ومحبون له مشفقون عليه[3]!!

وبعد تحايلهم هذا ــ بإظهار أنّهم حريصون عليه محبون له ــ أخذوا يترجّون أباهم أن يسمح لهم بالخروج معهم إلى المراعي غداً ليلعب ويمرح ويتمتع بالأكل والشرب مثلهم، وأكّدوا حالهم الذي يدّعونه بقولهم: ﴿وإنّا له لحافظون﴾، وما هذا كله إلا احتيال ليتم لهم ما دبّروه.

ولكن ما هو جواب الأب المحب لابنه؟ إنّه يحزنه أن يبتعد عنه ويخاف إذا أمنهم

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود ٤/٢٥٧.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: (نرتعْ ونلعبْ) بالنون، وقرأ أهل المدينة والكوفة: (يرتعْ ويلعبْ). وقرأ نافع وابن كثير: (نرتعِ) بكسر العين، وقرأ الباقون: (يرتع) بجزم العين (حجة القراءات لابن زنجلة ص ٣٥٥ ــ ٣٥٦).

(٣) انظر: تفسير أبي السعود ٤/٢٥٧.

عليه أن يأكله الذئب وهم في غفلة عنه، وذلك لأن الأرض كانت مذأبة. وإنما ذكر يعقوب أنّ ذهابهم به يحدث له حزناً مستقبلاً؛ ليصرفهم عن الإلحاح في طلب الخروج لأن شأن الابن البارّ أن يتق ما يحزن أباه.

وتأكيد الجملة بحرف التوكيد: (إنّي) لقطع إلحاحهم بتحقيق أنّ حزنه لفراقه ثابت تنزيلاً لهم منزلة من ينكر ذلك، ويسري التأكيد أيضاً إلى جملة﴿وأخاف، أن يأكله الذئب[1]. . .﴾ الآية[2].

ونلاحظ أنّ يعقوب عليه السلام قد جمع في كلامه بين الحزن والخوف، والحزن هو ألم القلب بفوت المحبوب، والخوف انزعاج النفس لنزول المكروه، ولذلك نرى أنّه أسند الأول إلى الذهاب والثاني إلى ما يتوقع نزوله من الذئاب[3].

ولكنهم مع كل ما أظهره عليه السلام من خوف وحزن لم يفتؤوا في الانصراف عن كيدهم وتدبيرهم؛ بل احتالوا عليه وأقسموا له بأنه لن يحصل له ما يكره ولن يأكله الذئب وهم جماعة يعصب الأمر بهم ويعتمد عليهم، وإنّه أيّ مكروه يحدث له يصيبهم عاره، ولذلك هم حريصون عليه كمثل حرصه عليه إن لم يكن أشدّ؛ حتى لا يظهروا أمام الناس بمظهر الجماعة الخاسرة. أي الخائبة الفاشلة التي لا يعتمد عليها في أمر من الأمور.

وبهذا القسم وبتلك الكلمات المؤكدة لحرصهم على يوسف وعدم التفريط في الانتباه له؛ وافق الأب بما طلبوا منه وسمح بإرساله معهم. ولكن ما الذي حدث بعد ذلك؟ هذا ما توضحه لنا الفقرة التالية.

---

(١) قرأ أبو عمرو والكسائي وورش عن نافع (الذيبُ) بغير همز، وقرأ الباقون بالهمز وهو الأصل لأنه مأخوذ من تذائبت الريح إذا أتت من كل ناحية فكأنه شبّه من خفته وسرعة حركته بالريح (حجة القراءات لابن زنجلة ص ٣٧٥).
والذئب حيوان من الفصيلة الكلبية وهو كلب بري وحشي من خلقه الاحتيال والنفور، وهو يفترس الغنم، وإذا قاتل الإنسان فجرحه ورأى عليه الدم ضرى به فربما مزقه (التحرير والتنوير ٢/٢٣١).

(٢) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٢/٢٣١ ــ ٢٣٢.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود ٤/٢٥٧.

٣ ـ إلقاء يوسف في الجبّ:

وكما قلنا ـ من قبل ـ إن الوعود والقسم والكلمات الطيبة الدالة على المحبة والحرص ما ذاك إلا تحايلاً على أبيهم ودليله ما فعلوه بيوسف من إلقائه في البئر. وهذا ما تظهره لنا الآيات التالية:

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾[١].

وتحكي لنا الآيات أنّهم حين أخذوه معهم وذهبوا به إلى مكان البئر ـ الذي سيلقونه فيه، واتفق كلهم على إلقائه في قاع البئر ـ أوحى إليه الله مثبتاً له وميسراً عليه ومطيباً لقلبه، وذلك بأن ألقى في روعه بأن لا يحزن فإنه سيجعل له مما هو فيه مخرجاً وفرجاً وسينصره عليهم ويرفع درجته، وسيخبرهم بما فعلوا معه من هذا الصنيع، وهم لا يشعرون بهذا الإيحاء، أو كما قال ابن عباس: وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك[٢].

وامتداداً لسلسلة احتيالاتهم جاءوا يعقوب عليه السلام يبكون تصنّعاً ويعتذرون إليه عن عدم رجوع يوسف معهم بحجة أن الذئب أكله؛ وذلك حينما تركوه يحرس متاعهم وهم قد ذهبوا ليستبقوا. وتأكيداً لقولهم هذا قالوا له: وإنك لن تؤمن بصدقنا لاتهامك إيّانا بكرهه وحسده ولو كان ما نقوله هو الحقّ والصدق.

وكان مجيؤهم لأبيهم ليلاً، وإنما جاءوا في هذا الوقت بالذات ليكونوا أقدر على الاعتذار في الظلمة؛ بحيث لا ترى ملامح وجوههم التي قد تظهر كذبهم، ولذا قيل: لا تطلب الحاجة بالليل فإن الحياء في العينين، ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتتلجلج في الاعتذار[٣].

---

(١) سورة يوسف: الآيات ١٥ ـ ١٨.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٤٧١. (٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩/١٤٤.

فإذاً اعتذارهم في الليل ــ أيضاً ــ هو من حلقات مكرهم وحيلهم!!

وتتميماً لافتراءاتهم العظيمة أتوا بقميص يوسف ملطخاً بدم ليوهموا أباهم بصدق حادثة أكل الذئب ليوسف، وذلك قوله تعالى: ﴿وجاءوا على قميصه بدم كذب﴾ ودم كذب أي مكذوب مفتعل، ووصف الدم بالمصدر مبالغة.

وأمام هذا الخبر ماذا كان موقف يعقوب عليه السلام الذي يحب ابنه أشدّ الحب؟ إنّه موقف المؤمن الصابر: ﴿قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾.

قيل: إنه علم بكذبهم بدليل أنّ القميص الذي جاءوا به غير ممزّق مع تلطخه بالدم، فلو كان الذئب ــ حقاً ــ قد افترس يوسف لكان من باب أولى أن يُمزّق قميصه.

فهم بذلك قد نسوا تمزيقه، وكما يقولون: إنّ آفة الكذب النسيان.

وقوله: بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً؛ قال ابن عباس: «معناه بل زينت لكم أنفسكم أمراً». والتسويل: تقدير معنى في النفس مع الطمع في إتمامه.

وقال الأزهري: كأن التسويل تفعيل من سؤال الإنسان، وهو أمنيته التي يطلبها فتزين لطالبها الباطل وغيره، وأصله مهموز غير أنّ العرب استثقلوا فيه الهمز.

وقال صاحب الكشاف: سوّلت: سهلت من السول وهو الاسترخاء، أي بمعنى سهلت لكم أنفسكم وهوّنت في أعينكم أمراً عظيماً.

ولا مناقضة بين المعنيين فكلاهما جار مع صنيعهم هذا(١).

وأما قوله: ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ فبيان لحالة الصبر التي واجه بها هذا الخبر الأليم... صبر جميل لا يصاحبه جزع ولا يأس، ومن ثم هو يطلب من الله عزّ وجلّ العون على كشف حقيقة ما يصفون.

ونلاحظ أنّه عليه السلام لم يسع للكشف عن مصير يوسف لأنه علم تعذر ذلك

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٤٧١؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ١٨/١٠٢؛ تفسير البيضاوي ٣/١٢٩؛ الكشاف للزمخشري ٢/٣٠٨.

عليه لكبر سنّه، ولأنه لا عضد له يستعين به على أبنائه أولئك، وقد صاروا هم الساعين في البعد بينه وبين يوسف؛ فأيس من استطاعة الكشف عن يوسف بدونهم، ويدلّ على هذا أنّه حين أحسّ منهم صلاحاً بعد ذلك قال لهم: ﴿اذهبوا فتحسّسوا من يوسف وأخيه. . . ﴾ الآية[1].

ومما لا شك فيه أنّ أفعال أبناء يعقوب هؤلاء تدلّ على عدم نبوّتهم؛ لأنها تنفي ذلك إذ إنهم قد ارتكبوا فيها جرائم عظيمة والأنبياء معصومون عنها.

يقول محمد بن إسحاق بن يسار: «لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الضرع الذي لا ذنب له، وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل وخطره عند الله، مع حق الوالد على ولده؛ ليفرقوا بينه وبين أبيه وحبيبه على كبر سنّه ورقّة عظمه مع مكانه من الله فيمن أحبه طفلاً صغيراً وبين ابنه على ضعف قوته وصغر سنّه وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه»[2]. فتلك أمور عظائم وكبائر لا تصدر من أنبياء.

ونعود إلى يوسف وهو في البئر ينتظر فرج الله عليه ومخرجه. . . وها هو يأتيه الفرج وهذا ما توضحه لنا الفقرة التالية:

٤ ـ التقاط يوسف وبيعه:

يقول تعالى:

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ[3] هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٢/ ٢٤٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ٤٧٠.
(٣) قرأ عاصم وحمزة والكسائي: (يا بُشْرى) بترك الإضافة، وقرأ الباقون: (يا بشرايَ) بإثبات ياء الإضافة وفتحها (حجة القراءات لابن زنجلة ص ٣٧٥).

غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾[1].

وهكذا فرّج الله على يوسف بمرور قافلة تقصد مصر؛ حيث إنّهم أرسلوا واردهم وهو الذي يرد الماء فيستقي لهم، ولمّا أدلى دلوه تعلق بـه يوسف حتى خرج من البئر، ففرح بـه هذا الرجل فرحاً شـديداً وأتى بـه إلى رفقـائه يعلن ابتهـاجه قـائلاً: يـا للخبر السـارّ هذا غـلام، ثم أخفاه هؤلاء بين أمتعتهم وجعلوه من بضـائعهم التي يرغبـون في بيعها، ثم ذهبوا إلى سـوق مصر ليبيعـوه، فباعـوه بدراهم قليلة للتخلّص منـه خشية أن يدركهم أهله فينتزعـوه منهم، وكان الـذي اشتراه هـو وزير الملك المسمّى: فـوطيفار؛ وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر، وكان الملك يومئذ الريّان بن الـوليد رجـل من العماليق الهكسوس، واسم امرأة العزيز: زليخا. وقيل: راعيل بنت دعابيل.

فـأرسله العزيـز إلى بيته وأوصى امـرأته بـه خيـراً؛ وقـال لهـا: أحسني معـاملتـه وأكرميه حتى تطيب لـه الإقامة معنا لعله ينفعنا فيكون لنا ولداً.

ومرّت الأيام ومنّ الله على يوسف وجعل لـه مقـاماً كـريماً في منـزل العزيـز، بل ومكانة رفيعة في أرض مصر كلهـا. وإضافـة إلى هذه النعمـة ألهمه الله تفسيـر الرؤى. وهكذا فإن الله لا يعجزه شيء وليس هناك حدّ لقدرته وكل مـا يريـده نافـذ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون خفايا حكمته سبحانه.

ومن نعم الله العظيمة عليه التي لا تعلوها نعمة هي نعمة النبوة، فإنـه حينما بلـغ أشـدّه ــ وهي مرحلة الشبـاب بحيث استكمـل عقله وتمّ خلقـه ــ آتـاه الله النبـوة وهي تشمل الحكم والعلم إذ الحكم والعلم من مقتضياتها.

وإنّ مثل هذا الجزاء الوافر يثيب الله بـه عباده الـذين بلغوا أعلى الـدرجات وهي درجة الإحسان[2].

---

(١) سورة يوسف: الآيات ١٨ ــ ٢٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٤٧٣؛ تفسير البيضاوي ٣/١٢٩؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ١٨/١٠٦ ــ ١٠٧؛ مع الأنبياء في القرآن الكريم لطبارة ص ١٦٠.

المطلب الثاني
العبـر والفـوائـد

١ ـ العبر والفوائد من عرض الرؤيا على أبيه :

* في عرض يوسف لرؤياه على أبيـه دون غيره دلالـة على ما ينبغي أن يكـون عليه الولد إذا عرض عليه عارض بأن يرجـع أولاً إلى أبيه ليخبره بـه، خصوصاً إذا كان الأب من أهـل العلم والشفقة على أبنـائه. كمـا أنّ هذا أمـر تـدفعـه الفـطرة، فـإنَّ من أحبِّ الـنـاس إلى الإنسان أبـاه فتراه حين يعـرض عليه عـارض يتجه نحـو أبيه مخبـراً إيَّاه؛ لعله يجد الحل المنـاسب، وإن كان هنـاك من سوء في هـذا الأمر فـإنه يصـرفه عنـه، وذلك بما لديه من العلم والخبرة، وبما يحمله لـه من الشفقة.

وحول بعض من هذا الكلام أشار القاسمي في تفسيره قائلاً: (إنَّما ناجى يـوسف أباه بهذه الرؤيا لاعتقاده كمال علمه وشفقته عليه، بحيث لو كـانت رؤياه تسـوؤه لأمكنه صرفها عنه)[١].

* ويقول الشيـخ عبد الرحمن السعديّ مبيناً أهمّية هذه الرؤيا: (كانت هـذه الرؤيـا مقدمة لما وصل إليه يوسـف ـ عليه السلام ـ من الارتفـاع في الدنيـا والآخرة، وهكـذا إذا أراد الله أمـراً من الأصول العـظام قدّم بين يـديه مقـدمة تـوطئة لـه وتسهيـلاً لأمره، واستعداداً لما يرد على العبد من المشاق، ولطفاً بعبده وإحساناً إليه)[٢].

* ومن قول يعقوب ليوسف حين عرض الرؤيا عليه: ﴿يا بنيّ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً. . .﴾ الآية نستفيد ما يلي:

ـ ضرورة رعاية الحالة النفسية بين الأبناء من قبل الأبوين: فإنَّ ذلك يؤدي إلى بقاء العلاقة الأخوية بينهم في أحسن صورها. وهذا يعقوب ـ عليـه السلام ـ يعلم مـا يكنّه إخوة يوسف لـه من بعض الحسد لما كان عليه من مظاهر الجمـال والنجابـة والفطنـة، فـأمـره أن لا يقصّ عليهم هـذه الـرؤيـا ـ التي تشيـر إلى شـرفـه وفضله عليهم ـ حتى

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي: ٩/١٨٧.

(٢) تفسير الشيـخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ٤/٦.

لا يؤدّي ذلك إلى تضاعف نفسية الحسد عندهم؛ ومن ثم يدبرون له السوء والشر فتنفصم عرى الأخوة بينهم بسبب ذلك.

- ومن هذه المراعاة - أيضاً - أنَّه لو علم أحد الأبوين أنّ تحذير بعض الأخوة من بعض يؤدي إلى إثارة الأحقاد بينهم فإن عليه أن لا يفعله. ويعقوب عليه السلام - كما ذكرنا - علم أنّ تحذيره هذا لا يؤثّر في نفسية يوسف شيئاً تجاه إخوته لما علم منه الفهم والصلاح وإدراك الأمور على حقيقتها، ولو أنّه علم أنَّ هذا التحذير يتبعه إثارة كراهية وحقد في نفس يوسف على إخوته لما فعل ذلك.

- ومما نستفيده - أيضاً - أنَّه ينبغي البعد عن أسباب الشر، واستحباب كتمان ما يخشى من مضرته[1].

- وفي تحذيره - عليه السلام - دليل على أنّه يباح للمسلم أن يحذر أخاه المسلم ممن يخاف عليه ولا يكون ذلك داخلاً في معنى الغيبة؛ إذ أنّه يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة[2].

- ويستفاد - أيضاً - جواز ترك إظهار النعمة عند من تخشى غائلته حسداً وكيداً[3]، فإنَّه قد نهى يعقوب يوسف أن يخبر إخوته بهذه الرؤيا الدّالة على فضله وعظم مكانته، وهي - بلا شك - من نعم الله عليه.

* ومن قوله: ﴿وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتمّ نعمته عليك. . .﴾ الآية يستفاد ما يلي:

- إنَّ تعبير يعقوب - عليه السلام - لرؤيا ابنه فيه دلالة على أنّه تعبر الرؤيا ولو من الصغار، وإن كانت من عالم الخيال[4].

- إنَّ عطف هذا الكلام على تحذيره من قصّ الرؤيا على إخوته فيه إعلام ليوسف بعلوّ قدره ومستقبل كماله؛ كي يزيد تملياً من سموّ الأخلاق فيتسع صدره لاحتمال أذى

---

(١) انظر: تفسير السعدي ٤/ ٦٩.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ٩/ ١٢٦؛ تفسير السعدي ٤/ ٦٩.

(٣) تفسير القرطبي: ٩/ ١٢٧.

(٤) محاسن التأويل للقاسمي: ٩/ ١٩١.

إخوته والصفح عنهم، وليتمحض كذلك تحذيره عليه السلام للصلاح وتنتفي إثارة البغضاء ونحوها. ولا شك أن هذه حكمة نبوية عظيمة وعلاج ناجح في مسألة كهذه[1].

ومن هنا يستفيد الآباء في طريقة معالجة أمثال هذه المسائل، فإنه مع تحذير الابن مما قد يلحقه من إخوته من سوء، لا بدّ من اقتران هذا التحذير بتشجيعه على أن يتسع صدره ويحتمل الأذى المتوقّع منهم.

ـ وفي هذا القول مدحٌ من يعقوب لابنه يوسف، فيؤخذ منه: جواز مدح الشخص في وجهه إذا لم يضرّه هذا المدح[2]. والمعنى: إنَّ المدح يكون بحسب كل إنسان فإذا كان الممدوح ممن إذا مدح ازداد خيراً وتقوى وطاعة كان المدح مستحباً في حقِّه، أمَّا إذا كان الممدوح ممن قد يغترّ بمدحه فإن المدح لا يجوز آنذاك.

ـ وفي قوله: ﴿ويتمّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما اتّمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق. . .﴾ الآية دلالة على أنّ نعمة الله على العبد نعمة على من يتعلّق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه وأنَّه ربما شملهم وحصل لهم ما حصل له بسببه[3].

* ومن البلاغة القرآنية في الآيات ما يلي:

ـ قوله: ﴿. . . إنِّي رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾ فيه استعارة؛ لأن الكواكب والشمس والقمر مما لا يعقل فكان الوجه أن يقال: ساجدة، ولكنّها لما أطلق عليها فعل من يعقل وهو السجود جاز أن توصف بصفة من يعقل لأن السجود من فعل العقلاء[4].

ـ وقوله: ﴿يا بنيّ لا تقصص. . .﴾ فيه أنَّ النداء مع حضور المخاطب مستعمل في طلب إحضار الذهن اهتماماً بالغرض المخاطب فيه[5].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٢/٢١٥.

(٢) انظر: محاسن التأويل للقاسمي ٩/١٩١.

(٣) تفسير الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ٤/٦٩.

(٤) صفوة التفاسير للصابوني: ٢/٤٥.

(٥) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ١٢/٢١٢.

– وقـول: ﴿يا بني﴾ فيـه كنايـة عن تحبيب وشفقة، كمـا فيـه كنـايـة عن إمحـاض النصـح لـه[1].

– وقوله: ﴿فيكيدوا لك كيداً﴾ اللام في (لك) لتأكيد صلة الفعل بمفعـوله كقـوله: شكرت لك النعمى. وتنوين (كيداً) للتعظيم والتهويل زيادة في تحذيره من قصّ الـرؤيا عليهم[2].

– وقوله: ﴿وكذلك يجتبيك﴾ أي ومثل ذلك الاجتباء يجتبيك ربك في المستقبـل. فهاهنا تشبيه تعليلي؛ لأنه تشبيه أحد المعلولين بالآخر لاتحاد العلة[3].

– وقوله: ﴿كما أتمّها﴾ فيه تشبيه مرسل مجمل[4].

٢ ـ العبر والفوائد من تدبير المكيدة بيوسف:

* إنَّ قـولهم: ﴿. . . ليوسف وأخـوه أحبّ إلى أبينا منّـا ونحن عصبة إنَّ أبـانا لفي ضلالٍ مبين﴾ يشير إلى حقد دفين في نفوسهم سببه شعورهم بأن يوسف وأخاه مقربان إلى أبيهم يعقوب. وهنا يـورد الفخر الـرازي سؤالاً فيقول: إنَّ من الأمـور المعلومة أن تفضيـل بعض الأولاد على بعض يورث الحقـد والحسـد ويـورث الآفـات، فلمـا كـان يعقوب عالماً بذلك فلم أقدم على هذا التفضيل؛ وأيضاً الأسنّ والأعلم والأنفـع أفضل فلم قلب هـذه القضية؟ وأجـاب عليه بقـوله: (إنّه عليه السلام مـا فضّلهما على سـائـر الأولاد إلاّ في المحبّـة، والمحبة ليست في وسـع البشـر، فكان معـذوراً فيه ولا يلحقـه بسبب ذلك لوم)[5].

وأقول: ولـم يكن يعقوب عليه السلام بالذي يخفى عليه ذلك، فقـد كان مسـاوياً بين الجميـع في المعاملة والنفقة وغيرها ولم يحاب أحداً على أحد في الظاهـر، ولكن في قلبه كان يحمـل ليوسف وأخيـه حباً زائـداً عن البقية، ولعـل أبناءه الآخـرين أحسّوا

---

(١) التحرير والتنوير ١٢/٢١٣.
(٢) المرجع السابق ١٢/٢١٣.
(٣) المرجع السابق ١٢/٢١٥.
(٤) صفوة التفاسير للصابوني ٢/٤٥.
(٥) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٨/٩٣.

بذلك لا من المعاملة والتفريط في حقّهم، إنَّما من بعض قرائن أخرى مما لا يستطيع أن يملكه أحد. ولكن على كل حال لا يفوتنا ونحن في هذا المقام أن نشير إلى أنه ينبغي على الآباء الاعتناء بمداراة أبنائهم وتربيتهم على تبادل المحبة بينهم، وعليهم أن يعدلوا بينهم حتى لا يقع منهم التحاسد والتباغض، وأن يجتنبوا تفضيل بعضهم على بعض بما يعده المفضول إهانة له ومحاباة لأخيه بالهوى.

وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك مطلقاً فقال: «اتّقوا الله واعدلوا بين أبنائكم» وجاء هذا النهي في الحديث الذي رواه النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ وفيه: أنّ أباه أتى به رسول الله ﷺ فقال: إنِّي نحلت ابني هذا (أي أعطيته غلاماً كان لي). فقال ﷺ: أكلّ ولدك نحلته مثل ذلك؟ فقال: لا. فقال ﷺ: فأرجعه، وفي رواية: يا بشير ألك ولد سوى هذا؟ فقال: نعم. فقال: أكلّهم وهبت لهم مثل هذا؟ قال: لا. فقال ﷺ: فلا تشهدني إذاً[1] فإني لا أشهد على جور. ثم قال: أيسرّك أن يكونوا إليك في البر سواء؟ قال: بلى. قال: فلا إذاً. وفي رواية للإمام مسلم: «قاربوا بين أولادكم»[2]. فلا بدّ من الآباء أن يهتموا بهذه القضية التربوية؛ حتى لا ينبتوا بذور الحقد والكراهية، ولترفرف السعادة على حياة الأبناء. أمَّا ما كان من ناحية قلبية فهذا أمر لا يملكه إلاَّ الله، فما يفعل الإنسان بغريزته وقلبه وروحه؟ أيستطيع أن يحول دون سلطانها على جوارحه، وكما قال الشاعر:

دلائل العشق لا تخفى على أحد   كحامل المسك لا يخلو من العبق[3]

* ويصف سيد قطب حالتهم التي وصلوا إليها من الحقد والكراهية ـ الممثّلة في قولهم: ﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً

---

(١) الاختيار عند البصريين أن تكتب (إذاً) بالألف، والاختيار عند الكوفيين أن تكتب (إذن) بالنون؛ لأنها نون في الحقيقة وليست بتنوين. (انظر: أبو الحسن علي بن عيسى الرماني النحوي، معاني الحروف، تحقيق د. عبد الفتاح شلبي، الطبعة الثالثة (جدّة ـ المملكة العربية السعودية: دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ص ١١٧.

(٢) رواه البخاري: كتاب الهبة، حديث رقم (٢٠، ٢١)، ٣/٣١٢، رواه مسلم: في كتاب الهبات الأحاديث (٩ ـ ١٨).

(٣) انظر: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ١٢/٢٦١.

صالحين﴾ ــ فيقول: (يغلي الحقد ويدخل الشيطان فيختل تقديرهم للوقائع وتتضخم في حسهم أشياء صغيرة وتهون أحداث ضخام. تهون الفعلة الشنعاء المتمثلة في إزهاق روح. روح غلام بريء لا يملك دفعاً عن نفسه وهو لهم أخ وهم أبناء نبيّ، يهون هذا وتفخم في أعينهم حكاية إيثار أبيهم له بالحبّ حتى توارى القتل أكبر جرائم الأرض قاطبةبعد الشرك باللّه، وهكذا ينزغ الشيطان وهكذا يسول للنفوس عندما تغضب وتفقد زمامها، وتفقد صحة تقديرها للأشياء والأحداث، وهكذا لما غلا في صدورهم الحقد برز الشيطان ليقول لهم: اقتلوا... والتوبة بعد ذلك تصلح ما فات! وليست التوبة هكذا إنَّما تكون التوبة من الخطيئة التي يندفع إليها المرء غافلاً جاهلاً غير ذاكر، حتى إذا تذكّر ندم، وجاشت نفسه بالتوبة، أمَّا التوبة الجاهزة! التوبة التي تعد سلفاً قبل ارتكاب الجريمة لإزالة معالم الجريمة فليست بالتوبة إنَّما هي تبرير لارتكاب الجريمة يزينه الشيطان)(١).

وتعليقاً على كلام سيد قطب أقول: إنَّ ما وصلوا إليه نتيجة حقدهم تجاه يوسف لأمر عظيم غير متوقّع!! فهم يتمنون موت أخيهم، وقطع وجوده من الحياة!!! ولا شك أن ما أفسد بينهم إلَّا الشيطان ــ لعنة الله عليه ــ إذ أن الإنسان آخر ما يتصوره ويتوقعه أن يفكّر في قتل أخيه ولو فعل ما فعل.. ولكن ذلك موجود حينما تنحرف الفطرة وينزغ الشيطان؛ ولذلك كان إلزاماً أن يهتمّ الآباء منذ البداية على نشأة أولادهم على حبّ بعضهم البعض، ومساعدة بعضهم البعض، وعلى تكافلهم وتجانسهم، وعليهم أن يغتنموا المناسبات والفرص لفرض هذه المعاني؛ بل وتهيئة كل الأسباب المؤدية لذلك حتى يشبّوا وهم قد تأصل في ذوات أنفسهم حبّ الخير لإخوانهم بل وإيثارهم على أنفسهم، وهذا ما يريده الإسلام ويدعو إليه الجميع.

* ثم إنَّ قولهم: ﴿يا أبانا مالك لا تأمنّا على يوسف وإنَّا له لناصحون. أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنَّا له لحافظون﴾ لمظهر من مظاهر عقوقهم لأبيهم، لأنَّهم يكذبون ويفترون عليه، ويقلبون له الحقائق ويعمّون عليه الأمور، وزيادة على هذا كلّه فإنهم يؤكّدون كلامهم ليصدّقهم وهذا من أشدّ التغرير؛ وكيف وهم يكذبون على نبيّ من أنبياء الله!!!

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب: ١٩٧٣/٤.

وفي هـذا المقام ينبغي الإشـارة إلى خلق إسلامي فقـده أبنـاء يعقـوب في هـذه القصة، ألاَ وهو خلق الصدق فقد رأينا كيف أنّهم كذبوا وبالغوا في كذبهم.

ونحن لا نقول أنّ يعقوب عليه السلام قـد قصّر في جـانب تربيتهم على الصـدق فحاشا لـه ذلـك؛ بل هي غـواية الشيـطان لهم، وتنكّبهم عمّا عـوَّدهم عليه أبـوهم من الصدق نتيجة ما تغلغل في أنفسهم من الحقد والحسد تجـاه يوسف، والحقـد والحسد مفتاح ــ بلا شك ــ لكثير من الجرائم الخلقية كالكذب وغيره مما قد رأيناه من قبـل في تصرفاتهم.

ولكن مـع هـذا لا يفوتني ونحن نتعـرض لصفة الصـدق أن أقول: إنّـه لا بدّ من تعويد الأبناء وتربيتهم على التحلي بهذا الخلق والبعد عن ضدّه منذ الصغـر حتى يشبّوا وقد اعتادوا هذا الخلق الكريم، وابتعـدوا عن خلق الكذب المشين، وينبغي أن يكـون الآباء هم قدوة حسنة في ذلك وإلاّ لما كان هناك أثر لتوجيههم.

ونذكر في كلامنا هنا قصة طريفة تـرينا كيف كـان يعوّد السلف الصـالـح أبناءهم على الصدق، ويعاهدونهم عليه؛ حتى لا يسلكوا في حياتهم غير طريقة: يقول العـالم الربّاني الشيـخ عبـد القادر الكيـلاني ــ رحمه الله ــ : (بنيت أمـري في حين ما نشـأت على الصدق وذلك أنّي خرجت من مكة إلى بغداد أطلب العلم، فأعـطتني أمي أربعين ديناراً أستعين بها على النفقة، وعاهدتني على الصدق، فلمّا وصلنا أرض همدان خرج علينا جماعة من اللصوص فأخذوا القافلة، فمرّ واحد منهم وقال لي: مـا معك؟ قلت: أربعون ديناراً، فظن إنّي أهزأ بـه فتركني، فرآني رجل آخر، فقال: ما معـك؟ فأخبـرته بما معي، فأخذني إلى كبيرهم، فسـألني فأخبـرته، فقال ما حملك على الصدق؟ قلت: عـاهدتني أمي على الصـدق، فأخـاف أن أخون عهـدهـا!!، فـأخـذت الخشيـة رئيس اللصوص، فصاح ومزّق ثيابه، وقال: أنت تخاف أن تخون عهد أمك وأنـا لا أخاف أن أخون عهد الله؟! ثم أمر بردّ ما أخذوه من القافلة، وقال: أنا تائب لله على يديك، فقال من معه: أنت كبيرنا في قطـع الطريق، وأنت اليوم كبيرنا في التوبة، فتابوا جميعاً ببركة الصدق)[1].

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام لعبد الله علوان: ١/ ١٧٥.

٣ ـ العبر والفوائد من إلقاء يوسف في الجبّ:

* إنَّ إلقاء يوسف في الجبّ يعد أول المحن التي مرت بـه في حياته، وإنَّها لمحنة تمر بـه وهو لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره.. محنة معنوية وحسّية؛ معنوية لأنّه يلاقي هـذا التصرف الخـطير من إخـوته الكبـار الذين ينبغي أن يكـونوا مصـدر عطف وحنـان وشفقة عليه؛ لا مصدر عنف وغضب وخطر.. فإنَّ المصدر الذي يجب أن يستند إليـه أصبـح مصدراً يجب أن يهرب منه ويبتعد عنـه؛ لأنه وجـد القسوة والعنف منـه، ومحنة حسّيـة لأنه ألقي في البئـر المظلم المخيف الـذي لا يتـوقـع أن يخلو من أشيـاء تؤذيـه ويمكنه النجاة منها، وقد يؤدِّي إلقاؤه ـ أيضاً ـ إلى عطشه وجـوعه لانقـطاعه عن أعين الناس ـ وقد قيل إنَّه مكث ثلاثة أيام في البئر حتى جاءته السيارة[١] ـ ولا ريب أنَّ هذه المحنة هي بداية تهيئة لـه ليكون أقدر احتمالاً على ما سيلاقيه من المحن في حياته.

ويقول الشيـخ محمد أحمد جاد المولى ـ واصفاً هذه المحنة ـ: (يـوسف الآن في الجبّ يحتـويه ظـلامه ويشتمله سكـونه، محنـة يمتحن بها هـذا الفتى الكريم والله يمتحن عباده المخلصين بأنواع المصائب ويفتنهم بضروب الآلام ليكونوا أقدر احتمـالاً على ما يلقىٰ عليهم من مهمات الأمور وعظيماتها، ولم تكُن محنة أنكى في الداء وأبلغ في الألم وأبعث على الجزع من هذه، وربّما كانت أخفّ لو وقعت على رجل خبر الحياة ولكن يوسف لا يزال عزيزاً لا يعرف شيئـاً، وربمـا كانت أخفّ لـو أنّ يوسف كان قد اقترف خطيئة أو ارتكب إثماً، ولكن كان مبرءاً من كـل عيب وخطأ ولـو أنّ رمية يوسف كانت من غير إخوته ومحنته جـاءت من غير آصـرته لاحتملهـا قلبه واتسعت لهـا جوانب صدره...)[٢].

* يظهر لنا ـ هنا ـ شـؤم الذنوب وآثارها السيئة على الإنسان، فإن الذنب الـواحد يستتبـع ذنوباً متعددة ولا يتمّ لفاعله إلاَّ بعد جرائم؛ فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه احتالوا لذلـك بأنـواع من الحيل وكـذبوا عـدّة مرات، وزوّروا على أبيهم في القميص والدم الذي فيه.. إلى آخر أعمالهم السيئة. ألا فليحـذر الإنسان من الـذنوب

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي: ٣/١٢٩.

(٢) قصص الأنبياء لمحمد أحمد جاد المولى: ص ٧٦.

حتى لا تهلكه وترديه إلى سوء المصير[1].

* وإنَّا لنلمح في قول يعقوب ـ حين أخبر بأن الذئب أكل حبيبه يوسف ـ ﴿. . . فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ قمّة الصبر، والاستعانة باللّهِ على هذه المصيبة، وكان هذا عزاء له في مصابه.

وإنَّ ذلك لهو ما يطلبه الله من عباده المؤمنين به أن يرضوا بقدره ويسلّموا لأمره ويستعينوا به فكما قال تعالى: ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون﴾[2].

* إنَّ الله عزّ وجلّ كان قادراً على أن يبلغ نبيه بمكان يوسف وما فعلوا به حقيقةً عن طريق وحيه، ولكن هو الابتلاء لعباده المؤمنين.

* ويستفاد من هذه الآيات بعض الأحكام الفقهية وهي كالتالي:

- إنَّ بكاء المرء قد لا يدلّ على صدقة لاحتمال كونه تصنعاً.

- مشروعية المسابقة: من قوله ﴿إنَّا ذهبنا نستبق. . .﴾.

- واللعب إن كان بين الصغار جاز بما لا مفسدة فيه ولا تشبه بالفسقة. وأمَّا بين الكبار ففيه ثلاثة أقسام:

الأول: أن يكون في معنى القمار؛ فلا يجوز.

الثاني: أن لا يكون في معناه، وفيه استعانة وحثّ على القوة والجهاد كالمناضلة بالقسّي والمسابقة على الخيل فذلك جائز وفاقاً.

والثالث: أن لا يكون فيه عوض كالمصارعة ونحوها. ففي ذلك قولان للشافعية، ورجّح الجواز إن كان بغير عوض أو بعوض يكون دفعه على سبيل الرضا؛ لأن النبيّ ﷺ صارع يزيد بن ركانة[3]، وروي عن عائشة قالت: سابقت الرسول ﷺ مرتين

---

(١) انظر: تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ٤/٧٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٥٦.

(٣) رواه أبو داود: كتاب اللباس: (٢٤) باب في العمائم، حديث (٤٠٧٨).

فسبقته في الأولى، فلمّا بدنت سبقني وقال: هذه بتلك[1].

وقد جاء في الحديث: «ليس من اللهو ثلاثة: ملاعبة الرجل أهله، وتأديبه فرسه، ورميه بقوسه»[2].

* ومن قوله «قل بل سولت لكم أنفسكم أمراً...» استدلّ على أنّ الحكم بما يظهر من العلاقة في مثله في التكذيب أو التصديق جائز؛ لأنه عليه السلام قطع بأن الذئب لم يأكله بظهور علاقة كذبهم وهو عدم تخريق القميص[3].

* ومن البلاغة القرآنية في الآيات ما يلي:

– في قوله: (يخل لكم وجه أبيكم) كناية تلويح عن خلوص محبّته لهم دون مشارك[4].

– وقوله: (بدم كذب) فيه: أنَّ الدم لا يوصف بالكذب، والمراد بدم مكذوب فيه أو دم ذي كذب وجيء بالمصدر على طريق المبالغة[5].

– وتعبير يعقوب عمّا أصاب يوسف بقوله (بما تصفون) في غاية البلاغة؛ لأنه كان واثقاً بأنهم كاذبون في الصفة، وواثقاً بأنهم ألحقوا بيوسف ضرّاً فلم يتعيّن عنده نوع الضرر أو المصاب، فأجمل التعبير عنه إجمالاً موجهاً لأنهم يحسبون أنّ ما يصفونه هو موته بأكل الذئب إيَّاه، ويعقوب يريد أنّ ما يصفونه هو المصاب الواقع الذي وصفوه وصفاً كاذباً[6].

---

(١) رواه ابن ماجة: (٩) كتاب النكاح، (٥٠) باب حسن معاشرة النساء، حديث (١٩٧٩)، وقال في الزوائد: إسناده صحيح على شرط البخاري.

(٢) انظر: محاسن التأويل للقاسمي ٢٠٣/٩، الحديث رواه أبو داود: كتاب الجهاد، (٢٤) باب الوحي، حديث (٢٥١٣)، وأخرجه الترمذي أيضاً في كتاب الجهاد، باب فضل الرمي في سبيل الله، حديث (١٦٣٧).

(٣) أحكام القرآن للجصاص: ١٦٩/٣.

(٤) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ٢٢٤/١٢.

(٥) صفوة التفاسير للصابوني: ٤٥/٢.

(٦) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٤٠/١٢.

٤ ـ العبر والفوائد من التقاط يوسف وبيعه في مصر:

* إنَّ الله إذا أراد شيئاً أتىٰ به على التدريج ومهّد له أسبابه وصنعها سبحانه؛ فهاهم أولاءيلتقطونه ويذهبون به ويبيعونه في مصر، ويشتريه عزيز مصر، الذي أوصى زوجته بأن ترعاه وتحفظه عسى أن ينتفعا به أو يتخذاه ولداً. وتدرّج حتى أصبح على خزائن مصر وكان ما كان من أمره ونبوته عليه السلام وجعله رحمة للناس، ومن ثم التقاء إخوته به عن طريق هذه المكانة التي حازها وأخيراً رجوعه إلى أبيه في نهاية القصة وتحقق رؤياه التي رآها في صغره!! فسبحان الله خالق كل شيء ومقدره حقّ التقدير، لا مانع لحكمه ولا راد لقضائه.. وهنا يخشع القلب إزاء عظمة الخالق سبحانه وتعالى في تسيير الأمور وتهيئة الأسباب.

* وإنَّ قول عزيز مصر لامرأته: (أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً) يذكرني بقول عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ : (أفرس الناس ثلاثة: العزيز في يوسف؛ حيث قال لامرأته: (أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً)، وابنة شعيب حين قالت لأبيها في موسى: ﴿استأجره...﴾ الآية، وأبو بكر في عمر ـ رضي الله عنهما ـ حيث استخلفه، وفي رواية أخرى: وامرأة فرعون حين قالت: (قرّة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً) »[1].

ويحسن بنا في هذا المقام أن نشير ـ من باب الفائدة ـ على حقيقة الفراسة، فللإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ كلام حولها مختصرة ما يلي: الفراسة سببها: نور يقذفه الله في قلب عبده؛ يفرّق به بين الحقّ والباطل، والصادق والكاذب وغير ذلك. وحقيقتها: إنها خاطر يهجم على القلب ينفي ما يضاده يثب على القلب كوثب الأسد على الفريسة، لكن الفريسة فعيلة بمعنى مفعولة، وبناء الفراسة كبناء الولاية والإمارة والسياسة.

وهذه الفراسة على حسب قوة الإيمان، فمن كان أقوى إيماناً فهو أحدّ فراسة.

---

(١) مدراج السالكين لابن قيم الجوزية ٢/ ٤٨٥.

وقال عمرو بن نجيد: كان شاه الكرماني حادّ الفراسة لا يخطىء، وكان يقول: من غضّ بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمر باطنه بالمراقبة وظاهره باتباع السنة وتعوّد أكل الحلال لم تخطىء فراسته.

وقال أبو جعفر الحدّاد: الفراسة أول خاطر بلا معارض، فإن عارضه معارض آخر من جنسه فهو خاطر وحديث نفس.

وقال الهروي: لا يصدق منها إلاَّ فراسة تجنى من غرس الإيمان؛ فشبّه الإيمان بالغرس لأنه يزداد وينمو ويزكو على السقي، ويؤتي أكله كل حين بإذن ربه، وأصله ثابت في الأرض وفروعه في السماء. فمن غرس الإيمان في أرض قلبه الطيبة الزاكية، وسقى ذلك الغراس بماء الإخلاص والصدق والمتابعة: كان من بعض ثمره الفراسة.

ومما يذكر أن أعظم الأمّة المحمدية فراسة الصّدّيق، وبعده عمر بن الخطاب، ووقائع فراسته مشهورة؛ فإنا ما قال لشيء: أظنّه كذا إلاَّ كان كما قال. ويكفي في فراسته، وموافقته ربّه في المواضع المعروفة، مما كان في شأن أسرى بدر ونحوها. ويروى أنّ سواد بن قارب مرّ بعمر ــ رضي الله عنه ــ ولم يكن يعرفه. فقال: (لقد أخطأ ظنّي، أو أنّ هذا كاهن، أو كان يعرف الكهانة في الجاهلية) فلمَّا جلس بين يديه قال له ذلك عمر. فقال: سبحان الله يا أمير المؤمنين ما استقبلت أحداً من جلسائك بمثل ما استقبلتني به. فقال له عمر: ما كنَّا عليه في الجاهلية أعظم من ذلك. ولكن أخبرني عما سألتك عنه. فقال: صدقت يا أمير المؤمنين كنت كاهناً في الجاهلية ثم ذكر القصة.

ولا شكّ في أنّ فراسة الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ أصدق الفراسة، وأصل هذا النوع من الفراسة: من الحياة والنور اللذيْن يهبهما الله تعالى لمن يشاء من عباده فيحيا القلب بذلك ويستنير فلا تكاد فراسته تخطىء. قال تعالى: ﴿أوَ من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها...﴾ الآية » [الأنعام: ١٢٢].

وكان إياس بن معاوية من أعظم الناس فراسة، وله وقائع مشهورة. وكذلك

الإمام الشافعي، وقيل إن لـه فيها تآليف. والله أعلم(١).

* وبمناسبة التقاط السيارة ليوسف عليه السلام نقول: إنَّها وردت في ديننا الحنيف أحكام تختص بمسألة اللقيط ويجدر الإشارة إليها للفائدة:

فاللقيط هو الطفل المنبوذ، وهو محكوم بحريته؛ لما روى سعيد، عن سفيان، عن الزهريّ أنَّه سمع شبيباً أبا جميلة قال: وجدت ملقوطاً فأتيت به عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقال عريفي: يا أمير المؤمنين إنَّه رجل صالح. فقال عمر: أكذلك هو؟ قال: نعم. فقال: إذهب فهو حر ولك ولاؤه وعلينا نفقته، أو قال رضاعه.

وقال ابن المنذر: اجمع عوامّ أهل العلم على أن اللقيط حرّ؛ ولأن الأصل في الآدميين الحرية فيكون حراً. وهو محكوم أيضاً بإسلامه إن كان في دار الإسلام وإذا كان فيها مسلم لأنَّه اجتمع الدار وإسلام من فيها. وما وجده عنده من المال فهو له، وكذلك ما يوجد من الثياب والحليّ، أو تحته من فراش أو سرير أو غيره لأنه آدمي حرّ فأشبه البالغ.

وولايته لملتقطه إذا كان مسلماً عدلاً. والمراد ولاية حفظه والإنفاق عليه، أمَّا إذا كان ليس عنده ما ينفق عليه فنفقته في بيت المال.

وما خلفه فهو فيء؛ وذلك لأن ميراث اللقيط وديته ـ إن قتل ـ لبيت المال إن لم يخلف وارثاً معروفاً كغيره من المسلمين.

ومن ادّعى نسبه ألحق به مسلماً كان أو كافراً؛ لأنه أقرّ له بحقّ لا ضرر فيه على أحد كما لو أقرّ له بمال. ويتبع الكافر نسباً لا ديناً؛ لأنه محكوم بإسلامه بالدار فلا يزول ذلك بدعوى كافر، ولا يدفع إلى الكافر ولا يسلّم له؛ لأنه لا ولاية لكافر على مسلم(٢).

---

(١) انظر: مدراج السالكين لابن قيم الجوزية ٢/٤٨٢ ـ ٤٨٦؛ تهذيب المدارج للعزي ص ٤٩١ ـ ٤٩٣.

(٢) انظر: بهاء الدين عبد الرحمن بن إبراهيم المقدسي، العدّة شرح العمدة (الرياض: مكتبة الرياض الحديثة) ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

* ومن البلاغة القرآنية في الآيات: قوله: ﴿يا بشرى﴾ فنداء البشرى هنا مجاز؛ لأن البشرى لا تنادى، ولكنها شبهت بالعاقل الغائب الذي احتيج إليه فينادى كأنه يقال له: هذا أوان حضورك، ومنه: يا حسرتا، ويا عجباً. فهي مكينة وحرف النداء تخييل أو تبعية، والمعنى فرج وابتهاج بالعثور على الغلام[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ١٢/٢٤١.

المبحث الثاني

تعرُّف يوسف على إخوته

المطلب الأول

بيان القصة

وقبل أن نبدأ في بيان القصة في هذا المبحث أودّ أن أشير إلى أن هناك فترة زمنية بين ما انتهت إليه أحداث المبحث الأول من استقرار يوسف في بيت عزيز مصر، وبين بداية أحداث هذا المبحث؛ فإنه قد مرّت بيوسف عليه السلام في هذه الفترة ـ كما هو معلوم ـ محن ومنح، كقصة مراودة امرأة العزيز له ثم كيدها له إلى أن ألقي في السجن بسببها. ثم بسبب رؤيا رآها ملك مصر ـ ﴿إنّي أرى سبع بقرات سمان. . .﴾ الآية ـ وتفسير يوسف لها وهو في السجن؛ جعل الملك يقربه إليه حتى أولاه على جميع أرض مصر، فأصبح عزيز مصر وسماه الملك (صفنات فعينج)، وزوجه (اسنات) بنت أحد كهنة مصر[1].

ولن نخض في هذه الفترة لعدم صلتها بموضوع بحثنا؛ إذ المطلوب منا متابعة أحداث قصة يعقوب عليه السلام مع أبنائه وما يدور حولها.

وبعد هذه الإشارة نبدأ في بيان القصة بهذا المبحث وهي على النحو التالي:

١ ـ قدوم إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ إلى مصر:

وتحقّق تأويل يوسف لرؤيا الملك بمجيء السنوات السبع الخصبة فرعاها يوسف ـ عليه السلام ـ بتدبيره، وخزن الفائض من غلاتها، ثم جاءت السنوات

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

السبع المجدبة بعدها فحصل قحط شديد لا سيّما في البلاد المجاورة لعدم استعداد أهلها كفلسطين وغيرها.

وقد أصاب يعقوب عليه السلام وأهله كما أصاب غيرهم من الضيق الشديد في عيشهم، وقد فشا خبر وجود رزق في مصر، وأصبح الناس يردون إليها من مختلف الأقاليم ويمتارون لأنفسهم وعيالهم.

وكان يوسف لا يعطي الرجل أكثر من حمل بعير في السنة الواحدة، وكان لا يشبع نفسه ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط النهار حتى يتكفأ الناس بما في أيديهم مدة السبع سنين.

وحين ذلك أرسل يعقوب ـ عليه السلام ـ أبناءه باستثناء بنيامين إلى مصر كي يمتاروا لأنفسهم. ويبين لنا القرآن الكريم قصّة مقدمهم على يوسف في مصر وما حدث أثناء ذلك في الآيات الآتية:

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ[1] ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٦٢﴾[2].

وتروي لنا الآيات السابقة أنّ أخوة يوسف دخلوا عليه، وقد كان يقوم هو بنفسه بالكيل للناس والإشراف على ذلك لأهمية هذا العمل ولحفظه عن التلاعب، ومراعاته لكفاف الناس أجمعين.

ودخلوا عليه فعرف أنّهم إخوته بملامحهم وكلامهم وأزيائهم الخاصة بفلسطين[3]، أمّا هم فلم يعرفوه لطول عهدهم به ومفارقتهم إيّاه في سنّ الحداثة ونسيانهم إيّاه وتوهمهم أنّه هلك، ولقلة تأملهم في صورته بسبب التهيّب والاستعظام

(١) قرأ حمزة والكسائي وحفص: (وقال لفتيانه) بالألف، وقرأ الباقون (لفتيته) بدون ألف (حجة القراءات لابن زنجلة ص ٣٦١).

(٢) سورة يوسف: الآيات ٥٨ ـ ٦٢.

(٣) مع الأنبياء في القرآن الكريم لطبارة ص ١٧٤.

لمكانته بين الناس ويضاف إلى هذا احتمال أنّه كلمهم باللغة المصرية القديمة، ويحتمل كذلك لتغيّر اسمه فكما ذكرنا أن الملك أسماه (صفنات فعينج)[1]. ومما لا شك فيه أنّ هذا الموقف بالنسبة ليوسف موقف مفاجىء جميل، لأنّ الله جمع بينه وبين إخوته بعد هذه الفترة الطويلة، وسيعرف بالتدريج أخبار أبيه وأخيه بنيامين منهم، وسيكون هذا سبباً في جمع شملهم بعد تشتته.

ودعاهم للنزول في ضيافته فاستجابوا، وأخذ يتكلم معهم واستدرجهم في الكلام حتى ذكروا له حالهم على وجه التفصيل. والظاهر أنّهم ذكروا له ـ في كلامهم إليه ـ أنّ لهم أخاً صغيراً من أبيهم لم يحضر معهم لأنّ أباهم يحبّه ولا يطيق فراقه.

وبعد أن هيّأ لهم الطعام والميرة وأعطاهم ما يحتاجون؛ طلب منهم أن يحضروا معهم أخاهم الصغير من أبيهم في المرة القادمة، وإلا فلن يكيل لهم ويعطيهم الميرة التي يجيئون من أجلها.

والمسوّغ لهذا الطلب ـ كما قال البعض ـ هو أنّه قال لهم يوسف ـ حين أخبروه عن أخيهم ـ: إنّ بقاءه عند أبيكم يدلّ على أنّ حبّ أبيكم له أزْيد من حبّه لكم وهذا شيء عجيب؛ لأنه مع جمالكم وعقلكم وأدبكم ومحبته لأخيكم أكثر منكم فإنّ هذا يدلّ على أنّ هذا الأخ أعجوبة في العقل والفضل والأدب فجيئوني به حتى أراه[2]. وهذا السبب محتمل ومناسب. والله أعلم.

ومن ثم حثّهم ـ عليه السلام ـ بالإتيان به وهم قد رأوا منه كل كرم في ضيافته لهم وإيفائه لكيلهم ولا يشك في أمره بل هو يريد مصلحتهم ومنفعتهم.

فوعدوه أنهم سيحاولون مع أبيهم حتى يسمح لهم بإتيانه إليه ﴿قالوا سنراود عنه أباه وإنّا لفاعلون﴾ ولفظ (نراود) يصوّر لنا الجهد الذي يعلمون أنهم باذلوه مع أبيهم[3]، وأكّدوا ذلك بقولهم: ﴿وإنّا لفاعلون﴾.

* وأورده القرطبي ـ رحمه الله ـ استفساراً حسناً قد يقع السؤال عنه فيقول: «إن

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي ٢/١٧٣، مع الأنبياء لطبارة ص ١٧٤.
(٢) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ١٨/١٦٦.
(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/٢٠١٦.

قيل كيف استجاز يوسف إدخال الحزن على أبيه بطلب أخيه؟» ثمّ أجاب عنه بأربعة أجوبة:

أحدها: يجوز أن يكون الله عز وجل أمره بذلك ابتلاءً ليعقوب ليعظم له الثواب؛ فاتّبع أمره فيه.

الثاني: يجوز أن يكون الله أراد بذلك أن ينبّه يعقوب على حال يوسف.

الثالث: لتتضاعف المسرة ليعقوب برجوع ولديه عليه.

والرابع: ليقدم سرور أخيه باجتماعه معه قبل إخوته لميل كان منه إليه»[1].

أقول: والجواب الأول هو الظاهر والراجح. والله أعلم؛ إذ أنّ الثاني والثالث مستبعدان لبعد دلالة ذلك الوقت عليهما، ولبعد معرفة يعقوب أن هذا الطلب هو من يوسف. وأما الرابع فهو محتمل ولكن ليس بقوة الأول، ولا تتحقق فيه الإجابة عن السؤال المطروح؛ فإن فيه تقديماً لجانب ارتياح يوسف وعدم المراعاة لجانب الأبوة.

* ولما همّ الأخوة بالرحيل أمر يوسف فتيانه ـ الذين يقومون بالأعمال المطلوبة منهم ـ أن يضعوا بضاعتهم ـ وهي الأثمان التي جاؤوا بها ليشتروا الطعام بقدرها وقيل أنها كانت دراهم ودنانير ـ في أوعيتهم وأمتعتهم لكي يعرفوها إذا رجعوا إلى أهلهم وفتحوها؛ وذلك حتى يرجعوا إليه فإنه علم أنّ دينهم يحملهم على ردّ الثمن لأنهم مطهرون عن أكل الحرام فيكون ذلك أدْعى إلى العود إليه[2].

وأولى من هذا أن يقال: إنّه أراد أن يحملهم ـ متى رجعوا إلى فلسطين وعرفوا حسن صنيعه معهم ـ على حسن الظنّ به؛ إذ أنّه بلغ من الكرم والجود معهم حداً كبيراً، فيوسف أراد بذلك أن يشجعهم على الرجوع إليه وليعرفوا أنّه يعطف عليهم وأنّهم يتوقعون كثيراً من الخير من قِبَله[3].

وإني أرى هذا الرأي أولى لعلمهم أنّهم أعطوه الثمن، وها قد وجدوه في

---

(١) تفسير القرطبي ٩/٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/١٨٣.

(٣) انظر: مع الأنبياء في القرآن لطبارة ص ١٧٥.

أمتعتهم بعد أن رجعوا، فلا يحتمل ذلك نسياناً منهم في إعطاء الثمن لـه، بل لا تأويـل لـه إلا الإكرام من يوسف لهم.

وأما ما قيـل: من أنه خشي يـوسف أن لا يكون عنـدهم بضاعـة أخرى يـرجعون للميرة بها، أو هو تورع منه عليه السلام أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضاً عن الـطعام[1]، فمعناهما محتمل وقد يدخل في باب بيان كرمه لهم وتشجيعهم من بعـد للرجوع إليـه، ولكن ليس هما الأصل في علة عمله هذا. والله أعلم.

ومن جهة أخرى قد يقال: إنّ مقتضى البر أن يبادر يوسف إلى أبيه ويستدعيه فما شأن المسألة هنا؟ ومـا فعله يوسف يخـالف ذلك! ويجيب على هـذا السؤال أبو حيـان فيقول فيما معناه: إن ظاهر كل ما فعله يوسف معهم إنّمـا هو بـوحي من الله، فالله أراد بذلك تكميل أجر يعقوب عليه السلام ومحنته، ولتتفسـر رؤيا يـوسف عليه السـلام[2]. وهذا هو الصحيـح ــ إن شاء الله ــ وهو ما أشرنا إليه من قبل.

٢ ــ عودتهم إلى أبيهم:

ولما عادوا إلى أبيهم أخبروه عمّا حدث لهم في مصر مع الوزير، وأعلموه أنه قد منـع منهم الكيـل بعد هـذه المـرة إن لم يـرسـل معهم أخـاهم بنيـامين لأنـه قـد طلب إحضاره، وطلبوا منه أن يرسله معهم في المرة القادمة حتى يستطيعوا الاكتيال؛ وأكّـدوا لـه بأنّهم سيرعونه ويحفظونه من السـوء ويهتمّون بـأمره، ولا مجـال للخوف عليـه فإنـه راجـع إليه، وهذا الكلام شبيه بما قالوا لـه في يوسف من قبل: ﴿أرسله معنا غداً يرتـع ويلعب وإنـا لـه لحافـظون﴾؛ ولهذا فقـد ثارت في نفسـه ذكريـات الماضي فـأجـابهم والحسرة تملؤ فؤاده: هل أنتم صانعون بـه إلا كما صنعتم بأخيه من قبل؛ تغيبـونه عني وتحولون بيني وبينه؟ ثم فوّض أمره إلى الله وتوكّل عليه فهو الحافظ سبحانه وهـو أرحم الـراحمين وكأنـه يقول: هـو أرحم الـراحمين بـي وسيـرحمني بحفـظه ولا يجمـع عليّ مصيبتين... سيـرحم كبري وضعفي ووجـدي بولـدي، وأرجـو أن يـردّه عليّ ويجمـع شملي بـه[3].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/١٨٣.

(٢) انظر: البحر المحيط لأبـي حيان ٥/٣٢٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٤٨٣ ــ ٤٨٥؛ تفسير البيضاوي ٣/١٣٨.

هـذا ما كـان من أمرهم في بـداية عـودتهم إلى أبيهم من مصر؛ وقـد حكتـه لنـا الآيتان التاليتان:

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ[1] وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا[2] وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾[3].

وبعـد كـلامهم هـذا في شـأن طلب أخيهم؛ ذهبـوا لفتـح أمتعتهم فـوجـدوا أنّ ما اشتروا بـه من ثمن قد رُدّ لهم ودُسّ في متاعهم. وحين ذلـك قالـوا: ماذا نـريد وراء هذا إنّ بضاعتنا ردّت إلينا وقد أوفي لنا الكيـل وأكرِمنـا أشدّ الإكـرام وهذا دافـع لنـا أن نرجـع إليه مرة أخرى ونأتي بالميرة وقد حفظنا أخانا، ونـزداد بـه كيل بعيـر وذلك كيـل سهل متيسر عليه لا يتعاظمه. ولكن الأب الحنون المشفق الذي قد مـر بتجربـة سابقـة أراد أن يستوثق من كلامهم في شأن حفظ ابنه بنيـامين فطلب منهم أن يؤتـوه موثقـاً من الله ــ أي عهــداً موثوقاً بـه بسبب تأكده بـإشهاد الله وبسبب القسم بـالله عليـه ــ فيـه أنّهم يـأتونـه بـه. إلا أن يغلبوا عليـه ولا يقدروا على تخليصـه؛ فإن أعـطوه هذا القسم فحينئـذ يرسله معهم، فآتوه موثقهم، ثم اتبـع ذلـك عليـه السـلام بـأن أشهـد الله على كلامهم أجمعين وعلى ما جرى بينهم من المواثيق[4].

وهذا تفسير قوله تعالى:

﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ

(١) قـرأ حمزة والكسائي: (أخـانا يكتـل) باليـاء، وقرأ البـاقون: (نكتـل) بـالنـون (حجـة القـراءات لابن زنجلة ص ٣٦١).

(٢) قرأ حمزة والكسائي وحفص: (فالله خير حافظاً) بالألف، وقرأ الباقون: (فالله خير حـفظاً) بدون الألف (انظر: حجة القراءات لابن زنجلة ص ٣٦٢).

(٣) سورة يوسف: الآيتان ٦٣ ــ ٦٤.

(٤) انـظر: تفسيـر ابن كثيـر ٢/٤٨٤؛ التفسيـر الكبيـر للفخـر الـرازي ١٨/١٧١؛ تفسيـر النسفي ٢/٢٢٩ ــ ٢٣٠.

يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴾[1].

* وجاء وقت رحيلهم ــ للمرة الثانية ــ إلى يوسف في مصر ليمتاروا. وفي هذه الأثناء نجد يعقوب . . عليه السلام ــ يوصي أبناءه بوصية توحي لنا عمّا يحمله قلبه الطاهر من الرحمة والشفقة على أبنائه من أن يصيبهم أيّ سوء وهي قوله لهم فيما ذكره الله عنه:

﴿ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[2].

فهو يوصيهم أن لا يدخلوا كلهم من باب واحد، وليدخلوا من أبواب عديدة متفرقة، وقصد من هذه الوصية أن لا تصيبهم العين ــ وهذا ما قاله جمهور المفسرين ــ وذلك أنّهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة ومنظر وبهاء. وحتى لا يصرفوا همّهم ويربطوه بهذا السبب ذكرهم بخالق الأسباب سبحانه وأشار إليهم أنّ هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه؛ إذ أنّ الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يمانع والحكم لله لا لغيره، فعليه التوكل أولاً وآخراً وعليه فليتوكل المتوكلون فلا يتكلوا على شيء سواه سبحانه[3].

فأطاع الأبناء أباهم ودخلوا من حيث أمرهم. قال تعالى:

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾[4].

وما فعلوه مما أمرهم به لا يدفع عنهم شيئاً أراده الله، ولكنّما هي حاجة في نفسه قضاها ــ عليه السلام ــ وهي دفع إصابة العين عنهم. ثم أثنى الله عليه بأنه أخذ الأسباب مع علمه بأن الله قادر على كل شيء ولا يغني ذلك من الله من شيء كما قال لهم في وصيته: ﴿وما أغني عنكم من الله من شيء﴾ . . . أثنى عليه بالعلم فهو ذو علم

(١) سورة يوسف: الآيتان ٦٥ ــ ٦٦.
(٢) سورة يوسف: الآية ٦٧.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٤٨٤.
(٤) سورة يوسف: الآية ٦٨.

لما علّمه الله؛ إذ أنه لم يغتر بتدبيره، ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون سر القدر وأنّه لا ينجي من الحذر(١).

٣ ـ رجوعهم إلى يوسف ثانية واحتجازه بنيامين:

ثم دخل الأخوة على يوسف ومعهم شقيقه بنيامين؛ فأكرمهم وقام بضيافتهم وأفاض عليهم الصلة والألطاف والإحسان، واختلى بشقيقه دونهم فأطلعه على شأنه وما جرى له وعرّفه أنّه هو يوسف؛ وقال له: لا تأسف على ما صنعوا بي ولا تحزن على ذلك، ثم أمره أن يكتم ذلك عنهم وأن لا يخبرهم بما أطلعه عليه من أنّه يوسف، كما أنّه تواطأ معه أنّه سيحتال بحيلة حتى يبقيه عنده.

يقول تعالى:

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ ﴾(٢).

وتحكي هذه الآيات أيضاً أنّه لما جهزهم وحمّل أبعرتهم طعاماً وضع السقاية في رحل أخيه بنيامين. والسقاية هي إناء من فضة في قول الأكثرين وقيل من ذهب، وقال ابن زيد: كان يشرب فيه ويكيل للناس من عزّة الطعام إذ ذاك(٣).

ويقول القرطبي في تفسيره: «والسقاية والصواع شيء واحد إناء له رأسان في وسطه مقبض؛ كان الملك يشرب منه من الرأس الواحد، ويكال للطعام بالرأس الآخر، قاله النقاش عن ابن عباس، وكل شيء يشرب به فهو صواع»(٤).

ثم تفقد أعوان يوسف المكيال فلم يجدوه، وإذ أنهم لم يكيلوا في ذلك الوقت إلا لهؤلاء الأخوة؛ فلم يترددوا حينذاك في اتّهامهم بالسرقة، ونادى مناديهم مخاطباً أصحاب العير: (أيّتها العير إنّكم لسارقون)، فالتفت الأخوة وسألوا المنادي: ماذا

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٢/٤٨٤، تفسير البيضاوي ٣/١٣٩.

(٢) سورة يوسف: الآيات ٦٩ ــ ٧٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن لابن كثير ٢/٤٨٥.

(٤) تفسير القرطبي ٢/٢٢٩.

تفقدون؟ فأخبروهم أنّهم يفقدون صواع الملك الذي يكيل به ـ وقد ذكرنا صفته آنفاً ـ وأشار ـ أيضاً ـ إلى أنّه قد وضعت مكافأة لمن يجده ويدل على سارقه وهي حمل جمل من الطعام، وتكفّل المنادي بذلك لمن يجده(١).

فحصلت للأخوة دهشة من هذه التهمة وذهلوا منها فدافعوا عن أنفسهم دفاع الواثقين بأنهم لم يرتكبوا ما اتهموا به: ﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنّا سارقين﴾(٢). فهم يقولون لهم: لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا بأن سجايانا لا تقتضي هذه الصفة القبيحة، فقال لهم الفتيان: إن كان السارق منكم أنتم فما هي عقوبته؟ فأجابوا بأن من وجد الصواع في رحله فهو جزاؤه لوحده وذلك جزاء من ظلم، وهكذا كانت شريعة إبراهيم عليه السلام أنّ السارق يدفع إلى المسروق منه ويصبح عبداً له، وهذا ما أراده يوسف عليه السلام. قال ابن عباس: كانوا في ذلك الزمان يستعبدون كل سارق بسرقته، وكان استعباد السارق في شرعهم يجري مجرى وجوب القطع في شرعنا(٣).

وهذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين. قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين﴾(٤).

ثم جاء دور البحث عن الصواع في رحالهم، فبدأ يوسف يفتش في أوعية إخوته قبل وعاء أخيه بنيامين؛ تورية وحتى لا يظنّ أنّ الأمر مدبّر ومبيّت من ذي قبل، ثم استخرجها من وعاء أخيه بنيامين، فأخذ بنيامين منهم بحكم مقالتهم بما يعتقدونه في شريعتهم من جزاء السارق(٥).

وكلّ هذا إنّما كان بوحي من الله وأمر منه ودليله قوله تعالى:

﴿فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٢/٤٨٥؛ البحر المحيط لأبي حيان ٥/٣٣٠.

(٢) سورة يوسف: الآية ٧٣.

(٣) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ١٨/١٨٠.

(٤) سورة يوسف: الآيتان ٧٤ ـ ٧٥.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير ٢/٤٨٥.

ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلاّ أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم﴾[1].

فقوله: ﴿كذلك كدنا ليوسف﴾ دليل على أن الله دبّر له هذا التدبير الدقيق، ولو حكم بشريعة الملك ما تمكن من أخذه؛ إنّما كان يعاقب السارق على سرقته دون أن يستولي على أخيه كما استولى عليه بتحكيم إخوته لدينهم، وهذا هو كيد الله له؛ وهو من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة؛ فالكيد يطلق على التدبير في الخفاء للخير والشرِّ سواء.

ـ ويوسف ـ كما ذكرنا ـ كان عالماً بأن جزاء السارق في شريعتهم أن يأخذه من سرق منه؛ ولهذا مدحه الله فقال: ﴿نرفع درجات من نشاء﴾، كما قال هناك: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾[2]، والحال أنّ فوق كل ذي علم عليم، وقال الحسن البصري: ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي إلى الله عز وجلّ[3].

ـ وأورد الفخر الرازي في هذا المقام سؤالاً وأجاب عليه من عدة وجوه ذكرها المفسرون فقال: «فإن قيل: هل كان هذا النداء بأمر يوسف أو ما كان بأمره؟ فإن كان بأمره فكيف يليق بالرسول الحق من عند الله أن يتّهم أقواماً وينسبهم إلى السرقة كذباً وبهتاناً، وإن كان الثاني وهو أنّه ما كان ذلك بأمره فهلاّ أنكره وهلاّ أظهر براءتهم عن تلك التهمة.

والجواب أنّ العلماء ذكروا عدة أجوبة:

(أوّلها): إنه ـ عليه السلام ـ لما أظهر لأخيه أنّه يوسف قال له: إنّي أريد أن أحبسك ههنا، ولا سبيل إليه إلا بهذه الحيلة، فإن رضيت بها فالأمر لك فرضي بأن يقال في حقّه ذلك... وعلى هذا التقدير لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام فخرج عن كونه ذنباً.

---

(١) سورة يوسف: الآية ٧٦.

(٢) سورة المجادلة: الآية ١١.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ٢/٤٨٥؛ في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/٢٠١٩ ـ ٢٠٢٠.

(ثانيها): إنّ المراد إنكم لسارقون يوسف من أبيه إلا أنّهم ما أظهروا هذا الكلام، والمعاريض لا تكون إلا كذلك.

(ثالثها): إنّ ذلك المؤذن ربما ذكر ذلك النداء على سبيل الاستفهام؛ وعلى هذا التقدير يخرج عن أن يكون كذباً.

(ورابعها): ليس في القرآن أنّهم نادوا بذلك النداء عن أمر يوسف، والأقرب إلى ظاهر الحال أنّهم فعلوا ذلك من أنفسهم؛ لأنهم لمّا طلبوا السقاية وما وجدوها وما كان أحد إلا هم فغلب على ظنهم أنّهم هم الذين أخذوها ثم إنّ إخوة يوسف (قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون؟ قالوا نفقد صواع الملك. . .)[1].

وأضاف القرطبي إجابة أخرى على ما أورده الفخر الرازي، فقال: «إنه أراد أيتها العير حالكم حال السراق. والمعنى: أن شيئاً لغيركم صار عندكم من غير رضا الملك ولا علمه»[2].

أقول: والعصمة ليوسف مؤكدة له بكونه نبياً، ولكنّما هذه الأجوبة إجتهادات محتملة للخروج من أن يقال عنه أنّه مذنب بفعله هذا، كما أنّه سنورد في العبر والفوائد ما يدلّ على جواز فعله هذا من أصله، دونما الاحتياج لأيّة اجتهادات تبرىء يوسف عليه السلام.

ـ وهناك سؤال آخر ذكره القرطبي في تفسيره وهو أنّه كيف رضي بنيامين بالقعود طوعاً وفيه عقوق الأب بزيادة الحزن ووافقه على ذلك يوسف. وأجاب عنه بقوله: إنّ ذلك الحزن كان قد غلب على يعقوب بحيث لا يؤثر فقد بنيامين كل التأثير، أوَلا تراه لما فقده قال: (يا أسفا على يوسف) ولم يعرّج على بنيامين، ولعلّ يوسف إنّما وافقه على القعود بوحي فلا اعتراض[3].

وقد قلنا من ذي قبل إنّ قوله تعالى: ﴿كذلك كدنا ليوسف﴾ يدلّ على أنّ الأمر كان بوحي من الله، فلا اعتراض. والله أعلم.

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٧٩/٦٨.

(٢) تفسير القرطبي ٢٣١/٩.

(٣) تفسير القرطبي ٢٣١/٩.

٤ ـ استعطاف يوسف لترك بنيامين:

ولما رأى الأخوة أنّ الصواع قد أخرج من متاع بنيامين أخجلهم ذلك وأخذوا يتنصّلون باعتذار يبرىء جماعتهم دونه؛ فشبّهوه بأخيه يوسف ـ ظناً منهم ـ أنّ يوسف قد سرق في صغره!!: ﴿قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾.

ومما لا شك فيه أنّ اتهامهم هذا ليوسف باطل وغير صحيح؛ إذ أنّ الأنبياء معصومون من الذنوب في حياتهم كلّها. ولكن كلامهم هذا لا بد وأن يكون مرتبطاً بحادثة معيّنة جعلتهم يظنّون أنّه قد سرق، وقد أورد المفسرون عدداً من الروايات لا يصدق عليها وصف يوسف بالسرقة؛ بل هي في عداد خلقه الطيّب وسيرته ونشأته الصالحة منذ صغره. فيذكر ابن كثير في تفسيره. أنّ سعيد بن جبير قال عن قتادة: كان يوسف عليه السلام قد سرق صنماً لجدّه أبي أمه فكسره. وذكر القرطبي فيها أيضاً عن سعيد: إنّما أمرته أمّه أن يسرق صنماً كان لجدّه أبي أمّه فسرقه وكسره وألقاه على الطريق، وكان ذلك منهما تغييراً للمنكر، فرموه بالسرقة وعيّروه بها[1].

وقيل: كان يسرق من طعام المائدة للمساكين، فكان في البيت عناق أو دجاجة فأعطاها السائل. وقيل: دخل كنيسةً وأخذ تمثالاً صغيراً من الذهب فكسره[2]. وذكره ابن كثير ـ أيضاً ـ في رواية عن محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد قال: كان أول ما دخل على يوسف من البلاء فيما بلغني أنّ عمّته ابنة إسحاق عليه السلام وكانت أكبر ولد إسحاق وكانت عندها منطقة إسحاق، وكانوا يتوارثونها بالكبر، وكان من اختبأها ممن وليها كان له سلماً لا ينازع فيه يصنع فيه ما يشاء، وكان يعقوب حين ولد له يوسف قد حضنته عمّته وكان لها به وله؛ فلم تحبّ أحداً حبّها إيّاه، حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات تاقت إليه نفس يعقوب عليه السلام فأتاها فقال: يا أخيه سلّمي إليّ يوسف فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة. قالت: فوالله ما أنا بتاركته. ثم قالت: فدعه عندي أياماً أنظر إليه وأسكن عنه لعل ذلك يسليني عنه، فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة إسحاق عليه السلام فحزمتها على

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٤٨٦؛ تفسير القرطبي ٩/٢٣٩.

(٢) انظر: تفسير البيضاوي ٣/١٤٠.

يـوسف من تحت ثيابـه، ثم قالت: فقـدت منطقـة إسحـاق فـانـظروا من أخـذهـا ومن أصـابها؟ فـالتمست ثم قالت: اكشفـوا أهل البيت فكشفـوهم فوجـدوهـا مـع يـوسف، فقالت: والله إنّه لي لسلم أصنـع فيه ما شئت فأتاها يعقوب فأخبرتـه الخبر، فقـال لها: أنت وذاك، إن كان فعل ذلك فهو سلم لك، ما أستطيـع غير ذلـك. فأمسكتـه فما قـدر عليه يعقوب حتى ماتت(١).

فهذه الروايات ـ كما نـلاحظ ـ ليس فيها مجـال للطعن في يوسف عليـه السلام ورميه بالسرقة، ويحتمـل حصول أحـدها أو جميعهـا ـ والله أعلم بذلـك ـ فلا ننكـرها ولا نردها؛ إذ لا منافاة بينها وبين ما ورد في القرآن الكريم، بـل إن فيها تـنـزيهاً لسـاحة نبـي الله يوسف عليه السلام وإثباتاً لعصمته، كما أنّنا لا نجزم بصحتها كحال غيرها من الإسرائيليات التي لا تعارض الصحيـح.

وحين سمـع يوسف مقالتهم هذه أكنّ في نفسه كلاماً ولم يظهره ﴿فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم﴾ وهذا الكـلام هو قـوله: ﴿قـال أنتم شرّ مكـاناً والله أعلم بمـا تصفـون﴾ ومعنى قولـه: أي أنتم أسوأ منـزلة وأقـلّ قدراً بـافتـرائكم الكـذب والله أعلم بكذب ما تدّعون.

أليسوا هم السارقين الذين سرقوه من أبيه وألقوه في الجبّ وفعلوا ما فعلوا بـه من القبائـح؟!! فهو ـ عليه السلام ـ بـإسراره هـذا القول وكتمـه إيّاه في نفسـه لم يقابـل اتّهامهم بما يكرهون بل كظم غيظه وحلُمَ(٢).

ثم أخذ إخوة يوسف يستعطفونه ليترك أخاهم بنيامين: ﴿قالوا يا أيها العزيز إن لـه أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنّا نراك من المحسنين﴾(٣). وإنّهم ليستعطفونـه بحال والدهم ذلك الشيـخ الكبير الذي لا يكـاد يطيق فـراقه لحبّـه الشديـد لـه، ولأنه عـلالة يتعلل ويتسلى بـه عن شقيقه الهالك.

وبياناً لحرصهم على طلبهم وزيادة لاستعـطافهم لـه قالـوا لـه: خذ أحـدنا بـدلاً

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٤٨٦.

(٢) انظر: مع الأنبياء لطبارة ص ١٧٩؛ تفسير الشيـخ عبد الرحمن السعدي ٤/٩٤.

(٣) سورة يوسف: الآية ٧٨.

وعوضاً عنه ونحن قد عرفنا منك كل خير ومعروف وإكرام وفضل؛ فلسنا عند أبينا بمنزلته من المحبة والشفقة[1].

ولكن هذا الاستعطاف لا يقف أمام أمر الله سبحانه، وما أراده الله عز وجل من هذه القضية فقال لهم يوسف: ﴿قال معاذ الله أن نأخذ إلاّ من وجدنا متاعنا عنده إنا إذاً لظالمون﴾[2] أي لا نأخذ إلا من وجد عنده المكيال؛ وإذا أخذنا غيره فإنا ظالمون لهذا البديل، وأنتم قد حكمتم بذلك واعترفتم فلا مجال للتراجع.

وبعد إذ لم ينفع شيء مع يوسف عليه السلام بدأ الأخوة يفكرون فيما يفعلون مع أبيهم؛ وقد وعدوه أن يردوا إليه بنيامين، وتبين لنا الآيات التالية ما ذهبوا إليه في تفكيرهم:

﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾[3].

وبيان هذه الآيات كما يلي:

إنّهم لما يئسوا من يوسف وإقناعه وإجابته لطلبهم؛ انفردوا عن الناس واختلوا بأنفسهم وأخذوا يتناجون فيما بينهم ويتشاورون في موقفهم مع أبيهم، فانتهى الرأي إلى أخيهم الأكبر فقال لهم: ما ينبغي لكم أن تنسوا ما عاهدتم الله عليه أمام والدكم من أنكم ستحافظون على بنيامين وترجعونه إليه سالماً، هذا وقد فرطتم في يوسف من قبل فأحزنتموه بفراقه، وإنّي لا أستطيع الرجوع معكم ومقابلة أبي فسأمكث هنا في

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود ٤/٢٩٩؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٤٨٦؛ تفسير البيضاوي ٣/١٤٠.

(٢) سورة يوسف: الآية ٧٩.

(٣) سورة يوسف: الآيات ٨٠ ــ ٨٢.

مصر ولن أترك أرضها حتى يأذن لي أبي في الرجوع إليه راضياً عني؛ أو يقضي الله لي بالرجوع الكريم بأن يأتي أخي معي وهو أحكم الحاكمين.

ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع حتى يكون لهم عذراً عنده ويتنصّلوا إليه ويبرؤا مما وقع بقولهم: إنّ بنيامين قد سرق ونفذ فيه حكم الاسترقاق، وقد رأينا ذلك كله رأي العين، ولو كنّا نعلم بأنه سيسرق وسيحصل ما حصل لما أخذناه معنا. وأمرهم أيضاً أن يقولوا له: إن كنت شاكّاً فيما بلغناك به فأرسل أنت من شئت ليأتوك بشهادة من أهل مصر، واستجوب بنفسك رفاقنا الذين عدنا معهم في القافلة لينبؤوك عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا؛ وإنّا لصادقون كل الصدق فيما أخبرناك به من أنّه سرق وأخذ بسرقته(١).

المطلب الثاني
العبـر والفـوائـد

١ ــ العبر والفوائد من قدومهم لمصر:

* إنّ وصول يوسف عليه السلام إلى مكانة مرموقة في مصر؛ وإلى عيشة طيبة فيها ليدلّنا على حسن عاقبة الصبر، فما مرّت به محنة إلا وصبر عليها وزاد إيمانه بسببها، ومن ثم أخرجه الله منها مخرجاً مباركاً، حتى وصل إلى مرتبة كريمة عند الله وعند الناس... وتلك هي نتيجة الصبر. وكما يقولون: «الصبر مفتاح الفرج». وحقاً هو مفتاحه(٢).

* وكذلك نرى فائدة الإحسان جليّة واضحة في قصّة يوسف عليه السلام ففيها ترغيب بفضيلة الإحسان، وبيان آثارها في نيل سعادة الدنيا والآخرة. وأوّل ما يطالعنا من فوائده ما قاله تعالى: ﴿ولمّا بلغ أشدّه آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين﴾ فيوسف لم يؤت الحكمة والعلم محاباة بل لسابق إحسانه، ولا شكّ أنّ نعمة العلم والحكمة أفضل نعم الحياة على ذوي النفوس الكبيرة ولا تقاس بها نعمة

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٤٨٧؛ مع الأنبياء في القرآن لطبارة ص ١٧٩.
(٢) انظر: مع الأنبياء في القرآن الكريم لعفيف طبارة ص ١٩٢.

المال. وأعطاه الله كذلك السلطة والنفوذ والجاه جزاء إحسانه: ﴿ولقد مكّنّا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين﴾. فهذه الآية وعد من الله بأن من كان محسناً مكّنه الله في الأرض وأصابه برحمته، فليس هذا العطاء مرتبط بذات الشخص إنما بما اتصف به. ولنتأمل قوله تعالى: ﴿ولا نضيع أجر المحسنين﴾ فما أعظم وقعها على النفس، وإنّها لبلسم لأصحاب النفوس السامية المحسنة الصابرة؛ وإنّها لحافزة لهم في الاستمرار في كفاحهم في سبيل الإحسان[1].

* وإنّه لمن تدبير الله العظيم لسير القصة ووصولها إلى ما يريده أن جعل يوسف عليه السلام يعرف أخوته من البداية وجعلهم لا يعرفونه؛ ولو عرفوه لتغيّر مجرى القصة ولحصلت أمور أخرى. وهكذا إذا أراد الله أمراً هيّأ له في كلّ خطوة سبباً موصلاً له. وهذا ما شاهدناه وسنشاهده في مجريات القصة؛ فمهما عزّت الأمور فليس شيء على الله بعزيز، ومهما ذكر المفسرون من تعليلات تسوّغ معرفته لهم وعدم معرفتهم له؛ فلن تكون هي السبب الحقيقي في ذلك خصوصاً وأنّ الآيات تشير إلى أنّهم قد جلسوا معه، وقد استضافهم وتحدّث كلّ منهما مع الآخر ومع ذلك لم يعرفوه؛ بل لم يخطر في بالهم أنّه قد يكون هذا هو يوسف أخوهم. فلنعتبر!!!

* ومن البلاغة القرآنية في الآيات ما يلي:

- قوله: ﴿فعرفهم وهم له منكرون﴾ فيه: طباق بين عرف وأنكر[2].
- وقوله: ﴿ولما جهزهم بجهازهم﴾ فيه: جناس الاشتقاق[3].

٢ ـ العبر والفوائد من عودتهم إلى أبيهم:

* تتجلى لنا عاطفة الأبوّة الحقّة ـ مرة أخرى ـ في شخص يعقوب ـ عليه السلام ـ تجاه بنيامين؛ فإنّه حين طلب منه أبناؤه أن يسمح لهم باصطحاب بنيامين

---

(١) انظر: مع الأنبياء لطبارة ص١٩٢.
(٢) صفوة التفاسير للصابوني ٢/٦٠.
(٣) المرجع السابق ٢/٦٦.

معهم في الرحلة القادمة إلى مصر خاف أن يصيبه مثل ما أصاب يوسف منهم، فأشفق عليه ليصرف عنه السوء المحتمل.

وهكذا ينبغي أن يكون الآباء في حرصهم على أبنائهم بقطع كل الأسباب المؤدية إلى احتمال إصابتهم بسوء؛ إذ أن هذا من واجبات الأبوة المطلوبة.

* إنّ سوء الظنّ مع وجود القرائن الدالّة عليه غير ممنوع ولا محرّم، فإنّ يعقوب قال لأبنائه بعد ما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عالجوه أشدّ المعالجة، ثم قال لهم بعد ما أتوه وزعموا أنّ الذئب أكله: ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾، وهنا قال لهم في بنيامين: ﴿هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل﴾، ثم لما احتبسه يوسف عنده وجاء إخوته لأبيهم معتذرين قال لهم: ﴿بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً﴾ فهم في الأخيرة هذه وإن لم يكونوا مفرّطين فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن قال ما قال من غير إثم ولا حرج[1].

* إن للإيمان بالله والثقة واليقين به أكبر الأثر في النفس البشرية؛ إذ بذلك يكون لها العزاء عند حلول المصائب والحوادث، وتكون لها الطمأنينة والرّضا عندها أيضاً، وبها يشمخ المؤمن إلى قمّة الإيمان، فهذا يعقوب عليه السلام نشهد موقفه الإيماني العميق بلطف العناية الإلّهية، وبالثقة بما يقدّره الله وباليقين بأن ما سيكون هو الخير من الله، وإنا لنشهد ذلك في قوله ــ عند طلب أبنائه أخذ بنيامين معهم وهو لا يريد ذلك ولكنه مضطر لحاجتهم إلى الميرة ــ: ﴿فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين﴾[2].

* وفي وصية يعقوب لأبنائه بقوله: ﴿يا بَنيّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ نرى ــ أيضاً ــ حرصه وشفقته عليهم من أن يصيبهم شر وسوء من أعين الناس.

ونستدل من هنا على أنّ استعمال الأسباب الدافعة للعين وغيرها من المكاره، أو الرافعة لها بعد نزولها جائز؛ وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء الله وقدره، فإنّ الأسباب أيضاً من قضاء الله وقدره.

---

(١) تفسير الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ٤/ ٧٩.

(٢) انظر: مع الأنبياء في القرآن الكريم لطبارة ص ١٨٧.

ومما لا شك فيه أنّ العين حقّ وقد ثبت ذلك عن نبينا محمد ﷺ، فروي عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: «أمرني رسول الله ﷺ أو أمر أن يسترقى من العين»[1].

وعن أمّ سلمة ــ رضي الله عنها ــ أن النبي ﷺ رأى في بيتها جارية في وجهها سفعة (صفرة) فقال: «استرقوا لها فإن بها النظرة»[2].

وقد قال النبي ﷺ: «العين حقّ...» الحديث[3]، وفي صحيح مسلم ــ أيضاً ــ قوله ﷺ: «العين حق ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين»[4].

وعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ أنها قالت: كان إذا اشتكى رسول الله ﷺ رقاه جبريل فقال: «باسم الله يبريك ومن كل داء يشفيك ومن شر حاسد إذا حسد وشرّ كلّ ذي عين»[5].

فما ذكرناه من هذه الأحاديث الشريفة يدلّنا على أن العين حقّ، ومن ثم فإنه لا بد أن يأخذ الإنسان بالأسباب التي تدفعها أو تفسدها، كما روي عن ابن عباس قال:

كان النبي ﷺ يعوّذ الحسن والحسين ويقول: «إنّ أباكما كان يعوذ بهما إسماعيل وإسحاق، أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامّة»[6].

وقد أوصى ﷺ العائن أن يتوضأ ثم يغسل من وضوئه المعين الذي أصيب بالعين. إلى غير ذلك ممّا يكون سبباً دافعاً أو مفسداً للإصابة بالعين[7]، فعلى الآباء أن يستفيدوا من هذا الهدي النبوي ويأخذوا بكل الأسباب التي تبعد العين عن أبنائهم، أو التي تدفعها بعد حلولها وإصابتها وليتوكلوا على الله في ذلك.

---

(١) رواه البخاري: كتاب الطب، باب رقية العين، حديث (٥٣).
(٢) رواه البخاري: كتاب الطب، باب رقية العين، حديث (٥٤).
(٣) رواه البخاري: كتاب الطب، باب العين حق، حديث (٥٥).
(٤) رواه مسلم: كتاب السلام، حديث (٤٠).
(٥) رواه مسلم: كتاب السلام، حديث (٣٧).
(٦) رواه البخاري: كتاب الأنبياء، حديث (١٧٣).
(٧) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ١٨/ ١٧٠ ــ ١٧٣.

* إنّ التوكّل على الله يورث المؤمن الراحة والطمأنينة والرضا بما يكتبه الله، والتوكل ـ بلا شكّ ـ هو صفة عباد الله الصادقين في إيمانهم؛ فهذا يعقوب ـ عليه السلام ـ نراه في صورة المتوكل بالله، فإنه بعد وصيته لأبنائه بأن يدخلوا من أبواب متفرقة قال لهم: ﴿وما أغني عنكم من الله من شيء﴾، وإنّ حيطته واحتراسه لا تنافي قوله هذا، فتجعل هذه الوصية كل الطمأنينة في نفسه، بحيث إنّه وإن أصاب أولاده شيء فإنه لا يتحسر ولا يندم القيامة بالواجب وأخذه بالأسباب وتوكّله على الله أولاً وأخيراً.

وهذا ما ينبغي أن تكون عليه حالة المؤمن في أخذه بالأسباب ثم ربطها بخالقها سبحانه والتوكّل عليه حقّ التوكّل.

وبمناسبة ذكرنا للتوكل فإنه يجدر بنا أن نبيّن بعض الحقائق عنه لأهميته العظمى فنقول: إنّ التوكل يعتبر نصف الدين، والنصف الثاني: الإنابة؛ فالدين استعانة وعبادة، والتوكل هو الاستعانة والإنابة هي العبادة. بل هو محض العبودية وخالص التوحيد.

وللتوكل درجات:

أولها ـ معرفة بالرب وصفاته: من قدرته وكفايته وقيوميته، وانتهاء الأمور إلى علمه وصدورها عن مشيئته وقدرته. وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل.

ثانيها ـ إثبات في الأسباب والمسببات: فالتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب ويندفع بها المكروه. فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل. ولكن من تمام التوكل: عدم الركون إلى الأسباب، وقطع العلاقة بها فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها؛ فالأسباب محلّ حكمة الله وأمره ودينه. والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره. فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل. ولا يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية، بل إن التجرد من الأسباب جملة ممتنع عقلاً وشرعاً وحسّاً.

وما أخلّ رسول الله ﷺ بشيء من الأسباب وقد ظاهر بين درعين يوم أحد،

ولم يحضر الصف قط عرياناً، واستأجر دليلاً مشركاً على دين قومه يدلّه على طريق الهجرة. . . إلخ، وجميع أصحابه كانوا كذلك وهم أولوا التوكل حقاً، وأكمل المتوكلين بعدهم: هو من اشتمّ رائحة توكّلهم من مسيرة بعيدة أو لحق أثراً من غبارهم.

ثالثها ــ رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل؛ فإنه لا يستقيم توكّل العبد حتى يصحّ له توحيده، وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه؛ فنقص من توكله بقدر ذهاب تلك الشعبة، ومن ههنا ظنّ من ظنّ أنّ التوكل لا يصحّ إلا برفض الأسباب، وهذا حق، لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح، فالتوكّل لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلب وتعلّق الجوارح بها فيكون منقطعاً منها متصلاً بها.

رابعها ــ اعتماد القلب على الله، واستناده وسكونه إليه بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب، ولا سكون إليها، بل يخلع السكون إليها من قلبه ويلبسه السكون إلى مسببها.

خامسها ــ حسن الظنّ بالله. فعلى قدر حسن ظنّه بالله ورجائه له يكون توكله عليه، ولذلك فسّر بعضهم التوكل بحسن الظنّ بالله. والتحقيق: أنّ حسن الظن به يدعوه إلى التوكّل عليه؛ إذ لا يتصوّر التوكل على من ساء الظنّ به، ولا التوكّل على من لا يرجى.

سادسها ــ استسلام القلب له، وانجذاب دواعيه كلّها إليه، وقطع منازعاته، وهذا معنى قول بعضهم: التوكل إسقاط التدبير. يعني الاستسلام لتدبير الله لك وهذا في غير باب الأمر والنهي بل فيما يفعله بك لا فيما أمرك بفعله. فإن توكل العبد هذا التوكل: أورثه علماً بأنه لا يملك قبل عمله استطاعة ويعود لا يأمن مكر الله، فاستطاعته بيد الله لا بيده. فهو مالكها دونه. فإنه إن لم يعطه الاستطاعة فهو عاجز، فهو لا يتحرك إلا بالله، لا بنفسه. فكيف يأمن المكر، وهو محرّك لا محرِك؟ يحركه من حركته بيده. . .

سابعها ــ التفويض: وهو روح التوكل ولبّه وحقيقته. وهو إلقاء أموره كلها إلى

الله، وإنزالها بـه طلباً واختياراً لا كرهاً واضطراراً. بل كتفـويض الابن العاجـز الضعيف المغلوب على أمره كل أموره إلى أبيه العالم بشفقته عليه ورحمته وتمـام كفايتـه وحسن ولايته لـه وتدبيره لـه. فهو يـرى أنّ تدبيـر أبيه لـه خيـر من تدبيـره لنفسه ــ ولله المثـل الأعلى ــ، والمفوّض لا يفوّض أمره إلى الله إلاّ لإرادته أن يقضي له ما هو خير له في معاشه ومعاده، وإن كان المقضي لـه خلاف ما يظنّه خيراً فهو راض بـه؛ لأنه يعلم أنّه خير لـه وإن خفيت عليه جهة المصلحة فيه، فـلا يستقيم مقام التـوكل إلا بـالتفويض، فـإنه إذا فوّض أمره إليه اعتمد بقلبه كله عليه بعد تفويضه.

وثامنها (آخرها) ــ الرضا بمـا يفعله وكيله سبحانـه: فإنـه إذا توكـل حقّ التوكـل رضي بمـا يفعله وكيله. وباستكمـال هذه الـدرجات الثمـان يستكمل العبـد مقام التـوكل وتثبت قـدمه فيـه. وهذا معنى قـول بشر الحـافي: يقـول أحـدهم: تـوكلت على الله، يكذب على الله. لو توكل على الله لرضي بما يفعله الله بـه[1].

* ومن البـلاغة القـرآنية في قـوله تعـالى: ﴿لا تدخلوا من بـاب واحـد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ ما يلي:

ــ الإطناب: وهو زيادة اللفظ على المعنى. وفائدته: تمكين المعنى من النفس؛ إذ أنّه كان يكفي في كلامه أن يقول: لا تدخلوا من باب واحد دون بقية كلامه[2].

ــ طباق السلب: بين قوله: (لا تدخلوا ــ وادخلوا)[3].

٣ ــ العبر والفوائد من رجوعهم إلى يوسف ثانية واحتجازه بنيامين:

* في قوله تعالى: ﴿. . . ولمن جاء بـه حمل بعير وأنا بـه زعيم﴾ حكمان:

الأول: جـواز الجعـل. وقـد أجيـز للضـرورة؛ إذ أنّـه يجـوز فيـه من الجهـالـة

(١) انـظر: مـدارج السـالكين لابن قيم الجوزيـة ٢/١١٣ ــ ١٢٣؛ تهـذيب المـدارج للعـزي ص ٣٣٦ ــ ٣٤٢.

(٢) صفوة التفاسير للصابوني ٢/٦٠.

(٣) المرجع السابق ٢/٦٠. وطباق السلب: هو أن يجمع بين فعلي مصدر واحد مثبت ومنفي أو أمر ونهي. (انظر: أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، راجعه وأشرف على تصحيحه: أبو الوفا مصطفى المراغي، الطبعة الخامسة (القاهرة: المكتبة المحمودية التجارية) ص ٣٣١).

ما لا يجوز في غيره. فإذا قال الرجل: من فعل كذا فله كذا صح. وشأن الجعل أن يكون أحد الطرفين معلوماً والآخر مجهولاً للضرورة إليه، بخلاف الإجارة فإنه يتقدر فيها العوض والمعوض من الجهتين، وهو من العقود الجائزة التي لا يجوز لأحد فسخه؛ إلا أنّ المجعول له يجوز أن يفسخه قبل الشروع وبعده، إذا رضي بإسقاط حقه. وليس للجاعل أن يفسخه إذا شرع المجعول له في العمل. ولا يشترط في عقد الجعل حضور المتعاقدين كسائر العقود لقوله: ﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾.

الثاني: جواز الكفالة على الرجل، لأن المؤذن الضامن هو غير يوسف عليه السلام[1].

واختلف الفقهاء فيمن تكفل بالنفس أو بالوجه هل يلزمه ضمان المال أم لا؟ فقال الكوفيون: من تكفل بنفس رجل لم يلزمه الحق الذي على المطلوب إن مات، وهو أحد قولي الشافعي في المشهور عنه.

وقال مالك والليث والأوزاعي: إذا تكفل بنفسه وعليه مال فإن لم يأت به غرم المال ويرجع به على المطلوب، فإن اشترط ضمان نفسه أو وجهه وقال لا أضمن المال فلا شيء عليه من المال.

والحجة لمن أوجب غرم المال إن الكفيل قد علم إن المضمون وجهه لا يطلب بدم؛ وإنما يطلب بمال، فإذا ضمنه له ولم يأت به فكأنه فوّته عليه وعزّه منه فلذلك لزمه المال[2].

* ومن قوله تعالى: ﴿كذلك كدنا ليوسف﴾، ومما شاهدناه في الآيات من الحيل التي قام بها يوسف عليه السلام يستدل على جواز التوصل إلى الأغراض والحقوق بالمكايد والحيل التي لا تخالف شريعة ولا تهدم أصلاً من الأصول[3].

ويستدل كذلك: أنّ العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩/٢٣٢.
(٢) انظر: المرجع السابق ٩/٢٣٢.
(٣) انظر: المرجع السابق ٩/٢٣٦.

العبد؛ لأنّ الله مدح يوسف فقال: ﴿نرفع درجات من نشاء...﴾ الآية، وإنّما الممنوع هو التحايل على إسقاط واجب أو فعل محرم[1].

* ويستفاد من تحايل يوسف ـ أيضاً ـ أنّه ينبغي لمن أراد أن يوهم غيره بأمر لا يحبّ أن يطلع عليه أن يستعمل المعاريض القولية والفعلية المانعة من الكذب، كما فعل يوسف حيث ألقى الصواع في رحل أخيه ثم استخرجها منه موهماً أنّه سارق وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته، وقال بعد ذلك: ﴿معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده﴾ ولم يقل: من سرق متاعنا، وكذلك لم يقل: إنّا وجدنا متاعنا عنده، بل أتى بكلام عام يصلح له ولغيره. وليس في ذلك محذور وإنما فيه إيهام أنّه سارق ليحصل المقصود الحاضر وأن يبقى عنده أخوه، وقد زال عن الأخ هذا الإيهام بعدما تبينت له الحال[2].

* ونلاحظ أنّ الله سبحانه حين مدح يوسف بما آتاه من علم فقال: ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ لم يكتف بذلك ولكن اتبع هذا المدح بقوله: ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾؛ حتى لا يظنّ أحد أنه وصل للعلم كله، بل كل إنسان مهما بلغ من العلم فإنّ هناك من هو أعلى درجة في العلم منه حتى ينتهي الأمر إلى الله سبحانه وتعالى وهو العليم بكل شيء سبحانه وتعالى.

وفي هذا إشارة إلى كل عالم بأن لا يغتر بما لديه من علم، وليعلم إنّما ذلك العلم هو هبة من الله له ونعمة يمنّها عليه وأنّ هناك الكثير الكثير ممن هو أعلم منه، فليتواضع وليتخلق بخلق العلماء المؤمنين الصادقين، وإلا فإن غرور العلم أهلك كل مغترّ؛ ومن قال قد علم فقد جهل.

* ومن البلاغة القرآنية في الآيات ما يلي:

ـ في قوله: ﴿وأذّن مؤذّن﴾ جناس الاشتقاق[3].

ـ في قوله: ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ مجاز؛ لأن الفوقية هنا المراد بها شرف

---

(١) انظر: تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ٤/٧٩ ـ ٨٠.

(٢) تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ٤/٨٠.

(٣) صفوة التفاسير للصابوني ٢/٦٦.

الحال وشرف الحال يشبه الارتفاع[1].

٤ ـ العبر والفوائد من استعطافهم ليوسف:

* إنّ فيما عزموا عليه لإنقاذ أخيهم من حكم الاسترقاق الذي قضي به عليه؛ ما يدلنا على حسن طويتهم ووفائهم بوعدهم، وما يعرب عن أمانتهم وصدقهم وبرهم وشدة تمسكهم بموثق أبيهم محافظة على رضاه وإكرامه وهذه الأمور تعطينا فكرة جديدة وهي أنّ إخوة يوسف قد صلح حالهم عما كانوا عليه من قبل، ولعلهم قد ندموا على ما قد كان منهم في شأن يوسف واتضح لهم أنّ ذلك كان طيشاً وبعداً عن الصواب ولا يفكر به عاقل[2].

* وفي محاولاتهم العديدة مع يوسف لترك بنيامين إرضاء لوالدهم وخوفاً من إدخال الحزن عليه: إرشاد للأبناء أن يسعوا في حياتهم جاهدين باذلين ما يستطيعون في سبيل إرضاء آبائهم؛ فإن رضا الوالدين من رضا الله سبحانه كما هو معلوم[3].

* ومن قولهم في استعطاف يوسف: ﴿إنّ له أباً شيخاً كبيراً﴾ استفاد البعض على أنّ للكبير حقاً واحتراماً خاصاً يتوسل به، كما توسلوا هنا بكبر يعقوب، وقد ورد في الاستسقاء إخراج الشيوخ مما يدلّ على خصوصية لحقّهم ومنزلتهم[4].

* وفي تشاورهم فيما يقولون لأبيهم عن ابنه بنيامين، ومن ثم اتفاقهم على أن يقولوا له الصدق دونما أيّة حيلة أخرى، وكذلك في قول كبيرهم: إنه سيمكث في مصر حتى يأذن له أبوه أو يحكم الله له؛ ما يدل ـ أيضاً ـ على ما ذكرناه آنفاً من حسن طويتهم وصدقهم وصلاح حالهم عن ذي قبل.

وما أجمل أن يرجع الأبناء إلى رضا آبائهم بعد عقوق، وإلى طاعة الله بعد معصيته وإلى حسن سريرتهم بعد سوئها، فذلك أمر مفروض ومحبب إلى النفوس ومُقِرّ للعيون. وما أعظم فرحة الآباء عند اهتداء أبنائهم!!

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٣٣/١٣.

(٢) انظر: محاسن التأويل للقاسمي ٢٦١/٩.

(٣) انظر: المرجع السابق ٢٦١/٩.

(٤) انظر: المرجع السابق ٢٦١/٩.

وإنّي لأتصوّر أنّ في أسلوب يعقوب ـ عليه السلام ـ الحكيم معهم سبباً في رجوعهم إلى الجادة؛ فإنه لو نهرهم بشدة أو هجرهم أو طردهم أو أساء إليهم منذ تفريطهم في يوسف وما فعلوا به فقد يؤدي ذلك إلى عنادهم ومكابرتهم وزيادة عقوقهم له، ولكنه تحلّى بالصبر وحلم عليهم تربية لهم وأملاً في صلاحهم وقد كان ما أراد والحمد لله.

ومن هنا نستفيد فائدة أخرى وهي أنّ على الآباء أن يتّخذوا طريق الحكمة في معالجة أخطاء أبنائهم وأن لا يتسرّعوا في تصرفاتهم وعلاجهم حتى لا يخسروا أبناءهم. والله أعلم.

* ومن الفقه في الآيات ما يلي:

ـ إنّ في إخبارهم الحقيقة لأبيهم وقولهم: ﴿وما شهدنا إلّا بما علمنا﴾ دليل على جواز الشهادة بأيّ وجه حصل العلم بها؛ فإن الشهادة مرتبطة بالعلم عقلاً وشرعاً، فلا تُسمع إلا ممن علم، ولا تقبل إلا منهم. وهذا هو الأصل في الشهادات[1].

وبالتالي فإنه لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه وتحققه مشاهدة أو خبر من يثق به وتطمئن النفس لقولهم[2].

ـ ومن قولهم: ﴿واسأل القرية التي كنّا فيها والعير التي أقبلنا فيها...﴾ لتأكيد صدقهم ونفي تهمة الكذب عنهم استنبط القرطبي فائدة فقال: في هذه الآية من الفقه: أنّ كل من كان على حقّ، وعلم أنه قد يظنّ به أنه على خلاف ما هو عليه أو يتوهم ذلك؛ أن يرفع التهمة وكل ريبة عن نفسه، ويصرح بالحق الذي هو عليه حتى لا يبقى لأحد متكلم، وقد فعل هذا نبينا محمد ﷺ بقوله للرجلين اللذين مرّا وهو قد خرج مع صفية يقلبها (يردها) من المسجد: «على رسلكما إنّما هي صفيّة بنت حيي» فقالا: سبحان الله! وكبر عليهما فقال ﷺ: «إنّ الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً» وفي رواية: «...يجري من ابن

(١) انظر: تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ٩/٢٤٥.
(٢) انظر: تفسير عبد الرحمن السعدي ٤/٨٠.

آدم مجرى الدم . . . » الحديث[1] .

* ومن البلاغة القرآنية في الآيات ما يلي :

– قوله : ﴿فأسرّها ــ ولم يبدها﴾ بينهما طباق[2] .

– قوله : ﴿شيخاً كبيراً﴾ فيه إطناب للاستعطاف[3] .

– قوله : ﴿واسأل القرية﴾ فيه مجاز مرسل علاقته المحلية، والمراد: واسأل أهل القرية[4] .

– قوله : ﴿فلما استيئسوا منه خلصوا نجياً﴾ يقول القاسمي في تفسيره لهذه الآية: «ذكر القاضي عياض في (الشفاء) في بحث إعجاز القرآن: أنّ أعرابياً سمع رجلاً يقرأ (فلما استيئسوا خلصوا نجياً)، فقال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام. وقال الثعالبي في كتابه (الإيجاز والإعجاز) في الباب الأول: من أراد أن يعرف جوامع الكلم ويتنبه لفضل الاختصار ويحيط ببلاغة الإيماء، ويفطن لكناية الإعجاز فليتدبر القرآن وليتأمل علوّه على سائر الكلام فمن ذلك قوله: ﴿فلما استيئسوا منه خلصوا نجياً﴾ وهذه صفة اعتزالهم جميع الناس وتقليبهم الآراء ظهراً لبطن وأخذهم في تزوير ما يلقون به أباهم عند عودهم إليه، وما يوردون عليه من ذكر الحادث، فتضمّنت تلك الكلمات القصيرة معاني القصة الطويلة»[5] .

* * *

---

(١) تفسير القرطبي ٩/٢٤٦، والحديث رواه البخاري: كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، الحديثان (١٤٢، ١٤٣) ٣/١٠٧ ــ ١٠٨ .

(٢) صفوة التفاسير للصابوني ٢/٦٦ .

(٣) المرجع السابق ٢/٦٦ .

(٤) انظر: المرجع السابق ٢/٦٦ .

(٥) محاسن التأويل للقاسمي ٩/٢٦٢ ــ ٢٦٣ .

المبحث الثالث

اجتماع الشَّمل

المطلب الأول

بيان القصة

وتقترب القصة من نهايتها ويقرب معها اجتماع الشمل بعد التفرق والشتات، وبيان هذه النهاية الجميلة كما يلي:

١ ــ أمر يعقوب لأبنائه بالبحث عن يوسف وأخيه:

رجع بقية الأبناء من مصر إلى أبيهم فقصّوا عليه ما حدث لهم، فاتّهمهم وظنّ أنَّها كفعلتهم بيوسف وقال لهم: (بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل) ثم ترجّى من الله أن يردّ عليه أبناءه الثلاثة: يوسف وبنيامين وابنه الأكبر (روبيل) الذي أقام في مصر ينتظر أمر الله فيه، ويظهر لنا رجاؤه هذا في قوله: ﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنَّه هو العليم الحكيم﴾[1].

ويتجدد الحزن على يوسف، ويعرض الأب عن أبنائه: (وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف) أي يا أسفاً تعال فهذا أوانك. والأسف هو أشد الحزن والحسرة وهو يشبه قوله: يا حسرتاه ويا مصيبتاه. وإنَّما تأسّف على يوسف دون أخويه والحادث رزؤهما؛ لأنّ رزأه كان قاعدة المصائب، وكان غضاً آخذاً بمجامع قلبه، ولأنه كان واثقاً بحياتهما دون حياته[2].

ويضيف الفخر الرازي وجهين آخرين غير ما ذكر:

---

(١) سورة يوسف: الآية ٨٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٤٨٧؛ تفسير البيضاوي ٣/١٤١.

أولهما: إنّ الحزن الجديد يقوي الحزن القديم الكامن. والقدح إذا وقع على القدح كان أوجع. ومن ذلك ما قاله متمم بن نويرة:

وقد لامني عند القبور على البكا رفيقي لتذارف الدموع السوافك

فقال أتبكي كل قبر رأيته لقبر ثوى بين اللوى والدكادك

فقلت له إنّ الأسى يبعث الأسى فدعني فهذا كله قبر مالك

وذلك لأنه إذا رأى قبراً تجدّد حزنه على أخيه مالك، فلاموه، فأجاب بأن الأسى يبعث الأسى.

وثانيهما: قوله: إن بنيامين ويوسف كانا من أمٍّ واحدةٍ، وكانت المشابهة بينهما في الصورة والصفة أكمل، فكان يعقوب يتسلّى برؤيته عن رؤية يوسف، فلمّا وقع زال ما يوجب السلوة فعظم الألم والوجد[١].

ويصف الله حاله التي بلغها آنذاك نتيجة شدّة حزنه: ﴿... وابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم﴾[٢].

يقول القرطبي: قال مقاتل: لم يبصر بعينيه مدّة ست سنين وأنّه عمي، وقيل: قد تبيض العين ويبقى شيء من الرؤية[٣]. والعلّة التي من أجلها ابيضّت عيناه نتيجة الحزن يبينها لنا العلم، ومن ذلك ما يقوله صاحب التحرير والتنوير: (إنّ الحزن قد يسبب عدم الإبصار؛ فإن توالي إحساس الحزن على الدماغ قد يفضي إلى تعطيل عمل الأبصار)[٤].

ومن ناحية أخرى يقول عفيف طبّارة: (ينشأ عن الحزن العميق حالة نفسية يزداد بسببها الضغط على العينين، وتحدث الجلوكوما أو ما يسمى بالمياه الزرقاء، فيزول صفاء القرنية وبريقها ويضعف البصر شيئاً فشيئاً حتى يزول نهائياً وتبدو العين بيضاء)[٥].

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٨/١٩٢ ـ ١٩٣.

(٢) سورة يوسف: الآية ٨٤.

(٣) تفسير القرطبي ٩/٢٥٢.

(٤) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٣/٤٣.

(٥) مع الأنبياء في القرآن الكريم لعفيف طبارة ص ١٨٢.

- ﴿وهو كظيم﴾ أي هو طوال هذه الفترة ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق، ممسك حزنه فلا يظهره لأحد(١)، وقيل معناه: إنَّه مملوء من الغيظ على أبنائه ممسك له في قلبه لا يظهر لهم ما يسوؤهم(٢)، وذلك من صبره وحلمه عليه السلام وهذا على حدّ قوله تعالى: ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس﴾ ([آل عمران: ١٣٤]).

- وعند ذلك رقّ له بنوه وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه: ﴿تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين﴾(٣)، أي لا تفارق ذكر يوسف حتى ينتهي بك حالك إلى ضعف قوتك أو تهلك وتتلف وتموت.

فأجابهم إجابةً تنمّ عن تفويض أمره وما هو فيه من الشدّه إلى الله سبحانه الذي بيده كل شيء: ﴿قال إنَّما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾(٤)، فهو لا يشكوهم فيطلب السلوى منهم والإعانة على ذلك إنَّما يشكو الله ويطلب منه العون والرحمة والرأفة بحاله.. يشكو بثه وهو الهم الشديد الصعب الذي لا يقدر الصبر عليه أحد فينشره عند الناس(٥)، ولكن بثّه عليه السلام لا ينشره لأحد سوى الله سبحانه.

أمَّا قوله: ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ بمعنى أنّه يرجو عليه السلام من الله كل خير، وهو يعلم من الله ما لم يعلم أبناؤه. يقول ابن عبّاس: يعني رؤيا يوسف التي أخبره عنها في صغره وأنها صدق والله لا بدّ وأن يظهرها.

فهو إذاً بكلامه هذا يُشعِر بأن لديه أملاً في رجوع يوسف وكذلك بنيامين لعلمه بصدق الرؤيا ووجوب تحقيقها وأن ذلك كائن بإذن الله، وهذا ما نلمحه أيضاً من قوله السابق: (عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً). وقد قال البعض: إنَّ الله أوحى إلى يعقوب أنَّ يوسف على قيد الحياة.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٢/٤٨٧؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ١٨/١٩٦.
(٢) انظر: تفسير البيضاوي ٣/١٤١.
(٣) سورة يوسف: الآية ٨٥.
(٤) سورة يوسف: الآية ٨٦.
(٥) انظر: تفسير البيضاوي ٣/١٤١؛ تفسير أبي السعود ٤/٣٠٢.

وأقول: إنَّ هذا الكلام يحتاج إلى سند صحيح بذلك، كما أن الإيحاء إلى يعقوب وإعلامه بذلك أمر ممكن لكن الابتلاء لن يتحقق، وكذلك فإن حالة يعقوب تشير إلى أنّه لم يوح إليه؛ إذ لو أوحي إليه لكان فرحاً شديد الفرح ولأعلمهم بمكانه وأرسلهم إليه مباشرةً. والله أعلم.

ولهذا الأمل الموجود في نفس يعقوب أمر أبناءه بالبحث عن يوسف عليه السلام وأخيه، فقال لهم: ﴿يا بنيّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روْح الله إنه لا ييأس من روح الله إلاَّ القوم الكافرون﴾(١). وما توجيهه هذا إليهم إلاَّ لعلمه بصدق حالهم وصلاحهم؛ فهو استعان بهم هنا ولم يستعن بهم آنذاك عند فقد يوسف.

إنَّه طلب منهم أن يستعلموا أخبار يوسف وأخيه. والتحسس: يكون في الخير، بخلاف التجسس فإنَّه يكون في الشر. كما أنَّه حثّهم على القيام بطلبه ونعّضهم وبشّرهم وأوصاهم بأن لا ييأسوا من روح الله، بمعنى: أن لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يقصدونه ولا يقنطوا من رحمته.

وروح الله: فرجه وتنفيسه، ورحمته التي يحييٰ بها العباد؛ فإنَّه لا يقنط ويترك الأمل في الله إلاَّ من جحده وكفر به سبحانه(٢).

٢ ـ تعرّف الأخوة على يوسف:

استجاب الأبناء لطلب أبيهم في البحث عن يوسف وبنيامين، وذهبوا إلى مصر فدخلوا على يوسف في ديوانه وبدؤا في شرح حالهم استعطافاً له في سبيل إخلاء سراح أخيهم بنيامين، فمهدوا لطلبهم هذا بالاستعطاف عسى أن يحملوه على ما يريدون:

﴿فلمَّا دخلوا عليه قالوا يا أيّها العزيز مسّنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوفِ لنا الكيل وتصدّق علينا إنَّ الله يجزي المتصدقين﴾(٣).

ومعنى كلامهم هذا: أنّهم يشكون إليه ما أصابهم من الجدب والقحط وقلة

---

(١) سورة يوسف: الآية ٨٧.

(٢) انظر: تفسير البيضاوي ٣/١٤١؛ تفسير ابن كثير ٢/٤٨٨.

(٣) سورة يوسف: الآية ٨٨.

الطعام، وفوق ذلك أنَّهم جاؤوا إليه بثمن قليل ليمتاروا بـه وهـذا كناية عن حالة الفقر التي يعيشونها وشظف العيش ﴿وجئنا ببضاعة مزجاة﴾ والإجزاء في اللغة: الدفع قليلاً قليلاً ومثله التزجية يقال: الريح يزجي السحاب ﴿ألم ترَ أنَّ الله يزجي سحاباً. . .﴾ والمعنى: أنّها بضاعة رديئة أو قليلة تردّ وتدفع رغبة عنها. ومع هذه البضاعة الرديئة يرجون منه أن يوف لهم الكيل كما كان يعطيهم قبل ذلك بالبضاعة الحسنة.

وقولهم: ﴿وتصدَّق علينا﴾ أي بردِّ أخينا، وإنَّما سمّوا رد أخيهم تصدقاً تواضعاً.

وقيل: أي بالمسامحة وقبول المزجاة أو بالزيادة على ما يساويها.

ثمَّ حثّوه على هذا العمل بقولهم: إنَّ الله يثيب المتصدقين بأحسن الثواب[1].

وفي هذه اللحظات يأذن الله عزّ وجلّ بأن يفصح يوسف عن نفسه وأن يعرف نفسه إليهم فيقال: إنَّه رفع التاج عن جبهته وكان فيها شامة بيضاء وكانت لسارة ويعقوب مثلها وقال لهم: ﴿قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون﴾[2].

واستفهامه هنا بمعنى التذكير والتوبيخ، وهو الذي قال الله له حين أوحى إليه في البئر: ﴿لتنبئنّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ وكأنه يقول لهم: هل تذكرون أنَّكم شردتم يوسف عن أبيه وألقيتموه في غيابت الجبّ؟ وأمَّا بنيامين فقد أحزنتم قلبه على فقد شقيقه وسلبتم منه لذّة الحياة حتَّى صار شريكه في هذا المصاب، وحالكم آنذاك حال الجاهلين، فما حملكم على ذلك إلَّا الجهل. كما قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل ويوضحه قوله تعالى: ﴿ثم إنَّ ربَّك للذين عملوا السوء بجهالة. . .﴾[3] الآية [النحل: ١١٩].

وسمع الإخوة كلام يوسف فأمعنوا فكرهم في مغزى خطابه ودقّقوا نظرهم في ملامح وجهه ورنّة صوته، فانتقلوا من حال الإنكار له إلى حال الشك في أنّه يوسف:

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٢/٤٨٨ ـ ٤٨٩؛ تفسير البيضاوي ٣/١٤١؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ١٨/٢٠١؛ تفسير أبي السعود ٤/٣٠٣.

(٢) سورة يوسف: الآية ٨٩.

(٣) انظر: تفسير القرطبي ٩/٢٥٥.

(قالوا أإنك[1] لأنت يوسف)؟!! فضمّ يوسف أخاه إليه وأجابهم: (قال أنا يـوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا إنَّه من يتق ويصبر[2] فإنَّ الله لا يضيـع أجر المحسنين)[3].

واستفهـامهم (أإنـك لأنت يـوسف) يـدلّ على الاستعـظام. أي أنهم تعجّبـوا من ذلك؛ فهم يترددون إليه من سنتين أو أكثر ولم يعرفوه وهـو يعرفهم ويكتم نفسـه! ثم إنَّ قوله مجيباً لهم: (قد منّ الله علينا) يريد جمـع الله بينه وبين أخيـه بعد التفـرقة والمـدة الطويلة وهو في هذه المكانة الرفيعة.

ولم يفته عليه السلام أن يقرر لهم أن هذا نتيجة التقوى والصبر.

فحين ذلـك قـالـوا لـه معتـرفين لـه بـالفضـل والأثــرة عليهم في الخَلْق والخُلُق والسعة والملك والتصرّف والنبـوّة أيضاً. وأقـرّوا لـه بأنَّهم قـد أساؤوا إليـه وأخطأوا في حقّه: ﴿قالوا تاللَّهِ لقـد آثرك الله علينـا وإن كنَّا لخـاطئين﴾[4] وفي كلامهم هـذا إشعار بتوبتهم واستغفارهم، فما لبث يوسف عليه السلام ـ بعدما سمـع كلامهم وشهد صدق حـالهم وصـلاح أمـرهم وعـودتهم عن الخـطأ ـ إلاَّ أن سـامحهم وعفـا عنهم: ﴿قـال لا تثـريب عليكم اليوم يغفـر الله لكم وهو أرحم الـراحمين﴾[5]. أي لا تأنيب ولا عتب عليكم بعد اليوم ولن أعيد عليكم ذكر ذنبكم في حقي بعد اليوم.

والتثـريب: أصله من الثرب وهـو الشحم الذي يغشى الكـرش للإزالة، كـالتجليد وهو إزالة الجلد، فاستعير للتقريـع الذي يمزّق العرض ويذهب ماء الوجه.

ثم زادهم عفواً بأن دعا لهم بالمغفرة كما هو مذكور في نهاية الآيـة[6].

---

(١) قرأ ابن كثير وورش (إنك) بكسر الألف على الخبر، وقرأ نـافـع وأبو عمـرو (آانك) بـالاستفهام بهمـزة مطوّلـة، وقرأ القـاضي عن قالـون: (أنّك) بهمـزة واحدة من غيـر مدّ، وقـرأ أهل الشـام والكوفة (أءنَّك) بهمزتين على الأصل (حجّة القراءات لابن زنجلة ص ٣٦٣).

(٢) قرأ ابن كثير: (من يتقي ويصبـر) بإثبـات الياء، وقـرأ الباقـون بغير يـاء مجزومـاً بالشـرط [حجة القراءات لابن زنجلة ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥].

(٣) سورة يوسف: الآية ٩٠.

(٤) سورة يوسف: الآية ٩١.

(٥) سورة يوسف: الآية ٩٢.

(٦) انظر: التفسير الكبير للفخر الـرازي ١٨/٢٠٥؛ تفسير البيضـاوي ٣/١٤٢؛ تفسير أبـي السعـود ٤/٣٠٤.

وكـل ما سبق إنَّمـا هو بـأمر الله ـ كمـا ذكرنـا من قبـل ـ فهـو عـرّف بنفسـه هنـا ولم يعرّف من ذي قبل بأمر الله. فلمَّا ضاق الحال واشتدّ الأمر فرّج الله من ذلك الضيق ويسّر ﴿إنَّ مـع العسر يسراً﴾[1] [سورة الانشراح: ٦].

وبعد أن استفسر يوسف عن والده وعلم أنه قد فقـد بصره لشـدّة حزنـه؛ أعطاهم قميصه وأمرهم أن يطرح على وجهه فإنه سيرتدّ بصره، ودعاهم أن يـأتوا بعـد ذلك إلى مصـر مـع آل يعقوب أجمعين وذلك قوله: ﴿اذهبوا بقميصي هذا فألقـوه على وجه أبـي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين﴾[2] وفي هـذا قال المحققـون: إنَّما عـرف أن إلقاء ذلك القميص على وجهه يوجب قوة البصر بوحي من الله تعالى، ولولا الوحي لما عـرف ذلك لأن العقل لا يدلّ عليه[3].

٣ ـ تلقي يعقوب خبر سلامة يوسف:

لبَّـى الإخـوة ما أمـرهم بـه يوسـف وركبـوا دوابّهم وساروا سيـراً حثيثـاً يقصـدون فلسطين لتبشير أبيهم الذي ينتظر نتائـج البحث الذي كلّفهم بـه.

وحين خرجت القافلة من مصر أخبر يعقـوب من معه من أبنـائه بـأنه يشمّ رائحـة يوسف: ﴿ولمَّا فصلت العير قال أبوهم إنِّي لأجد ريـح يوسف لولا أن تفنّدون﴾[4].

قال ابن عبّاس ـ رضي الله عنهمـا ـ: لمَّا خـرجت العير هـاجت ريـح فجاءت يعقوب بريـح قميص يوسف فقال: إنِّي لأجد ريـح يوسف، وقال: فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام، وروي هذا الكلام من طرق متعددة عنه رضي الله عنه[5].

وهذا الأمر ليس بعزيز ومعجـز على الله، فاللَّه قـادر على ذلك والـريـح جند من جنوده يسخّرها كيف يشاء وبما يشاء سبحانه.

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٤٨٩.
(٢) سورة يوسف: الآية ٩٣.
(٣) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٨/٢٠٦.
(٤) سورة يوسف: الآية ٩٤.
(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٤٨٩.

فكأنَّ يعقوب عليه السلام يقول: إنِّي أشعر برائحة يـوسف تغمرني، ولـولا خشية أن تتهموني في قولي بالخرف لأنبأتكم عن يوسف بأكثر من هذا وهو أنَّه حيّ وقد قـرب موعد لقائه وذلك قوله ﴿لولا أن تفنّدون﴾.

والفند في الأصل هو الكذب. ثم قالوا للشيـخ إذا كبر وهرم: قد أفند لأنه يتكلم بالمحرّف من الكلام عن سنن الصحة وهو خرافة وقال الفـرّاء: يقول لـولا أن تكذبـوني وتعجزوني وتضعفوني. وقال الأصمعي: الفند إذا كثر كلام الـرجل من خـرف، وقيل: إن التنفيد هو اللوم وتضعيف الرأي. ولا منافاة بين الأقوال وكلها تدور حول كلام الفراء[1].

وما كاد يعقوب عليه السلام ينطق بهذه الكلمات التي أحس بحقيقتهـا حتى بادره من حـوله بمـا كان يتـوقعه وهـو لومـه وتضعيف رأيه: ﴿قـالوا تـالله إنَّك لفي ضـلالـك القـديم﴾[2] ونلاحظ في الآيـة أنهم أقسموا بـاللَّه على ذلـك، وهـذا زيـادة في تجهيله وبعده عن الصواب؛ وذلك بأنّه ما زال هائماً في خيـاله بسبب إفـراطه في حبّـه ليوسف ولهجه بذكره على الدوام[3]. قال قتادة: أي من حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه، وقالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوهـا لوالـدهم ولا لنبـيّ الله. وكذا قـال السدّي وغيره[4].

ولكن ما ظنوه خرفاً وضلالاً إنَّما هو صدق وحق؛ وهـا هو ذا البشيـر يأتي يعقـوب بقميص يوسف فيثبت لهم كلامه عليه السـلام: ﴿فلمَّا أن جـاء البشير ألقـاه على وجهه فارتدّ بصيراً قال ألم أقل لكم إنِّي أعلم من الله ما لا تعلمون﴾[5].

وقال مجاهد والسدّي: كان البشير يهوذا بن يعقوب، وقال السدّي: إنَّما جاء بـالقميص لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو ملطّـخ بدم كذب؛ فـأحب أن يغسل ذلـك بهذا فجـاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه فرجـع[6].

(١) لسان العرب لابن منظور ٣/٣٣٨ ـ ٣٣٩.

(٢) سورة يوسف: الآية ٩٥.

(٣) انظر: مـع الأنبياء في القرآن الكريم لطبارة ص ١٨٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٤٩٠.

(٥) سورة يوسف: الآية ٩٦.

(٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٤٩٠.

وعند ذلك قال الأبناء مترفقين بأبيهم معتذرين عمَّا بدر منهم: ﴿قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنَّا كنَّا خاطئين﴾[1]. ومن حق المعترف بالذنب أن يصفح عنه وتسأل له المغفرة، فوعدهم أبوهم بأنَّه سيستغفر لهم وأخر الاستغفار إلى السحر أو إلى صلاة الليل أو إلى ليلة الجمعة تحرياً لوقت الإجابة؛ أو إلى أن يستحل لهم من يوسف ويعلم أنّه عفا عنهم فإنَّ عفو المظلوم شرط المغفرة[2]: ﴿قال سوف أستغفر لكم ربِّي إنَّه هو الغفور الرحيم﴾[3].

٤ ـ تحقق رؤيا يوسف:

وبعد أن عمّت السعادة أرجاء البيت ببشرى حياة يوسف؛ أخذ إخوة يوسف يقصون على أبيهم ما حصل من أمرهم مع يوسف، ومن ثمّ أخبروه بأنه طلب أن يرحلوا إليه جميعهم. فوافق الأب على طلب ابنه وحبيبه الذي طالما انتظر رؤيته واشتاق إلى لقائه، واستعدّ الجميع للارتحال من فلسطين إلى مصر.

ولمَّا أُخْبِرَ يوسف باقترابهم خرج لتلقيهم واستقبالهم، وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لاستقبال نبيّ الله يعقوب عليه السلام، ويقال: إنَّ الملك خرج معهم أيضاً.

وقصّ علينا القرآن الكريم ما حدث عند قدوم يعقوب عليه السلام وآله في الآيتين التاليتين:

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[4].

---

(١) سورة يوسف: الآية ٩٧.

(٢) تفسير البيضاوي ٣/١٤٣.

(٣) سورة يوسف: الآية ٩٨.

(٤) سورة يوسف: الآيتان ٩٩، ١٠٠.

وبيان هاتين الآيتين كما يلي:

الظاهر من الآية الأولى أن يوسف أعدّ مكاناً خارج مصر كخيمة أو غيرها ينتظر فيه أبويه وإخوته وجميع آله؛ ليستقبلهم خير استقبال، فاستقبلهم فيه ولمّا دخل عليه أبواه ضمهما واعتنقهما، وحقّ له ذلك لطول الفرقة وعظم الاشتياق.

ثم طلب منهم أن يقيموا بمصر، وسمّى الإقامة دخولاً لاقتران أحدهما بالآخر. وحثّهم وشجّعهم على الإقامة بأنهم سيجدون كل الأمن فيها ﴿وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾ آمنين على أنفسكم وأموالكم وأهليكم لا تخافون أحداً. وكانوا فيما مضى يخافون ملوك مصر، وقيل: أي آمنين من القحط والشدّة والفاقة[1].

أقول: ولا منافاة بين المعنيين فإنَّ الأمن يشمل ما ذكر فيهما.

ثم سار الركب إلى داخل مصر حتى بلغ منزل يوسف ودار وزارته فدخل الجميع، ثم أجلس يوسف أبويه معه على سريره.

واختلف في المراد بأبويه هنا. حيث قال السدّي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنّما كان أبوه وخالته، وكانت أمّه قد ماتت قديماً.

وقال محمد بن إسحاق وابن جرير الطبري: كان أبوه وأمه يعيشان. وقال ابن جرير: لم يقم دليل على موت أمّه وظاهر القرآن يدلّ على حياتهما. وقال ابن كثير: هذا الذي نصره ابن جرير هو المتصوّر الذي يدلّ عليه السياق[2].

أقول: وما ذهب إليه ابن إسحاق وابن جرير وابن كثير هو الراجح لما ذكروه من علل. والله أعلم.

– وبيّن الله عزّ وجلّ في هذه الآية أن أبويه وإخوته خرّوا له سجّداً: ﴿وخرّوا له سجّداً﴾، والواو ـ كما هو معلوم ـ لا تقتضي الترتيب إنّما هي لمجرد العطف؛ فقد يكون سجودهم له قبل أن يجلس أبويه على سريره، وهذا هو الظاهر والمناسب؛ إذ أنهم حيّوه بهذه التحية وهي السجود له وقد كان هذا السائغ في شريعتهم أنهم إذا

---

(١) انظر: مع الأنبياء في القرآن الكريم لطبارة ص ١٨٥؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ١٨/٢٢١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٤٩٢.

حيّوا الكبير أو صاحب المنزلة سجدوا لـه، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعـة عيسى عليه السلام، ثم حرّم في شريعتنا وجعل السجود مختصاً بجنـاب الرب سبحـانه وتعالى[١].

وفي هـذا الحين أثار هـذا المنظر ـ الـذي يراه يـوسف عيانـاً أمامـه ـ في نفسه ذكرى رؤياه التي رآها في صغره وقصّها على أبيه: ﴿وقال يا أبتِ هذا تأويـل رؤياي من قبل قد جعلها ربـي حقاً. . .﴾ فقد حقّقها الله وجعلها صحيحة وصدقاً.

وقد اختلف المفسرون في الفترة التي بين الرؤيا وتحقيقها فبعضهم قال: ثمانون سنـة، وقال بعضهم غيـر ذلك، والجمهـور على أنَّهـا أربعـون سنـة. وقـول الجمهـور هو الراجـح. يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: (وظاهـر سياق القصـة يرشـد إلى تحديـد المدة تقريباً؛ فإن المرأة راودته وهو شاب ابن سبـع عشرة سنة ـ فيما قاله غير واحـد ـ فامتنـع، فكان في السجن بضـع سنين وهي سـبـع عند عكرمـة وغيره، ثم أخـرج منه فكانت سنوات الخصب وهي سبـع، وتلتها السبـع القحط، فجاءه إخـوته يمتارون في السنة الأولى وحدهم؛ وفي الثانية ومعهم أخوهم بنيامين، وفي الثالثة عرّف نفسه إليهم وأمرهم بإحضار أهليهم أجمعين فجاؤوا إليه)[٢].

وأمام هذه النعمة العظمى وهي اجتماعه بأبيه وأمه وإخوته بدأ عليـه السلام يـذكر نعم الله عليه وعلى أبيه وأمه وإخوته شكراً لله عليها فقال:

﴿وقـد أحسن بـي إذ أخرجني من السجن وجـاء بكم من البدو من بعـد أن نـزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إنَّ ربـي لطيف لما يشاء إنَّه هو العليم الحكيم﴾.

فمن نعم الله عليه أن أخرجه من السجن وأمكنه بعد ذلك في الأرض ـ ولم يذكر نعمة خروجه من الجبّ إكراماً لإخوتـه حيث قال لهم: ﴿لا تثـريب عليكم اليوم﴾ ـ، ومن نعمه أيضاً أن الله أتى بأهله من البادية. قال ابن جرير وغيره: كانوا من أهل بـادية وماشية؛ حيث كانوا يسكنون بالعربات من أرض فلسطين من غور الشام[٣].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٢ / ٤٩١.

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير ١ /٢٢٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢ / ٤٩١.

وذلـك كان من أجـل أن يلتقي في مصر ــ من بعـد أن أفسد الشيـطان بينه وبين إخوته ــ مـع أبيه وإخوتـه، وما كـان هذا كله يتمّ إلاّ بتيسيـر الله وإرادته فهـو سبحانـه رفيق بعباده وهو المحيط علماً بكل شيء الحكيم في تصرفاته.

ويقول الفخر الرازي ــ أيضاً ــ حول قولـه: ﴿إنَّ ربِّـي لطيف لمـا يشاء﴾: (أي أن حصول الاجتماع بين يوسف وأبويه وإخوته مـع الألفة والمحبـة وطيب العيش وفراغ البال كان في غـاية البعـد عن العقول إلاّ أنّـه تعالى لـطيف فإذا قضى وأراد شيئـاً سهَّل أسبابه فحصل وإن كان في غاية البعد عن الحصول)[1].

ــ ثم أخذ يوسف عليه السلام يعدد نعم الله عليه خاصة فقال: ﴿ربِّ قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث﴾ فهو يشكر الله على ما آتـاه من ملك مصر، وعلى ما علّمه من تعبير الرؤيا.

و (من) هنا للتبعيض إذ أنه لم يؤت إلاّ بعض ملك الدنيا وبعض التأويل.

ثم يناجي ربَّه ويدعوه بكل خضوع وخشوع وهو في هذا المقام والموقف العظيم، فقال: ﴿فاطر السموات والأرض أنت وليّـي في الـدنيا والآخـرة توفني مسلمـاً وألحقني بالصالحين﴾.

فهو يدعو ربَّه؛ لأنه هو الذي يتولاه بالنعمة في الـدارين ولا منعم غيره. . يـدعوه بأن يتوفاه على حال الإسـلام وأن يلحقه بـالصالحين. فهـو أراد: أنَّه كمـا أتمّ الله عليه نعمته في الدنيا بالنعم السـابقة أن يستمـرّ بها عليـه في الآخرة وأن يتـوفاه مسلمـاً، وأن يلحقه بالصالحين؛ وهم إخوانه من الأنبياء والمرسلين[2].

وبهذا الدعـاء الخاشـع، وفي حضـور هذا المشهـد العظيم، وبـاجتماع الشمـل الكريم تنتهي حلقات هذه القصة والحمد لله.

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٨/٢١٦.

(٢) انظر: تفسير النسفي ٢/٢٣٨.

المطلب الثاني

العبـر والفـوائـد

١ ــ العبر والفوائد من أمر يعقوب لأبنائه بالبحث عن يوسف وأخيه :

* ومرة أخرى نقف أمـام مثل لقوة الإيمان وعمق اليقين بـرب العالمين. . . مـوقف يعقوب عليه السلام الذي أخبر ثانية بفقد ابنه الثاني ؛ بل واسترقـاقه، ولكن هـذه المرة مع الصبر الجميل كان الرجاء والأمل في قمّته : ﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً﴾، إذ هـو شعور المؤمن بـرحمة الله وتيسيـره بعد الشـدة والضيق والعسر؛ فـإنه متى اشتـدت المحن والابتلاءات وتعسّرت الأمور وكان الصبر عليها شعر المؤمن بأن فـرج الله قريب ورحمتـه قادمـة فكان الأمـل والرجـاء في عـظيم رحمـة الله وشفقتـه بعبـاده المخلصين الصابرين. يقول الشهيد سيد قطب: «هـذا الشعاع من أين جـاء إلى قلب هذا الـرجل الشيـخ؟ إنـه الرجـاء في الله والاتصال الـوثيق بـه، والشعور بـوجـوده ورحمتـه، ذلـك الشعـور الذي يتجلّى في قلوب الصفـوة المختارة، فيصبـح عنـدها أصـدق وأعمق من الواقـع المحسوس الذي تلمسه الأيدي وتراه الأبصار»(١).

* إن شدة حزن يعقوب عليه السـلام لدرجـة أنه أبيضت عينـاه ليعطينـا إشارة قـوية على فضـل الآباء وعـظم قدرهم وجليـل حقّهم على الأبنـاء؛ فـإن قلب يعقـوب عليـه السـلام يمثّل لنـا قلب كل أب سليم الفـطرة يشعـر بـأبنـائـه فيمـا وضعـه الله فيـه من الطبيعة البشرية وهي حب الولد، وهذا ــ بلا شك ــ من الأسباب التي دعت إلى هذه الوصايا ببر الوالدين وتأكيدها. ويصوّر لنا سيد قطب حالة يعقوب وهـو في هذه المحنـة ــ التي قد تتكرر في غيره ــ فيقول: «وهي صورة مؤثرة للوالد المفجوع يحسّ أنه منفرد بهمّه، وحيد بمصابه، لا تشاركه هـذه القلوب التي حولـه ولا تجاوبـه فينفرد في معـزل يندب فجيعته في ولده الحبيب. . . »(٢).

ألا فليعرف الأبناء عظم حقّ الآباء وفضلهم عسى أن يسعوا في برّهم وأداء حقهم عليهم.

* وإذا عرفنا أن موقف يعقوب هو هذا من شدّة الحزن، فما نتصوّر أن يكون موقف

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/ ٢٠٢٥.

(٢) المرجع السابق ٤/ ٢٠٢٥.

أمّ يوسف؟!! فالله أعلم أن موقفها لا يقلّ عن موقف أبيه إن لم يكن أكثر؛ لأنّ الأمّ ـ كما هو معلوم ـ أكثر عاطفة من الأب نحو أبنائها.

وقد يسأل سائل لِمَ لمْ يذكر في القصة موقف أم يوسف حتى تكتمل الصورة؟ وما الحكمة في ذلك؟

والجواب على مثل هذا السؤال ـ والله أعلم ـ كما يلي:

إن المراد من ذكر القصة هنا هو وصف لحالة النبي يعقوب عليه السلام عند ابتلائه، وكيف كان في قمّة صبره وإيمانه وهو يلاقي هذه الابتلاءات، ويتبين بهذا فضله عليه السلام؛ وكون أنه نبي لا يمنع أن يكون صاحب إحساس مرهف وعاطفة أبويّة تجاه ما قد يصيبه من ابتلاءات في أولاده؛ بل إن الأنبياء أرقّ شعوراً من غيرهم لأنها لم تدنّس فطرهم بأي عارض من العوارض.

ويحضرني في هذا المقام موقف نبيّنا محمّد ﷺ حين وفاة ابنه إبراهيم. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف القين وكان ظئراً(١) لإبراهيم فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبّله وشمّه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ: وأنت يا رسول الله! فقال: يا ابن عوف إنها رحمة ثم أتبعها بأخرى فقال ﷺ: إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنّا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون(٢).

فنرى هنا ما خالج النبي ﷺ من الشعور الطبيعي عند فقد ولده إبراهيم... وكيف أنه استغرب الصحابي عبد الرحمن بن عوف من بكائه وظنّ أن الأنبياء ينبغي أن لا يتأثروا بذلك! ولكنّ الحق هو ما ذكره النبي ﷺ من أنها رحمة وأن العين تدمع والقلب يحزن...

ونعود إلى حديثنا: فذكر موقف الأم ليس شرطاً في اكتمال القصة، فالقصّة

---

(١) الظئر: هو زوج المرضعة التي ترضع من ليس بابنه.

(٢) رواه البخاري: كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «وإنا بك لمحزونون» وقوله: «إن العين تدمع»، حديث (٦١)، ٢/١٧٩.

مكتملة بهدفها الذي جاءت من أجله. خصوصاً وأن القضية هنا قضية يعقوب مع أبنائه في أنهم شعروا بحبه الزائد ليوسف وأخيه إلى نهايتها، وليس هي قضية أم يوسف إذ أن غير يوسف وبنيامين ليسوا بأبنائها ومن الطبيعي أن يكون ميلها إليهما أكثر ولا تلام على ذلك الشعور. والله أعلم.

* ودلّ قوله تعالى: ﴿وتولّى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن﴾ على جواز التأسف والبكاء عند المصيبة؛ لأن ذلك مما لا يملكه الإنسان، وإنما الممنوع المذموم ما يقع من النياح والصياح ولطم الصدور والوجوه وتمزيق الثياب.

وعن الحسن: إنه بكى على ولد أو غيره. فقيل له في ذلك شيء؟ فقال: ما رأيت الله جعل الحزن عاراً على يعقوب[1].

* وفي هذه الآية يروى أن سعيد بن جبير قال: لم يعط أحد غير هذه الأمة الاسترجاع. ألا تسمعون إلى قول يعقوب: (يا أسفا)[2]، والاسترجاع ــ كما هو معلوم ــ هو قولنا: إنا لله وإنا إليه راجعون.

وهذه من مزايا أمة نبينا محمد ﷺ أن أعطوا أفضل ما يكون وأكمل، وقد جاء ذكر ذلك في قوله تعالى: ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾[3].

* ويستفاد من قولهم لأبيهم حين رأوه في غاية الحزن: ﴿قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين﴾ أنه ينبغي للأبناء أن يرفقوا بآبائهم وأن يهوّنوا عليهم ما يحل بهم من مصائب وابتلاءات، وأن يسعَوا جاهدين في تخليصهم من الهموم والأحزان ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً؛ فإن هذا من البرّ بهم وحسن مصاحبتهم.

والأبناء هم أفضل من يهوّن على الآباء ويزيل عنهم الأحزان كما هو الواقع؛ وذلك لأن الله عزّ وجلّ جعل مكانة خاصة للولد في قلب أبويه، فإذا قام الولد بتهوين

---

(١) انظر: محاسن التأويل للقاسمي ٩/٢٦٨؛ تفسير البيضاوي ٣/١٤١.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٤٨٧.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٥٦.

المصـاب عن أحدهمـا كان لـذلك أكبـر الأثر، إذ يجـد الأب أو الأم أن أقـرب النـاس بجوارهما فيزول الهم والحزن، وبالتالي يكسب الأبناء رضا آبائهم وازدياد حبّهم لهم.

* وإنا لنشهد في قوله تعالى على لسان يعقوب: ﴿قال إنمـا أشكو بثّي وحـزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ ما عليه يعقوب ـ عليه السـلام ـ من قوة صلتـه بالله، وإرجاع أمره كله إليه.

وحول هذه المعاني يقول سيد قطب: «وفي هذه الكلمات يتجلّى الشعور بحقيقة الألـوهية في هـذا القلب الموصـول، كما تتجلى الحقيقة هـذه الحقيقة ذاتهـا بجلالهـا الغـامـر ولألائها الباهر. إن هذا الواقـع الظاهر الميئس من يوسف، وهذا المدى الطويل الـذي يقطـع الرجاء من حياتـه فضلاً على عـودته لأبيـه واستنكار بنيـه لهذا التـطلـع بعد هـذا الأمد الطويل في وجه هذا الواقـع الثقيل... إن هذا كله لا يؤثر شيئاً في شعور الرجل الصالـح بربـه. فهو يعلم من حقيقـة ربه ومن شـأنه مـا لا يعلم هؤلاء المحجوبـون عن تلك الحقيقة بذلك الواقـع الصغير المنظور! وهذه قيمة الإيمـان بالله ومعـرفته سبحـانه هذا اللون من المعرفة معرفـة التجلي والشهود ومـلامسة قـدرته وقـدره وملامسـة رحمته ورعايته وإدراك شأن الألوهية مع العبيد الصالحين»[1].

* كمـا أنه يستفـاد من أمر يعقـوب ـ عليه السـلام ـ لأبنـائـه بـالبحث عن يـوسف وأخيه: أن الرجاء يوجب للعبد السعي والاجتهاد فيما رجاه؛ فيعقوب ترجى الله من قبل أن يرجـع إليه أبنـاءه في قولـه: ﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعـاً﴾ ثم بذل جهـده في البحث عنهم وتقصي أخبارهم بإرسال أبنائه في هذا الشأن.

فهناك فرق بين الرجاء والتمنّي، فالتمنّي يكون مـع الكسل، ولا يسلك بصـاحبـه طـريق الجد والاجتهـاد، أمّا الرّجاء فيكـون مع بـذل الجهد وحسن التـوكّل. والأوّل: كحـال من يتمنّى أن يكون لـه أرض يبـذرها ويـأخذ زرعهـا، والثاني: كحـال من يشقّ أرضه ويفلحها ويبـذرها ويـرجو طلوع الـزرع. ولهذا أجمـع العـارفون على أن الـرجاء لا يصـحّ إلّا مع العمل[2].

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/٢٠٢٦.

(٢) انظر: تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ٤/٥٣؛ مدارج السالكين لابن القيم ٢/٣٥، تهذيب المدارج للعزي ص ٢٩٧.

وفي مقابل الرجاء يأتي اليأس الذي يوجب التشاقل والتباطؤ، ولذلك نهاهم عن اليأس من رحمة الله: ﴿ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ بل دفعهم إلى العمل الذي يتبع الرجاء[1].

ويقول سيد قطب: «تحسسوا بحواسكم في لطف وصبر وبصر على البحث ودون يأس من الله وفرجه ورحمته، وكلمة (روح) أدقّ دلالة وأكثر شفافية. ففيها ظلّ الاسترواح من الكرب الخانق بما ينسم على الأرواح من رَوْح الله الندي ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ فأما المؤمنون الموصولة قلوبهم بالله الندية أرواحهم بروحه الشاعرون بنفحاته المحيية الرّخية، فإنهم لا ييأسون من روح الله ولو أحاط بهم الكرب واشتد بهم الضيق. وإن المؤمن لفي روح من ظلال إيمانه، وفي أنس من صلته بربه وفي طمأنينة من ثقته بمولاه وهو في مضايق الشدة ومخانق الكروب»[2].

* ومن البلاغة القرآنية في الآيات ما يلي:

- قوله تعالى: ﴿يا أسفا على يوسف﴾ فيه: أن بين لفظتي الأسف ويوسف جناس الاشتقاق[3].

- قوله تعالى: ﴿تالله تفتؤ تذكر يوسف﴾ فيه: إيجاز بالحذف. أي: تالله لا تفتؤ، فحذفت (لا) كما في قوله: فقلت يمين الله أبرح قاعداً. لأنه لا يلتبس بالإثبات؛ فإن القسم إذا لم يكن معه علاقة الإثبات كان على النفي[4].

- قوله تعالى: ﴿ولا تيأسوا من روح الله﴾ فيه: استعارة، حيث استعير الروح وهو تنسيم الريح التي يلذّ شميمها ويطيب نسيمها للفَرَج الذي يأتي بعد الكربة، واليسر الذي يأتي بعد الشدة[5].

---

(١) تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ٤/٥٣.
(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/٢٠٢٦.
(٣) صفوة التفاسير للصابوني ٢/٦٦.
(٤) تفسير البيضاوي ٣/١٤١.
(٥) صفوة التفاسير للصابوني ٢/٦٦.

٢ ـ العبر والفوائد من تعرّف الأخوة على يوسف:

* يستفاد من قوله تعالى: ﴿قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضرّ وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين﴾ ما يلي:

ـ إنّ في هذه الآية إرشاداً إلى أدب جليل وهو تقديم الوسائل أمام المآرب فإنها أنجح لها، وهذا ما فعله إخوة يوسف هنا، فإنّهم قدّموا ما ذكر من رقّة الحال والتمسكن وتصغير العوض ولم يفجؤوه بحاجتهم ليكون ذريعة إلى إسعاف مرامهم ببعث الشفقة والعطف والرحمة. . .(١).

ـ جواز الشكوى عند الضر لمن يرجى منه إزالتها، بل واجب على من أصابه ذلك إذا خاف على نفسه الضر من الفقر وغيره، وذلك كالذي يجب عليه أن يشكو ما به من مرض إلى الطبيب ليعالجه. ولا يكون ذلك قدحاً في التوكل على الله، وهذا ما لم يكن التشكي على سبيل التسخط. والصبر والتجلد في النوائب أحسن، والتعفف عن المسألة أفضل، وأحسن الكلام في الشكوى سؤال المولى زوال البلوى وذلك قول يعقوب: ﴿إنما أشكو بثّي وحزني إلى الله. . .﴾. فأما الشكوى على غير مُشْك فهو السفه إلا أن يكون على وجه البث والتسلي(٢).

ـ استدل مالك وغيره من العلماء بقوله: ﴿فأوف لنا الكيل﴾ على أن أجرة الكيّال على البائع، حيث كان يوسف هو الذي يكيل، وكذلك الوزان والعداد وغيرهم؛ لأن الرجل إذا باع عدة معلومة من طعامه وأوجب العقد عليه وجب عليه أن يبرزها ويميّز حق المشتري من حقه(٣). وبعبارة أخرى مختصرة: لأنه إذا كان عليه توفية الكيل فعليه مؤنته وما يتمّ به(٤).

ـ وقولهم: ﴿وتصدّق علينا﴾ نشير فيه إلى أنه يكره للرجل أن يقول في دعائه؛ اللهم تصدق عليّ؛ لأن الصدقة إنما تكون ممن يبغي الثواب والله تعالى هو المتفضل

(١) انظر: محاسن التأويل للقاسمي ٩/ ٢٧٠.
(٢) المرجع السابق ٩/ ٢٧٠؛ تفسير القرطبي ٩/ ٢٥٤.
(٣) تفسير القرطبي ٩/ ٢٥٥.
(٤) محاسن التأويل للقاسمي ٩/ ٢٧٠.

بـالثـواب بجميـع النعم لا ربّ غيـره، ويـدل عليـه قـولـه تعـالى: ﴿إنّ الله يجـزي المتصدقين﴾.

والذي ينبغي أن يقال: اللهم أعطني وتفضل عليّ. «قاله الحسن»[1].

ـ وكذلك فإن في قوله تعالى: ﴿إنّ الله يجزي المتصدقين﴾ حثّ على الإحسـان، وإشـارة إلى أن المحسن يُجزى بـأحسن جـزاء من الله تعـالى؛ وإن لم يجـزه المحسن إليه[2].

* وفي قـوله تعـالى على لسان يـوسف: ﴿هل علمتم مـا فعلتم بيوسف وأخيـه من قبـل...﴾ ما يـدل على حرصـه في إبقاء روح الأخـوة حسنـة بينـه وبينهم؛ حيث أراد باستفهامه هذا التذكير والتوبيخ، ولم يستخدم أيّة ألفاظ نابية جارحة.

ـ كما أنه أراد بكلامه هذا أن يعرف حـالهم الذي هم عليـه الآن، فرأى منهم كـل ما يشير إلى توبتهم الصادقة، واعترفوا أمامه بخطئهم الذي ارتكبوه، والاعتراف بالخـطأ هـو خلق طيب يحمد عليـه الإنسـان، ولمس يـوسف ـ عليـه السـلام ـ حسن حـالهم فاطمأنّ واستراح وقام بمـا ينبغي أن يكون فسـامحهم بكلّ طيبـة نفس ووعدهم بـأنه لن يذكر لهم ما فعلوه أبداً بعد اليوم؛ إشعاراً منه بطيب معدنه وأن ما فعلوه معه لم يغير قلبه تجاههم، بل هم في قلبه إخوة وأحباب.

وإن هـذا لخلق عـظيم تحلى بـه يـوسف عـليـه السـلام... خـلق العـفـو والتسامـح... الخلق الذي جعل إخوته يحبونه ويجلّونه ويحترمونه.

وما أجمل أن يقتدي بيوسف عليه السلام جميـع الأخـوة في تسامحهم وعفـوهم لإخوانهم إن أساءوا إليهم حتى تتآلف القلوب وتخيّم السعادة على الجميـع، وبـذلـك تحفظ القرابات وتبقى الوشائـج الأخوية كما أرادها الإسلام قوية متينة.

* ومن قوله تعالى على لسان يوسف: ﴿قال أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينـا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيـع أجر المحسنين﴾ يستفاد ما يلي:

---

(١) تفسير القرطبي ٩/ ٢٥٥.

(٢) محاسن التأويل للقاسمي ٩/ ٢٧٠.

- الإشارة إلى فضيلة التقوى والصبر، وإلى أن كل خير في الدنيا والآخرة هو من آثار التقوى والصبر، وأن عاقبة أهلهما أحسن العواقب(١).

- وقوله: ﴿إنه من يتق ويصبر...﴾ هو من أفانين الخطابة، وهو أن يغتنم الواعظ الفرصة لإلقاء الموعظة؛ وهي فرصة تأثر السامع وانفعاله وظهور شواهد صدق الواعظ في موعظته(٢). وهذه فائدة يستفيد منها كل داعية إلى الله عز وجل في دعوته للآخرين، وذلك بأن يغتنم الفرص والمناسبات التي يكون فيها مدعوّيه أدعى للتأثر والإستجابة فيعظهم فيها ليحظى على قبولهم واستجابتهم المطلوبة.

* وإن في إرسال يوسف قميصه لأبيه مع إخوته تعجيلاً لمسرته وإنهاءً لمحنته وتفريجاً لهمه وغمه. وذلك لأنه حين يُلقى على وجهه القميص يرتد بصره فهذه مسرة بذاتها، ثم يثق بحياته وهذه مسرة أعظم من الأولى، وهي المطلوبة المحبوبة.

وإنه لبر عظيم من يوسف لأبيه إذ أنه لم ينتظر حتى يأتيه بل ساق إليه البشرى وأدخل عليه السرور قبل ذلك.

ألا فليبادر الأبناء إلى إدخال السرور على آبائهم خصوصاً في المواطن التي يغلب عليها حال الحزن فإن ذلك من البر وحسن الصلة. كما أن فيه تفريجاً للكرب، وقد قال ﷺ: «من فرّج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة»(٣).

٣ - العبر والفوائد من تلقي يعقوب خبر سلامة يوسف:

* إن قوله تعالى: ﴿فلمّا أن جاء البشير...﴾ الآية فيه دلالة على جواز التبشير ببشائر الدنيا واستحبابه، وجواز السرور بحصول النعم الحاصلة في الدنيا(٤).

* وفي قوله تعالى: ﴿قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين. قال سأستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم﴾ يقول المهايمي: صرحوا بالذنوب دون الله لمزيد

(١) تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ٤/٨٢.
(٢) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٣/٤٩.
(٣) رواه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، حديث (٥٨).
(٤) محاسن التأويل للقاسمي ٩/٢٧٨.

اهتمامهم بها، وكأنهم غلب عليهم النظر إلى قهره. وصرح يعقوب بذكر الرب سبحانه دون الذنوب إذ لا مقدار لها بالنظر إلى رحمته التي ربّى بها الكل[1].

* وقوله تعالى: ﴿سأستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم﴾ فيه دلالة ـ أيضاً ـ على استحباب إرجاء الاستغفار والدعاء لوقت يرى فيه العبد أنه أحضر قلباً من غيره، أو أنه يتحرّى أفضل الأوقات وأقربها للإجابة. وقد ذكرنا سابقاً أن يعقوب أخّر الاستغفار إلى وقت السحر أو إلى غيره من الأوقات الفاضلة.

* وقد عُرف في السنة النبوية تخصيص الأوقات الفاضلة للاستغفار والدعاء كوقت السحر وعقب الصلوات وعقب قضاء الحج، وكذلك في السجود وعند الآذان وبينه وبين الإقامة وعند الإفطار من الصيام[2]. والله أعلم.

* ويستفاد ـ كذلك ـ من هذه الآيات: إن العبرة في حال العبد بكمال النهاية لا بنقص البداية؛ فإن أولاد يعقوب جرى منهم ما جرى في أول الأمر مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح والسماح التامّ من يوسف وأبيهم والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة[3].

٤ ـ العبر والفوائد من تحقّق رؤيا يوسف:

* يستدل مما روي أنّ يوسف خرج للقاء أبيه وخرج معه من خرج: على حسن التعظيم باللقاء[4]، ولا شك أن هذا مطلوب في مثل حادثة يوسف. فهو خرج ليلتقي بأبيه الذي لم يره منذ أربعين عاماً على التقريب، وقد علم ما علم من حاله لفراقه. فخروجه لاستقباله مع من يشاء من الناس فيه تقدير واحترام وبرّ لأبيه.

وهكذا ينبغي أن يكون حال الأبناء مع آبائهم بأن يظهروا لهم كل التقدير والاحترام والبر؛ فإن هذا مما يثلج صدور الآباء ويقر أعينهم بأبنائهم، إذ يرون أبناءهم يسعون دائماً لإرضائهم بكلّ الوجوه سواء كانت حسية أو معنوية.

---

(١) علي بن أحمد بن إبراهيم المهايمي، تبصير الرحمن وتيسير المنان، الطبعة الثانية، ٢ مج (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ١/٣٧٤.

(٢) انظر: محاسن التأويل للقاسمي ٩/٢٧٨.

(٣) تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ٤/٧٠.

(٤) محاسن التأويل للقاسمي ٩/٢٨٢.

* ومن إكرامه وتقديره واحترامه لأبويه ـ كذلك ـ أن أجلسهما على سريره المخصص له: ﴿ورفع أبويه على العرش﴾، إذ لا يفوق الأبوين شيء من أمور الدنيا فهما أغلى ما لدى الإنسان في هذه الحياة ولا يعلو على حقهما سوى حقّ الله عزّ وجلّ.

* وإنا لنلاحظ أنّ يوسف ـ عليه السلام ـ كان في غاية الشكر لله؛ فإنّه بعد أن حقق الله له رؤياه وأتم نعمته عليه بالتقائه بأبويه واجتماعه بإخوته وغير ذلك من النعم قال:

﴿يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إنّ ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم. رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث. . .﴾ الآية.

فهذا شكر منه ـ عليه السلام ـ بتحدثه واعترافه بنعم الله عليه.

* وبمناسبة ذكرنا لشكر يوسف عليه السلام يجدر بنا أن نشير إلى شيء عن حقيقة الشكر وفضائله عسى أن نحذو حذو الشاكرين ونصل إلى منزلتهم؛ فنقول:

إنّ الشكر نصف الإيمان؛ إذ أنّ الإيمان نصفان: نصف شكر، ونصف صبر. وقد أمر الله به ونهى عن ضده، وأثنى على أهله، ووصف به خواصّ خلقه، وجعله غاية خلقه وأمره.

وحقيقة الشكر: ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناءً واعترافاً. وعلى قلبه: شهوداً ومحبة. وعلى جوارحه: انقياداً وطاعة.

والشكر مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمه، وثناؤه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما لا يكره.

وهذا الخلق عزيز في الناس ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ [سبأ:١٣]. وسمّى الله نفسه شاكراً ومشكوراً، وسمى الشاكرين بهذين الاسمين فأعطاهم من وصفه وسماهم باسمه، وحسبك بهذا محبة للشاكرين وفضلاً، وقلة أهله في العالمين تدلّ على أنهم خواصه.

وقد روي أن النبي ﷺ قام حتى تورمت قدماه. فقيل له: تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[1].

وقد استثنى الله تعالى في خمسة أشياء ولم يستثن في الشكر، فاستثنى في الإغناء وفي الإجابة وفي الرزق وفي المغفرة وفي التوبة. فقال: ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء﴾، وقال: ﴿فيكشف ما تدعون إليه إن شاء﴾، وقال: ﴿ويرزق من يشاء بغير حساب﴾، وقال: ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾، وقال: ﴿ويتوب الله على من يشاء﴾. وأما الشكر فقال: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ ولم يستثن[2].

* ومما نلاحظه كذلك أنّ يوسف ـ عليه السلام ـ كان في غاية الأدب في كلامه؛ إذ أنه لم يقل: أخرجني من الجبّ، حفظاً للأدب مع إخوته بأن لا يخجلهم بما جرى في الجبّ.

ثم قال: ﴿إذ أحسن بي﴾ ولم يقل: أحسن بكم تأدباً مع الجميع وتواضعاً.

وقال: ﴿وجاء بكم من البدو﴾ ولم يقل: رفع عنكم جهد الجوع والحاجة. وذلك تأدباً معهم أيضاً. كما أنه أضاف ما جرى إلى السبب، ولم يضفه إلى المباشر الذي هو أقرب إليه منه فقال: ﴿من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي﴾.

وهذا الأدب الذي تحلّى به يوسف عليه السلام هو كذلك سمت جميع الأنبياء ورسل الله.

وبمناسبة ذكرنا لأدب يوسف عليه السلام يقودنا الحديث عن خلق الأدب بصفة عامة حتى تكمل الفائدة وتحصل العبرة؛ ولابن القيم كلام حول هذا الخلق خلاصته ما يلي:

إنّ الأدب ثلاثة أنواع: أدب مع الله سبحانه، وأدب مع رسوله وشرعه، وأدب مع خلقه.

أمّا الأدب مع الله فثلاثة أنواع:

---

(١) انظر: مدارج السالكين لابن قيم الجوزية ٢/٢٤٢ ـ ٢٤٤، تهذيب المدارج من ٣٨٣ ـ ٣٨٤. والحديث رواه البخاري: كتاب الوتر، باب التهجد في الليل، حديث (١٥٩)، ٢/١١٧.

(٢) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص ١٧٩.

أحدها: صيانة معاملته: أن يشوبها بنقيصة.

الثاني: صيانة قلبه: أن يلتفت إلى غيره.

الثالث: صيانة إرادته: أن تتعلق بما يمقتك عليه.

ومن أمثلة الأدب مع الله قول إبراهيم عليه السلام: ﴿الذي خلقني فهو يهدين. والذي هو يطعمني ويسقين. وإذا مرضت فهو يشفين﴾ [الشعراء: ٧٨ ــ ٨٠]. ولم يقل: وإذا أمرضني؛ حفظاً للأدب مع الله، والمتأمل في أحوال الرسل مع الله وخطابهم وسؤالهم إياه يجدها مشحونة بالأدب قائمة به.

وأما الأدب مع رسوله فرأسه: كمال التسليم له والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق دونما التفات إلى سواه، ومن الأدب معه أن لا يتقدم الإنسان بين يديه بأمر ولا نهي ولا إذن ولا تصرف حتى يأمر هو وينهى ويأذن كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يَدَيْ الله ورسوله﴾ [الحجرات: ١] وهذا باق إلى يوم القيامة ولم ينسخ؛ فالتقدم بين يدي سنّته بعد وفاته كالتقدم بين يديه في حياته ولا فرق. ومن الأدب معه عدم رفع الصوت فوق صوته، ولا يُجعل دعاؤه كدعاء غيره، ومن الأدب استئذانه... إلخ.

وآخرها: هو ما يسمى بالأدب مع الخلق، فالأدب مع الخلق هو معاملتهم على اختلاف مراتبهم بما يليق بهم، فلكل مرتبة أدب. والمراتب فيها أدب خاص وأخصّ، فمع الوالدين: أدب خاص وللأب منهما: أدب هو أخص منه، ومع العالم: أدب آخر، ومع السلطان أدب يليق به، وله مع الأقران أدب يليق بهم، ومع الأجانب: أدب غير أدبه مع أصحابه وذوي أنسه. ومع الضيف: أدب غير أدبه مع أهل بيته.

وأدب المرء عنوان سعادته وفلاحه، وقلّة أدبه: عنوان شقاوته وبواره. فلننظر إلى الأدب مع الوالدين: كيف نجّى صاحبه من حبس الغار حين انطبقت عليهم الصخرة؟ والإخلال به مع الأم ــ تأويلاً وإقبالاً على الصلاة ــ كيف امتحن به جُرَيْج الراهب بهدم صومعته وضرب الناس له ورميه بالفاحشة؟.. ولنتأمل أحوال كل شقي ومغتر ومدْبِر فإننا نجد أنّ قلّة الأدب هي التي ساقته إلى الحرمان[1].

---

(١) انظر: مدارج السالكين لابن القيم ٢/٣٧٦ ــ ٣٩٢؛ تهذيب المدارج للعزي ص ٤٤٥ ــ ٤٥٦.

وللإمام البيضاوي ـ رحمه الله ـ سؤال حول قول يوسف وهو يدعو الله: ﴿توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾ فيقول: كيف قال يوسف ذلك مع علمه بأنّ كلّ نبيّ لا يموت إلا مسلماً؟.

ويجيب عليه بقوله: قاله إظهاراً للعبودية والافتقار وشدة الرغبة في طلب سعادة الخاتمة، وتعليماً للأمة وطلباً للثواب[1].

وفيه إشارة إلى أنه ينبغي للعبد أن يدعو الله دائماً بتثبيت إيمانه، وأن يعمل بالأسباب الموجبة لذلك، وأن يسأل ـ كذلك ـ حسن الخاتمة وبها تمام النعم[2].

*** فائدة لغوية:**

في قوله تعالى: ﴿فاطر السموات والأرض﴾ ورد عن ابن عباس في تفسير كلمة (فاطر) قوله: ما كنت أدري معنى الفاطر؛ حتى احتكم إليَّ أعرابيان في بئر. فقال أحدهما: أنا فطرتها، وأنا ابتدأت حفرها.

قال أهل اللغة: أصل الفطر في اللغة: الشق. يقال: فطر ناب البعير إذا بدا، وفطرت الشيء انفطر أي شققته فانشق، وتفطّر الأرض بالنبات والشجر بالورق إذا تصدعت. هذا أصله في اللغة، ثم صار عبارة عن الإيجاد لأن ذلك الشيء حال عدمه كأنه في ظلمة وخفاء فلما دخل في الوجود صار كأنه انشق عن العدم وخرج ذلك الشيء منه[3].

* ومن البلاغة القرآنية في الآيات ما يلي:

ـ في قوله: ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾. جملة: ﴿إن شاء الله﴾ دعائية جيء بها للتبرك. وفي الآية تقديم وتأخير تقديره: ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله[4].

ـ وقوله: ﴿ورفع أبويْه على العرش وخرّوا له سجداً﴾ فيه: أن لفظ: (أبويه) المراد به الأب والأم ولكن أطلق هذا اللفظ عليهما من باب «التغليب».

---

(١) تفسير البيضاوي ٣/٢٨٤.

(٢) انظر: تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ٤/٨٣.

(٣) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٨/٢١٧.

(٤) صفوة التفاسير للصابوني ٢/٧١.

كما أن الرفع هنا مؤخر عن الخرور وإن تقدم لفظاً للاهتمام بتعظيمه لهما، أي سجدوا له ثم أجلس أبويه على سريره(١).

* وفي ختام كلامنا حول العبر والفوائد في هذا المبحث نورد فوائد وعبراً عامة لا تختص بحدث معين في قصة يعقوب عليه السلام مع يوسف وإخوته وهي كما يلي:

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي: «إنّ هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها وأبينها؛ لما فيها من أنواع التنقلات من حال إلى حال، من محنة إلى منحة ومن محنة إلى منحة ومنّة، ومن ذل إلى عز ومن رق إلى ملك، ومن فرقة وشتات إلى اجتماع وائتلاف، ومن حزن إلى سرور، ومن رخاء إلى جدب، ومن جدب إلى رخاء، ومن ضيق إلى سعة، ومن إنكار إلى إقرار فتبارك من قصها فأحسنها ووضحها وبينها»(٢).

– وإن قصة يوسف الذي تربّى في مصر ونشأ فيها ولم تبهجه زخارف تلك المدنية وتجرّه إلى الرذيلة جاءت عبرة للناس كافة بهذه الأخلاق.. اعتلى يوسف عرش مصر فساس بعد أن كان مسوساً، وملك بعد أن كان مملوكاً! وليس الجزاء على الأخلاق والكمال خاصاً بالآخرة بل في الدارين ﴿وكذلك مكّنّا ليوسف في الأرض يتبوّأ منها حيث نشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين. ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ [يوسف: ٥٦ ـ ٥٧]. هذه هي الأخلاق الفاضلة ذكرت في التنزيل نموذجاً في غضون هذه السيرة للأمم الإسلامية ليأخذوا ثمرتها.

قال علماء الأخلاق: لا ينتظم أمر الأمة إلا بمصلحين ورجال أعمال قائمين وفضلاء مرشدين هادين لهم شروط معلومة وأخلاق معهودة(٣).

– ووجه الاعتبار ـ أيضاً ـ من هذه القصة حينذاك للرسول محمد ﷺ وللمؤمنين من أصحابه: أن الذي قدر على إخراج يوسف من الجب بعد إلقائه فيه وإخراجه من السجن، وتمليكه مصر بعد العبودية، وجمع شمله بأبيه وإخوته بعد المدة الطويلة

---

(١) صفوة التفاسير ٢/٧١.

(٢) تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ٤/٦٦.

(٣) انظر: محاسن التأويل للقاسمي ٩/٣٠٩.

واليأس من الاجتماع هو قادر على إعزاز محمد ﷺ وإعلاء كلمته وإظهار دينه[1].

وكان هذا وجاءت هذه القصة أشبه شيء بحال المؤمنين في مكابدتهم في أول الأمر وهجرهم، وتشققهم مع قومهم وقلة ذات أيديهم إلى أن جمع الله شملهم، وأورثهم الأرض ونصرهم وأيدهم وذلك بجليل إيمانهم وعظيم صبرهم.

ثم إن حال يعقوب ويوسف في صبرهما، ورؤية حسن عاقبة الصبر في الدنيا وما أعد الله لهما من عظيم الثواب أنسب بحال نبينا في مكابدة قريش ومفارقة وطنه ثم تعقيب ذلك بظفره بعدوّه وإعزاز دينه وإظهار كلمته ورجوعه إلى بلده على حالة قرت بها عيون المؤمنين وما فتح الله عليه وعلى أصحابه[2].

وفي هذه القصة عبرة لأمتنا إن أرادت الرجوع إلى عزها ومجدها بأن تسلك طريق ربها، ولتجاهد ولتصابر عليه حتى يأتيها الله بنصره وتستعيد بذلك مكانتها المطلوبة لها وما ذلك على الله بعزيز.

* * *

(١) انظر: محاسن التأويل للقاسمي ٩/٣٠٢.

(٢) انظر: المرجع السابق ٩/٣٠٤.

الفصل الثاني

وصية يعقوب عليه السلام لأبنائه عند احتضاره

المبحث الأول

بيان الوصية

يبيّن الله عزّ وجلّ حال يعقوب عليه السلام مع أبنائه عند احتضاره في قوله:

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾[1].

ومن قبل هذه الآية ذكر الله وصيته لأبنائه في قوله:

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾[2].

وقد تكلمنا عن هذه الوصية في وصية إبراهيم عليه السلام لأبنائه في الباب السابق، وهنا سنتكلم عن وصيّة يعقوب عليه السلام خاصة لأبنائه في وقت احتضاره:

ـ يبدأ الله عز وجل في بيان هذه الوصية بقوله: ﴿أم كنتم﴾. و (أم) عاطفة لجملة ﴿كنتم شهداء﴾ على جملة ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب﴾؛ فإن (أم) من حروف العطف كيفما وقعت.

ولما كانت (أم) يلازمها الاستفهام، فالاستفهام هنا غير حقيقي لظهور أن عدم

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٣٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٣٢.

شهودهم احتضار يعقوب محقق؛ فتعيّن أن الاستفهام مجازي، ومحمله على الإنكار لأنه أشهر محامل الاستفهام المجازي، ولأن مثل هذا المستفهم عنه مألوف في الاستفهام الإنكاري.

ثم إن كون الاستفهام إنكارياً فذلك يمنع أن يكون الخطاب فيه للمسلمين؛ لأنهم ليسوا بمظنة حال من يدعي خلاف الواقع حتى ينكر عليهم، فالخطاب هنا في هذا الاستفهام الإنكاري متوجه إلى اليهود؛ إذ أن الله ينكر عليهم اعتقاداً اعتقدوه ويدعونه وهو أن يعقوب مات على اليهودية وأوصى بها فلزمت ذريته وصيته هذه. والمعنى: ما كنتم شهداء احتضار يعقوب حتى تعلمون هذا وتنسبون إليه ذلك افتراء وبهتاناً.

ـ ثم أكمل الله القصة تعليماً وتفصيلاً واستقصاء في الحجة بأن ذكر ما قاله يعقوب حين احتضاره وما أجابه أبناؤه وليس ذلك بداخل في حيّز الإنكار، فالإنكار ينتهي عند قوله: (الموت)، والبقية تتمة للقصة.

والشهداء: جمع (شهيد) بمعنى الشاهد أي الحاضر للأمر والشأن. ووجه دلالة نفي المشاهدة على نفي ما نسبوه إلى يعقوب: أن تنبيههم إلى أنهم لم يشهدوا ذلك يثير في نفوسهم الشك في معتقدهم الباطل.

وجاءت هذه الوصية عند احتضاره، وهذا يدل على أهميتها؛ لأن ذاك وقت الحرص بتعجيل إبلاغ أهم النصائح إلى الموصين إذ أنها آخر كلام الذي يحتضر، وفي المقابل تكون هذه الكلمات لها أكبر الأثر في نفوس من يوصيهم، إذ الموصى يكون أشد اهتماماً وانتباهاً وحرصاً على تلبية ما يطلبه ويوصيه به موصيه خصوصاً إن كان الموصي أحد الوالدين فذلك من برهما والوفاء بحقهما.

ووصية يعقوب ـ كما نلاحظ ـ جاءت بطريقة غير مباشرة؛ إذ كانت بأسلوب الاستفهام، وذلك لينظر عليه السلام مقدار ثباتهم على الدين، وليطلع ويطمئن على إخلاص قلوبهم لهذا الدين.

وأتى في سؤاله بـ(ما) الاستفهامية دون (من)؛ لأن (ما) هي الأصل عند قصد العموم فهو سألهم عما يمكن أن يعبده العابدون فقال لهم: ﴿ما تعبدون من بعدي؟﴾. واقترن الظرف (بعد) بحرف (من) لقصد التوكيد.

ـ ثم يجيب الأبناء على هذا السؤال فيقولون وملء قلوبهم الإيمان: ﴿نعبد إلهك وإلـه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن لـه مسلمون﴾.

وجوابهم هذا يطمئن قلب يعقوب ويقرّ عينيه بأبنائه وهو في هذه اللحظة الخاتمة الأخيرة.

كما أن جوابهم عما أتوا به معرّفاً بالإضافة إذ قالوا: ﴿نعبد إلهك وإلـه آبائك...﴾ ولم يذكروا الاسم العلم بأن يقولوا: نعبد الله؛ لأن إضافة لفظة (إلـه) إلى ضمير يعقوب وإلى آبائه تفيد جميع الصفات التي كان يعقوب وآباؤه يصفون الله بها، ففيه إيماء إذاً إلى أنهم مقتدون بسلفهم، ليزيد اطمئنانه عليه السلام ويتيقن أنهم على الصراط المستقيم في دين الله، ولن يبتدعوا شيئاً في هذا الدين بل هم متبعون لا مبتدعون[1].

ومع عبادة الله عز وجل فإنهم خاضعون له كل الخضوع ومطيعون له لا يخالفون شرعه وهديه كما قال تعالى: ﴿...وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون﴾[2].

والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم: ﴿إنّ الدين عند الله الإسلام...﴾[3].

وبتلك الإجابة الممتازة الوافية تمت وصيته عليه السلام بهذا الأسلوب، وتحقق له ما كان يريد الإيصاء به وهو الالتزام بتوحيد الله ودينه والخضوع له سبحانه[4].

* * *

---

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١/ ٧٣٠ ـ ٧٣٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٨٣.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٩.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ١٨٦.

المبحث الثاني

العبر والفوائد

* يقول الشهيد سيد قطب ــ رحمه الله ــ واصفاً هذا المشهد: «إن هذا المشهد بين يعقوب وبينه في لحظة الموت والاحتضار لمشهد عظيم الدلالة، قوي الإيحاء، عميق التأثير.. ميت يحتضر. فما هي القضية التي تشغل باله في ساعة الاحتضار؟ ما هو الشاغل الذي يعني خاطره وهو في سكرات الموت؟ ما هو الأمر الجلل الذي يريد أن يطمئن عليه ويستوثق منه؟ ما هي التركة التي يريد أن يخلفها لأبنائه ويحرص على سلامة وصولها إليهم فيسلمها لهم في محضر يسجل فيه كل التفصيلات؟ إنها العقيدة.. هي التركة.. وهي الذخر، وهي القضية الكبرى وهي الشغل الشاغل، وهي الأمر الجلل الذي لا تشغل عنه سكرات الموت وصرعاته ﴿ما تعبدون من بعدي؟﴾ هذا هو الأمر الذي جمعتكم من أجله. وهذه هي القضية التي أردت الاطمئنان عليها، وهذه هي الأمانة والذخر والتراث. ﴿قالوا نعبد إلهك...﴾ إنهم يعرفون دينهم ويذكرونه. إنهم يتسلمون التراث ويصونونه. إنهم يطمئنون الوالد المحتضر ويريحونه. وكذلك ظلت وصية إبراهيم لبنيه مرعية في أبناء يعقوب، وكذلك هم ينصون نصاً صريحاً على أنهم (مسلمون)»[1].

أقول: وهذه التركة الحقيقية الأصيلة ذات القيمة العالية التي ينبغي أن يهتم لها الآباء ويلاحظوها في أبنائهم وإلى آخر ساعة من حياتهم؛ لأنها القضية التي تضمن لهم سعادة الدنيا والآخرة. وماذا يريد الآباء غير السعادة لأبنائهم؟!.

فلا بد إذاً أن يكون الشاغل هي هذه القضية لا غيرها من قضايا الدنيا الزائلة

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/١١٦.

التي لا تساوي شيئاً في ميزان الله؛ بل وقد تكون وبالاً على الأبناء إن لم يكونوا أصحاب عقيدة صحيحة ومسلك مستقيم.

وإنه لدرس عظيم مفيد يعطيه عليه السلام لكل أب يحرص على سلامة عقائد أبنائه ويرجو بذلك السعادة لهم.

وكان لزاماً ونحن في عصر قد كثرت فيه المذاهب الضالة وأفكارها الهدامة الملحدة أن يكون جلّ اهتمام الآباء بملاحظة الجانب العقدي والإيماني في حياة أبنائهم حتى تسلم لهم عقائدهم من كل زيغ وضلال... ملاحظة دقيقة ومتتابعة في مناحٍ أربعة يذكرها لنا الشيخ عبد الله علوان ـ رحمه الله ـ وخلاصتها ما يلي:

ـ أن يلاحظ المربي ما يتلقنه الولد من مبادىء وأفكار ومعتقدات، على يد من يشرفون على توجيهه وتعليمه في المدرسة أو في غيرها، وليقم بمهمته في غرس مبادىء التوحيد وترسيخ قواعد الإيمان ليكون الولد بمنحاة من التلقين الإلحادي الآثم والتوجيه العلماني الخطير.

ـ أن يلاحظ ما يطالعه الولد من كتب ومجلات ونشرات، فإن وجد أنّها تحمل في طياتها أفكار الزيغ ومبادىء الإلحاد ودسائس التبشير فليقم بمصادرتها ثم ليقنع الولد أنّ هذه الكتب تفسد عليه إيمانه الصافي وإسلامه العظيم.

ـ أن يلاحظ من يصاحب الولد من رفقاء وقرناء، فإن وجد أن الرفقة التي يصحبها هي رفقة إلحاد وقرناء زيغ وضلال فعليه أن يقطع الصلة بينه وبينهم وأن يهيِّيء له رفقة صالحة.

ـ أن يلاحظ ما ينتمي إليه من أحزاب وغيرها فإن وجد أنها الحادية في مبادئها وتوجيهها، وأنها لا دينية في أهدافها واتجاهاتها؛ فليجزم في منعه ويكثر من مراقبته وأن ينتهز الفرص في إقناعه وتوجيهه حتى يراه قد مال إلى الحق ورجع إلى الهدى ومشى على الصراط المستقيم(١).

فبهذه الملاحظة ـ إن شاء الله ـ نضمن سلامة عقائد أبنائنا ونطمئن إلى ما في

---

(١) انظر: تربية الأولاد في الإسلام لعبد الله علوان ٢/٧٣٥ ـ ٧٣٦.

قلوبهم، وعندها تقرّ أعيننا بهم. . . أولاداً صالحين يحملون العقيدة الإسلامية الصافية. . . ويعبدون الله بها ويدعون خلقه إليها. وهذا الجيل الذي نريده ونطلبه. . . جيل به يعاد لهذه الأمة عزتها ومجدها وقيادتها للأمم.

* ومن البلاغة القرآنية في الآية ما يلي:

في قوله: ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت﴾ يقول أبو حيان فيما معناه: كنى بالموت عن مقدماته؛ لأنه إذا حضر الموت نفسه لا يقول المحتضر شيئاً.

كما أنّ قوله: ﴿حضر الموت﴾ كناية غريبة: وهو أنّه غائب و لا بدّ أن يقدم ولذلك يقال في الدعاء: واجعل الموت خير غائب ننتظره[١].

- وأعيد المضاف في قوله: ﴿وإلـه آبائك﴾ لأن إعادة المضاف مع المعطوف على المضاف إليه أفصح في الكلام[٢].

- وإن إطلاق الآباء على ما يشمل العمّ والأب والجد هو من باب التغليب، وهو من المجازات المعهودة في فصيح الكلام[٣]. فالعم هو إسماعيل، والأب إسحاق، والجد إبراهيم، وأطلق عليهم تغليباً الآباء وذلك في قوله: ﴿وإلـه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق﴾.

- وفي الإتيان بعطف البيان في قوله: ﴿إبراهيم وإسماعيل وإسحاق﴾ ضرب من محسّن الإطراد تنويهاً بأسماء هؤلاء الأسلاف[٤].

- وقوله: ﴿إلهاً واحداً﴾: توضيح لصفة الإلـه الذي يعبدونه، فقوله: (إلـهاً) حال من (إلهك)، ووقوع (إلهاً) حالاً من (إلهك) مع أنه مرادف له في لفظه ومعناه، إنّما

---

(١) انظر: البحر المحيط لأبي حيان ١/٤٠١.

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١/٧٣٣.

(٣) صفوة التفاسير للصابوني ١/٩٧.

(٤) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١/٧٣٣.

والإطراد هو: أن يذكر اسم الممدوح واسم من يمكن من آبائه على ترتيب الولادة ليزداد إبانة وتوضيحاً على ترتيب صحيح ونسق مستقيم من غير تكلف ولا تعسف. (انظر: علوم البلاغة لأحمد مصطفى المراغي ص ٣٦٠).

هو باعتبار إجراء الوصف عليه بـ (واحداً)، فالحال في الحقيقة هو ذلك الوصف، وإنما أعيد لفظ (إلهاً) ولم يقتصر على وصف (واحداً) لزيادة الإيضاح؛ لأن المقام مقام إطناب ففي الإعادة تنويه بالمعاد وتوكيد لما قبله.

وهذا أسلوب من الفصاحة إذ يعاد اللفظ ليبنى عليه وصف أو متعلق ويحصل مع ذلك توكيد اللفظ السابق تبعاً[1].

ـ وقوله: ﴿ونحن له مسلمون﴾ هو جملة في موضع الحال من ضمير (نعبد)، أو معطوفة على جملة (نعبد)، جيء بها إسمية لإفادة ثبات الوصف لهم ودوامه بعد أن أفيد بالجملة الفعلية المعطوفة عليها معنى التجدد والاستمرار[2].

وبهذه العبر والفوائد المستخلصة من وصية يعقوب لأبنائه عند موته نختم هذا الباب (يعقوب عليه السلام مع أبنائه).

والحمد لله رب العالمين.

* * *

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١/٧٣٤.

(٢) المرجع السابق ١/٧٣٤.

الباب الرابع

قِصَّة مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام

مع أُمِّهِ

وفيه تمهيد وفصلان:

الفصل الأول : بيان القصة.

والفصل الثاني: العبر والفوائد.

تمهيد

في هذا الباب سنتعرض بالحديث عما ورد في القرآن الكريم عن قصة موسى(١) عليه السلام مع أمّه(٢) حين وضعته وما كان بعد ذلك من أحداث تناولها القرآن وبينها.

ولا بد لهذه القصة من تمهيد، وأفضل تمهيد ـ كما أعتقد ـ هو بيان الظروف الموجودة في تلك الأيام التي حملت فيها أمّ موسى بابنها وحين وضعته، ليحسن بنا الدخول في الكلام حول هذه القصة.

ونستطيع أن نتعرّف على هذه الظروف من خلال ما ذكره الله عزّ وجلّ في الآيات التالية:

﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ ﴾(٣).

---

(١) اسمه: موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام (البداية والنهاية لابن كثير ١/٢٢٢).

(٢) اسمها: قال السهيلي: اسم أمّ موسى أيارخا، وقيل: أياذخت (البداية والنهاية لابن كثير ١/٢٢٤)، وقيل: اسمها يوحانذ، وقيل: يوكابد، وهي من نسل لاوي بن يعقوب. (تفسير الخازن ٥/١٦٢).

(٣) سورة القصص: الآيات ١ ـ ٥.

فيتضح لنا من هذه الآيات الكريمة أنّ في هذه الفترة الزمنية فرعون مصر قد تجبّر وطغى وعتا وأعرض كل الإعراض عن دين الله. كما أنّه قسّم من يحكمهم إلى عدّة أقسام وفرق وأنواع، وإنه ليستذل ويستضعف طائفة منهم وهم شعب بني إسرائيل الذين هم من سلالة نبيّ الله يعقوب، وكانوا آنذاك خيار أهل الأرض، فكان يستبعدهم ويستخدمهم في أخسّ الصنائع والحرف.

وإضافة إلى هذا الاستعباد والاستذلال فإنه ــ عليه لعنة الله ــ كان يُذبّح أبناءهم ويستحي نساءهم. ولقد حمله على هذا الصنيع البشع اللاإنساني أنه سمع ببشارة مشهورة في بني إسرائيل أخذوها مما أثروه عن إبراهيم ــ عليه السلام ــ وهي أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه، ومن حين سماعه بهذه البشارة أمر بقتل أبناء بني إسرائيل من الذكور حذراً من وجود هذا الغلام.

وذكر السدّي عن أبي صالح وأبي مالك عن ابن عباس، وعن مرّة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة: أن فرعون رأى في منامه كأن ناراً قد أقبلت من نحو بيت المقدس فأحرقت دور مصر وجميع القبط ولم تضرّ بني إسرائيل. فلما استيقظ هاله ذلك فجمع الكهنة والسحرة وسألهم عن ذلك فقالوا: هذا غلام يولد من هؤلاء يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه....

والمقصود أن فرعون احترز كل الاحتراز أن لا يوجد موسى، حتى جعل رجالاً وقوابل يدورون على الحبالى من نساء بني إسرائيل، ويعلمون ميقات وضعهنّ فلا يولدهنّ إلا هؤلاء القوابل، وإذا كان المولود ذكراً ذبحه أولئك الذبّاحون من ساعته.

ومرّت الأيام ثم اشتكى القبط إلى فرعون قلّة بني إسرائيل بسبب قتل ولدانهم الذكور وخُشي أن تذهب وتموت الكبار مع قتل الصغار فيصيرون هم الذين يلون ما كان بنو إسرائيل يعملون من الأعمال الشاقّة، فأمر فرعون بقتل الذكور عاماً وتركهم عاماً.

وذُكر أنّ هارون ــ عليه السلام ــ ولد في عام المسامحة عن القتل؛ وأن موسى ولد في العام الذي يقتل فيه الذكور.

وقيل: إنّ أمّ موسى لما حملت به لم تظهر عليها مخايل الحمل كغيرها، فلم تفطن لها القوابل.

وهكذا وفي هذه الظروف والأحوال جاء موسى ـ عليه السلام ـ إلى الدنيا. ولن يغني حذر من قدر[1].

وبهذا القدر نكون قد مهدّنا للكلام في قصة موسى عليه السلام مع أمّه.

والله المستعان.

* * *

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ١/٢٢٢ ـ ٢٢٣؛ تفسير ابن كثير ٣/٣٨٠ ـ ٣٨١.

الفصل الأول

بيـان القصـة

تحدّث القرآن عن هـذه القصة في مـوضعين: في سورة طـه، وفي سورة القصص، ولكن آيات سورة القصص فصلت القصة بأكثر مما في سورة طه.

أما الآيات التي في سورة القصص فهي كما يلي:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾(1).

وأما آيات سورة طه فهي قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ

(1) سورة القصص: الآيات ٧ ـ ١٣.

﴿... عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ . . . ﴾ الآية[1].

وسنبين هذه القصة من خلال هذه الآيات كما يلي:

١ ــ وحي الله إلى أمّ موسى:

وبعد أن وضعت أمّ موسى به خافت عليه، ولم تدر ما تصنع به حتى لا يقتله الذبّاحون، فحارت وقلقت واضطربت. وفي هذه اللحظات يوحي الله إليها ما تصنع.

ويصف الشهيد سيد قطب حالتها وكيف أن الله طمأنها بقوله: «لقد ولد موسى في ظلّ الأوضاع القاسية، ولد والخطر محدق به والموت يتلفت عليه، والشفرة مشرعة على عنقه، تهمّ أن تحتز رأسه، وها هي ذي أمه حائرة به خائفة عليه، تخشى أن يصل نبؤه إلى الجلّادين، وترجف أن تتناول عنقه السكين. ها هي ذي بطفلها الصغير في قلب المخافة، عاجزة عن حمايته، عاجزة عن إخفائه، عاجزة عن حجز صوته الفطري أن ينمّ عليه، عاجزة عن تلقينه حيلة أو وسيلة... ها هي ذي وحدها ضعيفة عاجزة مسكينة... هنا تتدخّل يد القدرة، فتتصل بالأم الوجلة القلقة المذعورة، وتلقي في روعها كيف تعمل، وتوحي إليها بالتصرف: ﴿وأوحينا إلى أمّ موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليمّ ولا تخافي ولا تحزني إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾»[2]

فالله بهذا الوحي علّمها ماذا تصنع، فأمرها أن تأخذ في رضاعته، حتى إذا خافت عليه فعليها أن تلقيه في اليمّ، ــ واليمّ هو نهر النيل ــ وأمرها أن لا تخاف عليه من الغرق أو الضياع، وأمرها كذلك أن لا تحزن على فراقه.

وأمام هذه الأوامر بشّرها بما يطمئنها وزيادة... بشرها بأنه ــ سبحانه ــ سيرده لها كي ترضعه، وسيجعله في مستقبله من رسله وأنبيائه. وليس هناك أرفع من هذه البشارة وأعظم.

---

(١) سورة طه: الآيات ٣٧ ــ ٤٠.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/٢٦٧٨ ــ ٢٦٧٩.

مسـألـة:

إن الـوحي المذكـور ـ هنا ـ إنّمـا هـو بـواسـطة الملك، ولكن ليس على وجـه النبوة؛ إذ الكل مجمـع على أنهـا ليست بنبيّة لأنّ النسـاء لا يكنّ أنبياء. يقـول تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجـالاً نوحي إليهم...﴾ الآيـة[1] وإنّه كـوحي الله إلى مريم بنت عمران.

وهذا هو القـول الراجـح؛ إذ أنّ ظـاهر الخـطاب بمـا فيـه من الأوامر المتعـددة، وما ختم بـه من البشرى بردّه إليها وبنبوّته في غده، كلّ ذلك يُشير إلى أنّ الوحي المراد بـه هنا ما كان بواسـطة الملك، وليس هذا الـذي يكون بـالإلهام أو في المنـام، ويؤكّد ذلك قوله تعالى في سورة طه: ﴿إذ أوحينا إلى أمّك مـا يوحى. أن اقـذفيه في التـابوت فاقذفيه في اليمّ فليلقه اليمّ بالساحل يأخذه عدوّ لي وعدوّ لـه...﴾ الآية.

فهل من المعقول أن ترمي أمّ ابنها في النهر من أجل خاطر خطر لها في نفسهـا، أو رؤيا رأتها في نومها؛ وهي لا تضمن أن يردّ إليها، فلا بدّ هنا من وحي أكيد يؤكّد لها أن لا تخاف ولا تحزن إذا هي رمته وهذا لا يملكه إلا الله عزّ وجلّ.

وقـد قيـل ـ أيضاً ـ إنّ المـراد بالـوحي هنا: أي على لسـان نبـيّ في وقتها[2]، وهذا القول كذلك مستبعد لكون ظاهر النصّ القرآني يُشير إلى أن الـوحي كان متـوجّهاً إلى أمّ موسى بالذات. والله أعلم.

٢ ـ إلقاء موسى في اليمّ:

وحين خافت عليه اتّبعت أمر الله وألقته في اليمّ، وإنّ الله قد فصّل لها ذلك الأمر في قوله: ﴿أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليمّ فليلقه اليمّ بالساحل يـأخذه عـدوّ لي وعدوّ لـه﴾.

وهكـذا فعلت كما أمـرها الله: جعلتـه في تابـوت ـ وهو الصنـدوق ـ ثم قذفت بالتابوت في نهر النيل.

---

(١) سورة يوسف: الآية ١٠٩.

(٢) انظر: تفسير البيضاوي ٤/٢١.

ثم تـولّى اليمّ وظيفتـه وهــو أن يلقي هـذا الصنــدوق بـالســاحـل ﴿فليقله اليمّ بالساحل﴾ وهو جزاء أخرج مخرج الأمر كـأنّ اليمّ هو المـأمور، والسـاحل هـو مشرعـة آل فرعون التي أمام القصر(١).

وإنهـا للحـظة عجيبــة تلك التي ألقت فيهـا ابنهــا في النيـل دون خــوف عليـه ولا حزن، وما ذاك إلا لأنّ الله طمـأنها ووعـدها وبشّـرها؛ وهي واثقـة بوعـد الله متوكّلة عليه حقّ التوكل: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾(٢).

٣ ــ التقاط آل فرعون لموسى:

وكما قال تعالى: ﴿يأخذه عدوّ لي وعـدوّ لـه﴾ وتحقق ما أراد الله: ﴿فـالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً وحزناً(٣) إنّ فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾.

وها هو ذا عدوّ الله وعدوّ موسى فرعـون المتجبّر، الـذي احترز كـل الاحتراز من الـذي يكون هـلاكه على يـده، ها هـو ذا يلتقطه ويـأخذه عنـده ــ الالتقـاط: أصله من اللقطة وهو ما وجد ضالاً فأخذ، والعرب تقول لما وردت عليه فجأة من غيـر طلب لـه؛ ولا إرادة أصابته التقاطاً(٤) ــ فالتقطه خدمه وأعوانه ومـا علموا أنّ هـلاكهم على يديـه: ﴿ليكـون لهم عدوّاً وحـزناً﴾ عـدواً لهم في دينهم وحزنـاً لمـا يـأتيهم، وجعـل ــ عليـه السلام ــ نفس الحزن إيذاناً بقوّة سببيّته لحزنهم(٥).

وقد بيّن الله عزّ وجلّ أنّ ذلك إنّما كان بسبب ذنـوبهم وأخطائهم العـظيمة: ﴿إنّ فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾ فعاقبهم الله بأن ربّـى من تكون نهـايتهم على يديه بينهم وفي رعايتهم.

قال العلماء: «الخاطىء من تعمّد الذنب والإثم، والمخطىء من فعل الذنب من

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ١٦/١٢٢ ــ ١٢٣.

(٢) سورة الطلاق: الآية ٣.

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف: (حُزْنا) بضم الحاء وإسكان الزاي، وقرأ الباقون بفتحها (النشـر في القراءات العشر لابن الجزري ٢/٣٤١).

(٤) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ٢٠/٢١ ــ ٢٢.

(٥) انظر: تفسير أبـي السعود ٧/٤.

غير تعمّد». ولذلك عبّر الله عن فرعون وهامان وجنودهما بأنّهم كانوا خاطئين؛ إذ كانوا متعمّدين ما يفعلونه من ذنوب وآثام(١).

ويصف سيد قطب هذا المشهد من القصة بقوله: «أهذا هو الأمن؟ أهذا هو الوعد؟ أهذه هي البشارة؟ وهل كانت المسكينة أمّه تخشى عليه إلاّ من فرعون، وهل كانت ترجف إلاّ أن ينكشف أمره لآل فرعون وهل كانت تخاف إلاّ أن يقع في أيدي آل فرعون؟ نعم. ولكنها القدرة تتحدّى. تتحدّى بطريقة سافرة مكشوفة. تتحدّى فرعون وهامان وجنودهما. إنهم ليتتبعون الذكور من مواليد بني إسرائيل خوفاً على ملكهم وعرشهم وذواتهم ويبثّون العيون والأرصاد على قوم موسى كي لا يفلت منهم طفل ذكَر... فها هي ذي يد القدرة تلقي في أيديهم بلا بحث ولا كدّ بطفل ذكَر، وأيّ طفل؟ إنّه الطفل الذي على يده هلاكهم أجمعين! ها هي ذي تلقيه في أيديهم مجرّداً من كلّ قوّة ومن كلّ حيلة، عاجزاً أن يدفع عن نفسه أو حتى يستنجد! ها هي ذي تقتحم به على فرعون حصنه وهو الطاغية السفاح المتجبّر، ولا تتعبه في البحث في بيوت بني إسرائيل، وفي أحضان نسائهم الوالدات ليكون لهم عدوّاً يتحدّاهم وحزناً يدخل إليهم في قلوبهم»(٢).

٤ ــ موقف زوجة فرعون من الطفل الملتقط:

وفي هذه الفقرة من القصة يتضح لنا قوله تعالى: ﴿وألقيت عليك محبّة منّي ولتصنع على عيني﴾ فنشهد آثار هذه المحبة التي ألقاها الله على موسى، والرعاية التي تكفّل له بها سبحانه؛ فإنّه لما التقطه آل فرعون ورآه فرعون وهمّ بقتله خشية أن يكون من بني إسرائيل ــ فإلقاؤه في النيل علامة على أنه من بني إسرائيل ــ جاءته امرأته آسية بنت مزاحم تخاصم عنه وتذبّ دونه، وتجبّب فرعون فيه: ﴿وقالت امرأة فرعون قرّة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون﴾. فما أن رأته إلاّ أحبّته وأشفقت عليه وذلك قوله تعالى: ﴿وألقيت عليك محبّة منّي﴾. قال ابن عبّاس: أحبّه وحبّبه إلى خلقه، فلا يلقاه أحد إلاّ أحبّه من مؤمن وكافر.

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ٢٠/٢١ ــ ٢٢؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٤/٢٣٠.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/٢٦٧٩.

وقال قتادة: كانت في عينيه ملاحة فما رآه أحد إلّا أحبّه[1].

ويروى أنها قالت لفرعون: قرّة عين لي ولك يا فرعون وسألته أن لا يقتله. فقال لها فرعون أمّا لك فنعم وأمّا لي فلا. فكان كذلك.

وقولها: ﴿عسى أن ينفعنا﴾ وقد حصل لها ذلك وهداها الله به وأسكنها الجنة[2].

قال ابن عباس: لو أنّ عدوّ الله فرعون قال كما قالت آسية: عسى أن ينفعنا، لنفعه الله ولكنّه أبى إلّا الشقاء الذي كتبه الله عليه[3].

ويذكر أبو السعود لطيفة في قول امرأة فرعون: ﴿لا تقتلوه﴾ فيقول: «خاطبته بلفظ الجمع تعظيماً ليساعدها فيما تريده»[4].

وأقول: قد يكون الخطاب موجّهاً إلى فرعون ومن معه من الجنود، وكأنّها بذلك تستعطفهم ليكونوا معها ضدّ فرعون في عدم قتله للطفل (موسى). والله أعلم.

وقولها: ﴿أو نتخذه ولداً﴾ أرادت به أن تتبنّاه؛ وذلك أنّه لم يكن لها ولد من فرعون.

ثم يأتي التعقيب بقوله تعالى: ﴿وهم لا يشعرون﴾ ومعناه: أي لا يدرون ما أراد الله من التقاطهم إيّاه من الحكمة العظيمة والحجّة القاطعة؛ وأنّ هلاك فرعون سيكون على يديه[5].

ويقول سيد قطب: «قد اقتحمت به يد القدرة على فرعون قلب امرأته، بعد أن اقتحمت به عليه حصنه، لقد حمته بالمحبّة. ذلك الستار الرقيق الشفيف. لا بالسلاح

---

(١) انظر: أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، زاد المسير في علم التفسير، الطبعة الثالثة، ٩ مج (بيروت، دمشق: المكتب الإسلامي، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ٥/٢٨٤.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ٢٠/٢٢ ـ ٢٣؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٣٨١.

(٣) تفسير الخازن ٥/١٦٥.

(٤) تفسير أبي السعود ٧/٤.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٣٨١.

ولا بالجاه ولا بالمال. حمته بالحبّ الحاني في قلب امرأة وتحدّت به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحذره. وهان فرعون على الله أن يحمي منه الطفل الضعيف بغير هذا الستار الشفيف... فيا للقدرة القادرة التي تتحداهم وتسخر منهم وهم لا يشعرون»[1].

وكذلك يقول في موضع آخر: «يا للقدرة القادرة التي تجعل من المحبة الهيّنة الليّنة درعاً تتكسّر عليها الضربات وتتحطّم عليه الأمواج، وتعجز قوى الشرّ والطغيان كلّها أن تمسّ حاملها بسوء، ولو كان طفلاً رضيعاً لا يصول ولا يجول بل لا يملك أن يقول... إنها مقابلة عجيبة في تصوير المشهد. مقابلة بين القوى الجبّارة الطاغية التي تتربّص بالطفل الصغير، والخشونة القاسية فيما يحيط به من ملابسات وظروف... والرحمة الليّنة اللطيفة تحرسه من المخاوف وتقيه من الشدائد وتلفّه من الخشونة ممثلة في الحبّ لا في صيال ولا نزال...»[2].

٥ ـ حزن أمّ موسى على فراق إبنها:

وبعد أن قذفت به في اليمّ، ولم تعرف ما حصل له؛ وإلى أيّ شيء انتهى أمره، باتت حالتها شديدة من فرط حزنها على فراقه وعدم معرفة حاله.

ولا يعني حزنها وألمها أنّها غير واثقة بوعد الله لها، ولكنّها عاطفة الأمومة ونداء الفطرة... حتى أنه يصل بها الحال إلى أن تكاد تفصح عن أمرها وأنها فقدت ولدها، ولكنّ الله الذي وعدها بأنّه سيرجعه إليها لم يتركها هكذا، بل ثبّتها وربط على قلبها.

يقول تعالى مصوّراً حالتها: ﴿وأصبح فؤاد أمّ موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين﴾، وليس هناك تصوير أحسن من هذا وأبلغ؛ فإنّ قلبها أصبح فارغاً من كلّ شيء من أمور الدنيا إلاّ من ابنها موسى لفرط حزنها عليه[3].

ويذكر الزمخشري في تفسيره الكشاف معنى آخر لقوله تعالى: ﴿وأصبح فؤاد أمّ

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/٢٦٧٩ ـ ٢٦٨٠.

(٢) المرجع السابق ٤/٢٣٣٤ ـ ٢٣٣٥.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ٢٠/٢٤ ـ ٢٥؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٣٨١.

موسى فارغاً﴾ فيقول فيما خلاصته: أي صفراً من العقل. كقوله: ﴿وأفئدتهم هواء﴾ [إبراهيم: ٤٣] أي جوف لا عقول فيها؛ وذلك أنّ القلوب هي مراكز العقول. يقول تعالى: ﴿. . . فتكون لهم قلوب يعقلون بها. . .﴾ [الحج: ٤٦][(١)].

أقول: وما ذكرناه من المعنى أوّلاً هو أنسب بحال المؤمنين كأمّ موسى؛ إذ لا يناسبها أن يقال: إنّ قلبها قد أصبح صفراً من العقل فيشابه حالها حال من ذمّهم الله من الكفرة وغيرهم، وكذلك فإنّ الله قد وضّح أنه ربط على قلبها؛ ولا يكون الربط لمن ليس في قلبه عقل. والله أعلم.

وربط الله على قلبها بأن ألهمها الصبر فثبتها وطمأنها وصبّرها لتكون من الموقنين بوعد الله الصابرين على ابتلائه والسائرين على هداه[(٢)].

٦ ــ إرسال أخته للبحث عنه:

يقول أبو السعود رحمه الله: «يروى أنّه فشا الخبر بمصر بأنّ آل فرعون أخذوا غلاماً في النيل لا يرتضع ثدي امرأة واضطروا إلى تتبّع النساء. . .»[(٣)].

يظهر لنا من هذا الكلام أنه بعد أن وضع الله الصبر في قلب أمّ موسى، بدأ سبحانه في إظهار أسباب ما أراده من إرجاعه لها، فحرّم عليه المراضع: ﴿وحرّمنا عليه المراضع من قبل. . .﴾ الآية والتحريم هنا: المنع. وهو تحريم تكويني، أي قدّر الله في نفس الطفل الامتناع من التقام أثداء المراضع وكراهتها، وذلك ليضطر آل فرعون إلى البحث عن مرضع يقبل ثديها؛ لحرصهم على حياته.

فكان ذلك، وقد علمت أمّ موسى أنّهم يبحثون له عن مرضع، فأرسلت أخته تتبع أثره، وتأخذ خبره وتطلب شأنه من نواحي البلد لعلّها تعثر عليه فتشير لهم بأنّ لديها من ترضعه ولعلّه يلتقم ثديها: ﴿وقالت لأخته قصّيه﴾ فذهبت أخته تبحث عنه ــ والتعبير بأخته دون بنتها للإشعار والتصريح بمدار المحبّة الموجبة للامتثال

---

(١) انظر: الكشاف للزمخشري ٣/١٦٧.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ٢٠/٢٥.

(٣) تفسير أبي السعود ٧/٥.

بالأمر(١) ـ ﴿فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون﴾. قال قتادة: جعلت تنظر إليه وكأنّها لا تريده؛ وذلك أنّه لما استقرّ موسى بدار فرعون وأحبته امرأته واستطلقته منه؛ عرضوا عليه المراضع التي في دراهم، فأبى أن يقبل شيئاً منها، فخرجوا به إلى السوق لعلّهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته، فلما رأته بأيديهم عرفته ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها(٢). وبمعنى آخر أنها ـ كما قيل ـ كانت تمشي جانباً، وتنظره اختلاساً ترى أنها لا تنظره وهم لا يشعرون أنها أخته وأنها ترقبه(٣).

٧ ـ عودة موسى إلى أمّه:

وبعد أن عثرت عليه أخته وعرفته، جاءت لمن هو بأيديهم: ﴿فقالت هل أدلّكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾ أي على من يضمنونه لكم ويحفظونه ويرعونه حقّ رعايته بإرضاعه وبما يحتاج إليه من مقوّمات الحياة وهم ناصحون له؛ لمنزلته عندكم وحرصهم على مسرّة الملك.

وقال ابن عباس: فلمّا قالت ذلك أخذوها وشكّوا في أمرها وقالوا لها: وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه؟ فقالت لهم: نصحهم له وشفقتهم عليه لرغبتهم في سرور الملك ورجاء منفعته. فأرسلوها أي تركوها(٤).

ولما اطمأنّوا إلى كلامها ذهبوا معها إلى منزلهم فدخلوا به على أمّه فأعطته ثديها فالتقمه، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً. وذهب البشير إلى امرأة فرعون مبشّراً لها بموافقة المرضع لموسى فطلبتها وأحسنت إليها وأكرمتها وهي لا تعلم أنها أمّه في الحقيقة، وقيل: إنّها دعتها لتقيم عندها لترضعه، ولكنّها رفضت ذلك وقالت: إنّ لي بعلاً وأولاداً ولا أقدر على المقام عندك، ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي، فوافقت على ذلك وأجرت عليها النفقة. فرجعت أمّ موسى بولدها راضية مرضية، قد أبدلها الله بعد خوفها أمناً، وفي عزّ وجاه ورزق دارّ(٥). وذلك قوله تعالى: ﴿فرددناه إلى أمّه كي تقرّ عينها

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٣٨١.

(٣) انظر: تفسير الخازن ٥/١٦٥.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٣٨٢.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٣٨٢.

ولا تحزن ولتعلم أنّ وعد الله حق ولكنّ أكثرهم لا يعلمون﴾، وقوله ـ أيضاً ـ هناك: ﴿فرجعناك إلى أمك كي تقرّ عينها ولا تحزن. . . ﴾ الآية.

وهكذا عاد موسى إلى أمّه، من أجل أن تقرّ عيناها به ولا تحزن على فراقه بعد ذلك.

وقوله تعالى: ﴿تقرّ عينها﴾ قيل: أصله من القرار لأنّ ما يحبّه الإنسان تسكن عينه عليه، ولا تنظر إلى غيره، وقيل: أصله من القُرّ ـ بضم القاف ـ وهو البرد، وعلى هذا القول فقرّة العين من بردها، لأن عين المسرور باردة، ودمع البكاء من السرور بارد جداً بخلاف عين المحزون فإنّها حارّة ودمع البكاء من الحزن حارّ جداً[(١)].

ومن ثمّ يتحقق وعد الله فتعلم أن وعده حقّ ولا محالة واقع، وليس هناك من هو أوفى بوعده من الله عزّ وجلّ.

ثم يختم الله هذه الآيات التي ذكرت هذه القصة بقوله: ﴿ولكنّ أكثرهم لا يعلمون﴾ أي أكثر الناس لا يعلمون حِكَم الله في أفعاله، وعواقبها المحمودة التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة، ولربما يقع الأمر كريهاً إلى النفوس وتكون عاقبته محمودة في نفس الأمر وكما قال تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبّوا شيئاً وهو شرّ لكم. . . ﴾ [البقرة: ٢١٦] وكقوله ـ أيضاً ـ: ﴿. . . فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ [النساء: ١٩][(٢)].

وبهذا تمّت هذه القصة التي أراد الله منها ما أراد بعد ذلك من تمكين شرعه وتبليغ رسالته ونصر جنده وإغراق أعدائه وإظهار أحكامه في خلقه.

والحمد لله رب العالمين.

* * *

---

(١) انظر: تفسير أضواء البيان لمحمد الأمين الشنقيطي ٤/٤٠٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٣٨٢.

الفصل الثاني

العبر والفوائد

١ ـ العبر والفوائد من تمهيد القصة:

* إن تمهيد القصة بذكر علوّ فرعون وفساده وطغيانه، يشير إلى أنّ ذلك هو سبب انتقام الله منه، والأخذ بناصر المستضعفين من بني إسرائيل الذين استذلهم وذبح أبناءهم واستحيى نساءهم.

وفي هذا تحذير لكل من يسلك مسلك فرعون في أنّه سيصير حتماً إلى ما صار إليه فرعون من انتقام الله منه.

وفيه كذلك إشارة إلى أنّ الصابرين على الظلم والطغيان ستكون العاقبة لهم والنصر من الله حليفهم: ﴿ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾(١).

* وفي هذا التمهيد إشارة إلى حكمة من حكم الله تعالى في قوله: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾ في جانب بني إسرائيل؛ إذ أنّ استضعافهم الذي كانوا يكرهونه جعل سبباً لنصرتهم من الله وإزاحة هذا الظلم عليهم. كما أنّ قوله: ﴿وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرّ لكم﴾ في جانب فرعون وأعوانه إذ كانوا فرحين باستذلالهم بني إسرائيل وتذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم، ولكن كان هذا سبباً في إهلاك الله لهم في الدنيا وعذابه لهم في الآخرة(٢).

كما أنّ الله أظهر في تمهيده أنّ ما علمه وقدره فهو كائن لا محالة ويدل عليه قوله

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٠/٨٥.

(٢) انظر: المرجع السابق ٢٠/٨٥ ـ ٨٦.

تعالى: ﴿ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكّن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾.

وكذلك فإنّ الحذر مهما بلغ لا ينجي من القدر الذي قدره الله وقضاه[1].

* وفيه عبرة ــ أيضاً ــ بأنّ ما يصل إليه أهل الطغيان والفساد من علوّ في الأرض أو فساد بغير الحق؛ ما يلبث أن يزول إن وُجد الحقّ وأهله القائمون به؛ لأنه في حقيقته انتفاشة ما بداخلها واهٍ وضعيف: ﴿فقاتلوا أولياء الشيطان إنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾ [النساء: ٧٦] والحقيقة أنّ العلو الحق إنّما هو لله تعالى وأهل دينه القائمين به؛ ودليله أنّ علوّ فرعون لم يغنه شيئاً في دفع سوء العاقبة عنه. وفي هذا عبرة وإنذار لكل طاغية متجبر، كما أنه تثبيت للمؤمنين إذ أنّ العلوّ والعزة لله ولهم: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين. . ﴾ [المنافقون: ٨]، ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ [آل عمران: ١٣٩].

٢ ــ العبر والفوائد من وحي الله إلى أمّ موسى:

* إنّ من صفات الله العظيمة لطفه بعباده، وخاصة الصالحين منهم، فلطفه بهم أكبر؛ لدرجتهم عنده. وهذا ما نلاحظه في لطفه سبحانه بأمّ موسى وهي حائرة مضطربة خائفة. . أين تذهب بابنها الذي قد وضعته والمخاوف تحوطه؛ فيأتيها الله بالمدد العلوي. . بوحي منه سبحانه يعلمها كيف تتصرف، فيأمرها بإلقائه في اليم ويطمئنها ومن ثم يبشّرها ببشارتين تخففان وتهوّنان كل المصائب والآلام. . بردّه إليها وبجعله في مستقبله رسولاً من عند الله. . وهذا ــ بلا شك ــ دلالة واضحة على عظم لطفه سبحانه.

وهذه الصفة (اللطف) يدركها الصالحون فيزدادون بها تسليماً وانقياداً وخشية لله، وبها يزدادون تقرباً إليه. وهذا والله أعلم على حدّ قوله تعالى: ﴿فإنّ مع العسر يسراً إنّ مع العسر يسراً﴾[2].

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٠/ ٨٥.
(٢) سورة الانشراح: الآيتان ٥ ــ ٦.

* وفي أمر الله لأمّ موسى بأن ترضع ابنها يقابلنا أمران:

الأوّل: يرى السيوطي ـ في كتابه الإكليل ـ «أنه يجب سقي الولد اللبأ وهو اللبن أول الولادة لأنه لا يعيش بدونه غالباً»[1] واستنتج هذا الحكم من قوله تعالى: ﴿أن أرضعيه﴾.

وأقول: إن رأي الإمام السيوطي ـ هذا ـ مرجوح؛ لأن الواقع لا يشير إلى ما قاله، إذ أننا نرى كثيراً من الأمهات في هذا العصر لا يرضعن أولادهنّ لضعفهنّ أو لأسباب أخرى، ومن ثم يعيش الأولاد على اللبن الصناعي.

وقديماً ـ أيضاً ـ كان الأمّهات يعطين أولادهنّ للمرضعات ليرضعن أولادهن، دون أن ترضع أم الطفل طفلها شيئاً.

ولكن ـ لا شك ـ أن إرضاع الأم لطفلها هو الأفضل لفوائد عديدة منها: وقايته من كثير من الأمراض، وشعوره برابطة الأمومة وحنانها.. إلى غير ذلك مما اشتهر من الفوائد التي تعود على الطفل وأمه من أثر الرضاع.

والأولى أن يقال: إن قوله تعالى: ﴿أن أرضعيه﴾ فيه إرشاد للأمهات أن لا يهملن إرضاع أولادهن لأقل الأسباب ـ كابتغاء الراحة وغيرها ـ واستحباب ذلك لأهميته وفوائده.

والثاني: السؤال الذي يورده أبو يحيى زكريا الأنصاري وهو أنه: ما فائدة وحي الله تعالى إلى أم موسى بإرضاعه مع أنها ترضعه طبعاً وإن لم تؤمر بذلك؟

ويجيب عليه بقوله: «أمرها الله بإرضاعه ليألف لبنها، فلا يقبل ثدي غيرها بعد وقوعه في يد فرعون، فلو لم يأمرها به ربما كانت تسترضع له مرضعة؛ فيفوت المقصود»[2].

ومما نلاحظه ـ هنا ـ دقة التدبير الإلهي للأمور، والاهتمام برعاية الأسباب

---

(١) جلال الدين السيوطي، الإكليل في استنباط التنزيل (بيروت ـ لبنان: دار الكتب العلمية) ص ١٧٢.

(٢) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى زكريا الأنصاري ص ٤٢٧.

والأخذ بها؛ مما يجعل كل أمر يسير بطبيعته، وهذا ما كان بشأن موسى عليه السلام فإنّه حين التقم ثدي أمّه وذاقه لم يَرُق له غيره فكان سبباً لعودته إلى أمّه بعد ذلك. فسبحان الله!!

* ومن قوله تعالى: ﴿فإذا خفت عليه﴾ يستدل على أن الخوف الطبيعي من الخلق لا ينافي الإيمان ولا يزيله[1]. إذ أنه أمر فطري؛ مع ضرورة الاعتقاد أن المخوف ليس بيده شيء، وأن ما قدره الله هو النافذ، فالله علم أن أم موسى قد خافت على ولدها من فرعون أن يقتله؛ ولم ينهها عن ذلك، بل هذا الخوف الطبيعي الذي ينتج الحذر والأخذ بالأسباب للبعد عن الأذى والسوء؛ وهذا أمر طبيعي.

* ومن البلاغة القرآنية في الآيات ما يلي:

ـ إنّ قوله تعالى: ﴿وأوحينا إاى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليمّ ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾. حوى إيجازاً بليغاً؛ وذلك لاشتماله على أمرين: (أن أرضعيه ـ فألقيه)، ونهيين: (ولا تخافي ـ ولا تحزني)، وخبرين متضمنين بشارتين: ﴿إنّا رادّوه إليك ـ وجاعلوه من المرسلين﴾. وفي أسهل نظم وأسلس لفظ وأوجز عبارة[2].

ـ إيثار الجملة الإسمية على الفعلية في قوله: ﴿إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ ولم يقل سنرده ونجعله رسولاً؛ وذلك للاعتناء بالبشارة، إذ أن الجملة الإسمية تفيد الثبوت والاستمرار[3].

ـ وقوله تعالى: ﴿يأخذه عدوّ لي وعدوّ له﴾ كرّر فيه كلمة (العدو) للمبالغة والتصريح بالأمر، والإشعار بأنّ عداوته له مع تحققها لا تؤثّر فيه ولا تضره بل تؤدي إلى المحبة، فإن الأمر بما هو سبب للهلاك صورة من قذفه في اليمّ، ووقوعه في يد عدوّ الله وعدوّه مشعر بأن هناك لطفاً خفياً مندرجاً تحت قهر صوريّ[4].

---

(١) انظر: تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ٦/٣٥.
(٢) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى زكريا الأنصاري ص ٤٢٧.
(٣) صفوة التفاسير للصابوني ٢/٤٢٨.
(٤) انظر: تفسير أبي السعود ٦/١٤ ـ ١٥.

٣ ـ العبر والفوائد من إلقاء موسى في اليمّ :

* نستدلّ من تنفيذ أمّ موسى لأمر الله لها بأن تلقي ابنها في النهر ـ الذي يغرق فيه الكبير ـ قبل الصغير ـ على ما وصلت إليه من درجة عالية في طاعتها لله تبارك وتعالى، وعلى قوة ثقتها به.

يقول الإمام ابن القيّم في كلامه عن منزلة الثقة: «وهي التي لقنها الله تعالى لأمّ موسى بقوله لها: ﴿فإذا خفت عليه فألقيه في اليمّ...﴾ الآية فإنّ فعلها هذا هو عين ثقتها بالله، إذ لولا كمال ثقتها بربّها لما ألقت بولدها وفلذة كبدها في تيّار الماء، تتلاعب به أمواجه، وجريانه ألى حيث ينتهي أو يقف»[١].

ونورد بالمناسبة كلاماً له حول حقيقة الثقة حيث يقول: «ومدار التفويض عليها، وهي في وسطه كحال النقطة من الدائرة. فإنّ النقطة هي المركز الذي عليه استدارة المحيط. ونسبة جهات المحيط إليها نسبة واحدة. وكلّ جزء من أجزاء المحيط مقابل لها. كذلك الثقة هي النقطة التي يدور عليها التفويض، كما أنّها سويداء قلب التسليم، فإنّ القلب أشرف ما فيه سويداؤه، ولو كان عيناً لكانت سوادها. ولو كانت دائرة لكانت نقطتها، وكثير من الناس يفسّر التوكل بالثقة ويجعله حقيقتها، ومنهم من يفسّره بالتفويض ومنهم من يفسّره بالتسليم»[٢].

* كما أنّنا نشهد رحمة الأمّ بولدها؛ فإنّها حينما أشفقت عليه أن يقتله فرعون وأوحى الله إليها أن تجعله في صندوق ثمّ تلقيه في اليمّ استسلمت وفعلت ما أمرت به.

فارتكاب أخفّ الضررين فيه رحمة بالولد، فإمّا أن يقتله فرعون وإمّا أن تلقي به في اليمّ وليكن ما يكن فهو أهون عليها من أن يقتل أمامها، ومن بعد فإنّ الله هو الآمر وهو المتصرّف سبحانه وقد وعدها بإرجاعه لها[٣].

---

(١) مدارج السالكين لابن قيّم الجوزيّة ٢/١٤٣، تهذيب المدارج للعزي ص ٣٤٧.

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ٢/١٤٣ ـ ١٤٤، تهذيب مدارج السالكين للعزي ص ٣٤٧.

(٣) انظر: أحمد عز الدين البيانوني، منهاج التربية الصالحة (حلب ـ سوريا: المطبعة العصرية، مكتبة الهدى، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م) ص ١١٥.

ألا فليقتدين الأمّهات بهذه الأمّ صاحبة القلب الرحيم، والتي جمعت مع هذه الرحمة طاعة ربّها، فلم يخيّب الله رجاءها فيه، وحفظ لها ابنها وردّه إليها، بل وبشّرها بنبوّته.

* إنّ الله اختصّ أولياءه من الأنبياء وغيرهم برعاية وعناية، وإنّا لنشهد ـ هنا ـ قمّة الرعاية والعناية لنبيّ الله موسى ـ عليه السلام ـ وهو في مهده. ممّا يدلّ على اصطفائه واختياره لمهمّة جسيمة وهي مهمّة التبليغ لرسالة الله إلى خلقه.

يُقذف به في النهر الذي يغرق فيه الرجال والشبّان ثمّ يحفظه الله لأمّه ويردّه إليها كما وعدها... وتلك عناية الله في أبرز صورها لعباده المصطفين. وكما يقول أحدهم:

إذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلّهنّ أمان[1]

أقول: وهذه العناية قد تكون من أحد الأدلّة على صدق موسى فيما يدعو إليه مستقبلاً. والله أعلم.

٤ ــ العبر والفوائد من التقاط موسى وموقف زوجة فرعون منه:

* إن العبد مهما بلغ من القوة والجبروت فإنّه لا يساوي شيئاً أمام قوّة الله وقدرته وقدره، ففرعون مع ما بلغ في نظر الناظرين من القوّة والجبروت ما بلغ، فإنّ آله قد التقطوا موسى، ثمّ هو لم يقتله تلبية لطلب زوجته، ثمّ أدخله بيته بإرادته، كما أنّه أجرى عليه نفقة، بل وعلى أمّه وكلّ ذلك برضاه... وهكذا لم يقف أحدٌ أمام إرادة الله، ولن يقف ﴿إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾[2].

* وفي قوله تعالى: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً وحزناً إنّ فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾ يقول ابن كثير رحمه الله: «روي عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنّه كتب كتاباً إلى قوم من القدريّة في تكذيبهم بكتاب الله وبأقداره النافذة في علمه السابق وفيه: إنّ موسى في علم الله السابق أنّه يكون لفرعون عدوّاً وحزناً، قال تعالى:

(١) انظر: التفسير الواضح لمحمد محمود حجازي ٢/١٦٧.

(٢) سورة يس: الآية ٨٢.

﴿ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾؛ وأنتم قلتم: لو شاء فرعون أن يكون لموسى وليّاً وناصراً، والله تعالى يقول: ﴿ليكون لهم عدوّاً وحزناً﴾ »(١).

* ومن موقف آسية امرأة فرعون بطلبها عدم قتل موسى تؤخذ عبرة وهي:

إنّ وجود الصالحين من بين المفسدين يخفّف من لأواء فساد المفسدين؛ إذ أنّ منع امرأة فرعون زوجها عن قتل موسى كان سبباً في عدم ارتكابه هذا الفساد والقتل(٢).

وليعتبر الدعاة بهذا ولا يحصروا دعوتهم في فئة معيّنة من الناس، بل لا بدّ أن يخوضوا بدعوتهم في كلّ فئات المجتمع، ليصلحوا في كل فئة من أراد الله له الهداية والاستجابة، حتى يكون ذلك طريقاً إلى إصلاح المجتمع وذهاب الفساد عنه بإذن الله.

* وفي قوله تعالى: ﴿وألقيت عليك محبّة منّي﴾ نشهد عظم قدرة الله في تقليب القلوب فقد نقلنا ـ فيما سبق ـ عن ابن عباس أنّ الله أحبّه وحبّبه إلى خلقه فلا يراه أحدٌ إلا أحبّه من مؤمن وكافر. فالله عزّ وجلّ هو مالك القلوب فبيده تقليب قلوب عباده أيّاً كانوا وفي أية لحظة يريدها دون أيّ حائل.

وفي هذه الحقيقة يقول النبي ﷺ: «إنّ قلوب بني آدم كلّها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرّفه حيث يشاء. . . الحديث»(٣).

فالله أراد أن يحبّه الجميع فكان كما أراد. فسبحان مقلّب القلوب!

* ومن البلاغة القرآنية في الآيات ما يلي:

ـ الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿ولتصنع على عيني﴾، إذ فيه تمثيل لشدّة الرعاية، وفرط الحفظ والكلاءة بمن يصنع بمرأى من النظر؛ لأنّ الحافظ للشيء في الغالب يديم النظر إليه، فمثّل لذلك بمن يصنع على عين الآخر(٤).

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٣٨١.
(٢) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٠/٨٦.
(٣) رواه مسلم: كتاب القدر، حديث (١٨)، ٥/٥٠٩.
(٤) صفوة التفاسير للصابوني ٢/٢٣٥.

ـ صيغة التعظيم في قوله تعالى على لسان امرأة فرعون: ﴿لا تقتلوه﴾ فهي تخاطب فرعون ولم تقل لـه: لا تقتله، بل قالت: (لا تقتلوه) بلفظ الجمـع تعظيماً لـه[1].

وهـذا على أحـد الـرأيين الـذي يشيـر إلى أنّ الخـطاب هـو لفـرعـون وليس لـه ولجنوده.

٥ ـ العبر والفوائد من حزن أمّ موسى على فراقه:

* تظهر لنا عاطفة الأمومة واضحة في أمّ موسى، فها هي ذي تحزن إلى درجة أنّها تريد أن تبوح بأنّها فقدت ابنها؛ وذلك مع علمها وثقتها بأنّ الله سيردُّه إليها، ولكن هي عاطفة الأمومة التي لا تستطيع إخفاءها أيّ امرأة مهما بلغت في إيمانها ما بلغت إذ الأمّ مفطورة على هذه العاطفة تجاه أبنائها!

ألا فليعرف الأبناء عظم حقّ الأمّهات وليرعوا عواطفهنّ، فإنّ هـذه العاطفـة التي وضعها الله في قلب الأمّ ـ زيادة على ما عند الأب ـ لتعطي لنا دلالة كافية على وجوب مراعاة الأمّهات بصفـة خاصّة، ها وقد جاء الإيصاء بالأمّهات بصورة خاصـة في الكتاب والسنّة؛ وهذا يدلّ على قولنا. والله أعلم.

* إنّ الإيمـان يزيـد وينقص، وإنّ من أعظم مـا يزيـد بـه الإيمان، ويتمّ بـه اليقين هـو الصبر عنـد المزعجـات والمصائب، والتثبيت من الله عنـدها، ومصـداق هذا قـوله تعـالى: ﴿لولا أن ربـطنا على قلبهـا لتكون من المؤمنين﴾ أي ليـزداد إيمـانهـا بـذلـك ويطمئنّ قلبها[2].

* إنّ الله عزّ وجلّ لا يترك عباده الصالحين المتقين في أحوالهم المذهلة والمروّعـة التي قدّرها عليهم، بل يمنّ عليهم بالتثبيت وربط الجأش والقلب، وهذه نعمة عظيمـة تحفظ المؤمن من أن يتصرّف بقول أو فعـل ينقص من إيمانـه. بخلاف من استمـرّ قلقه وروعـه وانزعـاجه فـإنّه يضيـع فكـره ويذهـل عقله، فلا ينتفـع بنفسـه في تلك الأحوال ويتصرّف بما لا يليق بالمؤمن[3].

---

(١) المرجـع السابق ٢/٤٢٨.

(٢) انظر: تفسير الشيـخ عبد الرحمن السعدي ٦/٣٥.

(٣) انظر: المرجـع السابق ٦/٣٥.

* ومن البلاغة القرآنية:

الاستعارة في قوله تعالى: ﴿لولا أن ربطنا على قلبها﴾، فإنّ الله شبّه ما قذف في قلبها من الصبر بربط الشيء المنفلت خشية الضياع، واستعار لفظ الربط للصبر[1].

٦ ـ العبر والفوائد من إرسال أخت موسى للبحث عنه:

* إنّ العبد مع معرفته بأنّ قضاء الله وقدره ووعده نافذ ولا محالة واقع، فإنّه لا ينبغي له أن يهمل الأسباب المطلوبة منه؛ ولا يكون ذلك منافياً لإيمانه بخبر الله. وهذا ما شاهدناه من فعل أمّ موسى، فإنّ الله وعدها بأن يردّه إليها؛ ومع ذلك فإنّها اجتهدت في ردّه وأرسلت أخته لتبحث عنه وتطلب خبره[2].

* ومن الأحكام الفقهية التي دلّت عليها الآيات ما يلي:

– جواز خروج المرأة لقضاء حوائجها، وتكليمها الرجال؛ وذلك في حدود الالتزام بشرع الله دونما تقصير فيه، ومع أمن الفتنة من الجانبين[3].

– وفي قوله تعالى على لسان أخت موسى: ﴿هل أدلّكم على من يكفله﴾ يقول الإمام السيوطي: إنّ هذه الآية أصل في الحضانة[4].

ـ جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع؛ إذ أنّه قد ذُكر أنّ أمّ موسى قد أجرى لها فرعون رزقاً بسبب إرضاعها وكفالتها له[5].

ـ وفي قوله: ﴿هل أدلّكم على من يكفله﴾ جواز أن يدلّ الواحد على من يرضع ويكفل[6].

---

(١) صفوة التفاسير للصابوني ٢/٤٢٨.
(٢) انظر: تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ٦/٣٥ ـ ٣٦.
(٣) انظر: المرجع السابق ٦/٣٦.
(٤) الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي ص ١٥٠.
(٥) انظر: تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ٦/٣٦.
(٦) انظر: المرجع السابق ٦/٣٦.

٧ ــ العبر والفوائد من عودة موسى إلى أمّه:

* إنّ الله يقدّر على عبده بعض المشاقّ؛ لينيله سروراً أعظم ينسيه تلك المشاقّ، أو ليدفع عنه شراً أكثر منها. فإنّنا شاهدنا ــ هنا ــ كيف أنّ الله قدّر على أمّ موسى ذلك الحزن الشديد والهمّ البليغ، ثم أتبعه بأن ردّ ابنها إليها على وجه تطمئنّ به نفسها وتقرّ به عينها وتزداد به غبطة وسروراً[1].

* و إنّا لنلمس عظم تدبير الرحمن الرحيم بخلقه، وخاصة بأوليائه وأحبابه، حيث أنّه أعاد لأم موسى ابنها لترضعه وتربّيه أمام ناظريها، بل وتتقاضى على ذلك أجراً وهي آمنة من كيد الكائدين.

ويقول الشيخ محمد محمود حجازي ممثلاً هذه المنّة العظيمة والتدبير المحكم: أنّ الله الذي أخرج اللبن من بين الفرث والدم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين أخرج موسى من بين فرعون وهامان وجنودهما. ولا حرج على فضل الله[2].

* وفي ردّ موسى لأمّه لترضعه فائدة في مستقبله أيضاً، حيث نجد أنّه عاد بعد أن أرضعته أمّه إلى بيت فرعون وترعرع في سلطانه وركب ما يركب آله، ولبس ما يلبسون؛ وأمّه في هذه الفترة مطمئنّة قد استقرّ أنّها أمّه من الرضاع، ولم تُستنكر ملازمة موسى إياها وحنوّه عليها... فلنتأمّل هذا اللطف الربّاني، وقد صان الله نبيّه من الكذب في منطقه، ويسّر الأمر الذي صار به التعلّق بينه وبينها مستمراً ودونما حرج، وهو قد تنعّم بوجود أمّه معه، وأمّه قد قرّت عينها واطمأنّت[3].

* وإنّ الله تعالى من رحمته بعبده الضعيف الذي يريد إكرامه، أن يريه من آياته ويشهده من بيّناته وإعجازه ما يزيد به إيمانه، كما ردّ الله موسى إلى أمّه لتعلم أنّ وعد الله حق[4].

* وختاماً للعبر والفوائد من هذه القصة نقول: إنّ الله ــ تبارك وتعالى ــ إذا أراد

---

(١) انظر: تفسير عبد الرحمن السعدي ٦/٣٥.

(٢) انظر: التفسير الواضح لمحمد محمود حجازي ٢/١٧٧.

(٣) انظر: تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ٦/١٠ ــ ١١.

(٤) انظر: المرجع السابق ٦/٣٦.

أمراً هيّأ الأسباب المفضية إليه[1]، بترتيب وتـدرّج محكم، فإنّ الله قـد قضى أن يهلك فرعون ومن معه من أتباعه لظلمهم وطغيانهم؛ وكان قادراً سبحانـه على أن يهلكهم في لحظة واحدة بفعل عذاب ينزل عليهم من السماء أو ما شابهه.

كما أنّه كان مقدّراً سبحانه نصرة بني إسرائيل، ولكن كلّ ذلك تمّ بخطوات مرتّبة معلومة... فكان إلقاء موسى في اليمّ إلى أن ردّه الله إلى أمّه، وبعد ذلك ممّا كان من حياة موسى مع فرعـون إلى أن قتل القبـطيّ وخرج هـارباً من مصـر إلى أرض مدين ثمّ دعـوته لفـرعون وبني إسـرائيل إلى الإيمـان ثمّ أعرض فـرعون ومن معـه فجاء أمـر الله بإهلاك فرعون ومن معه بالغرق، وأنجي موسى والذين معه...

وتلك سنة الله في دعوته وإظهار كلمته وإعلاء أمره وإعزاز جنده!!

ولا شكّ أنّ في هذه القصة وما تلاها من أحداث لعبرة لكـل صاحب قلب يقظ: ﴿إنّ في ذلك لذكرى لمن كان لـه قلب أو ألقى السمـع وهو شهيد﴾[2].

وبهذا تمّت قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع أمّه بعبرها وفوائدها...

والحمد لله رب العالمين.

* * *

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٠/٨٦.

(٢) سورة ق: الآية ٣٧.

الباب الخامس

قِصَّةُ فَتَاتَيْ مَدْيَنَ

مع أبيهما

وفيه تمهيد وفصلان :

الفصل الأوّل : بيان القصة .

الفصل الثاني : العبر والفوائد .

تمهيد

تمرّ بنا في حياة موسى عليه السلام قصة من قصص الآباء مع أبنائهم ؛ قصة فتاتي مدين مع أبيهما الشيخ الكبير ويشاركهم في هذه القصة موسى عليه السلام .

وعن هذه المرحلة من حياة موسى ــ عليه السلام ــ تحدّثنا الآيات التالية من سورة القصص :

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾(١) .

فيتضح لنا من خلال هذه الآيات أنّ الله سبحانه وتعالى آتى موسى الحكم

---

(١) سورة القصص : الآيات ١٤ ــ ٢٢ .

والعلم. ــ وهما النبوة والرسالة ــ وذلك عند احتكام خلقه وخلقه وهو في سنّ الأربعين على قول الأكثرين.

ثمّ شرع الله في بيان خروجه من بلاد مصر إلى أرض مدين وإقامته هنالك، فإنّه حين دخوله المدينة في وقت غفلة أهلها ــ قيل: ذلك في نصف النهار وقيل: بين العشاءين ــ وجد رجلين يتصارعان ويتهارشان، أحدهما إسرائيلي والآخر قبطي، فطلب الإسرائيلي من موسى أن يعينه على القبطي إذ هو عدوّهما، فأقبل إليه موسى فضرب القبطي بجمع كفّه ــ على الراجح ــ فمات القبطي من هذه الوكزة؛ وقد كان ذلك القبطي كافراً مشركاً بالله العظيم، ولم يرد موسى قتله بالكليّة، وإنّما أراد زجره وردعه.

ويخبرنا الله ــ بعد هذا المشهد ــ أنّ موسى أصبح بمدينة مصر خائفاً من فرعون وملئه أن يعلموا أنّ هذا القتيل الذي رفع إليه أمره إنّما قتله موسى في نصرة رجل من بني إسرائيل فتقوى ظنونهم أنّ موسى منهم، ويترتب على ذلك أمر عظيم. . .

وفي صبيحة ذلك وبينما هو في حالته من الخوف، إذا الرجل الذي طلب منه النصرة بالأمس يستنصره على قبطي آخر، فعنّفه موسى على كثرة شره ومخاصمته: ﴿قال له موسى إنّك لغويّ مبين﴾، ثم أراد أن يبطش بذلك القبطي، فلمّا أقبل عليه: ﴿قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس. . .﴾ الآية، ولعله فهم من كلام الإسرائيلي حين استصرخه ما دلّه على هذا. والله أعلم.

وقيل: إنّ القبطي أخبر فرعون واستعداه على موسى؛ فعرف فرعون أنّ قاتل ذلك الرجل هو موسى فأرسل في طلبه، ولكن سبق جنود فرعون رجل ناصح سعى إليه ليخبره إشفاقاً عليه: ﴿قال يا موسى إنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنّي لك من الناصحين﴾، فخرج موسى من مصر خائفاً يتلفّت خشية أن يدركه أحد من قوم فرعون؛ وهو لا يدري أين يتوجّه ولا إلى أين يذهب، وذلك لأنّه لم يخرج من مصر قبلها، فلمّا سلك الطريق المؤدّي إلى مدين استعان بالله وطلب منه راجياً أن يكون هذا الطريق هو الموصل إلى المقصود. . . وكان له ما ترجّاه من ربّه[1].

ومن هنا وعند وصوله إلى مدين تبدأ قصتنا في هذا الباب التي سنتناولها بالبيان واستخراج العبر والفوائد. والله المستعان.

---

(١) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير ٢/٢٦٢ ــ ٢٦٥.

الفصل الأوّل

بيـان القصـة

يخبرنا الله عزّ وجلّ عن هذه القصة في الآيات التالية :

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ[1] ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾[2].

وسيكون بياننا للقصة من خلال هذه الآيات، وكما يلي :

---

(١) قرأ أبو عمرو وابن عامر: (يَصْدُر) بفتح الياء ورفع الدال، وقرأ الباقون: (يُصْدِر) بضمّ الياء وكسر الدال (حجة القراءات لابن زنجلة ص ٥٤٢).

(٢) سورة القصص: الآيات ٢٣ ــ ٢٨.

١ ـ قدوم موسى إلى ماء مدين ولقاؤه بالفتاتين :

وبعد خروجه ـ عليه السلام ـ من مصر يسّر الله له ووجّهه الوجهة المقصودة، ووصل مدين التي لم تكن تحت سلطان فرعون، وبينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام(١)، وكان من عادة الناس أنّ الغريب إذا قدم بلدة ما؛ وليس لديه فيها أحد يعرفه فإنّه يتوجّه إلى المكان الذي يجتمعون فيه لسقياهم، وهناك يتعرّف على أحدهم ويكون نزيلاً عنده.

قال تعالى: ﴿ولمّا ورد ماء مدين﴾ ولفظة الورود قد تكون بمعنى الدخول في المورود، وقد تكون بمعنى البلوغ إليه. وهذا المعنى الأخير هو المراد هنا، أي: أنّه حين بلغ الماء.

فحين بلغ الماء وجد عليه جماعة من الناس يسقون نعمهم ومواشيهم، ووجد من دونهم وفي مكان أسفل من مكانهم امرأتين تحبسان غنمهما عن الماء حتى تذهب عنه مواشي الناس ثمّ هما يسقيان ماشيتهما بعد ذلك؛ وما فعلا هذا إلا لضعفهما ووجود من هو أقوى منهما على الماء، وكذا لعدم مخالطة الرجال. وحين رآهما: ﴿قال ما خطبكما﴾ أي: ما شأنكما؟ ولماذا تدفعان ماشيتكما وتحبسانها عن الماء، فبيّنتا له السبب الذي ذكرناه آنفاً، وأضافتا بأنّ أباهما شيخ كبير لا يستطيع أن يأتي هو ويسقي بنفسه لضعفه وكبره. وعند سماعه لهذا الكلام لم يتوان في مساعدتهما مع ما كان فيه من التعب، فكفاهما أمر السقي.

وبعد أن سقى لهما ذهب إلى ظلّ شجرة ـ وهذا مشير إلى أنّ الوقت كان حراً وقيظاً وأنّ سفره كان في ذلك الجوّ الحارّ ـ وقال مناجياً الله: ﴿فقال ربّ إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾ محتاج لأمثاله. فهو قد تذكّر نعم الله السالفة عليه فشكر الله وأثنى عليه ثمّ دعا. . . قال هذا القول وهو في جهد شديد، وعرّض بقوله ـ هذا ـ للفتاتين تعريضاً لعلّهما أن يطعماه ممّا به من شدّة الجوع. . . فعرّض بدعاء ولم يصرّح

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود ٨/٧.

بسؤال، فالخير هنا إذاً بمعنى الطعام، حيث روي أنّه لم يكن ذاق طعاماً منذ سبعة أيام[1].

ويصف لنا الشهيد سيد قطب حالته هذه فيقول: «إنّه يأوي إلى الظلّ الماديّ البليل بجسمه، ويأوي إلى الظل العريض الممدود... ظلّ الله الكريم المنّان بروحه وقلبه... ﴿ربّ إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾ ربّ إنّي في الهاجرة ربّ إنّي فقير. ربّ إنّي وحيد. ربّ إنّي ضعيف. ربّ إنّي إلى فضلك ومنّك وكرمك فقير محووج، ونسمع من خلال التعبير رفرفة هذا القلب والتجاه إلى الحمى الآمن، والركن الركين، والظلّ الظليل، نسمع المناجاة القريبة والهمس الموحي والانعطاف الرقيق والاتصال العميق...»[2].

٢ ــ إرسال الأب إحدى ابنتيه لطلب موسى:

يقول تعالى: ﴿فجاءته إحداهما تمشي على استحياء...﴾ الآية، ويظهر لنا ــ هنا ــ أنّ في الكلام حذفاً يدلّ عليه السياق. قال الزجاج: تقديره فذهبتا إلى أبيهما سريعتين، وكانت عادتهما الإبطاء في السقي، فحدّثتاه بما كان من أمر الرجل الذي سقى لهما، فأمر إحداهما أن تدعوه له فجاءته[3].

والفاء في قوله: ﴿فجاءته﴾ تشير إلى أمرين: إلى استجابة الله لدعاء موسى ﴿ربّ إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾ فوفق الله له من يضيفه ويسدّ حاجته، بل ويزوجه ابنته فيضمن أنساً في دار غربة ومأوى وعشيراً صالحاً.

أمّا الأمر الثاني فهو: أنّ أباهما لم يتريّث في الإرسال وراءه، فأرسل إحدى ابنتيه فجاءته وهو لم يزل في مكانه الذي تركته فيه[4].

واختلف في التي جاءته هل هي الصغرى أم الكبرى؟ وهذا ليس بكبير أهمية ولا غرض منه؛ إذ لو كان فيه فائدة لدلّ عليه القرآن.

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ٢٠/٣٧ ــ ٣٨؛ تفسير الكشاف للزمخشري ٣/١٧٠؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٣٨٣ ــ ٣٨٤؛ تفسير القرطبي ١٣/٢٦٩ ــ ٢٧٠.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/٢٦٨٥ ــ ٢٦٨٦.

(٣) تفسير فتح القدير للشوكاني ٤/١٦٨.

(٤) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٠/١٠٣.

يقول الإمام فخر الدين الرازي: «قال محمد بن إسحاق في البنتين: اسم الكبرى صفّورا، والصغرى ليا، وقال غيره: صفرا وصفيرا، وقال الضحّاك: صافورا. والتي جاءته هي الكبرى على قول الأكثرين، وقال الكلبي: هي الصغرى. وليس في القرآن دلالة على شيء من هذه التفاصيل»[1].

وعلى كلّ فإنّ إحداهما أرسلها أبوها إلى موسى لدعوته للمجيء إليه، فأتته وهي على صفة تدل على طهرها وعفافها وحسن دينها: ﴿فجاءته إحداهما تمشي على استحياء﴾.

وذكر(تمشي) ليبني عليه قوله: (على استحياء)، وإلا فإنّ فعل (جاءته) مغن عن ذكر (تمشي)، و(على) هنا للاستعلاء المجازي، واستعيرت للتمكّن من الوصف.

والاستحياء: مبالغة في الحياء، ونكرت للتفخيم. فهي جاءته مستحيية في مشيها، أي تمشي غير متبخترة ولا متثنية[2]. وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بإسناد صحيح: أنّها كانت ساترة وجهها بثوبها مبالغة في الحياء لأنّ ستر وجهها غير واجب عليها[3].

وجاءته قائلة له: ﴿إنّ أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾، وكلامها هذا يشير ـ أيضاً ـ إلى حيائها وأدبها في كلامها، إذ لم تطلبه طلباً مطلقاً، بل أسندت الدعوة إلى أبيها، وعلّلتها بالجزاء؛ وذلك لئلا يوهم كلامها ريبة فيشكّ في حالها، وفيه أيضاً إظهار لعفّتها[4]. كما أنّها بيّنت له الغرض من دعوته مبادرة إليه بالإكرام[5].

واستجاب موسى ـ عليه السلام ـ لهذه الدعوة، وصحب الفتاة إلى بيت أبيها، ويروى عن ابن عباس أنّه قال: إنّ موسى قال ابتداءً: كوني ورائي فإنّي رجل عبرانيّ لا أنظر في أدبار النساء ودلّيني على الطريق يميناً أو يساراً[6].

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٤/٢٤١.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود ٧/٩؛ التحرير والتنوير ٢٠/١٠٣.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٣٨٤.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٣٨٤؛ تفسير أبي السعود ٧/٩.

(٥) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٠/١٠٣.

(٦) تفسير القرطبي ١٣/٢٧١.

وحين قدم على أبيها أخبره بخبره مع فرعون وقومه من القبط: ﴿فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾. ولا يتصور أنّه أخبره دونما سؤال منه؛ فإنّه من العادة أن يفاتح الضيف بالسؤال عن حاله وشأن مقدمه.

والتعريف في (القصص) عوض عن المضاف إليه: أي: قصصه، أو للعهد: أي القصص المذكور آنفاً.

ولمّا أخبره بخبره طمأنه وأزال عنه الخوف؛ إذ أخبره بأنّه أصبح في مأمن من أن يناله حكم فرعون، لأنّ بلاد مدين ليست في سلطانه فهي تابعة لملك الكنعانيين وهم أهل بأس ونجدة.

إذاً فجملة: ﴿نجوت من القوم الظالمين﴾ تعليل للنهي عن الخوف. وأمّا وصف قوم فرعون بالظالمين تصديقاً لما أخبره موسى من إرادتهم قتله قصاصاً من قتل خطأ؛ وما سبق ذلك من خبر عداوتهم لبني إسرائيل(١).

* **مسألة:**

وقبل أن نتمّ القصة تعترضنا مسألة لا بأس بذكرها، وقد اختلف فيها المفسرون وهي:

من هو أبو الفتاتين؟

فالقول المشهور عند كثير منهم أنه: النبي شعيب عليه السلام. ومن لم يقل بهذا اختلفوا في حقيقته، فقيل: هو يثرون ابن أخي شعيب، وقيل: ابن عمه، وقيل: هو مؤمن من قوم شعيب. والحاصل من كلامهم أنّ أبا الفتاتين ليس هو شعيباً.

وهناك قول ثالث بالتوقف في أمره، فلا يجزم بأنّه شعيب أو ليس هو، والله أعلم بحقيقته.

ـ أمّا الذين قالوا بأنّه شعيب فقد احتجّوا بما يلي:

ـ إنّ ظاهر القرآن يدلّ على ذلك. قال تعالى: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾ [الأعراف: ٨٥]، وقوله: ﴿كذّب أصحاب الأيكة المرسلين. إذ قال لهم شعيب ألا تتقون﴾ [الشعراء: ١٧٦ ـ ١٧٧].

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ٢٠/٣٨ ـ ٣٩؛ تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٠/١٠٤ ـ ١٠٥.

وقال قتادة: بعث الله شعيباً إلى أصحاب الأيكة وأصحاب مدين[1].

ـ ومن الحديث: ما رواه الطبراني عن سلمة بن سعد العنزي أنّه وفد على رسول الله ﷺ فقال له: «مرحباً بقوم شعيب وأختان موسى هديت».

وفي رواية: أنّ النبي ﷺ سئل أيّ الأجلين قضى موسى؟ قال: أبرّهما وأوفاهما. ثمّ قال: «إنّ موسى لمّا أرادفراق شعيب ـ عليه السلام ـ أمر امرأته...» الحديث، وفي رواية أخرى: «فلمّا أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به...» الحديث[2].

ـ وروي عن مالك بن أنس أنّه بلغه أنّ شعيباً هو الذي قصّ عليه موسى القصص (قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين)[3].

أقول: وما احتجوا به ليس جازماً على أنّه شعيب؛ فقولهم: إنّ ظاهر القرآن يدل على ذلك فهو ليس دليلاً عليه، إذ أنّ غاية الأمر أنّ شعيباً قد كانت بلده مدين؛ وهذه القصة جرت في مدين. فأين الملازمة بين الأمرين؟.

وأيضاً فإنّه غير معلوم أنّ موسى ـ عليه السلام ـ قد أدرك زمان شعيب، فكيف بشخصه، وقد قيل: إنّ شعيباً كان قبل زمان موسى بمدّة طويلة، لأنّه قال لقومه: ﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ [هود: ٨٩] وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل إبراهيم ـ عليه السلام ـ بنصّ القرآن، وقد علم أنّه كان بين الخليل وموسى ـ عليهما السلام ـ مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة كما ذكره غير واحد، وما قيل من أنّ شعيباً عاش مدة طويلة إنّما هو ـ والله أعلم ـ احتراز من هذا الإشكال.

ثمّ إنّ الأحاديث التي ذكروها، وقد صُرّح فيها باسم شعيب ـ عليه السلام ـ إنّما هي ضعيفة ولا تقوى على الاستدلال بها؛ إذ أنّ مدارها ـ كما قال ابن كثير ـ على عبد الله بن لهيعة المصري وفي حفظه سوء ويُخشى أنّ رفعه لها فيه خطأ.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٣/ ٢٧٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٣٨٤ ـ ٣٨٧.

(٣) انظر: المرجع السابق ٣/ ٣٨٤ ـ ٣٨٧.

وما روي عن مالك بن أنس فإنّه لا يقتضي القطع بـه؛ إذ أنّـه قال: بلغـه ذلك، ومعلوم أنّ قوله: (بلغه) لا تفيد الجزم القاطع[1].

وهكذا يتضح لنا مما سبق أنّه لا دليل قاطع يوجب كون أبيهما هو شعيب عليه السلام.

وأما الذين قالوا بأنّه ليس بشعيب عليه السلام استدلوا ـ إضافة إلى ما سبق في الرد على من قال بـه ـ بما يلي:

ـ إنّ الله أهلك بعض قوم شعيب وهم الذين كذّبوه، ولم يبق إلا من آمن بـه؛ وقد أعاذ الله المؤمنين بـه أن يرضوا لبنتيّ نبيّهـم بمنعهما من الماء، وصدّ ماشيتهمـا، حتى يأتيهما رجل غريب فيحسن إليهما ويسقي ماشيتهما.

ـ ثم كيف يسوغ لنبي أن يرضى لابنتيه بسقي الغنم. . .

ـ وما كان شعيب ليرضى أن يرعى موسى عنده ويكون خادماً لـه، وهو أفضل منه وأعلى درجة، إلا أن يقال: هذا قبل نبوّة موسى فلا منافاة.

ـ وأخيراً لو كان ذلك الرجل شعيباً لذكره الله تعالى ولسمّته الفتاتان[2].

ـ **أقول**: وهذه الأمور ليست بكافية للقول بـأنّه ليس هـو شعيباً؛ فمـا ذكر من أنّ المؤمنين لا يُتوقّع منهم هذا مع ابنتي نبيّهم، فقد يكون العرف بين النـاس آنذاك أن يسقي الرجال أوّلاً ثمّ النساء، والناس بأعرافهم ولا حرج.

وأمّا قولهم: كيف ساغ للنبيّ أن يرضى لابنتيه بسقي الغنم. فأجيب عنـه: «بأنّ الأمر في نفسه ليس بمحظور فالدين لا يأباه، وأمّا المروءة فالنـاس مختلفون في ذلك والعادات متباينة فيه، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم، ومذهب أهل البدو فيه

---

(١) انظر: قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص ٢٠٢ ــ ٢٠٥؛ تفسير ابن كثير ٣/٣٨٤ ــ ٣٨٥؛ وعبد الله بن لهيعة: بفتح اللام وكسر الهاء، ابن عقبة الحضرمي، أبو عبد الرحمن المصري، القاضي، صدوق من السابعة، خلط بعد احتراق كتبه، ورواية ابن المبارك وابن وهب أعدل من غيرهما، وله في مسلم بعض شيء مقرون، مات سنة أربع وسبعين وقد ناف على الثمانين. (تقريب التهذيب لابن حجر ١/٤٤٤).

(٢) تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ٦/١٩ ــ ٢٠.

غير مذهب أهل الحضر خصوصاً إذا كانت الحال حال ضرورة»[1].

وكذلك فإنّه لا يقال إنّ موسى كان خادماً لشعيب وكيف يرضى شعيب بذلك، إذ أنّه قد رعى موسى بأجر ــ كما هو واضح في الآيات ــ فكان أجيراً عنده وليس خادماً.

ثمّ إنّه ليس بواجب على الله أن يذكر اسمه إن كان هو شعيب عليه السلام، وعدم ذكر الفتاتين لاسم أبيهما ــ هنا ــ ليس دليلاً في أنّه ليس هو شعيب. والله أعلم.

فيظهر لنا أنّه ليس في كلامهم ما يثبت أنّه ليس بشعيب عليه السلام.

وبإيرادنا لهذين الرأيين وما احتجّوا به، والرد على كل منهما، يظهر لنا أنّ أفضل رأي في هذه المسألة هو التوقّف؛ إذ لا أرى ما يرجّح به أحدهما على الآخر. وهذا ما أخذ به عمدة المفسرين ابن جرير الطبري ــ رحمه الله ــ حيث قال: «وهذا ممّا لا يدرك علمه إلا بخبر ولا خبر بذلك تجب حجّته فلا قول في ذلك أولى بالصواب ممّا قاله الله جلّ ثناؤه. . .»[2]. والله أعلم.

وبعد بيان هذه المسألة نعود إلى قصتنا بالفقرة التالية:

٣ ــ استئجار موسى عليه السلام وزواجه:

ولقي موسى ما لقيه من الجزاء باستضافته وإطعامه، وبذلك تمّ السبب من دعوته. وبعد هذا نقف أمام عرض ذكي من إحدى الفتاتين على أبيها! والعرض هو استئجار موسى ــ عليه السلام ــ وذلك ليرعى الماشية إذ لم يكن لديهم رجل يقوم بذلك؛ وقد كبر الأب وهو لا يستطيع القيام بذلك، وهي قد رأت من قوّته وأمانته ما رأت. . . !

﴿قالت إحداهما يا أبت استأجره إنّ خير من استأجرت القويّ الأمين﴾.

وقولها: ﴿إنّ خير من استأجرت القويّ الأمين﴾ تعليل جار مجرى الدليل على أنّه حقيق بالاستئجار، وللمبالغة في ذلك جعل (خير) اسماً لـ (إنّ) وذكر الفعل (استأجر) على صيغة الماضي للدلالة على أنّه أمين مجرّب[3].

---

(١) تفسير الألوسي ٢٠/٦١.

(٢) تفسير ابن جرير الطبري ٢٠/٤٠.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود ٧/١٠.

وكلامها ــ هذا ــ كلام حكيم جامع لا يزاد عليه؛ لأنّه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان (القوّة والأمانة) فقد فرغ البال وتمّ المراد، بحيث أنّه يملك القوّة على حفظ الماشية والقيام عليها في إصلاحها وصلاحها، وكذا فإنّه أمين لا يخاف من خيانته فيما يؤتمن عليه.

وقيل: إنّها لمّا قالت ذلك لأبيها استنكر ذلك من وصفها إيّاه، فقال لها: وما علمك بذلك؟ فقالت: أما قوّته فما رأيت من علاجه ما عالج عند السقي على البئر، وأمّا الأمانة فما رأيت من غضّ البصر عنّي[1].

ولم يرفض الأب طلب ابنته بل استجاب لها، ولكنّه قرن طلب الاستئجار بأمر آخر وهو الزواج من إحدى ابنتيه: ﴿قال إنّي أريد أن أنكحك إحدى ابنتيّ هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشقّ عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾. وكأنّ النكاح هو الأصل في الطلب دون الاستئجار، وهذا مشعر باهتمام الأب بموسى ــ عليه السلام ــ وإرادة الخير له.

ومعنى كلام الأب أنّه قال له أزوّجك إحدى ابنتيّ على أن تثيبني من تزويجكها رعي ماشيتي ثماني سنين ــ (على) من صيغ الشرط في العقود ــ فإن أكملت ما شرطته عليك وهي الثماني؛ فجعلتها عشر سنين فذلك إحسان من عندك وليس هو ممّا اشترطته عليك بتزويجك ابنتي، وما أريد أن أكلّفك مشقة ــ المشقّة: العسر والتعب والصعوبة في العمل. والأصل أن يوصف بالشاقّ العمل المتعب، فإسناد أشقّ إلى ذاته إسناد مجازي لأنّه سبب المشقّة، أي ما أريد أن أشترط عليك ما فيه مشقتك ــ وستجدني إن شاء الله من الصالحين في الوفاء بما قلت لك من حسن المعاملة ولين الجانب[2].

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ٢٠/٤٠؛ تفسير الكشاف للزمخشري ٣/١٧٢.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ٢٠/٤١ ــ ٤٢؛ تفسير الكشاف للزمخشري ٣/١٧٣؛ التحرير والتنوير ٢٠/١٠٩.

٤ ـ موافقة موسى على طلب الأب:

وقابل موسى هذا الطلب مع شروطه بالموافقة والرضا به: ﴿قال ذلك بيني وبينك أيّما الأجلين قضيتُ فلا عدوان عليّ والله على ما نقول وكيل﴾.

وقوله: ﴿ذلك بيني وبينك﴾ هو جواب قبوله، وبه تمّ التعاقد على النكاح والإجارة.

وإطلاق قوله: ﴿بيني وبينك﴾ مجاز في معنى الثبوت واللزوم والارتباط(١). بمعنى أنّ هذا الذي قاله الأب بتزويج موسى على أن يأجره ثماني حجج هو واجب بينهما على كلّ واحد منهما حقّ الوفاء لصاحبه بما أوجبه له على نفسه(٢).

وحتى يؤكّد على عدم إلزامه بالعشر ولا بأكثر منها قال: ﴿أيّما(٣) الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ والله على ما نقول وكيل﴾ أي: أيّ الأجلين الثماني أو العشر فرغ منها، وأوفى بما عهد إليه من الرعي فيها؛ فليس له أن يعتدي عليه ويطالبه بأكثر منه. ثمّ ختم كلامه بإشهاد الله على أمرهما الذي اتفقا عليه، وأراد ـ أيضاً ـ من إشهاده: أنّه إذا أخلّ أحدهما بشيء فإنّ الله مؤاخذه بتفريطه، ولا سبيل لأحدهما إلى الخروج عن شيء من ذلك(٤).

وقد قضى موسى ـ عليه السلام ـ أطول الأجلين. ودليله ما رواه البخاري في صحيحه عن سعيد بن جبير قال: «سألني يهودي من أهل الحيرة: أيّ الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله. فقدمت فسألت ابن عباس فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما إنّ رسول الله إذا قال فعل»(٥).

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٠/١٠٩.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ٢٠/٤٢.

(٣) أيّما: منصوب بـ(قضيت)، وأيّ اسم موصول مبهم مثل (ما)، وزيدت بعدها (ما) للتأكيد ليصير الموصول شبيهاً بأسماء الشرط لأنّ تأكيد ما في اسم الموصول من الإبهام يكسبه عموماً فيشبه الشرط، فلذلك جعل له جواب كجواب الشرط (التحرير والتنوير ٢٠/١١٠).

(٤) انظر: تفسير ابن جرير الطبري٢٠/٤٢؛ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٠/١١٠.

(٥) رواه البخاري: ٥٢ ـ كتاب الشهادات، ٢٨ ـ باب من أمر بإنجاز الوعد، حديث (٢٦٨٤) =

وأمّا ما ذكر من أنّه تزوّج الصغرى واختارها فإنّه لم يصحّ حديث في هذا[1].

ثمّ إنّ في اختلافهم فيمن جاءته أهي الكبرى أم الصغرى فقد قيل: إنّه اختار التي جاءته دون الأخرى؛ لأنّها هي التي عرف أخلاقها باستحيائها وكلامها فكان ذلك ترجيحاً لها عنده[2].

وهذا الكلام نميل إليه بأنّ من جاءته هي التي اختارها لزواجه لمعرفته بحالها والله أعلم.

* * *

= (فتح الباري شرح صحيح البخاري ٥/٢٨٩ ـ ٢٩٠).

(١) انظر: فتح القدير للشوكاني ٤/١٧١ ـ ١٧٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٠/١٠٦.

الفصل الثاني

العبر والفوائد

١ ـ العبر والفوائد من قدوم موسى إلى مدين ولقائه بالفتاتين:

* إنّ الأخلاق الإسلامية لا تقتصر على وقت دون وقت، وحال دون حال. فحينما يكون الإنسان في كامل قواه يقوم بها؛ وكذلك حين بلوغه مبلغاً من التعب. فهذا موسى ـ عليه السلام ـ مع ما كان عليه من التعب ولكن نخوته وخلقه أبى إلا وأن يساعد ويقدّم المعونة.

وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان في كلّ أحواله... فالأخلاق أمر ثابت لا يتغيّر بتغيّر حالات الإنسان.

* إنّ الرحمة بالخلق والإحسان على من يعرف الإنسان وعلى من لا يعرف من أخلاق الأنبياء والصالحين... فها هو ذا سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ غريب على البلاد ولكن لم يمنعه ذلك من سقي الماشية الماء، وإغاثة من عجز عن ذلك ورأفته به[1].

أقول: وهذا الخلق ما ينبغي أن يحرص عليه كل داعية إلى الله حتى يكون محبوباً لدى الجميع، ومن ثمّ فإنّه إذا دعاهم إلى أمر من بعد كانوا من المستجيبين.

ولربّما إنسان تقابله في حياتك مرّة واحدة فتسدي إليه آنذاك معروفاً، ثم أنت لا تذكره بعد ذلك؛ ولكن هو يذكرك، فيأتي يوم فتجده ينصرك ويؤازرك من أجل خدمة وإحسان أحسنت به إليه في لحظة حاجة... ألا فليقتد الدعاة بالأنبياء ولا يبخلن على

---

(١) انظر: تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ٦/٣٧ ـ ٣٨.

الناس ـ كلهم لا بعضهم ـ بما يقدرون عليه من خدمات اجتماعية لهم، فإنّ هذا ضمان لكسب قلوبهم وآرائهم في جانب الحق وأهله.

* ومن الأحكام الفقهية التي تدلّ عليها الآيات ما يلي:

- إنّه لا مانع من خروج النساء في طلب حوائجهنّ، بشرط التقيّد باللباس الشرعي؛ ومراعاة أدب الكلام مع الرجال فيما يعني ودونما إخضاع به.

- وفي سؤاله عليه السلام الفتاتين عن سبب عدم سقيهما دليل على جواز مخاطبة الأجنبية فيما يعني[(١)]. مع الالتزام بآداب الشرع في مخاطبة الأجنبيّات.

- استحباب الدعاء بتبيين الحال وشرحها مع كون الله عالماً بها؛ لأنّه تعالى يحبّ تضرّع عبده، وإظهار ذلّه ومسكنته، وذلك كما قال موسى: ﴿ربّ إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾[(٢)].

٢ ـ العبر والفوائد من إرسال الأب إحدى ابنتيه لطلب موسى:

* إنّ المكافأة على الإحسان لم يزل دأب الأمم السابقين[(٣)]. وهو على حدّ قوله تعالى: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ [الرحمن: ٦٠]، وفيه قول الشاعر:

من يفعل الخير لا يَعْدَم جوازيَه   لا يذهب العرف بين الله والناس

فها هو ذا الأب حين علم بإحسان موسى إلى ابنتيه قام بطلبه ليكافئه على إحسانه.

* وفي وصف الله تعالى للفتاة: ﴿فجاءته إحداهما تمشي على استحياء...﴾ يدلّنا على ما كانت عليه الفتاة من عظم الحياء، وهذا مدح من الله لها. وفيه إشارة إلى ما ينبغي أن يكنّ عليه الفتيات من الحياء وأهمية ذلك في حفظ أنفسهنّ عند لقاء الرجال...

وحتى في حديثها لموسى كانت بكلّ أدب ووضوح وطهر وعفاف.

---

(١) انظر: تفسير الألوسي ٢٠/٦٠.
(٢) تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ٦/٣٨.
(٣) المرجع السابق ٦/٣٨.

يقول الشهيد سيد قطب مصوراً حالها الذي ينبغي أن يكنّ عليه كلّ الفتيات:

«. . .دعوة تحملها إحداهما وقد جاءته (تمشي على استحياء) مشية الفتاة الطاهرة الفاضلة العفيفة النظيفة حين تلقى الرجال على استحياء، في غير ما تبذّل ولا تبرّج ولا تبجّج ولا إغراء. جاءته لتنهي إليه دعوة في أقصر لفظ وأخصره وأدلّه يحكيه القرآن بقوله: ﴿إنّ أبي يدعوك ليجزيكَ أجر ما سقيت لنا﴾، فمع الحياء الإبانة والدقّة والوضوح، لا التلجلج والتعثّر والرّبكة، وذلك كذلك من إيحاء الفطرة النظيفة السليمة المستقيمة، فالفتاة القويمة تستحي بفطرتها عند لقاء الرجال والحديث معهم، ولكنّها لثقتها بطهارتها واستقامتها لا تضطرب. . . الاضطراب الذي يطمع ويغري ويهيّج، إنّما تتحدّث في وضوح بالقدر المطلوب ولا تزيد»[1]. وكما يقولون: جمال النساء بحيائهنّ وعفافهنّ وطهرهنّ.

ألا فلتتمسك الفتيات بالجمال الحقيقي. . .

* وممّا لا شك فيه أنّ هذا الحياء الذي تخلّقت به الفتاة، إنّما هو أثر ونتيجة للتربية الصالحة التي وجدتها من أبويها.

وممّا هو معلوم أنّ خطر النساء عظيم إذا تركن بلا تربية صالحة، وإنّ لأعظم الفتن وأوّلها تأثيراً في المجتمعات خروج النساء عن حيائهنّ وعفافهنّ. . .

ولذلك أرشد ديننا الحنيف إلى وجوب الاهتمام بتربية البنات وتنشئتهنّ النشأة الصالحة، وجعل لمن قام بتربية بناته على الالتزام بدين الله وشرعه أجراً عظيماً، فعن أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ: «من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو ــ وضم أصابعه ــ. . .»[2].

فليحرص الآباء على حسن تربيتهم لبناتهم حتى يكنّ عنصر إصلاح في المجتمع لا عامل هدم وفساد.

* ويستفاد من قبول موسى ــ عليه السلام ــ للذهاب إلى أبي الفتاتين: أنّ العبد

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/٢٦٨٦ ــ ٢٦٨٧.

(٢) رواه مسلم: كتاب البرّ والصلة، باب فضل الإحسان إلى البنات، حديث (١٤٦)، ٥/٤٨٦.

إذا عمل عملاً لله تعالى ثمّ حصلت لـه مكافـأة عليه من غيـر قصد؛ فـإنّه لا يُـلام على ذلك ولا يُؤاخذ[1].

٣ ــ العبر والفوائد من طلب استئجار موسى وزواجه:

* إنّ في عـرض الفتاة ــ على أبيهـا ــ أمر استئجـار موسى لـه دلالـة واضحـة إلى حرصها على عدم الاختلاط مع الرجال ومزاحمتهم لتعفّفها هي وأختها عن ذلك.

يقول سيـد قطب ــ رحمه الله ــ في ذلك: «إنّها وأختها تعانيـان من رعي الغنم، ومن مـزاحمة الـرجال على المـاء، ومن الاحتكاك الـذي لا بدّ منـه للمرأة التي تـزاول أعمال الرجال. وهي تتأذّى وأختها من هذا كلّه، وتريد أن تكون امرأة تـأوي إلى بيت، امرأة عفيفة مستورة لا تحتكّ بـالرجـال الغربـاء في المرعى والمسقى. والمـرأة العفيفة الروح النظيفة القلب السليمة الفطرة لا تستريـح لمـزاحمة الـرجال ولا للتبـذّل الناشيء من هذه المزاحمة... وها هو ذا شابٌ غريب طريد وهو في الوقت ذاته قويّ أمين»[2].

* يدل إبداء الرأي من قِبَل الفتاة على حسن طريقة التربية التي كان يتمتّـع بها ذلك الأب الصالـح؛ فهو لا يحرم ابنته من حقّ إبداء رأيها فيما فيه وجه لإبداء الرأي.

وإنّنا لنلاحظ أنّ هذا الجانب من التربية قد يفقده بعض الآباء؛ إذ أنّهم لا يعطون لبنـاتهم فرصـة لإبداء آرائهنّ ويعتبـرون أنّ المرأة ــ وخصـوصاً ــ إذا لم تتـزوّج بعد ــ ليس لها رأي أمام أبيها. وهذا الأسلوب ممّـا يؤثّر تـأثيراً واضحـاً على شخصيّة الفتـاة، فتكون شخصيتها مضـطربة غيـر قادرة على اتخـاذ الرأي المنـاسب في مواجهـة ظروف الحيـاة المتغيّـرة، غيـر واثقـة بنفسهـا تخشى الـلائمـة إن هي أبـدت رأيهـا أو فعلت ما تراه... إذاً فلا بدّ أن تعطى الفتاة حق إبداء رأيها فيمـا فيه وجـه للرأي، وفي حدود عدم الخروج على قول الشرع الحنيف.

ويصف لنا سيد قـطب موقف تلك الفتـاة ــ التي أعطيت هـذا الحق وتربّت على هــذا الأسلوب الحكيم ــ قـائــلاً: «وهي لا تتلعثم في هــذه الإشــارة ولا تضــطرب

---

(١) انظر: تفسير الشيـخ عبد الرحمن السعدي ٣٨/٦.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ٢٦٨٧/٥.

ولا تخشى سوء الظنّ والتهمة. فهي بريئة النفس، نظيفة الحسّ، ومن ثمّ لا تخشى شيئاً ولا تتمتم ولا تجمجم وهي تعرض اقتراحها على أبيها...»[1].

* ثم إنّ في استنتاج الفتاة أنّ موسى ـ عليه السلام ـ يتمتع بصفتي القوّة والأمانة؛ ما يدلّ على ذكائها وفطنتها ورجاحة عقلها. فقوّته بَنَتْها على ما رأت فيه من قدرته على السقي ومعالجته لفم البئر، أمّا أمانته فلما رأت من غضّ بصره عنها؛ فما دام هو أمين على العِرض، فإذاً هو أمين على المال وعلى غيره. وهكذا فإنّها لم تقل: استأجره وفقط، بل بَنَت كلامها هذا على ما اعتقدته ورأته منه.

وكذلك فإنّ اختيارها لهذين الوصفين (القوّة والأمانة) بالذات، ليدلّ على معرفتها بما يقوم به العمل ويصلح له ـ وهذه ميزة لا توجد في كثير من الفتيات ـ فهذان الوصفان لازمان في كلّ من يتولّى عملاً بإجارة أو غيرها؛ إذ أنّ الخلل لا يكون إلا بفقدهما أو فقد أحدهما، وباجتماعهما فإنّ العمل يتمّ ويكمل ويتحقق الغرض الذي أريد منه.

وممّا ذُكر في هذا الشأن قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القويّ»، ففي مضمون الشكاية سؤال الله تعالى أن يعطيه من الولاة من جمع وصفَيْ القوة والأمانة.

كما أنّ في مدحها له بهاتين الصفتين دون غيرها بقاء لحشمتها، فهذا أجمل شيء في مدح النساء للرجال من المدح الخاصّ الذي قد تدخل فيه بعض الكلمات التي لا تليق بمقام فتاة عفيفة[2].

* وفيما روي من أنّ أباها لما قالت له (استأجره...) دخلته الغيرة فقال لها: وما علمك بقوّته وأمانته؟ دلالة على ما ينبغي أن يكون عليه الآباء من الغيرة والحرص على بناتهم حتى يحفظوهن من غوائل الشيطان وأوليائه.

ومن المؤسف أن نجد في عصرنا من الآباء من لا يأبه بمخالطة بناته للرجال

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/٢٦٨٧.

(٢) انظر: محاسن التأويل للقاسمي ١٣/١٠٣.

والتحدّث معهم، بل والذهاب والمجيء معهم، وهؤلاء ـ بلا شك ـ أناس قد نزعت الغيرة من قلوبهم، وذهب الحياء عنهم، ولم يؤدّوا حقّ الله عليهم في بناتهم، وخدعوا بمظاهر الغرب المنحلّ، ونفّذوا خطط اليهود وأعوانهم المفسدين الذين يريدون إفساد المجتمعات الإسلامية وانحلالها وبالتالي سيكون ضعفها وسقوطها في الهاوية . . .

ألا فليرجع هؤلاء الآباء إلى دينهم الحقّ وليحفظوا أبناءهم وليقدّروا عظم مسؤوليتهم أمام الله.

* وفي قبول أبي الفتاتين رأي ابنته في استئجار موسى: دليل على حرصه واهتمامه بحفظ بناته وعلى أن لا يخالطن الرجال. وهذا يشير إلى أنّه كان يسمح لهما بالخروج للضرورة.

وهذا ما ينبغي أن يكون عليه كلّ أب تجاه بناته بأن يأخذ بكلّ سبب يبعد به بناته عن الاحتكاك بالرجال حتى يصونهنّ من الفتن، وفي المقابل ـ أيضاً ـ حتى لا يفتتن بهنّ أحد من الرجال. . . ومن المعلوم أنّ أكثر المشاكل الاجتماعية والمفاسد إنّما سببها هو الاختلاط بين الجنسين.

* وقول الأب لموسى: (وما أريد أن أشقّ عليك) فيه دلالة على أنّ من مكارم الأخلاق أن يحسن الإنسان خلقه لأجيره وخادمه ولا يشقّ عليه بالعمل[1].

* ثمّ إنّ قوله ـ أيضاً ـ له: ﴿ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾ ليس هو من تزكية النفس المنهيّ عنها في قوله تعالى: ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتّقى﴾ [النجم: ٣٢]، لأنّه قصد بذلك تعريف خلقه لصاحبه حتى يطمئنّ إليه، ولم يقصد الفخر والتمدّح، فضلاً عن أنّه قدّم المشيئة. فما كان لغرض في الدين أو المعاملة فذلك حاصل لداع حسن ولا شيء فيه كما قال يوسف: ﴿اجعلني على خزائن الأرض إنّي حفيظ عليم﴾ [يوسف: ٥٥][2].

* ومن الأحكام الفقهية التي دلّت عليها الآيات ما يلي:

---

(١) تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ٦/٣٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٠/١٠٩.

ـ في قوله تعالى: ﴿يا أبت استأجره...﴾ يقول الإمام القرطبي: «فيه دليل على أنّ الإجارة كانت عندهم مشروعة معلومة، وكذلك كانت في كلّ ملّة، وهي من ضرورة الخليقة ومصلحة الخلطة بين الناس»(١).

ـ وفي قوله: ﴿إنّي أريد أن أنكحك إحدى ابنتيّ هاتين﴾ يظهر لنا جواز عرض الوليّ ابنته على الرجل. فهذا أمر لا شيء فيه، وهو مقرّر في سنّة النبي ﷺ. فإنّه متى ما رأى الوليّ رجلاً صالحاً لأن يكون زوجاً لابنته فله أن يتخيّره ويطلب منه الزواج بابنته ولا يلام على هذا.

وقد أفرد الإمام البخاري باباً في كتاب النكاح أسماه: «باب عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير». وذكر فيه: أنّ سالم بن عبد الله سمع عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يُحدّث أنّ عمر بن الخطاب حين تأيّمت حفصة بنت عمر من خنيس بن حذافة السهمي، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ فتوفّي بالمدينة. فقال عمر بن الخطاب: أتيت عثمان بن عفّان فعرضت عليه حفصة فقال: سأنظر في أمري، فلبث ليالي ثم لقيني فقال: قد بدا لي أن لا أتزوّج يومي هذا، قال عمر: فلقيت أبا بكر الصدّيق فقلت: إن شئت زوّجتك حفصة بنت عمر، فصمت أبو بكر فلم يرجع إليّ شيئاً وكنت أوجد عليه منّي على عثمان، فلبثت ليالي ثمّ خطبها رسول الله ﷺ فأنكحتها إيّاه، فلقيني أبو بكر فقال: لعلّك وَجَدْت عليّ حين عرضْتَ عليّ حفصة فلم أرجع إليك شيئاً. قال عمر: قلت: نعم. قال أبو بكر: فإنّه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليّ إلاّ أنّي كنت علمت أنّ رسول الله ﷺ قد ذكرها فلم أكن لأفشي سرّ رسول الله ﷺ؛ ولو تركها رسول الله لقبلتها(٢).

وكذلك فإنّه يجوز أن تعرض المرأة نفسها على الرجل الصالح، وقد أفرد ـ أيضاً ـ الإمام البخاري باباً أسماه: «عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح»، وذكر فيه: «أنّ امرأة عرضت نفسها على النبيّ ﷺ فقال له رجل: يا رسول الله

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣/٢٧١.
(٢) رواه البخاري: كتاب النكاح، باب عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير، حديث (٥٦)، ٧/٢٣ ـ ٢٤.

زوّجنيها. . . » الحديث[1].

إذاً فهذا أمر مقرّر في الشرع، ولا شكّ أنّ له إيجابيات عديدة أهمّها: إنّ في هذه الطريقة ضمانٌ لزواج الصالحين بالصالحات، وما يتبع هذا من قلّة الخلافات الأسرية والمشاكل الاجتماعية، وكذلك يتبعه إنشاء جيل صالح. . . إلى غير ذلك من الفوائد الاجتماعية. . .

وللشهيد سيد قطب كلام ممتاز حول هذا الموضوع فيقول: «وهكذا في بساطة وصراحة عرض الرجل إحدى ابنتيه من غير تحديد، عرضها في غير تحرّج ولا التواء، فهو يعرض نكاحاً لا يخجل منه، يعرض بناء أسرة وإقامة بيت وليس في هذا ما يخجل، ولا ما يدعو إلى التحرّج والتردّد والإيماء من بعيد، والتصنّع والتكلّف مما يشاهد في البيئة التي تنحرف عن سواء الفطرة، وتخضع لتقاليد مصطنعة باطلة سخيفة، تمنع الوالد أو وليّ الأمر من التقدّم لمن يرتضي خلقه ودينه وكفايته لابنته أو أخته أو قريبته، وتحتّم أن يكون الزوج أو وليّه أو وكيله هو الذي يتقدّم، أو لا يليق أن يجيء العرض من الجانب الذي فيه المرأة! ومن مفارقات مثل هذه البيئة المنحرفة أنّ الفتيان والفتيات يلتقون ويتحدّثون ويختلطون ويتكشّفون بعضهم لبعض في غير ما خطبة ولا نيّة نكاح. فأمّا حين تعرض الخطبة أو يذكر النكاح فيهبط الخجل المصطنع وتقوم الحوائل المتكلّفة وتمتنع المصارحة والبساطة والإبانة! ولقد كان الآباء يعرضون بناتهم على الرجال في عهد رسول الله ﷺ، بل كانت النساء تعرض نفسها على النبي ﷺ، أو من يرغب في تزويجهنّ منهم، كان يتمّ هذا في صراحة ونظافة وأدب جميل، لا تخدش معه كرامة أو حياء»[2].

ــ واستدلّ الشافعية والحنابلة بقوله: ﴿إنّي أريد أن أنكحك﴾ على أنّ الزواج لا ينعقد إلّا بلفظ التزويج والإنكاح، وكذا استدلّوا بقوله: ﴿زوّجناكها﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وقوله: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم﴾ [النساء: ٢٢]، وقالوا:

---

(١) رواه البخاري: كتاب النكاح، باب عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح، حديث (٢٥، ٥٥)، ٧/١٠، ٢٢ ــ ٢٣.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/٢٦٨٨.

لورودهما في القرآن، فيلزم الاقتصار عليهما، ولا يصحّ أن ينعقد بغيرهما من الألفاظ؛ لأنّ الزواج عقد يعتبر فيه النيّة مع اللفظ الخاصّ به. وأجابوا عن قوله: ﴿إن وهبت نفسها للنبيّ﴾ [الأحزاب: ٥٠] أنّها من خصوصيات النبي ﷺ، وأجابوا عن حديث الموهوبة وفيه (ملكتها) قالوا: إنّ هذا إمّا وهم من الراوي أو أنّ الراوي رواه بالمعنى ظنّاً منه ترادف هذا اللفظ مع لفظ الزواج، وبتقدير صحّة الرواية فهي معارضة برواية الجمهور (زوّجتكها).

وقول الشافعية والحنابلة ــ هذا ــ مرجوح، إذ الراجح أنّ الزواج ينعقد بكل لفظ يدلّ على تمليك في الحال، وبقاء الملك مدى الحياة. كلفظ البيع والهبة والصدقة أو العطيّة ونحوها وهذا هو ما عليه الحنفيّة والمالكية على الراجح، بشرط نية أو قرينة تدلّ على الزواج كبيان المهر وإحضار الناس وفهم الشهود للمقصود؛ لأنّ المطلوب التعرّف على إرادة العاقدَيْن، وليس للفظ اعتبار، فالعبرة في العقود للمعاني، لا للألفاظ والمباني. وأمّا الخصوصية للنبيّ ﷺ في قوله: ﴿وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي...﴾ الآية في صحة الزواج من دون مهر؛ لا باستعمال لفظ الهبة. وكذلك فإنّه وردت الرواية في الصحيحين بلفظ (ملكتكها)، وفي البخاري: (أمكنّاكها)؛ ولا مسوّغ لردهما.

وإضافة إلى ما تقدّم ــ نذكر للفائدة ــ أنّ الألفاظ التي اتّفق الفقهاء على عدم انعقاد الزواج بها: فهي التي لا تدلّ على تمليك العين في الحال ولا على بقاء الملك مدّة الحياة، وهي:

الإباحة، والإعارة، والإجارة، والمتعة، والوصيّة، والرهن، والوديعة. وغيرها[(١)].

إنّ ابتداءه بالرجل قبل المرأة في قوله: (أنكحك)؛ لأنّ الرجل هو المقدّم في العقد والملتزم للصداق والنفقة، القيّم على المرأة، وصاحب الدرجة عليها في حقّ النكاح، ويؤكّد هذا قوله تعالى: ﴿فلمّا قضى زيد منها وطراً زوّجناكها...﴾ فبدأ

---

(١) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته لوهبة الزحيلي ٣٧/٧ ــ ٤٠؛ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٧٢/١٣.

بالنبي ﷺ قبل زينب. . . وهذا هو شرعنا الذي لا خلاف في وجوب الاقتداء به(1).

ــ وفي قوله: ﴿إني أريد. . .﴾ دليل ــ أيضاً ــ على أنّ النكاح لا يكون إلّا بوليّ؛ لأنّ صالح مدين تولّاه(2).

وهذا شرط من شروط صحة عقد الزواج عند الجمهور، وخالف الأحناف. واستدلّ الجمهور بقوله تعالى: ﴿فلا تعضلوهنّ أن ينكحن أزواجهنّ. . .﴾ الآية [البقرة: ٢٣٢]. قال الشافعي: هي أصرح آية في اعتبار الوليّ. وإلّا لما كان لعضله معنى. واستدلّوا ــ أيضاً بقوله ﷺ : «لا نكاح إلّا بوليّ»(3) وهو لنفي الحقيقة الشرعية، بدليل حديث عائشة رضي الله عنها: «أيّما امرأة نكحت بغير إذن وليّها فنكاحها باطل، باطل، باطل، فإن دخل بها فلها المهر بما استحلّ من فرجها، فإن اشتجروا فالسلطان وليّ من لا وليّ له»(4).

ومذهب الجمهور هو الصحيح(5)؛ إذ أنّ الأحناف قاسوا على البيع، فقالوا: إنّ المرأة تستقلّ ببيع سلعتها. وهو قياس فاسد الاعتبار إذ هو قياس مع نصّ(6).

ــ وقوله: ﴿إنّي أريد أن أنكحك إحدى ابنتيّ﴾ يدلّ على أنّه عرض لا عقد؛ لأنّه لو كان عقداً لعيّن المعقود عليها له؛ إذ أنّ العلماء وإن كانوا قد اختلفوا في جواز البيع إذا قال: بعتك أحد عبديّ هذين بثمن كذا، فإنّهم اتفقوا على أنّ ذلك لا يجوز في النكاح لأنّه خيار وشيء من الخيار لا يلصق بالنكاح(7).

---

(١) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٤٦٩.

(٢) انظر: المرجع السابق ٣/١٤٧٠.

(٣) رواه الخمسة (أحمد وأصحاب السنن) عن أبي موسى الأشعري وصحّحه ابن المديني والترمذي وابن حبّان وأعلّه بإرساله (انظر: محمد بن إسماعيل الأمير اليمني الصنعاني، سبل السلام شرح بلوغ المرام، ٤ ج، (القاهرة: مكتبة عاطف) ٣/٩٨٧).

(٤) رواه أحمد والأربعة إلّا النّسائي، وصحّحه الترمذي وأبو عوانة، وابن حبّان والحاكم وابن معين وغيره من الحفّاظ (سبل السلام للصنعاني ٣/٩٨٨).

(٥) انظر: الفقه الإسلامي وأدلّته لوهبة الزحيلي ٧/٨٢ ــ ٨٤.

(٦) سبل السلام للصنعاني ٣/٩٨٨.

(٧) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣/٢٧٢.

ـ وفي نكاحه بالإجارة ﴿إنّي أريد أن أنكحك إحدى ابنتيّ هاتين على أن تأجرني ثماني حجج. . .﴾ الآية، ما يدلّ على جواز جعل منافع الحرّ صداقاً شرعاً كالخياطة والبناء وتعليم القرآن، وهنا الرعي والسقي وغير ذلك. ويدلّ على هذا ما روي في حديث الموهوبة التي زوّجها النبي ﷺ للذي لم يكن عنده شيء سوى القرآن[1].

٤ ـ العبر والفوائد من موافقة موسى ـ عليه السلام ـ على طلب الأب:

* إنّ في موافقة موسى عليه السلام على رعي الغنم ما قد دلّ عليه الحديث الصحيح؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم. فقال أصحابه. وأنت فقال: نعم. كنت أرعاها على قراريط لأهل مكّة»[2].

والحكمة في رعي الغنم من جهة الأنبياء والمرسلين ـ والله أعلم ـ هي: ليتعوّدوا على السكينة والتواضع، وليكون ذلك مقدّمة لسياسة الأمّة وقيادتها كما يقود الراعي غنمه، ويتعهّدها بما يصلح شأنها. وهكذا الأنبياء الكرام انتقلوا من رعاية الغنم إلى قيادة الأمم صلوات الله عليهم أجمعين[3]. وكذلك فإنّ الغنم ضعيفة بطبعها فهي تحتاج لرقّة وعطف ورحمة، وهذا تعويد عملي للأنبياء على الرحمة والعطف والرقّة في معاملة مدعوّيهم.

* يقول القرطبي ـ رحمه الله ـ في قوله تعالى: ﴿والله على ما نقول وكيل﴾: «فاكتفى الصالحان في الإشهاد عليهما بالله ولم يُشهدا أحداً من الخلق»[4].

أقول: وهذا لا يدلّ على أنّهما اكتفيا بهذا القول؛ لأنّ القرآن لم يفصّل بعد ذلك فيما حدث، ولعلّه تبع ذلك إشهاد الشهود على هذا النكاح، أو لعلّه لم تكن الشهادة آنذاك من شروط صحة عقد الزواج. والله أعلم.

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣/٢٧٢ ـ ٢٧٤؛ أحكام القرآن للكيا الهراسي ٤/٣٣٥.

(٢) رواه البخاري: كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط، حديث (٣)، ٣/١٨٠.

(٣) انظر: محمد علي الصابوني، النبوّة والأنبياء، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص ١٧٥.

(٤) تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ١٣/٢٨٠.

والراجح أنّ الشهادة شرط في صحّة عقد الزواج، فلا يصحّ بلا شهادة اثنين غير الوليّ. وذلك لأهميتها إذ فيها حفاظ على حقوق الزوجة والولد، ولئلّا يجحده أبوه فيضيع نسبه، وفيها درء للتهمة عن الزوجين، وبيان لخطورة الزواج وأهمّيته[1].

وبهذه العبر والفوائد نكون قد انتهينا من الكلام حول هذا الباب.

والحمد لله ربّ العالمين.

* * *

---

(١) انظر: الفقه الإسلامي وأدلّته لوهبة الزحيلي ٧/ ٧٠ ـ ٧١.

الباب السّادس
داود وسليمان عليهما السّلام

وفيه تمهيد، وأربعة فصول:

الفصل الأول: هبة سليمان من الله لداود، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: بيان الآية.

المبحث الثاني: العبر والفوائد.

الفصل الثاني: إيتاؤهما العلم، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: بيان الآية.

المبحث الثاني: العبر والفوائد.

الفصل الثالث: حكمهما في قضيّة الزرع، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: بيان القصّة.

المبحث الثاني: العبر والفوائد.

الفصل الرابع: وراثة سليمان لداود، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: بيان الآية.

المبحث الثاني: العبر والفوائد.

تمهيد

في هذا الباب سنتكلّم عن داود[1] وسليمان عليهما السلام ـ اللَّذيْن هما من أنبياء الله لبني إسرائيل بعد موسى عليه السلام ـ فيما ورد مشتركاً بينهما في آيات القرآن العزيز، إذ أنّ القرآن تحدّث عنهما في عدد من المواضع منها ما اشتمل على خصوصيات كلّ واحد منهما، ومنها ما كانت تربط بينهما في آية أو حدث معيّن، والأخير هو ما يناسب موضوع بحثنا في إبراز العلاقة والمواقف التي كانت بينهما.

ولكن لا يفوتنا في هذا التمهيد أن نشير دونما استطراد إلى خصوصيات كلّ منهما.

أمّا داود عليه السلام ـ وهو أوّل من جمعت له النبوّة والملك من أنبياء بني إسرائيل ـ فما ذكر خاصاً بشأنه كالآتي:

١ ـ تشديد ملكه، وإيتاؤه الحكم وفصل الخطاب. يقول تعالى: ﴿وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾[صٓ: ٢٠].

٢ ـ جعله الله خليفة في الأرض وحاكماً. قال تعالى: ﴿يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحقّ﴾ [صٓ: ٢٦].

٣ ـ تسخير الجبال معه يسبّحْن. قال تعالى: ﴿إنّا سخّرنا الجبال معه يسبّحْن بالعشيّ والإشراق﴾ [صٓ: ١٨].

---

(١) نسبه: هو داود بن إشار بن عويد بن عابر بن سلمون بن نحشون بن عويناذب بن أرم بن حصرون بن فارض بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام. (البداية والنهاية لابن كثير ٢/٩).

٤ ـ إلانة الحديد لـه. قال تعالى: ﴿... وألنّا لـه الحديد. أن اعمل سابغات وقدّر في السرْد...﴾ الآية [سبأ: ١٠ ـ ١١] فألان الله لـه الحديد وأعانـه على عمل الدروع ليحصّن المقاتلة من الأعداء وأرشده إلى صنعها وكيفيّتها ﴿وعلّمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم...﴾ [الأنبياء: ٨٠].

٥ ـ أعطاه الله الزبور، وهو أحد الكتب السماوية. قال تعالى: ﴿وآتينا داود زبوراً﴾ [النساء: ١٦٣].

وأمّا سليمان عليه السلام فمع ما ورثه من أبيه في الملك والنبوّة والحكمة والعلم فإنّه قد ورد بشأنه خواصّ لـه لم تذكر لأبيه داود وهي كالآتي:

١ ـ فهمه لكلام النمّل. قال تعالى: ﴿حتى إذا أتوْا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنّكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون. فتبسّم ضاحكاً من قولها وقال ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ...﴾ الآية [النمل: ١٨ ـ ١٩].

٢ ـ ما سخّر لـه من الخيل الكثيرة. قال تعالى: ﴿إذ عرض عليه بالعشيّ الصافنات الجياد. فقال إنّي أحببت حبّ الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب. ردّوها عليّ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق﴾ [ص: ٣١ ـ ٣٣].

٣ ـ أعطاه الله سلطاناً على الريح وقدرة عليها فجعلها تجري بأمره إلى المكان الذي يريده. قال تعالى: ﴿فسخّرنا لـه الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب﴾ [ص: ٣٦].

٤ ـ سخّرت لـه الشياطين والجنّ. قال تعالى: ﴿والشياطين كلّ بنّاء وغوّاص. وآخرين مقرّنين في الأصفاد﴾ [ص: ٣٧ ـ ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وحشر لسليمان جنوده من الجنّ والأنس والطير فهم يوزعون﴾ [النمل: ١٧]، وقال تعالى: ﴿...ومن الجنّ من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير. يعملون لـه ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات...﴾ الآية [سبأ: ١٢ ـ ١٣].

٥ ــ قصّته مع ملكة سبأ في سورة النمل، وكذلك حواره مع الهدهد . [النمل: ٢٠ ــ ٤٤].

٦ ــ إسالة عين القطر له وهو النحاس المذاب حيث تقذفه العين نحاساً مذاباً. قال تعالى: ﴿وأسلنا له عين القطر. . .﴾ الآية [سبأ: ١٢] فسخّر الله له عيناً من الأرض يخرج منها النحاس المصهور[1].

فهذه الأمور الخاصّة لكلّ منهما، أمّا المشتركة وهي موضوع بحثنا في هذا الباب فستكون في أربعة فصول:

الأوّل: هبة سليمان من الله لداود.

والثاني: إيتاؤهما العلم.

والثالث: حكمهما في قضيّة الزرع.

والرابع: وراثة سليمان لداود.

وسنتناول هذه الأربع بالبيان واستخراج العبر والفوائد. والله نسأل التوفيق وبه نستعين.

* * *

(١) انظر: قصص الأنبياء لعبد الوهّاب النجّار ص ٣٠٩ ــ ٣٣٦.

الفصل الأوّل

هبة سليمان من الله لداود

المبحث الأول

بيـان الآيـة

يبيّن الله عزّ وجلّ هذه الهبة في قوله:

﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ٣٠﴾[1].

فـالله تبارك وتعـالى يـذكـر في هـذه الآيـة أنّ من نعمـه على نبيّـه داود ــ عليـه السلام ــ أن رزقه ولداً صالحاً ﴿نِعم العبد إنّه أوّاب﴾.

وكلمـة أوّاب: أي رجّاع إلى الله في جميـع أحـواله، بـالتّألّـه والإنابـة، والمحبة والذكر والدعاء والتضرّع والاجتهاد في مرضاة الله وتقديمها على كلّ شيء[2].

فكـان عليه السـلام قرّة عين لأبيـه. بل كـان نبيّاً من الله وهذه أعظم درجة ينالهـا العبد. وقد قـال ابن كثير في تفسيـر هذه الآيـة إنّ المراد هـو: أي وهبنا لـداود سليمان نبياً[3]. وقد كـان لداود عليـه السلام بنـون غيره. قـال الكلبـي: كان لـداود تسعة عشـر ولداً، وقيل: أحد وعشرون ولداً[4].

والحاصل أنّه كان لداود أبناء غير سليمان؛ ولكن تميّـز سليمان من بينهم بـالنبوّة والمكانة الرفيعة عند الله عزّ وجلّ.

* * *

(١) سورة صَ: الآية ٣٠.

(٢) تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ٦/٤١٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٣٣.

(٤) انظر: تفسير القرطبي ١٣/١٦٤؛ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٩/٢٣٥.

المبحث الثاني

العبر والفوائد

نستفيد من امتنان الله على داود بهبته له ابناً صالحاً؛ على أنّ من نعم الله العظيمة على عباده أن يهب لهم أولاداً صالحين؛ فيكونوا قرّة أعين لهم.

ولذلك كان من دعاء عباد الرحمن:

﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾[1].

وما تقرّ أعين الآباء إلّا بصلاح أبنائهم، فيسعد الآباء بأبنائهم هؤلاء في حياتهم برؤيتهم على الاستقامة في دين الله، وبعد مماتهم يدعو الأبناء لهم بالمغفرة والرضوان فينفعهم الله بدعائهم.

وأمّا في الآخرة فإنّ الله يكرم الجميع بسبب الصلاح بأن يجمعهم في جنات عدن. يقول تعالى:

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾[2].

ونقف هنا مع هذه الآية الكريمة: فإنّهم في الجنّات يأتلف شملهم مع الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرّياتهم... وهؤلاء يدخلون الجنة بصلاحهم واستحقاقهم ولكنّهم يكرمون بتجمّع شتاتهم وتلاقي أحبابهم؛ وهي لذّة أخرى

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٧٤.

(٢) سورة الرعد: الآيتان ٢٣ ــ ٢٤.

تضاعف لذّة الشعور بالجنان. . . وفي جوّ التجمّع والتلاقي يشترك الملائكة في التأهيل والتكريم في حركة رائحة غادية ﴿يدخلون عليهم من كل باب﴾ سلام عليكم. . . فهو مهرجان حافل باللقاء والسلام والحركة الدائبة والإكرام. . .[1].

وما أجمله من مشهد عظيم يلتقي فيه الآباء والأبناء الصالحون في جنات عدن بعد فراق طويل، وأين!! في الجنات وعند الله العظيم. . . وما يملك القلم أن يكتب شيئاً إلّا أن يقول: حرصاً أيها الآباء على صلاح أبنائكم حتى تكرموا عند الله كرماً عظيماً.

* ويقول صاحب التحرير والتنوير: والواو في ﴿ومن صلح من آبائهم﴾ واو المعيّة، وذلك زيادة الإكرام بأن جعل أصولهم وفروعهم وأزواجهم المتأهّلين لدخول الجنة لصلاحهم في الدرجة التي هم فيها، فمن كانت مرتبته دون مراتبهم لحق بهم، ومن كانت مرتبته فوق مراتبهم لحقوا هم به، فلهم الفضل في الحالين. وهذا كعكسه في قوله تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم. . .﴾ الآية، [الصّافات: ٢٢] لأنّ مشاهدة عذاب الأقارب عذاب مضاعف.

وفي هذه الآية بشرى لمن كان له سلف صالح أو خلف صالح أو زوج صالح أنّه إذا صار إلى الجنّة لحق بصالح أصوله أو فروعه أو زوجه. وما ذكر الله هذا إلّا لهذه البشرى كما قال تعالى: ﴿والذين آمنوا واتّبعهم ذرّيتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرّيتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء. . .﴾ الآية، [الطور: ٢١][2].

وأعظم بها من نعمة وهبة، وما أعظمها وأرفعها من بشرى يبشّر الله بها عباده المؤمنين ليحثّهم وينشّطهم على بذل الجهد تلو الجهد في إصلاح ذرّياتهم، والكرم الإلّهي ينتظرهم فهنيئاً للعاملين.

* * *

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/٢٠٥٨.
(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٣/١٣١.

الفصل الثاني

إيتاؤهما العلم

المبحث الأوّل

بيان الآية

يذكر الله لنا ذلك في قوله:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾[١].

ونلاحظ أنّ في هذه الآية الكريمة يخبرنا الله عمّا أنعم به على داود وابنه سليمان ــ عليهما السلام ــ من العلم.

وقوله: ﴿آتينا﴾ يدلّ بأنّه علم مفاضٌ من عند الله؛ لأنّ الإيتاء أخصّ من (علمناه)، ولذلك استغنى ها هنا عن كلمة (من لدنّا)[٢].

والمقصود بهذا العلم كما يقول الإمام ابن جرير الطبري: «وذلك علم كلام الطير والدوابّ وغير ذلك ممّا خصّهما الله بعلمه»[٣] كعلم النبوّة والشريعة والحكمة.

ثمّ يذكر الله شكرهما على هذه النعمة العظيمة التي استحقّاها، فيأتي ذكر هذا الشكر بعد ذكر النعمة مباشرة؛ ليدلّ على ما هما فيه من حال الشكر الدائم لله عزّ

---

(١) سورة النمل: الآية ١٥.

(٢) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٩/ ٢٣٤.

(٣) تفسير ابن جرير الطبري ١٩/ ٨٧.

وجلّ، والعمل بعلمهما، فدلّ هذا على شكرهما قولاً وعملاً. وذلك قوله تعالى: ﴿وقالا الحمد لله الذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾. فهما هنا يحمدان الله عزّ وجلّ على أن فضّلهما وآثرهما عن بقيّة كثيرة من عباده المؤمنين في دهرهما الذي يعيشان فيه(١).

* * *

(١) تفسير ابن جرير الطبري ١٩ /٨٧.

المبحث الثاني

العبر والفوائد

* في الآية الكريمة دليل على علوّ مرتبة العلم؛ وذلك لامتنان الله عليهما بأن آتاهما إيّاه، ولشكرهما عليه الله عزّ وجلّ، وتفضيلهما على كثير من الناس بسببه.

وإنّ هذه المنزلة ليؤكّدها الله عزّ وجلّ في قوله:

﴿... يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ...﴾ الآية[1].

وحول هذه المنزلة العظيمة يحدّثنا الإمام ابن القيّم في كتابه مدارج السالكين فيقول، رحمه الله: «العلم هاد والحال الصحيح مهتد به. والعلم تركة الأنبياء وتراثهم. وأهله عصبته ووراثهم، وهو حياة القلوب، ونور البصائر. وشفاء الصدور ورياض العقول. ولذة الأرواح. وأنس المستوحشين. ودليل المتحيّرين. وهو الميزان الذي به توزن الأقوال والأعمال والأحوال. وهو الحاكم المفرّق بين الشك واليقين، والغيّ والرشاد، والهدى والضلال.

به يعرف الله ويعبد، ويذكر ويُوحّد، ويحمد ويمجّد. وبه اهتدى إليه السالكون. ومن طريقه وصل إليه الواصلون. ومن بابه دخل عليه القاصدون.

به تعرف الشرائع والأحكام، ويتميّز الحلال من الحرام. وبه توصل الأرحام، وبه تعرف مراضي الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب.

وهو إمام والعمل مأموم. وهو قائد، والعمل تابع. وهو الصاحب في الغربة والمحدّث في الخلوة، والأنيس في الوحشة. والكاشف عن الشبهة. والغنى الذي لا فقر على من ظفر بكنزه. والكنف الذي لا ضيعة على من آوى إلى حرزه.

---

(١) سورة المجادلة: الآية ١١.

مذاكرته تسبيح. والبحث عنه جهاد. وطلبه قربة. وبذله صدقة. ومدارسته تعدل بالصيام والقيام. والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام.

قال الإمام أحمد رضي الله عنه: الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب. لأنّ الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرّة أو مرّتين. وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه.

وروينا عن الشافعي رضي الله عنه أنّه قال: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

ونصّ على ذلك أبو حنيفة رضي الله عنه.

وقال ابن وهب: كنت بين يدي مالك بن أنس رضي الله عنه. فوضعت ألواحي وقمت أصلي. فقال: ما الذي قمت إليه بأفضل ممّا قمت عنه. ذكره ابن عبد البر وغيره.

واستشهد الله عزّ وجلّ بأهل العلم على أجلّ مشهود به وهو «التوحيد» وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته. وفي ضمن ذلك تعديلهم. فإنّه سبحانه وتعالى لا يستشهد بمجروح.

والعلم هو حجّة اللّه في أرضه. ونوره بين عباده. وقائدهم ودليلهم إلى جنته. ومدنيهم من كرامته.

ويكفي في شرفه: أنّ فضل أهله على العباد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. وإنّ الملائكة لتضع لهم أجنحتها، وتظلّهم بها.

ولقد رحل كليم الرحمن موسى بن عمران ـ عليه الصلاة والسلام ـ في طلب العلم هو فتاه، حتى مسّهما النصب في سفرهما في طلب العلم. حتى ظفر بثلاث مسائل. وهو من أكرم الخلق على الله وأعلمهم به.

وأمر الله رسوله أن يسأله المزيد منه فقال: ﴿وقل ربّ زدني علماً﴾ [طه: ١١٤]»(١).

* إنّ من أعظم ثمرات هذه النعمة وآثارها: خشية الله عزّ وجلّ، فما يساوي العلم

---

(١) مدارج السالكين لابن قيّم الجوزية ٢/٤٦٩ ـ ٤٧١.

شيئاً ولا يرفع بصاحبه إلى منزلته الرفيعة إذا لم تصحبه الخشية من الله. ودليله قوله تعالى: ﴿إنّما يخشى الله من عباده العلماء...﴾[1] ولن يكون الإنسان العالم في محلّ ثناء الله عليه ورضوانه إذا لم يكن ممّن يخشى الله. وكما يقول أحدهم: ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم بالخشية.

ولم يحز داود وابنه على هذا الثناء من الله إلاّ لأنّهما كانا ممّن أوتي العلم وازداد به خشية من الله ويظهر لنا هذا واضحاً في شكرهم لله.

ألا فليوطّن العلماء أنفسهم على خشية الله حتى يكونوا أهلاً لهذه المنزلة العظيمة.

وللشهيد سيد قطب ـ رحمه الله ـ كلام حول هذه الفائدة فيقول: «... ولا يذكر هنا نوع العلم وموضوعه؛ لأنّ جنس العلم هو المقصود بالإبراز والإظهار. وللإيحاء بأنّ العلم كلّه هبة من الله، وبأنّ اللائق بكلّ ذي علم أن يعرف مصدره، وأن يتوجّه إلى الله بالحمد عليه، وأن ينفقه فيما يرضي الله الذي أنعم به وأعطاه. فلا يكون العلم مبعداً لصاحبه عن الله ولا منسيّاً له إيّاه وهو بعض مننه وعطاياه. والعلم الذي يبعد صاحبه عن ربّه علم فاسد، زائغ عن مصدره وهدفه، لا يثمر سعادة لصاحبه ولا للناس، إنّما يثمر الشقاء والخوف والقلق والدمار، لأنّه انقطع عن مصدره، وانحرف عن وجهته، وضلّ طريقه إلى الله. ولقد انتهت البشريّة اليوم إلى مرحلة جديدة من مراحل العلم، بتحطيم الذرّة واستخدامها. ولكن ماذا جنت البشرية حتى اليوم من مثل هذا العلم الذي لا يذكر أصحابه الله، ولا يخشونه ولا يحمدون له، ولا يتوجّهون بعلمهم إليه؟ ماذا جنت غير الضحايا الوحشية في قنبلتي (هيروشيما) و (ناجازاكي) وغير الخوف والقلق الذي يؤرّق جفون الشرق والغرب ويتهدّدها بالتحطّم والدمار والفناء؟»[2].

فالعلم إذا ما وجّه في غايته المطلوبة الإيجابية كان نقمة لا نعمة وخراباً لا عماراً وهدماً لا بناءً... ألا فليعتبر العلماء!!.

---

(١) سورة فاطر: الآية ٢٨.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/٢٦٣٣ ـ ٢٦٣٤.

* إنّ إيتاء الله العلم لداود وسليمان ـ عليهما السلام ـ وهما من رسله إلى الناس، ليعطينا دلالة قويّة على ضرورة العلم لمن يدعو إلى الله عزّ وجلّ، فالعلم بالنسبة للداعية إلى الله كالروح بالنسبة للجسد. فبه يستطيع الداعية أن يدعو إلى الله على بصيرة، إذ الجاهل يضلّ الناس بجهله. وكما هو معلوم أنّ فاقد الشيء لا يعطيه.

فلا بد من كل داعية إلى الله أن يجتهد في تحصيل العلم في جوانبه المتعددة، فلا يقتصر على جانب دون آخر؛ بل يحاول الإلمام بشتى الجوانب. وهل يكون الداعية إلاّ عالماً!

* ونستفيد من قولهما: ﴿الحمد لله الذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾ على أنّه ينبغي للعالم وإن كان على قدر عظيم من العلم أن يتواضع، فإنّهما لم يقولا: فضّلنا على الكلّ؛ بل قالا: على كثير من العباد مع أنّهما في ذلك العهد كانا أفضل الناس[١].

* وإنّه لمن أعظم الأمور وأجملها أن يرى الإنسان الأب وأبناءه في درجة رفيعة من العلم، فكلاهما علماء... وهذا ما شاهدناه في داود وابنه سليمان عليهما السلام.

فليسع الأب في توجيه أبنائه إلى طلب العلم وتشجيعهم على ذلك، كما أنّه ينبغي أن لا ينسى ذلك الفضل لنفسه؛ وليسع هو في طلب العلم أيضاً. فما أجمل الحياة في رحاب العلم! وقد كان كثير من السلف هذا شأنهم مع أبنائهم... يتوارثون العلم بينهم، وحسبه أنّه أفضل إرث؛ إذ هو إرث الأنبياء.

* **مسألة فقهية:**

في هذه الآية حجّة على أنّه يجوز للعالم أن يذكر مرتبته في العلم لفوائد شرعيّة ترجع إلى أن يحذّر الناس من الاغترار بمن ليست له أهلية من أهل الدعوى الكاذبة والجعجعة الجالية[٢].

* * *

---

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٤/١٨٥.

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٩/٢٣٥.

الفصل الثالث

حكمهما في قضيّة الزرع

المبحث الأوّل

بيان القصة

إنّ هذه القضيّة التي اشترك فيها الأب داود والابن سليمان ـ عليهما السلام ـ يشير الله إليها عزّ وجلّ في كتابه قائلاً:

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ[1] فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا . . .﴾ الآية[2].

فالقرآن قد أشار إليها إشارة دونما تفصيل لها، وقد ذكرت هذه القصّة بتفصيل في كتب التفسير وخلاصتها إنّ داود جلس للقضاء بين الناس، وكان ابنه سليمان حينئذ يافعاً، فكان يجلس خارج بيت القضاء. فاختصم إلى داود رجلان أحدهما عامل في حرث لجماعة في زرع أو كرم، والآخر راعي غنم لجماعة، فدخلت الغنم الحرث ليلاً فأفسدت ما فيه، فقضى داود أن تعطى الغنم لأصحاب الحرث إذ كان ثمن تلك الغنم يساوي ثمن ما تلف من ذلك الحرث، فلمّا حكم بذلك؛ وخرج الخصمان فقُصّ أمرهما على سليمان، فقال: لو كنت أنا قاضياً لحكمت بغير هذا. فبلغ ذلك داود فأحضره وقال له: بماذا كنت تقضي؟ قال: إنّي رأيت ما هو أرفق بالجميع. قال: وما هو؟ قال: أن يأخذ أصحاب الغنم الحرث يقوم عليه عاملهم ويصلحه عاماً كاملاً

---

(١) نفشت: قال ابن السكيت في معناها: النفش أن تنتشر الغنم بالليل ترعى بلا راع. وهذا قول جمهور المفسّرين. (انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٢/١٩٥).

(٢) سورة الأنبياء: الآيتان ٧٨ ـ ٧٩.

حتى يعود كما كان ويردّه إلى أصحابه، وأن يأخذ أصحاب الحرث الغنم تُسلّم لراعيهم فينتفعوا من ألبانها وأصوافها ونسلها في تلك المدّة، فإذا كمل الحرث وعاد إلى حاله الأول صرف إلى كلّ فريق ما كان له. فقال داود: وفّقت يا بنيّ. وقضى بينهما بذلك[1].

ومن خلال هذه القصة وما أشار إليه القرآن يتبيّن لنا ما يلي:

ـ إنّ مقتضى وقوع الحكمين في قضيّة واحدة وفي وقت واحد ﴿إذ يحكمان في الحرث...﴾ يدلّ على أنّ الحكمين لم يكونا عن وحي من الله، وأنّهما إنّما كانا عن علم أوتيه داود وسليمان عليهما السلام، فحكمهما إذاً كان عن اجتهاد كلّ منهما[2]. ويدلّ على هذا أنّه قال سليمان لداود: إنّي رأيت ما هو أرفق بالجميع. فرأيه هذا صريح في أنّه ليس بطريق الوحي وإلاّ لبتّ القول بذلك؛ ولما ناشده داود ـ عليه السلام ـ لإظهار ما عنده، بل وجب عليه أن يظهره بدءاً وحَرُم عليه كتمه، وأيضاً لو كان حكم داود عن طريق الوحي لكان نصّاً ولا يجوز أن ينقض النصّ بالاجتهاد[3].

ـ إنّ قوله: ﴿ففهّمناها سليمان﴾ يدلّ على أنّ الله ألهمه وجهاً آخر في القضاء هو أرجح؛ وذلك لما تقتضيه صيغة التفهيم، فدلّ على أنّ فهم سليمان في القصّة أعمق. وبالتالي فإنّ حكم داود ليس بخطأ؛ لأنّه عليه السلام استند في قضائه إلى غرم الأضرار على المتسبّبين في إهمال الغنم، وأصل الغرم أن يكون تعويضاً ناجزاً فكان ذلك القضاء حقاً. أمّا حكم سليمان وهو الأرجح؛ لأنّه مستند إلى إعطاء الحقّ لذويه مع الرفق بالمحقوقين باستيفاء ما لهم إلى حين، كما أنّ فيه شبهاً من الصلح أيضاً[4].

يقول الشهيد سيد قطب: «لقد اتّجه داود في حكمه إلى مجرّد التعويض لصاحب

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١١٦/١٧. وانظر: تفسير ابن جرير الطبري ٣٨/١٧؛ تفسير أبـي السعود ٧٩/٦؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ١٩٥/٢٢.

(٢) وهذا قول جمهور المفسّرين. وهو الأوْلى (انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ١٩٨/٢٢؛ تفسير القرطبـي ٣٠٩/١١).

(٣) انظر: تفسير أبـي السعود ٧٩/٦؛ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١١٧/١٧.

(٤) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١١٧/١٧ ـ ١١٨.

الحـرث، وهذا عـدل فحسب. ولكن حكم سليمان تضمّن مـع العدل البنـاء والتعمير، وجعل العدل دافعـاً إلى البناء والتعميـر، وهذا هـو العدل الحيّ الإيجـابـي في صورتـه البانية الدافعة»[1].

ـ ثم إنّ قوله: ﴿وكلاً آتينا حكمـاً وعلماً﴾ فيـه دفـع لما يـوهمه تخصيص سليمـان بالتّفهم من عدم كون حكم داود حكماً شرعياً صحيحـاً. أي وكلّ واحـد منهما آتـاه الله حكماً وعلماً كثيراً لا سليمان وحده؛ فلا انتقاص لمقام داود عليه السلام[2].

ـ ويتّضـح لنـا ممّا ذكـره القرآن، ومن روايـة القصّة أنّ الخصمين قـد رضيا بحكم سليمان؛ وذلك لكونهما من أهل الإنصاف لا من أهل الاعتساف، ولـو لم يرضيـا لكان المصير إلى حكم داود إذ ليس الإرفاق بواجب[3]. والله أعلم.

* * *

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/ ٢٣٨٩ ـ ٢٣٩٠.

(٢) تفسير أبـي السعود ٦/ ٧٩.

(٣) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٧/ ١١٧.

المبحث الثاني

العبر والفوائد

* إنّ هذه القصّة لتدلّنا على أنّه ليس هناك ما يمنع الولد إن كان يعرف الحكم الأصوب بأن يقوله، ولو مع علمه بأنّ أباه حكم بغيره؛ وذلك لأنّ أمر الدين والوصول إلى ما هو أفضل لا مجال فيه للخجل أو المجاملة، فالحقّ والكمال هو المطلوب خصوصاً إذا كان الأمر يتعلّق بمصالح الناس.

فهذا سليمان ــ عليه السلام ــ لم تمنعه معرفته بحكم أبيه وقد علم هو الحكم الأصوب أن يقدّمه.

* ومن أساليب التربية الصحيحة أنّ الأب إذا علم أنّ ابنه قد رأى رأياً غير رأيه، فإنّ ذلك لا يمنعه مع كونه أباً من سماع رأي ابنه واستشارته، بل ينبغي عليه أن يسعى لاستشارته ومعرفة رأيه. بل وقد يسرّ الأب لذلك وهذا الأسلوب يعطي الولد ثقة بنفسه ويهبه استقلالاً لشخصيّته؛ كما يمنحه القدرة على اتّخاذ القرار وقول الحقّ دائماً والبعد عن التردّد والعفويّة.

وهذا الأسلوب شاهدناه في موقف داود ــ عليه السلام ــ حين عرف أنّ سليمان قد رأى رأياً غير رأيه؛ فإنّه سعى لاستشارته. . .

ويؤيد ما ذكرناه تلك المواقف التي ذكرها التاريخ للأولاد الذين تربّوا على هذا الأسلوب الناجح وتلك المعاني السامية فكانوا في أوج الثقة بأنفسهم والقول بالحقّ والبعد عن التردد. فمن هذه المواقف نذكر موقفين وهما كما يلي:

الأوّل: يروى أنّه دخل على عمر بن عبد العزيز ــ رضي الله عنه ــ في أوّل خلافته وفود المهنّئين من كلّ جهة، فتقدّم من وفد الحجازيين للكلام غلام صغير لم تبلغ سنّه إحدى عشرة سنة.

فقال لـه عمر: ارجـع أنت، وليتقدّم من هو أسنّ منك!!

فقال الغلام لـه: أيّد الله أمير المؤمنين، المرء بأصغـريه قلبـه ولسانـه، فإذا منح الله العبد لساناً لافظاً وقلباً حافظاً؛ فقد استحقّ الكـلام، ولو أنّ الأمـر يا أميـر المؤمنين بـالسنّ لكان في الأمّـة من هو أحقّ منـك بمجلسـك هـذا!! فتعجّب عمـر من كـلامـه وأنشد:

تعلّم فليس المرء يولد عالماً وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإنّ كبيـر القـوم لا علم عـنـده صغير إذا التفّت عليه المحـافل[1]

وأمّا الموقف الثاني: فيروى أنّه قد قحطت البادية في أيّام (هشام بن عبد الملك) فقـدمت عليه العـرب فهـابـوا أن يتكلّمـوا وكـان فيهـم (ورداس بن حبيب) وهـو إذ ذاك صبـيّ، فوقعت عليه عين هشام، فقال لحاجبه: ما يشاء أحد يدخل عليّ إلّا دخل حتى الصبيان!

فقال الصبـيّ: يا أمير المؤمنين: إنّا أصـابتنا سنـون ثلاث: سنـة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة نقّت العظم (أي أخرجت مخّه)، وفي أيديكم فضول أموال، فإن كانت لله ففرّقوهـا على عباده، وإن كـانت لهم فعلام تحبسـونها عنهم، وإن كـانت لكم فتصدّقوا بها عليهم فإنّ الله يجزي المتصدّقين ولا يضيـع أجر المحسنين.

فقال هشام: ما ترك لنا هذا الغلام في واحدة من الثلاث عذراً، فأمر للبوادي بمائة ألف دينار، ولـه بمائـة ألف درهم. فقال الصبـيّ: ارددهـا يا أميـر المؤمنين إلى جائـزة العرب، فإنّي أخـاف أن تعجز عن بلوغ كفـايتهم. فقال هشـام: أما لـك حاجـة؟ فقال الصبـي: مـا لي حاجـة في خاصّة دون عامّة المسلمين. فخرج الصبـي وهـو من أنبـل القوم وأكرمهم[2].

إذاً فلا بدّ أن يتربـى الأولاد على التحرّر من ظاهرة الخجـل، ويساعـد على هذا إضافة إلى ما ذكرنا من الاستشارة الأبويّة: مصاحبة الآباء لهم لحضور المجالس العامّـة

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام لعبد الله علوان ١/٣٠٤.

(٢) المرجـع السابق ١/٣٠٥ ـ ٣٠٦.

وزيـارة الأصـدقـاء ثمّ تشجيعهم على التحـدّث أمـام الكبـار، وبـذلـك يتـدرّجـون في نضوجهم الفكري والاجتماعي أيضاً. . .

وذلك كلّه ينبغي أن يكون ضمن حدود الأدب والاحترام ومراعاة شعـور الآخرين وإنزال الناس منازلهم، وإلاّ فإنّ الجرأة في الحقّ ستنقلب إلى وقاحـة، والصراحـة إلى قلّة أدب مع الآخرين[١].

* وهنا ـ كذلك ـ نشهد الأدب في مخاطبة الابن لأبيـه؛ إذ هو لم يبيّن لـه حكمـه ورأيه في بداية كلامه، بل إنّه مهّد لـه بـأن ذكر العلّة في اختيـاره لهذا الحكم. فقـال: إنّي رأيت ما هو أرفق بالجميـع. وحتى يكون بذلك مبرراً لحكمه وقـوله على قـول أبيه واستـدراكه عليـه؛ فإنّمـا هو الـرفق وكلاهمـا بـل وجميـع النـاس قـد اتفق على فضيلة الرفق.

فكـان عليه السـلام في غايـة الأدب في مخاطبـة أبيـه. وهكـذا يجب أن يكـون الأبناء.

* ينبغي على الأب المربّـي أن يعطي القدوة لأبنائه في رجوعه إلى الحقّ دائماً بـل وإلى الأفضل والأوْلى، ولو كان ذلك على لسان أحدهم، ومع أنّهم أقلّ خبرة منه وسنّـاً. ولكن قد يجعل الله الحقّ على لسان أحدهم. . . فهـذا نبـي الله داود يأخـذ بقول ابنـه ويقول لـه: وفّقت يا بنيّ. حين علم أنّ حكمه أصوب، ولا حرج فالغـاية الـوصول إلى الحقّ والكمال.

* وممّـا لا شكّ فيـه أنّ هناك حكمـة إلٓهية من إظهـار الحكم الأصوب على لسـان سليمان، والله قادر على أن يظهره على لسان نبيّه داود دونمـا الرجـوع إلى قضاء ابنـه! والله أعلم أنّ الحكمة في هذا أنّ الله أراد أن يظهر علم سليمان وحكمته عند أبيه ليزداد سروره بـه ويقرّ عينه بـه[٢]. فيكون ذلك ممّا يسعـده في حياتـه ويطمئنـه أنّ بعد وفـاته سيكون هناك خير وريث لـه في حكمه وعلمه. وقد شاء الله ذلك.

* تدلّنا هذه القصة على بعض الأحكام الخاصّة بمسألة الاجتهاد وهي كما يلي:

---

(١) انظر: تربية الأولاد في الإسلام لعبد الله علوان ١/٣٠٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٧/١١٨.

ـ يقول الإمام القرطبي: «اختلف العلماء في جواز الاجتهاد على الأنبياء، فمنعه قوم، وجوّزه المحقّقون. وذلك لأنّه ليس فيه استحالة عقلية لأنه دليل شرعيّ فلا إحالة أن يستدلّ به الأنبياء، كما لو قال الربّ سبحانه وتعالى: إذا غلب على ظنّك كذا فاقطع بأنّ ما غلب على ظنّك هو حكمي فبلّغه الأمّة. فهذا غير مستحيل عقلاً. فإن قيل: إنّما يكون دليلاً إذا عدم النصّ وهم لا يعدمونه. قلنا: إذا لم ينزل الملك فقد عدم النصّ عندهم، وصاروا في البحث كغيرهم من المجتهدين عن معاني النصوص التي عندهم. والفرق بينهم وبين غيرهم من المجتهدين أنّهم معصومون عن الخطأ والغلط، وعن التقصير في اجتهادهم، وغيرهم ليس كذلك. كما ذهب الجمهور في أنّ جميع الأنبياء معصومون عن الخطأ والغلط في اجتهادهم»(١).

ـ جواز رجوع الحاكم بعد قضائه من اجتهاده إلى اجتهاد آخر أرجح من الأوّل(٢).

ـ إنّ خطأ المجتهد لا يقدح في كونه مجتهداً(٣)، فصفة الاجتهاد باقية فيه وإن أخطأ ما دام قد حوى صفات المجتهد المطلوبة. وذلك مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وكلاً آتينا حكماً وعلماً﴾.

* ويوضّح لنا أبو السعود ـ رحمه الله ـ هذه القضيّة من ناحية أصولية فيقول: «رأي سليمان استحسان كما ينبىء عنه قوله: أرفق بالفريقين؛ ورأي داود ـ عليه السلام ـ قياس، كما أنّ العبد إذا جنى على النفس يدفعه المولى عند أبي حنيفة إلى المجني عليه أو يفديه ويبيعه في ذلك أو يفديه عند الشافعي، وقد روي أنّه لم يكن بين قيمة الحرث وقيمة الغنم تفاوت، وأمّا سليمان فقد استحسن(٤) حيث جعل الانتفاع

---

(١) تفسير القرطبي ١١/٣٠٩.

(٢) المرجع السابق ١١/٣١٢.

(٣) تفسير أبي السعود ٦/٧٩.

(٤) الاستحسان كما يعرّفه الإمام الكرخي: «هو أن يعدل المجتهد عن أن يحكم في المسألة بمثل ما حكم به في نظائرها لوجه أقوى يقتضي العدول عن الأوّل».
ويقول الإمام السرخسي في توضيحه أيضاً: «والاستحسان في الحقيقة قياسان أحدهما جليّ ضعيف الأثر يسمّى قياساً، والآخر خفيّ قويّ الأثر فيسمّى استحساناً أي قياساً مستحسناً، فالترجيح بالأثر لا بالخفاء والوضوح». =

بـالغنم بإزاء مـا فات من الانتفـاع بالحـرث من غير أن يـزول ملك المالـك عن الغنم، وأوجب على صـاحب الغنم أن يعمل في الحـرث إلى أن يزول الضـرر الـذي أتـاه من قِبَلِهِ»[1].

* وأمّا حكم هذه القضية في شرعنا: فإنّـه يسقط ضمان مـا أتلفت الماشيـة إذا كان ذلك نهاراً، وأمّـا ليلاً فـلا، فإنّ صـاحبها يضمن. وهـذا هو قـول الجمهور، وخـالفت الحنفية والظاهرية، وقالوا: إنّ صاحبها لا يضمن سواء في الليل أو النهار.

ورأي الجمهور هو الصحيـح والراجـح.

واستدلّ الجمهور بما روي من أنّ ناقة للبراء بن عازب ــ رضي الله عنه ــ دخلت حائط قوم فـأفسدتـه عليهم، فقضى رسول الله ﷺ على أهـل الأموال حفـظها بـالنهار؛ وعلى أهل المواشي حفظها بالليل[2].

أمّا الحنفيّة والظاهريـة فاحتجّـوا بقول النبـيّ ﷺ: «العجمـاء جرحهـا جبار. . .» الحديث[3].

ولكن ردّ على احتجـاجهم ــ هذا ــ بـأنّ هذا الحـديث عـام ويخصصـه حـديث الجمهور.

وللإمام الخطّابـي كلام حـول هذه المسـألة فيقـول: «وهذه سنّـة لرسـول الله ﷺ خاصّة في هذا الباب، ويشبـه أن يكون إنّمـا فرق بين الليـل والنهار في هـذا؛ لأنّ في

= وإنّ قوّة الأثر وضعفـه أساسـه التيسير ورفـع الحـرج، فالاستحسـان القياسيّ أسـاسه رفـع الحرج، ولذلك يقول السرخسي بعد ذكره تعريفـات الاستحسان: «وحـاصل هـذه العبارات أنّـه ترك العسر لليسر، وهو أصل في الدين».

(انظر: محمد أبو زهرة، أصول الفقه (القاهرة: دار الفكر العربـي) ٢٠٧ ــ ٢١٠).

(١) تفسير أبـي السعود ٦/٧٩.

(٢) الحـديث رواه أبو داود في سننـه: كتـاب البيـوع والإجـارات، بـاب (٩٢)، حـديث (٣٥٦٩)، ٣/٨٢٨ ــ ٨٢٩، ورواه ابن مـاجه: كتـاب الأحكام، بـاب (١٣) حكم ما أفسـدت المـواشي، حديث (٢٣٣٢)؛ ورواه مالك في الموطأ: كتاب الأقضية، باب (٢٨)، حـديث (٣٧). وطريق أبـي داود روي فيه موصولاً، والحديث صحيـح ورجاله ثقات.

(٣) رواه البخاري، كتاب الديات، حديث (٥٠)، ٩/٢١.

العرف أنّ أصحاب الحوائط والبساتين يحفظونها بالنهار ويوكلون بها الحفاظ والنواطير، ومن عادة أصحاب المواشي أن يسرحوها بالنهار ويردونها بالليل إلى المراح، فمن خالف هذه العادة كان به خارجاً عن رسوم الحفظ إلى حدود التقصير والتضييع. . . وحديث (العجماء جبار) عامّ وهذا حكم خاصّ، والعامّ ينبىء على الخاصّ ويردّ إليه، فالمصير في هذا إلى حديث البراء. والله أعلم»[1].

ويقول الحافظ ابن حجر: «وأمّا إشارة الطحاوي إلى أنّه منسوخ بحديث الباب فقد تعقّبوه بأنّ النسخ لا يثبت بالاحتمال مع الجهل بالتاريخ. (الطحاوي أشار إلى أنّ حديث البراء منسوخ بحديث «العجماء جبار»).

وأقوى من ذلك قول الإمام الشافعي: «أخذنا بحديث البراء لثبوته ومعرفة رجاله، ولا يخالفه حديث (العجماء جبار) لأنّه من العامّ المراد به الخاصّ»[2].

* ومن البلاغة القرآنية ما يلي:

في قوله تعالى: ﴿وكنّا لحكمهم شاهدين﴾ يقول أبو السعود فيما معناه: إنّ هذه الجملة اعتراضية، والهدف منها تقرير للحكم وزيادة الاعتناء بشأنه[3].

وبهذه الفائدة البلاغية ينتهي كلامنا حول هذا الفصل. والحمد لله.

* * *

---

(١) أبو سليمان الخطّابي، معالم السنن، ٨ مج (بيروت ـ لبنان: دار المعرفة، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) ٨٢٨/٣.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٢٥٨/١٢.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود ٧٩/٦.

الفصل الرابع

وراثة سليمان لداود

المبحث الأوّل

بيان الآية

يذكر لنا تعالى هذه الوراثة في قوله:

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾[1].

والوراثة المقصودة هنا: هي وراثة الملك والعلم والنبوّة[2]، وليست وراثة المال، إذ لو كانت كذلك لما خصّ به سليمان وحده دون سائر أولاده، وقد روي أنّ له تسعة عشر ولداً وقيل: أحد عشر ولداً. كما أنّه يمنع هذا أنّ الأنبياء لا تورث أموالهم وما تركوه فهو صدقة وقد قال النبي ﷺ: «نحن لا نورث وما تركناه فهو صدقة»[3].

فالوراثة ــ إذاً ــ هنا مجازية على حدّ قوله ﷺ: «. . . وإنّ العلماء ورثة الأنبياء وإنّ الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً، إنّما ورّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظّ وافر»[4].

---

(١) سورة النمل: الآية ١٦.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ١٩/٨٧؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٣٥٨.

(٣) رواه البخاري: كتاب الخمس، حديث (٢)؛ ورواه مسلم: كتاب الجهاد، الأحاديث (٤٨ ــ ٥٣).

(٤) رواه أبو داود: كتاب العلم، حديث (١)، ٤/٥٧ ــ ٥٨؛ رواه ابن ماجة: المقدمة، باب (١٧)، حديث (٢٢٣)؛ ورواه الترمذي، كتاب العلم، باب فضل الفقه على العبادة (١٩)، حديث (٢٦٨٢).

فهو بمعنى: أنّه قد صار إليه ذلك بعد موت أبيه فسمّي ميراثاً تجوّزاً.

ولعلّ الحكمة في عدم إرث المال من الأنبياء هي سدّ ذريعة خطور تمنّي موت النبي في نفس بعض ورثته[1]. والله أعلم.

* ثمّ يحكي الله لنا في هذه الآية الكريمة ـ بعد أن بيّن وراثة سليمان لأبيه ـ قول سليمان: ﴿وقال يا أيها الناس علّمنا منطق الطير وأوتينا من كلّ شيء إنّ هذا لهو الفضل المبين﴾ . . . يقول ذلك ـ عليه السلام ـ تشهيراً لنعمة الله عليهما والتنويه بها، ودعاء الناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير[2].

وقيل: إنّه يقصد في قوله هذا نفسه فقط دون أبيه، وإنّما جاء بقوله: (علّمنا ـ أوتينا) بصيغة الجمع للمتكلّم؛ إمّا لقصد التواضع فكأنّ جماعة علموا وأوتوا وليس هو وحده، وإمّا لأنّه المناسب لإظهار عظمة الملك، وفيه تهويل لأمر السلطان عند الرعية، وقد يكون ذلك من مقتضى السياسة في بعض الأحوال. وقيل: بأنّ المراد بقوله هو وأبيه داود[3].

والرأي الذي أميل إليه أنّه يقصد بذلك نفسه وأباه لوجوه:

أوّلها: إنّ الله حكى عن داود قوله: ﴿يا جبال أوّبي معه والطير﴾ [سبأ: ١٠].

ثانيها: قوله كذلك عن داود: ﴿والطير محشورة كلّ له أوّاب﴾ [صٓ: ١٩].

وآخرها: ما ذكرناه من وراثة سليمان لعلم داود، وهذا يدخل فيه بطبيعة الحال[4].

ولا شكّ أنّ هذا ـ أيضاً ـ من باب الاعتراف منه لمنزلة أبيه داود. والله أعلم.

* ويقول ابن كثير في قوله تعالى: ﴿علّمنا منطق الطير﴾: «كان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر فيما علمناه ممّا أخبر الله به ورسوله، ومن زعم من الجهلة والرّعاع أنّ الحيوانات كانت تنطق كنطق بني آدم قبل

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٩/٢٣٦.

(٢) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٤/١٨٥.

(٣) انظر: تفسير البيضاوي ٤/١١٤؛ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٩/٢٣٨.

(٤) انظر: قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص ٣١٠.

سليمان بن داود كما قد يتفوّه بـه كثير من الناس فهو قول بلا علم، ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة؛ إذ كلّهم يسمـع كلام الطيـور والبهائم ويعـرف مـا تقول، وليس الأمـر كما زعمـوا ولا كما قـالوا، بـل لم تزل البهـائم والطيـور وسائـر المخلوقـات من وقت خلقت إلى زمـاننـا هـذا على هـذا الشكـل والمنـوال، ولكنّ الله سبحانه كان قد أفهم سليمان ما يخاطب بـه الطيور في الهواء ومـا تنطق بـه الحيـوانات على اختـلاف أصنـافهـا و لهـذا قـال تعـالى: ﴿علّمنـا منـطق الـطيـر وأوتينـا من كـلّ شيء﴾ »[1].

فإذاً نعلم من كلام ابن كثير أنّه لم يقتصـر العلم على منطق الـطير فقط بـل على معرفة منطق كلّ الأصناف.

ويدلّ على هذا كلام للطاهر بن عاشور فيقول: «في قوله: ﴿علّمنا منطق الطير﴾ إيجاز لأنّه إذا علّم منـطق الطيـر وهو أبعـد الحيوان عن الـركون إلى الإنسـان وأسرعهـا نفوراً منه، علم أنّ منطق ما هو أكثر اختـلاطاً بـالإنسان حـاصل لـه بـالأحرى كمـا يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فتبسّم ضاحكاً من قولها﴾ [النمل: ١٩]، فتدلّ هـذه الآية على أنّـه علم منطق كل صنف من أصناف الحيوان»[2].

ويبيّن لنـا القرطبي عن سبب ذكـر الطيـر هنا دون غيـره مع علمـه بلغة الجميـع فيقـول: «وإنّما ذكـر الطيـر لأنّه كـان جنداً من جنـد سليمان يحتـاجه في التـظليـل عن الشمس وفي البعث من الأمور فخصّ بالذكر لكثـرة مداخلتـه، ولأنّ أمر سـائر الحيـوان نادر وغير متردّد ترداد الطير»[3].

* ثمّ يتمّم كلامه بزيادة الاعتراف بفضل الله عليهما بأنّ الله منّ عليهما بأن أعـطاهما من كـلّ شيء من الخيـرات. وهـذا إنّمـا هـو من فضـل الله البيّن عليهمـا وليس همـا أصحاب الفضل فيه[4]: ﴿وأوتينا من كل شيء إنّ هذا لهو الفضل المبين﴾.

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٣٥٨.

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٩/٢٣٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣/١٦٧.

(٤) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ١٩/٨٧.

المبحث الثاني

العبر والفوائد

* إن أعظم الإرث هو إرث الأنبياء؛ وهو العلم، فالعلماء ورثة الأنبياء. ولذلك كانت منزلة العلماء رفيعة عالية. والأحاديث ـ كما هو معلوم ـ في فضل العلم والعلماء كثيرة ومشهورة تدفع المؤمن إلى أن يقضي حياته كلها في طلب العلم ويمتثل قول الله تعالى: ﴿وقل ربِّ زدني علماً﴾ [طه: ١١٤].

وقد ذكرنا في الفصل الثاني من هذا الباب كلاماً لابن القيّم حول هذا الفضل العظيم وحسبنا ما ذكرناه.

* إنّه لا مانع من ذكر الإنسان لنعم الله عليه لا للافتخار على الناس، وإنّما لبيان عظم المنعم سبحانه والتحديث بها، والاعتراف بفضل المنعم عزّ وجلّ وأنّ ما هو فيه إنّما هو راجع إلى فضل الله عليه. وليدلّ الناس على تصديقه، كما هو الحال في شأن سليمان ـ هنا ـ في قوله: ﴿يا أيها الناس علّمنا منطق الطير. . .﴾ الآية.

* وقد يذهب بعض المفسّرين إلى تفسير ما قصّه القرآن عن سليمان بأنّه نوع من إدراك لغات الطيور على طريقة المحاولات العلميّة، وهذا ـ ولا شك ـ إخراج له عن حقيقة الإعجاز الإلّهي التي جعلها الله لسليمان وخصّه بها.

يقول الشهيد سيد قطب: «وللطيور والحيوان والحشرات وسائل للتفاهم هي لغاتها ومنطقها فيما بينها. والله سبحانه هو خالق هذه العوالم. يقول تعالى: ﴿وما من دابّة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاّ أمم أمثالكم﴾ [الأنعام: ٣٨]، ولا تكون أمماً حتى تكون لها روابط معيّنة تحيا بها، ووسائل معيّنة للتفاهم فيما بينها، وذلك ملحوظ في حياة أنواع كثيرة من الطيور والحيوانات والحشرات. ويجتهد علماء هذه الأنواع في إدراك شيء من لغاتها ووسائل التفاهم بينها عن طريق الحدس والظنّ لا عن الجزم

واليقين. فأمّا ما وهبه الله لسليمان كان شأناً خاصّاً بـه على طريق الخارقـة التي تخالف مـألوف البشـر لا عن طريق المحـاولة منـه، والاجتهاد لتفهم وسـائل الـطيـر وغيـره في التفاهم على طريق الحدس والظنّ كما هو حال العلماء اليوم. . .

أحبّ أن يتأكّد هذا المعنى ويتضـح لأن بعض المفسّرين ممّن تبهرهم انتصارات العلم الحديث يحاولون تفسير ما قصّه القرآن عن سليمان في هـذا الشأن بـأنّه نـوع من إدراك لغات الطير والحيوان والحشرات على طريقة المحاولات العلمية الحديثـة. وهذا إخراج للخارقة عن طبيعتها. وأثر من آثار الهزيمة والانبهار بالعلم البشري القليل! وإنّه لأيسر وأهون شيء على الله أن يعلم عبداً من عباده لغـات الطيـر والحيوان والحشـرات هبة لدنّية منه، بلا محاولة ولا اجتهاد. وإن هي إلا إزاحة لحواجز النوع التي أقـامها الله بين الأنواع، وهو خالق هذه الأنواع»[١].

* ومن البلاغة القرآنية ما يلي:

- في قوله تعالى: ﴿. . . إنّ هذا لهو الفضل المبين﴾ نقول:

أكّـدت هذه الجملة بـإنّ واللام، وجيء بضميـر الفصـل (هـو)؛ وذلـك لتعـظيم النعمة أداء للشكر عليها بالمستطاع من العبارة[٢].

ونصل بالانتهاء من هذا الفصـل إلى نهايـة بحثنا في هـذا الباب (داود وسليمـان عليهما السلام). والحمد لله رب العالمين.

* * *

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/٢٦٣٤.

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٩/٢٣٨.

الباب السّابع
لُقْمَانُ الحَكِيمُ مَعَ ابْنِهِ

وفيه تمهيد، وفصلان:

الفصل الأوّل: بيان المواعظ.

الفصل الثاني: العبر والفوائد.

تمهيد

في هذا الباب سنتحدّث عن موقف عظيم من مواقف الآباء مع أبنائهم. . موقف الوعظ والإرشاد. . موقف لقمان الحكيم مع ابنه.

وفي هذا التمهيد نريد أن نبيّن حقيقة شخصية لقمان الأب من حيث:

اسمه ــ عصره وموطنه ــ عمله ومهنته ــ هل هو نبيّ أم لا؟ ــ حكمته.

أولاً ــ اسمه:

اختلف في اسمه المؤرّخون والمفسّرون. فمنهم من ذكر أنّه: لقمان بن عنقاء بن سدون. في قول حكاه السهيلي[1].

وقيل: هو لقمان بن باعوراء بن ناجور بن تَارَح، وتارح هو آزر أبو إبراهيم عليه السلام. كذا نسبه ابن إسحاق[2].

ومن هذا الاسم سبق إلى أوهام بعض المؤلفين أنّه المسمّى في كتب اليهود (بلعام بن باعوراء) المذكور خبره في الإصحاحين (٢٢ ــ ٢٣) من سفر العدد؛ فذلك وهم لأنّ بلعام ذلك رجل من أهل مدين كان نبياً في زمن موسى عليه السلام، ولعلّ التوهم جاء من اتحاد اسم الأب، أو من ظنّ أنّ بلعام يرادف معنى لقمان؛ لأنّ بلعام من البلع ولقمان من اللقم، فيكون العرب سمّوه بما يرادف اسمه في العبرانيّة[3].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٤٤٤؛ البداية والنهاية لابن كثير ٢/١١٣.

(٢) تفسير القرطبي ١٤/٥٩.

(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢١/١٤٩.

وقيل ـ أيضاً ـ في اسمه أنّه: لقمان بن ثاران. حكاه السهيلي عن ابن جرير والقتيبي[1].

أقول: وليس الاختلاف في اسمه أمراً يجب الوقوف عنده، ولا أهميّة لرجحان أحدها على الآخر. وأنّه لم يذكر أي الأسماء أرجح، إلّا أنّ ابن كثير في تفسيره وتاريخه (البداية والنهاية) كأنّه يشير إلى ترجيح القول الأول؛ حيث أنّه قال: وهو لقمان بن عنقاء بن سدون. . ، ثم قال: لقمان بن ثاران. . .

ويدلّ كلام الإمام القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) على ترجيح أنّه: لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارح. . والله أعلم بالصحيح من ذلك.

ولكن أشار صاحب التحرير والتنوير إلى أنّه ليس هو لقمان بن عاد الذي قال فيه المثل المشهور: (إحدى حُظيات لقمان)؛ فإنّه يعرف ذلك بلقمان صاحب النسور، وهو الذي له ابن اسمه: لقيم[2].

ثانياً ـ عصره وموطنه:

ذكر أهل التفسير والتاريخ أنّه كان في زمن داود عليه السلام.

وبعضهم يقول: إنّه كان ابن أخت أيوب عليه السلام، أو ابن خالته.

فيتعيّن لنا بهذين القولين أنه عاش في بلاد بني إسرائيل.

كما أنّه قد أشارت كثير من الروايات التي يعضد بعضها بعضاً وإن كانت أسانيدها ضعيفة إلى أنّ لقمان كان من السود، فقيل: إنّه من بلاد النوبة، وقيل من الحبشة[3].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٢/١١٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢١/١٤٩.

(٣) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ٢/١١٤؛ تفسير القرطبي ١٤/٥٩؛ التحرير والتنوير ٢١/١٤٨ ـ ١٤٩.

ثالثاً ـ عمله ومهنته:

يقال إنّه كان قاضياً في زمن داود عليه السلام، وقيل: كان راعياً للغنم، وقيل: كان نجاراً. وقيل: خياطاً[1].

أقول: ويحتمل أنّه مع قضائه بين الناس كان يقوم بإحدى هذه المهن وهذا لا يمنع. والله أعلم.

رابعاً ـ هل هو نبيّ أم لا؟

اختلف في ذلك، فالجمهور على أنّه كان رجلاً صالحاً حكيماً. واعتمد ـ هذا ـ الإمام مالك بن أنس؛ إذ ذكره في جامع الموطأ مرّتين بوصف لقمان الحكيم، وذلك يقتضي شهرة هذا الأمر بين علماء المدينة. وهذا قول ابن عبّاس وغيره.

كما أنّه يظهر لنا من خلال الآيات القرآنية المذكورة في قصّته أنّه لم يكن نبيّاً؛ لأنَّه لم يمتنّ عليه بوحي ولا بكلام الملائكة، والاقتصار على أنّه أوتي الحكمة يومىء إلى أنّه ألهمها ونطق بها، وأيضاً فإنّه لما ذكر تعليمه لابنه قال تعالى: ﴿وهو يعظه﴾ وذلك مؤذن بأنّه تعليم لا تبليغ تشريع.

وممّن ذهب إلى أنّه نبيّ ـ إذا صحّ النقل عنهم ـ عكرمة والشعبي.

واحتجّوا بأنّ لفظ (الحكمة) يسمح بهذا؛ لأنّ الحكمة أطلقت على النبوّة في كثير من القرآن كقوله في داود: ﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ [ص: ٢٠] وقد فسّرت الحكمة هنا بالنبوّة.

وقوله: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وهنا أيضاً، والحكمة هي معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه وأعلاها النبوّة لأنّها علم بالحقائق مأمون من أن يكون مخالفاً لما هي عليه في نفس الأمر، إذ النبوّة متلقاة من الله الذي لا يعزب عن علمه شيء[2].

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ٢/١١٤؛ تفسير القرطبي ١٤/٥٩؛ التحرير والتنوير ٢١/١٥٠.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ١٤/٥٩؛ التحرير والتنوير ٢١/١٤٩ ـ ١٥٠.

أقول: ولكن أقوالهم هذه مرجوحة ومحتملة، فالحكمة فيما ذكروه قد فسّرت بالنبوّة وبغيرها، ثم إنَّ ذكر الحكمة لشخص لا يعني أنّه بلغ أعلاها وهي النبوّة. . .

فرأي الجمهور هو الراجح والصواب، لما عليه قول ابن عبّاس رضي الله عنهما، ولما يشير إليه ظاهر هذه الآيات، ولما اشتهر عند علماء المدينة ـ أيضاً ـ ؛ إذ هو دليل على أنّه أصبح أمراً معروفاً. والله أعلم.

خامساً ـ حكمته:

اشتهر لقمان بحكمته، ونقلت أقوال مأثورة عنه في عدد من الكتب، وقد اعتنى بها أهل التربية وغيرهم.

ولقد حكى لنا القرآن ممّا ذكر لنا في السورة المسمّاة باسمه.

وذكر لنا الإمام مالك منها بلاغين في كتاب الجامع، وفي جامع العتيبة. وكذلك الإمام أحمد في مسنده.

وجمع له صاحب التحرير والتنوير من هذه الكتب في كتابه ثمانياً وثلاثين حكمة[١].

وفي تفسير القرطبي روي عن وهب بن منبّه قال: قرأت من حكمة لقمان أرجح من عشرة آلاف باب[٢].

فهذا الكلام وإن صحَّ فهو مبالغة عن الكثرة.

وممّا يدل على عظيم حكمته أنّ الله شهد له بها فقال: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة. . .﴾ الآية [لقمان: ١٢].

وبعد هذه المعرفة بشخصية لقمان والتي أحسبها كافية ـ إن شاء الله ـ يحسن بنا الدخول إلى مواعظة وحكمه التي وجّهها لابنه والتي حكاها لنا القرآن الكريم. والله المستعان.

* * *

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢١/١٥٠.

(٢) تفسير القرطبي ١٤/٦١.

الفصل الأول

بيان الموعظ

يذكر الله عزّ وجلّ مواعظ لقمان لابنه في الآيات التالية:

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) ﴾[1].

وسنبيّن هذه المواعظ كلّ واحدة على حدة كما يلي:

١ ـــ الموعظة الأولى:

بدأ لقمان موعظته لابنه[1] بأهمّ الأمور وهو أمر العقيدة والتوحيد، فنهاه عن الشرك بالله: ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنيّ لا تشرك باللّهِ إنَّ الشرك لظلم

(١) سورة لقمان: الآيات ١٣ ـــ ١٩.

(٢) قال السهيلي: اسم ابنه ثاران في قول الطبري والقتبي؛ وقال الكلبي: مشكم، وقيل: أنعم. حكاه النقّاش (تفسير القرطبي ٦٢/١٤).

عظيم﴾ وأمَّا فائدة ذكر الحال بقوله: ﴿وهو يعظه﴾ إشارة إلى أنَّ قوله هذا كان لتلبّس ابنه بالشرك. وقد قال جمهور المفسّرين: إنَّ ابن لقمان كان مشركاً فلم يزل لقمان يعظه حتى آمن باللَّهِ وحده. ويؤكّد ذلك أنَّ الوعظ هو زجر مقترن بالتخويف، كقوله تعالى: ﴿... فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾ [النساء: ٦٣]. كما أنّه يعرف المزجور عنه بمتعلّق فعل الموعظة وهو الشرك باللَّه. فهو إذاً يعظ ابناً له قد أشرك باللَّهِ، ولعلّه يدين بدين قومه من السودان[1].

وبدأ موعظته بأسلوب لطيف ــ كأسلوب نوح عليه السلام مع ولده ــ بكلمة: (يا بني) مصغّرة لتنزيل المخاطب الكبير منزلة الصغير كناية عن الشفقة به والتحبّب له والاهتمام بأمره وإخلاص النصح وابتغاء الخير له؛ ممّا يدفعه إلى الامتثال بما يعظه به[2].

وهو ينهاه عن الشرك باللَّهِ أولاً؛ ليخلّيه عن أصل الضلال والفساد حتى يتقبّل من بعد ذلك أصول الخير والصلاح.

وسمّى الشرك ظلماً؛ لأنّ فيه تسوية بين من يستحقّ العبادة وبين من لا يستحقّها، وبذلك توضع العبادة في غير موضعها وهذا عين الظلم[3].

وقد بيّن الله في موضع آخر من كتابه إنَّ الشرك لظلم، ففي سورة الأنعام يقول تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ [الأنعام: ٨٢] وعند نزولها شقّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: «أيّنا لم يظلم نفسه؟! فقال النبيّ ﷺ: «ليس كما تقولون، لم يلبسوا إيمانهم بظلم بشرك، أولم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: (يا بنيّ لا تشرك بالله إنَّ الشرك لظلم عظيم) »[4].

كما أنّه من الظلم في الشرك باللَّه ــ إضافةً إلى الظلم لحقوق الخالق سبحانه ــ ظلم المرء لنفسه، إذ أنّه يضع نفسه في حضيض العبوديّة لأخسّ الجمادات، وكذلك

(١) انظر: تفسير البيضاوي ٤/١٥١؛ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢١/١٥٤.
(٢) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢١/١٥٥.
(٣) انظر: تفسير الخازن ٦/٢١٦.
(٤) رواه البخاري: كتاب الأنبياء، حديث (١٦٣) ٤/٢٨١.

فيه ظلم لأهل الإيمان الحقّ؛ إذ أنّه يبعث على اضطهادهم وأذاهم لإيمانهم باللَّهِ وحده دون شريك[1].

«تعليق مهمّ»:

ويأتي بعد هذه الموعظة تعليق مهمّ من الله عزّ وجلّ وهو قوله:

﴿ووصّينا الإنسان بوالديه حملته أمّه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليَّ المصير. وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتّبع سبيل من أناب إليَّ ثمّ إليّ مرجعكم فأنبّئكم بما كنتم تعملون﴾.

فذكر الله هذه الوصية تعليقاً لتأكيد ما في موعظة لقمان من النهي عن الشرك باللَّهِ، وذلك بتعميم النهي في الأشخاص والأحوال لئلّا يتوهّم متوهّم أنّ النهي خاصّ بابن لقمان أو ببعض الأحوال، فقرّر الله في هذه الوصية أنّ ذلك يشمل كلّ إنسان ولا هوادة فيه ولو في أحرج الأحوال وهي حال مجاهدة الوالدين أولادهم على الإشراك.

وهناك ــ أيضاً ــ مناسبة لهذا الكلام في هذا الموضع، وهو أنّه لمّا حكى موعظة لقمان لابنه بما هو شكر لله بتنزيهه عن الشرك في الإلَهية بيّن أنّه تعالى أسبق منّة على عباده، إذ أوصى الأبناء ببرّ الآباء، فدخل في العموم المنّة على لقمان جزاء على رعيه لحقّ الله في ابتداء موعظة ابنه، فالله أسبق بالإحسان إلى الذين أحسنوا برعي حقّه. ويقوّي هذه المناسبة اقتران شكر الوالدين في الأمر[2].

٢ ــ الموعظة الثانية:

وفي هذه الموعظة يحثّ لقمان ابنه على مراقبة الله، وعلى العمل بطاعته مهما أمكن؛ وإن صغرت الطاعة. كما أنّه يحذّره من عمل السيئات وإن صغرت وخفت، فإنّ الله لا يغيب عنه شيء.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢١/١٥٥.

(٢) انظر: المرجع السابق ٢١/١٥٦.

﴿يا بنيّ إنَّها إن تـكُ مثقال[1] حبّـة من خردل فتكن في صخـرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إنَّ الله لطيف خبير﴾.

ويكرّر نداءه بقوله: ﴿يـا بني﴾ ليجدّد نشـاط سماع ابنـه لموعـظته الثـانية فيتنبّـه ويهتمّ بما يقوله لـه.

فهو يقول لـه: إنَّ الحسنة والسيئة إن كانت في الصغر مثل حبّة الخـردل، وتكون مـع ذلك الصّغر في موضـع حريز كالصخرة فإنَّها لا تخفى على الله.

فقوله: ﴿إنَّها إن تك مثقال حبّة من خردل﴾ إشارةً إلى الصغـر، وقولـه: ﴿فتكن في صخـرة﴾ إشارة إلى الحجـاب والخفاء، وقـولـه: ﴿أو في السمـاوات﴾ إشـارة إلى البعد، فإنَّها أبعد الأبعـاد، وقولـه: ﴿أو في الأرض﴾ إشارة إلى الـظلمات؛ فـإنَّ جوف الأرض أظلم الأماكن، وقوله: ﴿يأت بها الله﴾ أبلـغ من قول القائل: ﴿يعلمهـا الله﴾؛ لأنَّ من يظهر لـه الشيء ولا يقدر على إظهاره لغيره يكون حاله في العلم دون حـال من يظهر لـه الشيء ويظهره لغيره.

وقوله تعالى: ﴿يأت بها الله﴾ أي يحضر هذه الأعمال ـ وإن خفيت ودقّت ـ يوم القيامة حين يضـع الموازين القسط ويجازي عليهاً إن خيراً فخير؛ وإن شراً فشـر. كما قـال تعـالى: ﴿ونضـع المـوازين القسط ليـوم القيـامـة فـلا تـظلم نفس شيئـاً﴾ [الأنبياء: ٤٨]، وكقوله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرّةٍ خيراً يره. ومن يعمـل مثقال ذرّة شراً يره﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

ثمّ يختم هذه الموعظة بأنسب ختام: ﴿إنَّ الله لطيف خبيـر﴾ أي: إنَّ الله لطيف العلم لا تخفى عليه الأشياء وإن دقَّت ولطفت وتضاءلت. . لـطيف في استخراجهـا من مكانها الخافي، لأنّ علمه محيط وقدرته نافذة في كـلّ شيء، وخبير بمستقـرّها: عـالم ببواطن الأمور ودقائقها[2].

---

(١) قرأ نافـع: (مثقالُ) بالرفـع، وقرأ الباقون بـالنصب: (مثقال). فعلى الـرفـع جعل (كـان) بمعنى حـدث ووقـع. أي أن وقـع مثقـال حبّـة. وبـالنصب: فـاسم كـان ينبغي أن يكـون المـظلمـة أو الحسنة. والمعنى: إنَّ تك المظلمة أو الحسنة مثقال حبّـة من خردل. (حجّـة القراءات لابن زنجلة: ص ٥٦٥).

(٢) انـظر: تفسيـر ابن جـريـر الـطبـري ٤٦/٢١ ـ ٤٧؛ التفسيـر الكبيـر للفخـر الـرازي =

٣ ـ الموعظة الثالثة:

ثمّ ينتقل لقمان في موعظته لابنه من بيان أصول الاعتقاد إلى مقتضياته وهي الأعمال الصالحة، فأمره أولاً بأمّها وعمادها وهي الصلاة التي يتوجّه بها إلى الله فتخلّص نفسه من كل شائبة معصية، ومن ثمّ تستقيم هذه النفس على طاعة الله: ﴿يا بنيّ أقم الصلاة﴾ وإقامة الصلاة ليس أدائها فحسب، بل أداؤها بحدودها وفروضها وخشوعها وفي أوقاتها وبكلّ ما يعين على تمام قبولها؛ لتكون ذات أثر عظيم في الخلوص من المعصية والاستقامة على الطاعة ويصدق هذا قوله تعالى: ﴿إنَّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. . .﴾ [العنكبوت: ٤٥][1].

ومن بعد ما أمره بالصلاة لتصلح له نفسه؛ يوصيه بأن يكون آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر؛ وذلك حتى يهدي الناس ويصلحهم كما صلح، وليسلم مجتمعه من الغرق في الرذائل؛ وينعم الجميع بالسعادة في الدارين.

ومن عظيم حكمة لقمان أنّه لم يأمر ابنه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فحسب، بل أخبره عن طبيعة هذا الطريق ـ طريق الدعوة ـ ليوطّن نفسه على مشاقّه، فأخبره أنّه سيجد من الابتلاء والأذى ما يجد في سبيل ذلك، فعليه بالصبر والتحمّل؛ وعدم التخلّي عن هذا الواجب: ﴿وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور﴾.

وقيل: إنَّ قوله: ﴿إنَّ ذلك من عزم الأمور﴾ راجع إلى إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على ذلك، إذ أنّها من الأمور الواجبة التي أمر الله بها[2].

ولكنّي أميل إلى القول بأنّ هذه الجملة عائدة إلى الصبر، ويدلّ عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل. . .﴾ الآية [الأحقاف: ٣٥]، أي أرباب

= ١٤٧/٢٥ ـ ١٤٨؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٤٦/٣؛ التحرير والتنوير ١٦٢/٢١ ـ ١٦٤؛ تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ١٥٨/٦.

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ٤٧/٢١؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٤٦/٣.

(٢) انظر: تفسير الخازن ٢١٧/٥.

الثبات والحزم، لأنّ الداعية لا يثبت على طريقة إلاّ بالصبر، وبه يحزم أمره على أن لا يرجع عن أمر الدعوة. ويدلّ عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿ولمن صبر وغفر إنَّ ذلك لمن عزم الأمور﴾ [الشورى: ٤٣]. والله أعلم.

أمّا عن وجه تخصيص هذه الطاعات من سائر الطاعات؛ فلأنّها أمّهات العبادات وعماد الخير كلّه، وبها يتمّ غيرها[١].

ونذكر هنا كلاماً لسيد قطب في ظلاله حول هذه الموعظة إذ يقول: «فأمّا الخطوة التالية فهي التوجّه إلى الله بالصلاة، والتوجّه إلى الناس بالدعوة إلى الله، والصبر على تكاليف الدعوة ومتاعبها التي لا بدّ أن تكون.. وهذا هو طريق العقيدة المرسوم.. توحيد الله وشعور برقابته، وتطلّع إلى ما عنده، وثقة في عدله، وخشية من عقابه. ثم انتقال إلى دعوة الناس وإصلاح حالهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، والتزوّد قبل ذلك كلّه للمعركة مع الشرّ بالزاد الأصيل.. زاد العبادة لله والتوجّه إليه بالصلاة؛ ثم الصبر على ما يصيب الداعية إلى الله من التواء النفوس وعنادها، وانحراف القلوب وإعراضها، ومن الأذى تمتدّ به الألسنة وتمتدّ به الأيدي، ومن الابتلاء في المال والابتلاء في النفس عند الاقتضاء. ﴿إنَّ ذلك من عزم الأمور﴾ وعزم الأمور: قطع الطريق على التردّد فيما بعد العزم والتصميم[٢].

٤ ـ الموعظة الرابعة:

وفيها يوضّح لقمان لابنه أدب معاملة الناس بقوله: ﴿ولا تصعّر[٣] خدّك للناس ولا تمشِ في الأرض مرحاً إنَّ الله لا يحبّ كلّ مختال فخور﴾. فإنّه لمّا أمره بأن يكون مطيعاً لله داعياً إليه خشي بعدهما أمرين: التكبّر على الغير بسبب كونه داعياً ومكمّلاً لهم، التبختر في النفس بسبب كونه مطيعاً لله[٤].

---

(١) انظر: فتح القدير للشوكاني ٤/ ٢٣٩.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/ ٢٧٩٠.

(٣) قرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر: (ولا تصعّر خدّك) بالتشديد، وقرأ الباقون: (ولا تصاعر) (حجّة القراءات لابن زنجلة: ص ٥٦٥).

(٤) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٥/ ١٤٩.

وموعظته هذه شاملة لجميع الناس من يدعوهم ومن لا يدعوهم، ولكنّه احتراز مع تعميم.

والموعظة هذه جاءت على شقّين:

الأوّل ــ قوله: ﴿ولا تصعّر خدّك للناس﴾. أي لا تعرض بوجهك عمّن تكلّمه تكبّراً عليه واستحقاراً له. وأصل الصّعر: داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها حتى تلفت أعناقها عن رؤوسها، فشبّه به الرجل المتكبّر على الناس. ومنه قول عمرو بن حيّ التغلبي:

وكنّا إذا الجبّار صعّر خدّه أقمنا له من ميله فتقوّما[1]

إذاً فكأنّه يعظه بأن يقبل على الناس بكلّيته، وأن يكون ليّن الجانب متواضعاً لهم.

أمّا الشقّ الثاني فهو قوله: ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾. والمشي مرحاً: هو النشاط والمشي فرحاً وازدهاءً في غير شغل، وفي غير حاجة، وأهل هذا الخلق ملازمون للفخر والخيلاء[2].

والغاية: أنّه ينهاه أن يمشي بين الناس مختالاً متكبّراً جبّاراً عنيداً. وقد قال تعالى: ﴿ولا تمشِ في الأرض مرحاً إنَّك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً﴾ [الإسراء: ٣٧][3].

كما أنّه قد نهى النبيّ ﷺ عن هذه المشية في قوله: «لا ينظر الله إلى من جرّ ثوبه خيلاءً»[4].

ثمّ أتبع نهيه هذا بتحذيره أنّه إن تكبّر واختال وافتخر، فإنَّ الله سيبغضه وبذلك يكون محلاً لسخط الله: ﴿إنَّ الله لا يحبّ كل مختال فخور﴾. وهذه الجملة التي ختم

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ٢١/٤٧ ــ ٤٨.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ١٤/٧٠ ــ ٧١؛ التحرير والتنوير ٢١/١٦٧.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٤٤٦.

(٤) رواه البخاري: كتاب اللباس، باب من جرّ ثوبه خيلاء، حديث (١٠)، ٧/٢٦٠. ورواه مسلم: كتاب اللباس، حديث (٤٦)، ٤/٧٩٣.

بها موعظته هي في محلّ التعليل لنهيه عن الاختيال والفخر. والاختيال هو العجب بالنفس، وأمَّا الفخر فهو التعالي على الناس بمال أو شرف أو قوّة أو غير ذلك[1].

ولا يخفى أنّه قد ورد العديد من الآيات القرآنية التي تنهى عن التخلّق بهذه الصفات الذميمة ومنها ـ على سبيل المثال ـ قوله تعالى: ﴿. . . إنَّ الله لا يحبّ من كان مختالاً فخوراً﴾ [النساء: ٣٦]، وما ذلك إلاَّ لخطر انتشار هذه الصفات في المجتمعات.

٥ ـ الموعظة الخامسة والأخيرة:

وبعد أن نهاه عن الخلق الذميم، دلّه على ما يقابله من الخلق الجميل الممدوح فقال له: ﴿واقصد في مشيك واغضض من صوتك إنَّ أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾.

وهذه الموعظة كسابقتها؛ فإنَّها تحتوي على شقَّين:

الأول ـ قوله: ﴿واقصد في مشيك﴾ أي (تواضع في مشيك إذا مشيت ولا تستكبر ولا تستعجل ولكن اتئد)[2].

وهو بهذا يريد أن يكون ابنه وسطاً بين الطرفين المذمومين: مشي الخيلاء، ومشي التماوت الذي يرى فيه الإنسان ضعفه تزهّداً[3]. والمقصود أن لا يسير سير الذليل المستكين ولا مشي المختال المعجب بنفسه؛ ولكن قصداً وسطاً بين ذلك.

وأمَّا ما روي عن النبيّ ﷺ أنّه كان إذا مشى أسرع، وقول عائشة رضي الله عنها في عمر بن الخطّاب: كان إذا مشى أسرع، فإنَّما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت. وقد جاء مدح الله لمن يمشون هذه المشية المتواضعة فقال سبحانه: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً. . .﴾ الآية [الفرقان: ٦٣].

والشق الثاني هو قوله: ﴿واغضض من صوتك إنَّ أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾.

---

(١) انظر: فتح القدير للشوكاني ٤/ ٢٣٩.

(٢) تفسير ابن جرير الطبري ٢١/ ٤٨.

(٣) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٥/ ١٥٠.

والغضّ: هو نقص قوّة استعمال الشيء[1].

فالمقصود من نصحه لابنه ـ هنا ـ أنّه يريد منه أن ينقص من صوته فلا يتكلّف في رفعه، وأن يأخذ منه ما يحتاج إليه؛ إذ أنّ الجهر بأكثر من الحاجة تكلّف يؤذي. والمراد بهذا كلّه التواضع.

وللتنفير من هذه الصفة القبيحة شبّه فاعلها بالحمار في رفعه وعلوّه لصوته: ﴿إنَّ أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾. ولو أنَّ شيئاً يهاب لصوته لكان الحمار!! فجُعلا في المثل سواء[2].

وبهذه الموعظة يقف السياق القرآني في ذكر مواعظ لقمان لابنه، ولا يقتضي ذلك أنّها مقصورة عليها، ولكن هناك غيرها، وقد ذكرت الكتب غيرها كما سبق وأشرنا من قبل...

* * *

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢١/١٦٨.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ١٤/٧١ ـ ٧٢.

الفصل الثاني

العبر والفوائد

تقديم :

* من هذه المواعظ نرى دور الأب المهمّ في إصلاح أبنائه، وأنّ ذلك في الدرجة الأولى من المسؤولية الملقاة على عاتقه. يقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾[1].

فلا يكتفي الأب بكونه صالحاً في نفسه؛ إذ أنّ من تمام صلاحه أن يعطي أبناءه حقّهم من التربية والإصلاح، فذلك واجب عليه لا مندوب إليه.

ونذكر هنا كلاماً لسيد قطب ـ حول هذا الواجب وأهمّيته وخطورة التساهل فيه ـ إذ يقول: «إنّ المؤمن مكلّف بهداية أهله وإصلاح بيته، كما هو مكلّف هداية نفسه وإصلاح قلبه. إنّ الإسلام دين أسرة، ومن ثم يقرّر تبعة المؤمن في أسرته، وواجبه في بيته. والبيت المسلم هو نواة الجماعة المسلمة وهو الخليّة التي يتألف منها ومن الخلايا الأخرى في ذلك الجسم الحيّ... المجتمع الإسلامي... إنّ البيت الواحد قلعة من قلاع هذه العقيدة، ولا بدّ أن تكون هذه القلعة متماسكة من داخلها حصينة في ذاتها، كلّ فرد فيها يقف على ثغرة لا ينفذ إليها. وإلّا تكن كذلك سهُل اقتحام المعسكر من داخل قلاعه، فلا يصعب على طارق، ولا يستعصي على مهاجم!

وواجب المؤمن أن يتجه بالدعوة أول ما يتجه إلى بيته وأهله. واجبه أن يؤمّن هذه

---

(١) سورة التحريم: الآية ٦.

القلعة من داخلها. واجبه أن يسدّ الثغرات فيها قبل أن يذهب عنها بدعوته بعيداً...»[1].

* ويقول الشيخ محمد محمود حجازي: «وهذا هو الوضع السليم بين الأب وبنيه... يعظهم ويرشدهم ويجنّبهم المهالك، فإذا تغيّر الوضع وصار الأب مدعاة للشرك ومصدراً للعصيان فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[2].

وإنّا لنرى هذا الوضع غير الطبيعي عند بعض الآباء الذين انحرفوا عن جادّة الطريق، إذ نجدهم ممّن ييسّر لأبنائه سبل الفساد والشرّ... وهذا مثل للآباء عظيم؛ إذ أنّه بدلاً من أن ينقذوهم من النار أصبحوا داعين لهم إليهم؛ مع كونهم مدّعين لحبّهم وإخلاصهم لهم!!!

* وفي بيان الله لموعظة لقمان لابنه بعد أن بيّن أنّه آتاه الحكمة ورزقه شكره: إشارة إلى أنّ أعلى مراتب الإنسان أن يكون كاملاً في نفسه مكمّلاً لغيره[3].

* ويقول الشيخ عبد الرحمن السعدي حول مواعظ لقمان لابنه: «وهذه الوصايا التي وصّى بها لقمان ابنه تجمع أمّهات الحكم وتستلزم ما لم يذكر منها، وكلّ وصيّة يقترن بها ما يدعو إلى فعلها إن كانت أمراً، وإلى تركها إن كانت نهياً...»[4].

وبعد هذا التقديم نستأنف في ذكر العبر والفوائد، وعلى النحو التالي:

١ ـ العبر والفوائد من الموعظة الأولى:

بدأ لقمان مع ابنه في مواعظه له بأهمّ الأمور، وهو إصلاح عقيدته بالله، فنهاه عن الشرك به ويستتبع هذا النهي الأمر بعبادته وحده. ومع هذا النهي المستلزم للأمر بيّن له علّة النهي وهي أنّ الشرك ظلم عظيم، وقد بيّنا فيما قبل لم سمّي الشرك ظلماً عظيماً.

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٦/ ٣٦١٩.

(٢) التفسير الواضح لمحمد محمود حجازي ٢٢٣/٢.

(٣) تفسير الخازن ٦/ ٢١٥.

(٤) تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ٦/ ١٦٠ ـ ١٦١.

وكانت نظرة لقمان أول ما نظر، وموعظته أوّل ما وعظ إلى الإيمان بالله. وهذا هو المطلوب حقاً... إذ أنّ أمر العقيدة أهمّ الأمور، لأنّه الأساس الذي يبنى عليه ما يأتي بعده من متطلبات الدين... فهو أول مسؤولية تجاه الولد في تربيته وإصلاحه.

ولقمان الحكيم لم يعظ ابنه هنا بأمر جديد عليه، بل هو أمر قد فطر عليه فأراد رده إليه ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ [الروم: ٣٠] فالإيمان مفطور في النفس منذ خلق الله الخلق: ﴿وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرّيتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا...﴾ الآية [الأعراف: ١٧٢].

وإنّها لمسؤولية التربية الإيمانية العظمى، فإنّ الولد إن لم يعنى به عقدياً نشأ مختلّ العقيدة ضعيف الإيمان، هذا إن لم ينحلّ وينتقل من الإسلام إلى الكفر بفعل عوامل البيئة الفاسدة والمجتمعات الضالّة.

ولا بأس ونحن في صدد هذه المسؤولية أن نستعرض صوراً من الواقع الاجتماعي ونماذج من بيئات الضلال والفساد؛ لتعرف العوامل التي تؤدّي إلى انحراف الولد في عقيدته، وليعلم أنّه إذا تساهل الآباء في هذه المسؤولية فإنّ ذلك يؤدّي على الأغلب إلى الزيغ والضلال والانحراف واعتناق مبادىء الكفر والإلحاد:

فمثلاً الأب الذي يدفع ولده إلى المدارس الأجنبية، والمعاهد التبشيرية، يرضع من لبانها، ويتلقّف التوجيه والتعليم منها، لا شكّ أنّه سينطبع على الزيغ والضلال، ويتدرّج على الكفر والإلحاد، بل ستترسّخ في نفسه مشاعر الكره للإسلام وأحقاد العداوة لهذا الدين.

والأب الذي يسمح لولده أن يطالع ما شاء من كتب الملحدين والماديين، ويقرأ ما أراد من مطاعن المبشّرين والمستعمرين، لا شكّ أنّ الولد سيتشكك بحقيقة عقيدته ودينه، وسيهزأ بتاريخه وأمجاده؛ ويكون حرباً على مبادىء الإسلام...

والأب الذي يرخي لولده العنان، ويتركه ليخالط رفقاء الزيغ والضلال، لا شكّ أنّه سيعتنق ما يحمله أصدقاؤه من المبادىء الضالّة والأفكار المستوردة، وبعد ذلك سيسخر بكلّ القيم الدينية.

والأب الـذي يترك المجـال لولـده بأن ينتمي إلى أحـزاب الحاديـة كافـرة، وإلى منظّمات علمانية لا دينيّة، وإلى هيئات لا ترتبط بالإسلام عقيدة وفكراً وتاريخاً. . .

لا شك أنّ الولد سيتربـى على عقائد ضالّة وينشأ على مبادىء إلحادية كافرة. . . بل يكون حرباً على الأديان والقيم والمقدّسات. . .[1].

إلى غير ذلك من المظاهر الخطيرة التي قد توجد في مجتمعات عالمنا الـداخلي والخارجي وتؤدّي إلى إفساد عقائد الأبناء.

فالمسؤولية إذاً كبيـرة وعظيمـة في التنّبه لعقـائد الأولاد وإصـلاحها إن ظهـر فيها شيء ما من نقص أو زيادة.

وهذا ــ هو بلا شك ــ أفضل ما يمنحه الآباء لأبنائهم.

يقـول ابن كثير رحمـه الله: «لقمان يـوصي ولـده الـذي هـو أشفق النـاس عليـه وأحبّهم إليه فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف؛ ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحـده ولا يشرك بـه شيئاً»[2].

٢ ــ العبر والفوائد من الموعظة الثانية:

* إنّ هذه الموعظة ملحقة بما قبلها في إصلاح عقيدة ابنه وتربيته الإيمانية العميقة؛ إذ قـد بيّـنّا من ذي قبل أنّ المقصـود منها هـو إشعاره بمـراقبة الله عـزّ وجـلّ، وأنّـه لا يخفى عليه شيء وإن دقّ وخفى، وأنّه مجاز عليه بعدله سبحانه.

وممّا لا شك فيه أنّ من أهمّ عناصـر التربيـة الإيمانيـة، هو أن يعمـل الأب على بعث روح المـراقبة لله عـزّ وجلّ في ابنـه في كلّ تصـرّفاتـه وأحوالـه. وذلـك لا يتمّ إلاّ بترويضه على أنّ الله سـبحانه يرقبه ويـراه، ويعلم سرّه ونجـواه، ويعلم خائنـة الأعين وما تخفي الصدور. . . وهذا الترويض يكـون في ثلاث: تـرويضه عليهـا وهو يعمـل، وترويضه عليها وهو يفكّر، وترويضه عليها وهو يحسّ.

أمّا ترويضه على مراقبـة الله وهو يعمـل: فليعلم الإخلاص لله رب العـالمين في

---

(١) انظر: تربية الأولاد في الإسلام لعبد الله علوان ١/١٥٢ ــ ١٥٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٤٤٤.

كلّ أقواله وأعماله وسائر تصرّفاته، وينبغي أن يشعر أنّ الله لا يقبل منه أيّ عمل إلاّ إذا قصد من ورائه وجهه وابتغى به مرضاته.

وأمّا ترويضه عليها وهو يفكّر: فليعلّم الأفكار التي تقرّبه من خالقه العظيم... والتي بها ينفع نفسه، وينفع مجتمعه، وينفع الناس أجمعين. بل ويجب أن يروّض على أن يكون عقله وقلبه وهواه تبعاً لما جاء به خاتم الأنبياء، وكذلك يروّض نفسه على المحاسبة حتى على الخواطر السيئة والأفكار الشاردة.

وأمّا ترويضه عليها وهو يحسّ: فليعلّم كل إحساس نظيف وليربى على كلّ شعور طاهر... فلا يحسد، ولا يحقد، ولا ينمّ، ولا يتمتّع المتاع الدنس، ولا يشتهي الشهوات الباطلة... وكلما أصابه نزغ من الشيطان أوهاجسة من النفس الأمّارة بالسوء تذكّر أنّ الله معه يسمعه ويراه فإذا هو متذكّر مبصر.

وهذا النمط من التربية والمراقبة قد وجّه إليه النبي ﷺ في إجابته جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال: «أن تخشى الله كأنّك تراه فإنّك إن لم تكن تراه فإنّه يراك»[(١)].

وبهذه الثلاث يحقّق الأب في ابنه ما أراد أن يحقّق لقمان لابنه[(٢)].

* وكذلك حوت موعظته ــ هذه على عنصر مهمّ من عناصر التربية الإيمانية العقائدية وهي:

الإشارة إلى قدرة الله المعجزة.

فكأنّه بموعظته هذه يومىء إلى ولده بالتفكّر في إبداع الله لخلق السموات والأرض والتأمّل فيها؛ إذ أنّه يجول بخاطره في السماوات والأرض وما فيها ليتدرّج معه من الأمر المحسوس لديه إلى ما يريد منه أن يعقله من المعقول ويدركه، حتى يصل إلى القضيّة الإيمانية المطلوبة... وتلك طريقة حكيمة في التربية والتأثير.

* ومن البلاغة القرآنية في الآية ما يلي:

---

(١) رواه مسلم: كتاب الإيمان، حديث (٧)، ١/١٣٩ ــ ١٤٠.

(٢) انظر: تربية الأولاد في الإسلام لعبد الله علوان ١/١٥٩ ــ ١٦١.

ـ يقول الشهيد سيد قطب: «وما يبلغ تعبير مجرّد عن دقّة علم الله وشموله، وعن قدرة الله سبحانه، وعن دقّة الحساب وعدالة الميزان ما يبلغه هذا التعبير المصوّر.

وهذا فضل طريقة القرآن المعجزة الجميلة الأداء الجميلة الإيقاع... حبّة من خردل... صغيرة ضائعة لا وزن لها ولا قيمة (فتكن في صخرة) صلبة محشورة فيها لا تظهر ولا يتوصّل إليها (أو في السموات)... في ذلك الكيان الهائل الشاسع الذي يبدو فيه النجم الكبير ذو الجرم العظيم نقطة سابحة أو ذرّة تائهة (أو في الأرض) ضائعة في ثراها وحصاها (يأت بها الله) فعلمه يلاحقها وقدرته لا تفلتها (إنّ الله لطيف خبير)... تعقيب يناسب المشهد الخفيّ اللطيف ويظلّ الخيال يلاحق تلك الحبّة من الخردل في مكامنها العميقة الوسيعة، ويتملّى علم الله الذي يتابعها، حتى يخشع القلب وينيب إلى اللطيف الخبير بخفايا الغيوب. وتستقرّ من وراء ذلك تلك الحقيقة التي يريد القرآن إقرارها في القلب بهذا الأسلوب العجيب»[(١)].

ـ التمثيل في قوله تعالى: ﴿يا بنيّ إنّها إن تك...﴾ الآية مثّل ذلك لسعة علم الله وإحاطته بجميع الأشياء صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، فإنّه تعالى يعلم أصغر الأشياء في أخفى الأمكنة والأحوال[(٢)].

ـ التتميم في قوله: ﴿فتكن في صخرة﴾، وهذا لون من ألوان البديع، فإنّه تمّم خفاءها في نفسها بخفاء مكانها من الصخرة[(٣)].

ـ وقوله: ﴿يأت بها الله﴾ فيه الكناية عن التمكّن منها، وفيه ـ أيضاً ـ كناية رمزية عن العلم بها، لأنّ الإتيان بأدقّ الأجسام من أقصى الأمكنة وأعمقها وأصلبها لا يكون إلّا عن علم بكونها في ذلك المكان، ويقتضي ذلك ـ أيضاً ـ العلم بوسائل استخراجها منه[(٤)].

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/٢٧٨٩ ـ ٢٧٩٠.

(٢) صفوة التفاسير للصابوني ٢/٤٩٤.

(٣) محاسن التأويل للقاسمي ١٣/٢٠١.

(٤) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢١/١٦٣.

٣ ــ العبر والفوائد من الموعظة الثالثة :

* إنّ الإيمان لا يكفي فيه مجرّد التصديق القلبي، بل إنّ له مقتضيات وتبعات، وهي الأعمال الصالحة بمجملها واجبة ومندوبة، فردية وجماعية.

ولا شكّ أنّ أصول الأعمال الصالحة هي الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

فالصلاة هي عماد الدين؛ إذ إقامتها تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذلك خصّت بالذكر دون غيرها، فكلّ ما يأتي بعدها من الصالحات، وكلّ ما يُذرّ من المنكرات إنّما هو أثر لها. فقوله: ﴿أقم الصلاة﴾ إشارة عامّة إلى إصلاح نفسه وتقويمها.

وأمّا تخصيص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالذكر؛ لأنّ بهما تكون حراسة الدين وبقاءه على صورته الكاملة الشاملة المطلوبة في المجتمع. فإذاً قوله: ﴿وأمر بالمعروف وانه عن المنكر﴾ إنّما هو توجيه وإرشاد إلى إصلاح المجتمع؛ إذ أنّه لا يكفي أن يكون المؤمن صالحاً في نفسه بل لا بدّ أن يكون مصلحاً لمن حوله لوجوب ذلك عليه.

* ونستنتج من موعظة لقمان ــ هذه ــ لابنه أنّه يجب على الآباء والمربّين أن يربّوا أبناءهم على أن يهتمّوا بواجبين مهّمين متوازيين: إصلاح أنفسهم، وإصلاح مجتمعهم الذي يعيشون فيه. ويتبع هذا أن يوطّنوهم على تحمّل ما قد ينالهم من الأذى ــ القولي والفعلي ــ في سبيل دعوتهم وإصلاحهم للآخرين: ﴿واصبر على ما أصابك إنّ ذلك من عزم الأمور﴾.

* وبمناسبة ذكر واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نقول: لا بدّ من تعويد الولد منذ نشأته على هذا الواجب العظيم، فيغرس فيه منذ نعومة أظفاره خلق الجرأة والشجاعة وقول الحق بالأسلوب المناسب، حتى إذا بلغ السنّ التي تؤهّله في أن ينصح قام بالنصح خير قيام، وانطلق في مجال الدعوة إلى الله بكلّ فهم ووعي وعزم وثبات لا يخشى في الله لومة لائم.

وينبغي أن يعلّم الأبناء الأصول الواجب اتباعها في قيامهم بهذا التكليف الرباني. وأهمّها ما يلي:

ـ أن يكـون فعله مطابقـاً لما يـدعو إليـه، حتى يقبـل النـاس قـولـه ويستجيبـوا لـه ويتأثّروا بـه.

ويروى في هذا أنّ ولداً سأل أباه: لم أرى الناس يبكون حين تعظهم ولا يبكـون حين يعظهم آخر غيرك. فقال لـه: يا بنيّ ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة.

ولا شكّ أنّ هناك فرقاً كبيـراً بين داعية يتكلّم بلسـانه وهـو متصنّـع الكلام؛ وبين آخر مؤمن مخلص عامل[1].

ـ تقديم الأهمّ على المهمّ: فمثلاً لا ينكر على إنسان حلقـه للحيته؛ وهـو يعلم أنّه لا يصلي ولا يصوم ولا يزكّي وغير ذلك من الأمثلة.

ـ ترك التجسّس وتتبـع العورات: لأنّ التجسس يفسد الناس وينزع الثقة فيما بينهم وينشر ظنّ السوء، ممّـا يجعل الـطرف المتجسس عليه إذا علم بـذلك حمـل في نفسه الحقد والكراهية للمتجسس، وهنا تنقطـع الأواصر ويفسد الناس. وهناك أربعة شـروط بغيرها يكون التجسس مرفوضـاً لمن أراد إنكار المنكـر وهي: غلبة الـظنّ على اجتماع قوم على معصية، وظهور الأمارات والآثار الدالّة على تلك المعصية، وغلبـة الظنّ على تضرّر الآخرين كإزهاق روح أو زنا إذا لم تنتهك حرمة، وإخبار العدل الثقة بذلك.

ـ التثبّت والتيقّن من وجـود الأمر المنكـر فيمن يراد الإنكـار عليـه؛ حتى لا يكـون الإنكار سبباً في ظلم الناس وعدم إنزالهم منازلهم الحقيقية.

ـ أن يكـون المنكر الـذي ينهى عنه مجمعـاً على إنكاره لا أمـراً مختلفاً فيـه: مثل الإنكـار في الفـروع الفقهيـة المختلف فيهـا بين المـذاهب، فـلا يجـوز إنكـار حنفـيّ المذهب على من هو شافعي مثلاً وغير ذلك؛ لأنّ كل واحد من الأئمـة قد بـذل أقصى جهده ليصل إلى الحكم الصحيـح.

ـ أن يكون متدرجاً في إنكار المنكر: فيبدأ بالتعريف لصـاحب المنكر أنّ مـا يفعله هـو منكر، ثمّ النهي بـالوعظ والإرشـاد والنصـح والتخويف بـالله، ثمّ التعنيف بـالقـول الغليظ لمن لا ينفـع معـه النصح والإرشاد، ثمّ التهـديد والتخـويف، ثمّ التغيير بـاليـد

(١) تربية الأولاد في الإسلام لعبد الله علوان ٢/٧١٥.

ككسر آلات اللهو المحرّمة وخزق زقاق الخمر وغير ذلك. . . ، ثمّ تغيير المنكر بجماعة من الناس إذا لم يؤدّ ذلك إلى فتنة.

وهـذا جائـز للآحـاد للضرورة والاقتصـار على الحاجـة. فلا يجـوز أن يلجأ إلى الأشدّ إذا كان ينفـع الأخفّ.

ـ أن يكـون لطيفـاً رفيقاً حسن الخلق في إنكـاره بـالنـاس؛ إذ الغلظة تنفّـر النـاس ﴿فبمـا رحمة من الله لنت لهم ولـو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضـوا من حـولـك﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ويدخل في هذا اختيـار الوقت المنـاسب، والإسرار بـالنصيحة، وتـرك الاستفـزاز، والإنكار بـوسائـل غير مبـاشرة (رسـالة ـ كتـاب ـ مقال صحفي ـ شـريط تسجيل ـ فيلم سينمائي ـ هاتف ـ ملصق حائطي وغير ذلك).

ـ وبمعرفة الولد هذه الآداب والأصول، وتربيته عليها؛ ينشأ داعية ممتازاً يدعو إلى الله على بصيرة وبحكمة(١).

* ونستفيـد من قولـه تعـالى: ﴿واصبـر على مـا أصـابـك﴾: وجـوب الصبـر على ما يتعرّض لـه الإنسان في سبيل الدعوة إلى الله.

ولكن إذا خـاف الداعيـة على نفسه فقـد أبيحت لـه التقيـة مـا دام قلبـه مـطمئنـاً بالإيمان قال تعالى: ﴿من كفر بالله من بعـد إيمانـه إلاّ من أكره وقلبـه مطمئن بـالإيمان ولكن من شـرح بـالكفـر صـدراً فعليهـم غضـب من الله ولـهم عـذاب عـظيـم﴾ [النحل: ١٠٦].

وقصّـة عمّار بن يـاسر رضي الله عنـه مشهـورة في سبب نـزول هـذه الآيـة ولكن نذكرهـا للفائـدة ولتعلّق ما بعـدها من الكـلام بها. يقـول ابن عباس رضي الله عنهمـا: نزلت في عمّار بن ياسر، وذلك أنّ المشركين أخذوه وأباه ياسراً، وأمّه سمية، وصهيباً، وبلالاً، وخبّاباً، وسالماً فعذّبـوهم، فأمّـا سميّة فـإنّها ربـطت بين بعيرين وَوُجىء قبلهـا بحربة، وقيل لها: إنّك أسلمت من أجل الـرجال. فقتلت، وقتـل زوجها يـاسر، وهمـا أوّل قتيلين قتلا في الإسلام.

---

(١) انـظر: تربيـة الأولاد في الإسلام لعبـد الله علوان ١/٤٧٧ ـ ٤٩٠؛ عبد الحميـد البلالي، فقـه الدعوة في إنكار المنكر، الطبعة الأولى (الكويت: دار الدعوة، ١٤٠٦هـ) ص ٧٩ ـ ١٦٧.

وأمّا عمّار فإنّه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً، فأخبر رسول الله ﷺ بأنّ عمّاراً كفر، فقال: كلّا، إنّ عمّاراً مليء إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه، فأتى عمّار رسول الله ﷺ وهو يبكي، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه ويقول: «إن عادوا فعد لهم بما قلت» فأنزل الله هذه الآية[1].

وقوله ﷺ: «إن عادوا فعد لهم بما قلت» إنّما هو على وجه الإباحة لا على جهة الإيجاب ولا على الندب، فالأفضل أن لا يعطي التقية ولا يظهر الكفر حتى يقتل وإن كان غير ذلك مباحاً له، وذلك لأنّ خبيب بن عديّ لمّا أراد أهل مكة أن يقتلوه لم يعطهم التقية حتى قتل فكان عند النبي ﷺ وعند المسلمين أفضل من عمّار في إعطائه التقية، ولأنّ في ترك التقية إعزازاً للدين وغيظاً للمشركين فهو بمنزلة من قاتل العدوّ حتى قتل، فحظّ الإكراه في هذا الموضع إسقاط الإثم عن قائل هذا القول حتى يكون بمنزلة من لم يقل.

كما أنّه ينبغي الإشارة إلى أنّ الحكم يختلف باختلاف نوع المكره عليه، فمن أكره بالقتل وتلف بعض الأعضاء على شرب الخمر أو أكل الميتة لم يسعه أن لا يأكل ولا يشرب وإن لم يفعل حتى قتل كان آثماً؛ لأنّ الله تعالى قد أباح ذلك في حال الضرورة عند الخوف على النفس فقال: ﴿إلّا ما اضطررتم إليه﴾ [الأنعام: ١١٩]، ومن لم يأكل الميتة عند الضرورة حتى مات جوعاً كان آثماً بمنزلة تارك أكل الخبز حتى يموت، وليس ذلك بمنزلة الإكراه على الكفر في أنّ ترك إعطاء التقية فيه أفضل؛ لأنّ أكل الميتة وشرب الخمر تحريمه عن طريق السمع فمتى أباحه السمع فقد زال الحظر وعاد إلى حكم سائر المباحات، أمّا إظهار الكفر محظور من طريق العقل لا يجوز استباحته للضرورات وإنّما يجوز له إظهار اللفظ على معنى المعاريض والتورية باللفظ إلى غير معنى الكفر من غير اعتقاد لمعنى ما أكره عليه، فيصير اللفظ بمنزلة لفظ الناسي والمخطىء، فكان ترك إظهاره أولى وأفضل وإن كان موسعاً عليه إظهاره عند الخوف.

---

(١) أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، أسباب نزول القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، الطبعة الثانية، المملكة العربية السعودية: دار القبلة للثقافة الإسلامية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ص/٢٨٨ـ ٩٧

وهنـاك حالـة فيمن أكره على قتـل رجل أو على الـزنا بـامرأة فـإنّ ذلك لا يسعـه الإقدام عليه؛ لأنّ ذلك من حقوق الناس وهما متسـاويان في الحقـوق فلا يجـوز إحياء نفسه بقتل غيره بغير استحقاق، وكذلك الزنا بامـرأة فيه انتهـاك حرمتهـا بمعنى لا تبيحه الضرورة وإلحاقها بالشين والعار. . .[1] إذاً فأحكـام الإكراه مختلفـة على ما بيّنـا. والله أعلم.

ومن البلاغة القرآنية ما يلي:

المقابلة: إذ أنّه قال: ﴿وأمر بالمعروف﴾ ثمّ قال: ﴿وانه عن المنكر﴾ فقابل بين اللفظين[2].

ويذكر صاحب ملاك التـأويل سؤالاً ويجيب عليـه فيقول: «إنّ الله عـزّ وجلّ قـال هنـا: ﴿واصبر على مـا أصابـك إنّ ذلك من عـزم الأمور﴾ وفي سـورة الشـورى قـال: ﴿ولمن صبر وغفر إنّ ذلـك لمن عزم الأمـور﴾ [الشورى: ٤٣]، فمـا هو مقتضى تـوكيد الخبر في هذه الآية وسقوط التوكيد من الأولى؟ والجـواب: إنّ آية الشـورى لمّا دخلهـا معنى القسم وكانت على تقديـره؛ إذ (اللام) في قـوله: ﴿ولمن صبـر وغفر﴾ تـوطئة لـه ودالّة على تضمين الآية معناه فناسب ذلك زيادة لام التـوكيد في خبـر إنّ، وذلك ظـاهر في معنى الآية، أمّا في لقمان فهي مجرّد إخبار عن حال ما وقعت الوصيّة بـه ولا مدخل للقسم هنا ولا معنى لـه»[3].

٤ ــ العبر والفوائد من الموعظتين الرابعة والخامسة:

وفي هاتين الموعظتين يرشد لقمان الحكيم ابنه إلى ما ينبغي أن يكون عليه حـاله مع الناس، فلا يغترّ بأنّه قد رزقه الله الاهتداء والاتباع وهو يدعو إلى ذلك فيتعـالى على الناس لمكانته هذه.

---

(١) انظر: أحكام القرآن للجصاص ٣/١٩١ ــ ١٩٤، ٣٥١؛ نفس المرجع ٢/٤٨٧.

(٢) انظر: صفوة التفـاسير للصـابوني ٢/٤٩٤. والمقـابلة هي أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثـر ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب. (علوم البلاغة للمراغي ص ٣٣٢).

(٣) أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرنـاطي، ملاك التـأويل القـاطـع بذوي الإلحـاد والتعطيل في تـوجيه المتشـابه اللفظ من آي التنـزيل، تحقيق: سعيـد الفلاح، الـطبعة الأولى، ٢ مج (بيروت ــ لبنان: دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ٢/٩٤٢ ــ ٩٤٣.

يقول سيد قطب: «ويستطرد لقمان في وصيّته التي يحكيها القرآن هنا إلى أدب الداعية إلى الله. فالدعوة إلى الخير لا تجيز التعالي على الناس، والتطاول عليهم باسم قيادتهم إلى الخير. ومن باب أولى أن يكون التعالي والتطاول بغير دعوة إلى الخير أقبح»[(1)].

* ونستفيد من هنا على أنّ الداعية إلى الله عزّ وجلّ ينبغي أن يكون متمثلاً لصفات عديدة تجعله إنساناً محبوباً مألوفاً عند الناس، فيكون ذلك مدعاة لاستجابتهم للخير الذي جاء به.

وأنّه لا بدّ أن يربّي الآباء أبناءهم على التخلّق بهذه الصفات حتى يشبّوا عليها وتصبح من طبيعتهم فيكونوا بذلك أداة خير في الدعوة إلى الإسلام، وحجّة وبرهان صدق على عظم دعوة الله ومنزلتها الرفيعة.

ومن أهمّ هذه الصفات والتي أشارت إليها موعظة لقمان لابنه صفة التواضع للمدعوّين وخفض الجناح لهم ولين الجانب معهم. فإنّه من تواضع لله رفعه الله وجعله في أعين الناس كبيراً. ويشير إلى هذا قول ابن الحاج بمدخله في تشبيه جميل: «من أراد الرفعة فليتواضع لله تعالى، فإنّ العزّة لا تقع إلاّ بقدر النزول. ألا ترى أنّ الماء لمّا نزل إلى أصل الشجرة صعد إلى أعلاها، فكأنّ سائلاً سأله: ما صعد بك هنا، أعني في رأس الشجرة وأنت قد نزلت تحت أصلها؟! فكأنّ لسان حاله يقول: من تواضع لله رفعه»[(2)].

ومن مظاهر التواضع ــ بلا شكّ ــ أن لا يعرض الداعية عن الناس بوجهه، ويحتقرهم بذلك، بل عليه أن يبسط لهم وجهه ويلين جانبه معهم ﴿ولا تصعّر خدّك للناس﴾ . . .

وبعداً عن صفة الصّعر الذميمة على الداعية أن يرسم على وجهه الابتسامة وأن ينشرح وجهه عند لقاء من يدعو فإنّ فيها ــ أيضاً ــ حماية أكيدة من سوء الظنون والتعرّض لسهام الوسوسة. وما اكفهرّ وجه وعبس إلاّ ترك في نفس المقابل هيبة من

---

(1) في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/ ٢٧٩٠ .

(2) المدخل لابن الحاجّ ٢/١٢٢ (فقه الدعوة في إنكار المنكر لعبد الحميد البلالي ص ٥٣).

التصارح والتناصح، وقد قال أحدهم:

أفلا ترى أنّ الطلاقة جُنّة | من سوء ما تجني الظنون ومعقل؟

ثمّ يحرص ـ أيضاً ـ على أن يقرن هذه الابتسامة والطلاقة بحياء لتتميّز من ابتسامة الاستصغار، التي قد يزيّنها الشيطان، بل يتخلّق بخلق البهاء زهير حين فخر فقال:

إذا قلت قولاً كنت للقول فاعلاً | وكان حيائي كافلي وضميني
تبشر عني بالوفاء بشاشتي | وينطق نور الصدق فوق جبيني[1]

* ومن هذه الصفات المهمّة التي نستوحيها من قوله: ﴿ولا تصعّر خدّك للناس﴾: صفة حسن الاستماع للآخرين.

وفي رسول الله ﷺ أسوة حسنة لكلّ داعية إلى الله؛ فإنّه عندما بعثت قريش عتبة بن ربيعة للرسول ﷺ ليعرض عليه بعض الأمور ليكفّ بزعمهم عن أذاهم جاءه وقال له: يا ابن أخي إن كنت إنّما تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطبّ. وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنّه ربّما غلب التابع على الرجل حتى يتداوى منه. حتى إذا فرغ عتبة قال له النبي ﷺ: «أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. فقال: اسمع منّي. قال: أفعل. فقرأ ﷺ: ﴿حم. تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصّلت آياته قرآناً عربيّاً لقوم يعلمون﴾ فمضى رسول الله ﷺ يقرؤها فلمّا سمع بها عتبة أنصت لها وألقى بيديه خلفه أو خلف ظهره معتمداً عليها ليسمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجدها، ثمّ قال: «سمعت يا أبا الوليد؟» قال: سمعت. قال: «فأنت وذاك» ثمّ قام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلمّا جلسوا إليه قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أنّي والله قد سمعت قولاً ما سمعت مثله قطّ، والله ما هو بالشعر ولا الكهانة، يا معشر قريش أطيعوا واجعلوها

---

(١) انظر: محمد أحمد الراشد، العوائق، الطبعة الثانية (بيروت ـ لبنان: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م) ص ١١٤ ـ ١١٥.

بـي. خلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكوننّ لقـوله الـذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهـر على العرب فملكـه ملككم، وعزّه عزّكم، وكنتم أسعد الناس بـه. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيـي لكم فاصنعوا ما بدا لكم[1].

فنلاحظ في هذه القصّة كيف أنّه ﷺ أصغى لأبـي الوليد حتى أكمل لآخر كـلامه ودون مقاطعة منه لـه. مع علمه بأنّ ما يتكلّم بـه في غاية الجهالة، وكذلـك مبالغـة منه في حسن الإنصات قال لـه قبل أن يتكلّم: «أفرغت يا أبا الوليد» وإنّهـا لقمّة الأدب في مخاطبة الآخرين. . .

وما كانت النتيجة؟ كانت كما لاحظنا من تغيّر رأي أبـي الوليد في النبـي ﷺ وفي أمر دعوته، لدرجة أنّه نصـح قومه بتركه وشأنه. . .

إذاً فلا بدّ أن يحسن الدعاة إنصاتهم لكلّ صنف من أصنـاف المدعـوّين، وعلى اختلاف درجاتهم في الإيمان.

وحول هذه الصفة اللازمـة يقول ابن المقفّـع: «تعلم حسن الاستمـاع كما تتعلّم حسن الكلام، ومن حسن الاستماع إمهـال المتكلّم حتى ينقضي حديثـه، وقلّة التلفّت إلى الجواب، والإقبال بالوجه، والنظر إلى المتكلم، والوعي لما يقول»[2].

وبالعكس من هذه الصفـة فإنّ ذلـك يؤدّي إلى إعراض المـدعو عن الـداعية من البداية؛ لأنّه لم يتكلّم بكلّ ما يريده من الكلام، كمـا أنّ ذلك قـد يفوّت على الـداعية معرفته بما في نفس المدعو وخاطره فلا يستطيـع من بعد إصلاحه وتوجيهه بما يناسب؛ ويؤدّي ذلك بالتالي إلى ضياع الهدف من النصيحة الـذي هو هـدايته وقبـوله لهـا. والله أعلم.

ويرشد لقمان ابنه ــ أيضاً ــ إلى أدب آخر من آداب التـواضـع ومستلزماتـه وهو: عدم المشي في كبر ومخيلة، فيمشي قصداً معتدلاً. وذلك في قولـه أيضاً: ﴿ولا تمش

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ٣/٦١ ــ ٦٢.

(٢) الأدب الكبيـر لابن المقفّـع ص ١١٩. (فقه الـدعوة في إنكـار المنكـر لعبـد الحميـد البـلالي) ص ٥٤ ــ ٥٥).

في الأرض مرحاً إنّ الله لا يحبّ كلّ مختال فخور﴾، وقوله: ﴿واقصد في مشيك﴾.

ويقول سيد قطب رحمه الله: «والمشي في الأرض مرحاً هو المشي في تخايل ونفخة وقلّة مبالاة بالناس. وهي حركة كريهة يمقتها الله ويمقتها الخلق. وهي تعبير عن شعور مريض بالذات يتنفّس في مشية الخيلاء. ومع النهي عن مشية المرح بيان للمشية المعتدلة القاصدة. والقصد هنا من الاقتصاد وعدم الإسراف. وعدم إضاعة الطاقة في التبختر والتثنّي والاختيال. ومن القصد كذلك. لأنّ المشية القاصدة إلى هدف لا تتلكأ ولا تتخايل ولا تتبختر، إنّما تمضي لقصدها في بساطة وانطلاق»(١).

وإنّ الداء أو المرض الذي أشار إليه سيد قطب في نفس هذا الذي يمشي الخيلاء إنّما هو داء العجب. ويحسن بنا أن نقف ــ هنا ــ لنتكلّم بصورة مختصرة عن خطر هذا الداء وحقيقته؛ حتى يبتعد الدعاة عنه، وليربّوا أبناءهم على ضدّه فينشؤوا دعاة يحبّهم الله ويحبّونه. ويذكر لنا الراشد في كتابه العِوائق كلاماً حسناً حول هذا الداء خلاصته ما يلي:

إنّ المعجب مفضوح ولا شكّ بفضيحتين: بفضيحة الزلل والسقوط أرضاً؛ إذ ما زال القدماء يقولون عن المعجب: «إنّ العجب أخذ برجله فزلّ»، كمن يهمل النظر في السوق إلى موضع قدمه، فينزلق بقشر أو يعثر بحجر، فمن راث لحاله وشامت، ويقوم متّهماً، تأتيه النصائح من كلّ جانب، وما هو بحاجة إليها بعد ارتجاج عظامه.

والمعجب قد وضع نفسه في غير موضعها، وفيه قال الإمام الشافعي: «من سامى بنفسه فوق ما يساوي: ردّه الله تعالى إلى قيمته».

وسبب العجب هو: أن يستكثر المعجب عمله ويستقلّ عمل غيره، ويستصغر ما علم من ذنوبه وينسى كثيراً منها.

وبهذا يكون العجب أصلاً لكلّ بلاء وفتنة.

وهكذا فإنّ العمل الصالح ضياء ونور؛ يتحوّل إلى ظلام إذا هبّت ريح العجب عليه بهبّة واحدة. هذا أثره في النفس!

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/ ٢٧٩٠.

أمّا أثره في الآخرين من المدعوّين فنفورهم، وحجب الخير عنهم، وذهاب هدف إصلاحهم وهدايتهم[1]. ألا فليحذر الدعاة من هذا الداء الخطير.

* وفي آخر ما ذكر الله من موعظة لقمان لابنه هو وصيته بغضّ صوته، وهذه أيضاً من مستلزمات التواضع. وعنها يقول سيد قطب: «والغضّ من الصوت فيه أدب وثقة بالنفس واطمئنان إلى صدق الحديث وقوّته. وما يزعق أو يغلظ في الخطاب إلاّ سيِّىء الأدب أو شاكّ في قيمة قوله أو قيمة شخصه، يحاول إخفاء هذا الشكّ بالحدّة والغلظة والزعاق!»[2].

وهذه الصفة تكون من أعظم آداب الحديث مع الآخرين، إذ لا ينبغي أن يرفع الصوت بأكثر ممّا يحتاج إليه. والداعية أولى الناس بالالتزام بآداب الحديث... عوضاً عن أنّ ذلك الرفع لصوته يشير إلى تكبّره وتعاليه على الآخرين فلا يرى الناس هذا التصرّف معهم إلاّ من باب احتقارهم وإهانتهم.

وإنّها لصورة مخزية تلك التي يشبّه بها الذي يرفع صوته عالياً... صورة ما من شأنها أن تنفر كلّ إنسان من الاتّصاف بها.

يقول الشهيد قطب حول هذا التصوير القرآني: «والأسلوب القرآني يرذل هذا الفعل ويقبّحه في صورة منفّرة محتقرة بشعة حين يعقّب عليه بقوله: ﴿إنّ أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾... فيرتسم مشهد مضحك يدعو إلى الهزاء والسخرية، مع النفور والبشاعة، ولا يكاد ذو حسّ يتصوّر هذا المشهد المضحك من وراء التعبير المبدع ثمّ يحاول شيئاً من صوت هذه الحمير...»[3].

* ومن البلاغة القرآنية ما يلي:

– صيغ المبالغة في قوله تعالى: ﴿حميد﴾، ﴿لطيف خبير﴾، ﴿فخور﴾. ففعيل وفعول هما من صيغ المبالغة، ومعناه: كثير الحمد، وكثير الفخر...[4].

---

(1) انظر: العوائق لمحمد أحمد الراشد ص ٤٩ ــ ٥٠.

(2) في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/٢٧٩٠.

(3) المرجع السابق ٥/٢٧٩٠.

(4) صفوة التفاسير للصابوني ٢/٤٩٣.

قـوله: ﴿لا تصعّـر﴾ فيـه تمثيـل كنائي، فيشمـل الاحتقار بـالقول والشتم وغيـر ذلك، فالنهي هنا عن الاحتقار عامّة[1].

ويقـول سيد قـطب حول التعبيـر عن الاحتقار بهـذا اللفظ: «والصعّـر داء يصيب الإبل فيلوي أعناقها، والأسلوب القرآني يختار هذا التعبير للتنفير من الحـركة المشـابهة للصعر. حركة الكبر والازورار وإمالة الخدّ للناس في تعال واستكبار!»[2].

ــ وقوله: ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾ فيه أيضاً تمثيل كنائي في النهي عن التكبّر والتفـاخـر لا عن خصـوص المشي في حـال المـرح فيشمـل الفخـر عليهم بـالكـلام وغيره[3].

ــ الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿إنّ أنكـر الأصوات لصـوت الحمير﴾؛ إذ أنّـه شبّه الـرافعين أصواتهم بـالحمير، وأصـواتهم بالنهيق، ولم يـذكر أداة التشبيـه، بل أخـرجه مخرج الاستعارة للمبالغة في الذمّ والتنفير عن رفـع الصوت[4].

ــ ويذكر الفخر الرازي لطيفة بلاغية ــ نختم بها فوائدنا البلاغية ــ فيقـول: «إنّ الله تعـالى قـدّم الكمـال على التكميـل حيث قـال: ﴿أقم الصـلاة﴾ ثمّ قـال: ﴿وأمـر بـالمعروف﴾، وفي النهي قـدّم مـا يـورثـه التكميـل على مـا يـورثـه الكمال حيث قال: ﴿ولا تصعّر خدّك﴾ ثمّ قال: ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾؛ لأنّ في طرف الإثبات من لا يكـون كامـلاً لا يمكن أن يصير مكمّـلاً فقدّم الكمـال، وفي طرف النفي من يكـون متكبّراً على غيره يكون متبختراً لأنه لا يتكبر على الغيـر إلا عند اعتقـاده أنّه أكبـر منه من وجه، وأمّا من يكون متبختراً في نفسه قد لا يتكبّر، ويتوهم أنّـه يتواضـع للنـاس، فقدّم نفي التكبّر ثمّ نفي التبختر لأنّـه لو قـد نفى التبختر للزم منـه نفي التكبّر فـلا يحتاج إلى النهي عنه»[5].

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢١/١٦٦.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/٢٧٩٠.

(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢١/١٦٦ ــ ١٦٧.

(٤) صفوة التفاسير للصابوني ٢/٤٩٤.

(٥) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٥/١٤٩.

* وختاماً للعبر والفوائد من مواعظ لقمان لابنه لا بدّ لنا من الإشارة إلى أنّ من أهمّ وسائل التربية المؤثّرة في تكوين الأبناء إيمانياً، وإعدادهم خلقياً ونفسياً واجتماعياً: تربيتهم بالموعظة، لما لها من كبير الأثر في تبصيرهم بحقائق الأشياء ودفعهم إلى معالي الأمور، وتحلّيهم بمكارم الأخلاق، وتوعيتهم بمبادىء الإسلام. . .

وينبغي أن لا تقتصر المواعظ على جانب الإرشاد بالكلام فحسب، بل ينبغي أن تنوّع الأساليب والوسائل في طرق إيصالها؛ إذ أنّ من الأبناء من يتأثّر بأسلوب معيّن، وغيره لا يتأثّر بنفس الأسلوب وقد يجدي معه أسلوب آخر، كما أنّ التنوّع في الأساليب يساعد على تقبّل الموعظة ونجاحها. وإنّ هذا التنوّع لهو من الحكمة في تربية الأبناء. . .

ونذكر من هذه الأساليب والوسائل ـ على تعدّدها ـ ما يلي:

الأسلوب القصصي المصحوب بالعبرة والموعظة: وهذا الأسلوب له تأثيراته النفسية وانطباعاته الذهنية، وحججه المنطقية والعقلية.

- أسلوب الحوار والاستجواب: وذلك لإثارة الانتباه، وتحريك ذكاء الولد، ثمّ ترى الموعظة في قالب الإقناع المحاجّاة فيكون لها كبير الأثر.

- أسلوب ضرب الأمثال: وذلك بالاستعانة بما يشاهده الولد أمام عينيه ويقع تحت حواسّه وفي متناول يديه، وذلك لا شكّ يجعل أثر الموعظة في النفس أشدّ وفي الذهن أرسخ.

- أسلوب الرسم والإيضاح: كما كان النبي ﷺ يستخدمه مع أصحابه ليوضح لهم المفاهيم ويقرّب لهم التصوّرات. فقد روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خطّ لنا رسول الله ﷺ خطاً مربعاً، وخطّ خطاً خارجاً منه، وخطّ خطوطاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، فقال: هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به، وهذا الذي خارج (أي عن الخطّ) أمله، وهذه الخطوط الصغار والأعراض هي الحوادث والنوائب المفاجئة، فإن أخطأ هذا نهشه هذا، وإن أخطأ هذا نهشه هذا، وإن أخطأه كلّها أصابه الهرم»[1].

(١) رواه البخاري: كتاب الرقاق، حديث (٦)، ٨/ ١٦٠.

ـ أسلوب الفعل التطبيقي: وذلك ليرسم الأب لولده الأنموذج الحيّ أمامه، وذلك كفعل النبي ﷺ أمام أصحابه في شأن الوضوء. فيروى أنّ رجلاً أتى إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله كيف الطهور (أي الوضوء)؟، فدعا رسول الله بإناء فيه ماء فغسل كفّيه ثلاثاً حتى استوفى ثمّ قال: «فمن زاد عن هذا أو نقص فقد تعدّى وظلم»[1].

وإضافة إلى هذه الأساليب ينبغي مراعاة الأمور التالية:

ـ دمج الموعظة بالمداعبة؛ وذلك لتحريك الذهن، وإذهاب الملل، وتشويق النفس.

ـ الاقتصاد بالموعظة مخافة السآمة.

ـ انتهاز المناسبات والأحداث ليعلّق عليها بالموعظة، فذلك أبلغ في التأثير وأفضل للفهم والمعرفة.

ـ الالتفات إلى ما هو أهمّ في الموعظة.

وإذا سار المربّي على هذه التوجيهات فسيرى ـ بإذن الله ـ الأولاد الذين اهتمّ بهم وأشرف على تربيتهم في زمرة الصالحين الذين تعقد بهم الآمال وعلى أيديهم يتحقق نصر الإسلام[2].

وبهذه الإشارة السريعة حول أهميّة التربية بالموعظة وأساليبها نختم الكلام في هذا الباب (لقمان الحكيم مع ابنه).

والحمد لله ربّ العالمين.

* * *

---

(١) رواه أبو داود: كتاب الطهارة، باب (٥١)، حديث (١٣٥). ورواه النسائي: كتاب الطهارة، باب (١٠٥)، حديث (١٤٠).

(٢) انظر: تربية الأولاد في الإسلام لعبد الله علوان ٢/٦٨٥ ـ ٧٢٦.

الباب الثامن
زكريا ويحيى عليهما السلام

وفيه تمهيد، وفصلان:

الفصل الأول: بيان القصّة.

الفصل الثاني: العبر والفوائد.

تمهيد

إنّ فيما نطالعه من كتاب الله حول القصص القرآني بين الآباء والأبناء قصّة زكريّا(1) وابنه يحيى عليهما السلام.

وتذكر قصّتهما مفصّلة في سورة مريم، ويشار إليها في سورتي آل عمران والأنبياء على وجه مختصر يتضمّن بداية القصّة وخاتمتها.

أمّا الآيات التي فصّلت القصّة في سورة مريم فهي قوله تعالى:

﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً
خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ
رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن
لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا
نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ
وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ
هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ

---

(1) زكريا ويحيى نبيّان من أنبياء بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام. أمّا نسب زكريّا كما أوردته الكتب فكما يلي:

قال ابن عساكر في تاريخه: زكريا بن برخيا، ويقال زكريا بن دان، ويقال: زكريا بن لدن بن مسلم بن صدوق بن حشبان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صدّيقه بن برخيا بن بلعاطة بن ناحور بن شلوم بن بهناشاط بن اينامن بن رحبعام بن سليمان بن داود. (البداية والنهاية لابن كثير ٢/٤٣ ـ ٤٤؛ قصص الأنبياء لابن كثير ٢/٤٦٧).

وممّا ينبغي الإشارة إليه إلى أنّه ليس هو زكريّا المذكور في كتب أهل الكتاب بل ذاك نبي مرسل قبله قد أوتي كتاباً سماوياً كما ورد في كتبهم وقد كان موجوداً في القرن السادس قبل المسيح، أمّا هذا فهو زوج أخت مريم، وليس له كتاب في أسفار التوراة، ولعلّهما يتشابهان في اسم الأب (برخيا). (انظر: التحرير والتنوير ١٦/٦٢؛ قصص الأنبياء للنجار ص ٣٦٨).

ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿١١﴾ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾ ﴾(١).

وأمّا ذكرها في سورة آل عمران ففي قوله تعالى:

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾(٢).

وأمّا في الأنبياء فقوله تعالى:

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾(٣).

ونظراً إلى أنّ القصّة جاءت مفصّلة في آيات مريم دون غيرها؛ فإنّا سنجعل محور القصّة حول آيات مريم؛ وغيرها ممّا ورد في آل عمران والأنبياء يذكر في موضعه من أحداث القصة. وسيكون بياننا لهذه القصّة كما يلي:

١ ـ دعاء زكريّا ربّه طلباً للولد.

٢ ـ البشارة بيحيى.

٣ ـ موقف زكريّا من البشارة.

٤ ـ مكانة يحيى عند الله عزّ وجلّ.

ثمّ يتلو هذا البيان استخراج العبر والفوائد.

والله المستعان.

---

(١) سورة مريم: الآيات ١ ـ ١٥.

(٢) سورة آل عمران: الآيات ٣٨ ـ ٤١.

(٣) سورة الأنبياء: الآيتان ٨٩ ـ ٩٠.

الفصل الأوّل

بيـان القصّـة

١ ــ دعاء زكريّا ربّه طلباً للولد:

ويمكننا بيان هذا الدعاء بما يلي:

* **مناسبته**: كان دعاؤه ــ عليه السلام ــ عند رؤيته كرامة الله لمريم بنت عمران الصالحة ــ التي كان يتردّد عليها لكونه كفيلاً لها ــ إذ كان يجد عندها رزقاً من الله، قيل: يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء... فعند رؤيته هذه الكرامة تمنّى من الله أن يرزقه ولداً صالحاً فتقرّ به عينه.

وهذا ما ذكرته الآيات في سورة آل عمران:

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا (١) ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ...﴾ الآية[٢].

* **كيفيّته**: كان دعاؤه خفياً كما بيّنته آية مريم: **﴿إذ نادى ربّه نداءً خفياً﴾** بمعنى أنّه لم يجهر بدعائه؛ لكون الجهر والإخفاء سيّان عند الله، فاستحبّ الإخفاء في دعائه، لأنّه أبعد عن الرياء وأدخل في الإخلاص، وهو بذلك يكون أحبّ إلى الله عزّ وجلّ. ويقول قتادة: إنّ الله يعلم القلب التقيّ ويسمع الصوت الخفيّ[٣].

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص: (زكريّا) بالقصر من غير همز في جميع القرآن، وقرأ الباقون بالمدّ والهمز (النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢/ ٢٣٩).

(٢) سورة آل عمران: الآيتان ٣٧ ــ ٣٨.

(٣) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢١/ ١٨٠؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ١١٠.

* **بيان حاله فيه**: وزيادة في خشوعه وخلوصه ورجائه في دعائه أفصح عن حاله الذي هو عليه: ﴿قال ربّ إنّي وهن العظم منّي واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك ربّ شقيّاً. وإنّي خفت الموالي من ورائي[1] وكانت امرأتي عاقراً. . . ﴾ الآية.

وكأنّه يقول لله: هذا حالي الذي لا يمكن معه الولد، ولكنّي أطلب منك هذا الطلب لأنّه لا يعجزك شيء ــ سبحانك ــ وأمرك ينفذ في كلّ شيء ولا حدّ لرحمتك وقدرتك.

فغايته استرحام الله عزّ وجلّ مع كون الله عليم بحاله ومطّلع عليه.

وقوله: ﴿قال ربّ إنّي وهن العظم منّي﴾ معناه: أي «ضعفت وخارت قواي»؛ إذ أنّه حين يهن العظم يكون الجسم كلّه قد وهن، فالعظم هو أصلب ما في الجسم، وهو قوامه الذي يقوم به ويتجمّع عليه[2].

وقوله: ﴿واشتعل الرأس شيباً﴾ بمعنى أنّه قد انتشر الشيب ــ وهو بياض الشعر[3] ــ في رأسه انتشار النار في الهشيم. والمراد من هذين الوصفين الإخبار عن الضعف والكبر ودلائله الظاهرة والباطنة[4].

وقيل: كان عمره آنذاك خمسة وستين عاماً، وقيل أكثر من ذلك[5].

وقوله: ﴿ولم أكن بدعائك ربّ شقيّاً﴾ تمهيد للإجابة؛ وهو بطريق الحثّ على استمرار جميل صنع الله معه، وتوسل إليه بما سلف له معه من الاستجابة.

فهو قد تعوّد ــ عليه السلام ــ إجابة الله له في دعائه دائماً؛ وهو في استجابة هذا الدعاء أحوج.

---

(١) قرأ ابن كثير: (من ورائي) بفتح الياء، وقرأ الباقون بسكون الياء تخفيفاً لطول الحرف مع الهمزة (حجّة القراءات لابن زنجلة ص ٤٣٨).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/١١١؛ في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/٢٣٠٢.

(٣) يعرض للشعر البياض بسبب نقصان المادّة التي تعطي اللون الأصلي للشعر، ونقصانها بسبب كبر السنّ غالباً، فلذلك كان الشيب علامة على الكبر، وقد يبيضّ الشعر من مرض. (التحرير والتنوير ١٦/٦٥).

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/١١١؛ في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/٢٣٠٢.

(٥) تفسير أبي السعود ٥/٢٥٣.

ومن هذا الباب ما روي ــ ولله المثل الأعلى ــ أنّ محتاجاً سأل حاتم الطائي أو معن بن زائدة قائلاً: أنا الذي أحسنت إليّ يوم كذا. فقال: مرحباً بمن توسّل بنا إلينا[1].

* **الهدف من الدعاء**: أمّا هدفه من دعائه فهو أن يعطيه الله ولداً صالحاً يرث النبوّة من بعده، ويحفظ أمر الدين ولا يضيّعه، وهو تراث آبائه وأجداده من الأنبياء إذ كان هو من ذريّة يعقوب عليه السلام؛ وذلك لأنّه يخشى الموالي من بعده ــ الذين يلونه في النسب وهم بنو عمّه وكانوا أشرار بني إسرائيل ــ أن لا يحسنوا خلافته في أمّته ويبدّلوا عليهم دينهم، وهو لم يعقّب نسلاً لكون امرأته عاقراً، وليس هناك في ذرّيته من يملك تربيته وإعداده لوراثته وخلافته[2]. وذلك قوله تعالى: ﴿وإنّي خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك وليّاً يرثني ويرث[3] من آل يعقوب واجعله ربّ رضيّاً﴾.

ــ وقوله: ﴿هب لي من لدنك ولياً﴾ أي: من عند الله، وهذا يدلّ على أنّه سأل وليّاً غير جارٍ أمره على المعتاد من إيجاد الأولاد لانعدام الأسباب المعتادة؛ فتكون هبة كرامة له، وقدّم (لي) على (من لدنك) لأنّه الأهمّ في غرضه وهو غرض خاصّ يقدّم على الغرض العامّ[4].

ــ وقوله: ﴿واجعله ربّ رضيّاً﴾ أي مرضياً عندك وعند خلقك تحبّه وتحبّبه إلى خلقك في دينه وخلقه[5]. «ولفظة رضي تلقي هذه الظلال فالرضي الذي يرضى ويرضي وينشر ظلال الرضا فيما حوله ومن حوله»[6].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٦/٦٦ ــ ٦٧.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٣/١١١؛ تفسير القرطبي ١١/٧٨ ــ ٧٩؛ تفسير أبي السعود ٥/٢٥٣ ــ ٢٥٥.

(٣) قرأ أبو عمرو والكسائي: (يرثْني ويرثْ) جزماً جواباً للأمر، وقرأ الباقون بالرفع جعلوه صفة للولي (حجّة القراءات لابن زنجلة ص ٤٣٨).

(٤) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٦/٦٧.

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/١١١.

(٦) في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/٢٣٠٢.

ويبيّن لنا الله هذا الهدف من دعائه ـ أيضاً ـ في سورة الأنبياء حيث يقول تعالى: ﴿وزكريّا إذ نادى ربّه ربّ لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين﴾ أي: لا تتركني بلا ولد ولا وارث يقوم في الناس بعدي. ﴿وأنت خير الوارثين﴾ وهذا دعاء وثناء مناسب للمسألة ذاتها[1].

٢ ـ البشارة بيحيى:

وترتسم هنا لحظة الاستجابة في رعاية وعطف ورضى. فالله عزّ وجلّ ينادي عبده من الملأ الأعلى: ﴿يا زكريّا﴾، ويعجّل له البشرى بواسطة ملائكته: ﴿إنّا نبشّرك بغلام﴾، كما أنّه يغمره بالعطف فيختار له اسم الغلام الذي بشّره به: ﴿اسمه يحيى﴾، وهو اسمٌ لم يسمّه أحد من قبل: ﴿لم نجعل له من قبل سميّاً﴾[2].

وروي عن ابن عباس أنّه قال: وإنّما سمّي يحيى؛ لأنّ الله أحيا به عقر أمّه، وعن قتادة: أنّه سمّي بذلك لأنّه أحيا قلبه بالإيمان[3]. والله أعلم.

وتأتيه الاستجابة وهو في أشرف الأماكن وأعظم الحالات. في محرابه وهو يدعو: ﴿فنادته[4] الملائكة وهو قائم يصلّي في المحراب أنّ الله يبشّرك[5] بيحيى...﴾ الآية، فالمراد بالصلاة هنا معناها الأصلي وهو الدعاء كقوله: ﴿ولا تجهر بصلاتك...﴾ [الإسراء: ١١٠][6] وكان المنادي له هنا هو جبريل عليه السلام لا الملائكة كلّهم كما تفصح عنه قراءة ﴿فناداه الملائكة﴾، والجمع هنا كما في قولهم: فلان يركب الخيل ويلبس الثياب؛ وما له غير فرس وثوب. وقال الزجّاج: أي

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/١٩٣.

(٢) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/٢٣٠٢ ـ ٢٣٠٣.

(٣) تفسير أبي السعود ٢/٣٢.

(٤) قرأ حمزة والكسائي وخلف: (فناداه) وقرأ الباقون: (فنادته) وحجّتهم أنّ الذي ناداه جبريل والتقدير فناداه الملك (النشر ٢/٢٣٩).

(٥) قرأ حمزة وابن عامر: ﴿إنّ الله يبشّرك﴾ بكسر الألف وقرأ الباقون بفتحها، وقرأ حمزة والكسائي، (يبْشُرُك) بفتح الياء وإسكان الباء وضمّ الراء والشين، وقرأ الباقون بالتشديد (انظر: حجّة القراءات لابن زنجلة ص ١٦٢ ـ ١٦٣).

(٦) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى زكريا الأنصاري ص ٨٤ ـ ٨٥.

أتاه النداء من هذا الجنس الذين هم الملائكة، وقيل: لمّا كان جبريل رئيسهم عبّر عنه باسم الجماعة تعظيماً له، وقيل الرئيس لا بد له من أتباع، فأسند النداء إلى الكلّ مع كونه صادراً عنه خاصّة[1].

ويقرّر الله ــ أيضاً ــ هذه الاستجابة في آية الأنبياء مُظهراً فيها إعجازه وقدرته بأن جعل زوج زكريّا تصلح للإنجاب: ﴿فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه...﴾ الآية، فقوله: ﴿وأصلحنا له زوجه﴾ قال فيه ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة: كانت عاقراً لا تلد فولدت. وهذا القول الأليق بالقصّة، وهو ما عليه جمهور المفسّرين.

وقد قيل في معناه: إنّه أصلحها في أخلاقها حيث أنّها كانت سيئة الأخلاق، وقيل: بل جعلها مصلحة في الدين لتعينه على أمر الدعوة[2].

وتضمّنت هذه البشارة ذكر ما سيكون عليه أمر يحيى من نبوّته وصلاحه وقد نصّ على ذلك قول الله في آية آل عمران ﴿أنّ الله يبشّرك بيحيى مصدّقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين﴾.

فأوّلها: كونه مصدّقاً بعيسى عليه السلام ــ وهو كلمة الله ألقاها إلى مريم وسمّي بذلك لأنّه وجد بكلمة (كن) من غير أب ــ وتصديقه له بأنّه آمن به وصدّق بأنّه كلمة الله وروحه. قال ابن عباس: إنّ يحيى كان أكبر سنّاً من عيسى بستة أشهر، وكان يحيى أول من آمن وصدّق بأنّه كلمة الله وروحه، ثمّ قتل يحيى قبل رفع عيسى عليه السلام[3].

وثانيها: (سيداً)؛ واختلف في معناه المفسّرون؛ «فقال ابن عباس: السيد الحليم. وقال الجبّائي: إنّه كان سيداً للمؤمنين، رئيساً لهم في الدين، أعني في العلم والحلم والعبادة والورع. وقال مجاهد: الكريم على الله. وقال ابن المسيّب: الفقيه

---

(1) انظر: تفسير أبي السعود ٢/ ٣١.

(2) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٢/ ٢١٧؛ تفسير القرطبي ١١/ ٣٣٦؛ تفسير ابن كثير ٣/ ١٩٣.

(3) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٨/ ٣٥.

العالم. وقال عكرمة: الذي لا يغلبه الغضب. قال القاضي: السيد هو المتقدّم المرجوع إليه، فلمّا كان سيداً في الدين كان مرجوعاً إليه في الدين وقدوة في الدين، فيدخل فيه جميع الصفات المذكورة من العلم والحلم والكرم والعفّة والزهد والورع»[1].

أقول: وكلام القاضي الأخير هو الذي أرجّحه وأميل إليه، لأنّ ما ذكره غيره من المعاني كلها متوفّرة في أي نبيّ من أنبياء الله، وكلامه قد جاء شاملاً لجميع هذه المعاني والله أعلم.

وثالثها: (حصوراً) وهو الذي لا يأتي النساء لا للعجز بل للعفّة والزهد.

وهذا هو قول المحققين، لا كما قال البعض من أنّه العاجز عن إتيان النساء لصغر الآلة أو لتعذّر الإنزال أو لعدم القدرة، فإنّ هذا القول فاسد لا يصحّ؛ إذ تكون هذه الصفة نقيصة وعيباً لا تليق بنبي من أنبياء الله، ولا تكون محلاً للمدح والبشارة، ولأنّه على هذا التقدير لا يستحقّ به ثواباً ولا تعظيماً، كما أنّ كلمة (الحصور) هو الذي يكثر منه حصر النفس ومنعها؛ والمنع إنّما يحصل أن لو كان المقتضى قائماً، فلولا أن القدرة والداعية كانتا موجودتين، وإلاّ لما كان حاصراً لنفسه فضلاً عن أن يكون حصوراً، لأنّ الحاجة إلى تكثير الحصر والدفع إنّما تحصل عند قوّة الرغبة والداعية والقدرة[2].

ورابعها وأعلاها: درجة النبوّة (ونبياً) وهذه كبشارة أمّ موسى حين بشّرت بقوله تعالى: ﴿إنّا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ [القصص: ٧].

وقوله: ﴿نبياً من الصالحين﴾ أي: ناشئاً منهم لأنّه كان من أصلاب الأنبياء، أو كائناً من جملة المشهورين بالصلاح؛ كما في قوله تعالى: ﴿وإنّه في الآخرة لمن الصالحين﴾ [البقرة: ١٣٠]، والمراد بالصلاح ـ هنا ـ ما فوق الصلاح الذي لا بدّ منه في منصب النبوّة البتة من أقاصي مراتبه، وعليه مبنى دعاء سليمان عليه السلام في قوله

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٨/٣٦.

(٢) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٨/٣٧.

تعالى: ﴿وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ [النمل: ١٩][(١)]. والله أعلم بمراده.

٣ ــ موقف زكريّا من البشارة:

يتضح لنا موقفه ــ عليه السلام ــ من خلال آيتي آل عمران ومريم؛ ففي آل عمران يقول تعالى: ﴿قال ربّ أنّى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر...﴾ الآية، وفي مريم: ﴿قال ربّ أنّى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيّاً﴾[(٢)].

وموقفه هنا ليس موقف المنكر والمنقص لقدرة الله إنّما هو تعجّب منه حين أجيب إلى ما سأل وبشّر بالولد وفرح فرحاً شديداً فسأل عن كيفيّة ما يولد له؛ والوجه الذي يأتيه منه الولد مع أنّ امرأته كانت عاقراً لم تلد من أول عمرها فكيف وهي في حالة كبرها، ومع أنّه هو قد كبر وعتا: أي عسى عظمه ونحل ولم يبق فيه لقاح ولا جماع والمراد بلوغه النهاية في الكبر[(٣)].

ويقول صاحب التحرير والتنوير: «هو تعجّب مكنّى به عن الشكر، فهو اعتراف بأنّها عطية عزيزة غير مألوفة لأنّه لا يجوز أن يسأل الله أن يهب له ولداً ثمّ يتعجّب من استجابة الله له»[(٤)].

فهو وإن كان؛ إنّما هو تعجب فرح وسرور لا استنكار واستبعاد.

وأقول: ولا مانع أن يحمل تعجبه على الشكر لله والفرح والسرور بهذه النعمة؛ وعلى أنّه يكون سؤال استفسار عن كيفيّة حصول ذلك. والله أعلم.

ومن ثمّ يأتي القول الفصل ــ من الحق تبارك وتعالى ــ الذي يقطع كلّ تعجّب

---

(١) الكشّاف للزمخشري ١/٤٢٨؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ٨/٣٧؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٣٦٢.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وحفص: (عِتيّاً) بكسر العين، وقرأ الباقون بضمّ العين على الأصل (انظر: حجة القراءات لابن زنجلة ص ٤٣٩).

(٣) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ١٦/٣٩؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/١١١ ــ ١١٢ .

(٤) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٦/٧٠.

ويجيب على كلّ استفسار: ﴿قال كذلك قال ربّك هو عليّ هيّن وقد خلقتك[1] من قبل ولم تك شيئاً﴾ فإنّما هو أمر يسير سهل على الله، وليس هناك في الخلق هيّن وصعب عليه سبحانه؛ إذ وسيلة الخلق لكل شيء واحدة (كن فيكون)، وإنّما هو أهون في اعتبار الناس... والقادر على الخلق من العدم قادر على الخلق من شيخين هرمين ﴿كذلك الله يفعل ما يشاء﴾.

* ثم طلب زكريّا من الله سبحانه أن يجعل له علامة ودليلاً على وجود الحمل في بطن زوجته؛ وليس هذا من قبيل عدم الثقة بوعد الله فحاشا لزكريّا نبي الله من ذلك وهو من أعرف الناس بالله، ولكن هو من قبيل الاستقرار النفسي والطمأنينة القلبيّة وهو على حدّ قوله تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم ربّ أرني كيف تحي الموتى قال أوَلم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئنّ قلبي...﴾ الآية [البقرة: ٢٦٠][2]، «وليبادر إلى الشكر ويتعجّل السرور؛ إذ الحمل لا يظهر في أول العلوق فأراد معرفته أول وجوده»[3].

فاستجاب الله لطلبه: ﴿قال آيتك ألاّ تكلّم الناس ثلاث ليال سويّاً﴾. والمعنى أنّ علامة ذلك أنّك لا تستطيع التكلّم إلى الناس ثلاثة أيام بلياليهنّ وأنت صحيح سويّ الخلْق ليس بك خرس ولا علّة. قال ابن عباس ومجاهد والسدّي وعكرمة وقتادة وغير واحد: اعتقل لسانه من غير مرض ولا علّة. وروى العوفي عن ابن عباس قوله: ﴿سويّاً﴾ أي أياماً متتابعات.

أقول: والقول الأول المروي عن ابن عباس؛ وعن الجمهور هو الأصحّ، كما قال تعالى في آية آل عمران: ﴿قال ربّ اجعل لي آية قال آيتك ألاّ تكلّم الناس ثلاثة أيام إلاّ رمزاً واذكر ربّك كثيراً وسبّح بالعشيّ والإبكار﴾ فهو مع ذلك لم ينقطع لسانه عن الذكر والتسبيح، وهو دليل على أنّه كان في غاية السلامة والقدرة على النطق إلاّ أنه يعتقل لسانه عند التكلّم مع الناس. وهذه هي العلامة[4].

---

(١) قرأ حمزة والكسائي: ﴿وقد خلقناك﴾ بالنون، وقرأ الباقون: ﴿وقد خلقتك﴾. (انظر: حجة القراءات لابن زنجلة ص ٤٣٩).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١١٢/٣.

(٣) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى زكريا الأنصاري ص ٣٥١.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١١٢/٣.

ثمّ يحكي الله عزّ وجلّ حال زكريا بعد أن أعطاه العلامة وأمره بالذكر والتسبيح واطمأنّت نفسه: ﴿فخرج على قومه من المحراب[1] فأوحى إليهم أن سبّحوا بكرة وعشيّاً﴾ والمعنى: أنّه خرج من المحراب الذي بشّر فيه بيحيى، فأوحى إلى من حوله من العبّاد والناس بإشارة خفيفة سريعة لأنّه منع الكلام إلّا الرمز[2] أي الإشارة باليد أو بالرأس أو نحوهما. . .

وأشار إليهم بالذكر والتسبيح موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله شكراً لله على ما أولاه؛ وقد كان في منزلة عالية عندهم وهو حبرهم وإمامهم وعالمهم ونبيّهم، وذلك قوله تعالى: ﴿أن سبّحوا بكرة وعشيّاً﴾ فهو أمرهم بالتفرّغ لذكر الله في طرفي النهار، ويجوز أن يكون قد عنى بالتسبيح هنا الصلاة في الوقتين. وقد أورد الفخر الرازي هذا المعنى للتسبيح وهو أنّه المراد به الصلاة في أول النهار وهي الفجر؛ والأخرى في آخره في العشيّ وهي العصر، وقد قال بأنّ هذا القول قد اتفق عليه المفسّرون[3]، ولكن هذا الكلام منه ليس بواقع ولا صحيح؛ إذ لم يتفق المفسّرون عليه، بل إنّ أكثر أقوالهم على المعنى الأول وهو ما اختاره ابن جرير الطبري وقال بجواز القول الثاني ولم يمنعه[4].

وعند هذا الحدث يقف القرآن في قصّ ما كان من أمر زكريّا عليه السلام في طلبه ليحيى ومن ثمّ استجابة الله لدعائه وموقفه من البشارة، وينتقل من بعد السياق إلى حكاية ما كان عليه يحيى ابنه الذي وهبه الله له من المكانة عند الله سبحانه، وهذا ما خصّت به الفقرة الرابعة الآتية.

---

(١) المحراب: أرفع المواضع وأشرف المجالس، وكانوا يتخذون المحاريب فيما ارتفع من الأرض، واختلف الناس في اشتقاقه؛ فقالت فرقة: هو مأخوذ من الحرْب كأنّ ملازمه يحارب الشيطان والشهوات، وقالت فرقة: هو مأخوذ من الحرَب (بفتح الراء) كأنّ ملازمه يلقى منه حرباً وتعباً ونصباً. (تفسير القرطبي ١١/ ٨٥).

(٢) الرمز: أصله التحرّك، يقال: ارتمز أي تحرّك، ومنه قيل للبحر الراموز (تفسير أبي السعود ٢/ ٣٤).

(٣) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢١/ ١٩٠ ـ ١٩١.

(٤) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ١٦/ ٤٢.

٤ ـ مكانة يحيى عند الله عزّ وجلّ:

وفي بداية الحديث عن مكانته وفضله يخبر الله عمّا أمر به يحيى: ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوّة﴾ وفي الكلام حذف والتقدير: فلمّا ولد يحيى وكبر وبلغ السنّ التي يؤمر فيها قال الله له: ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾ والكتاب هنا التوراة التي أنزلها الله على موسى. و(بقوّة): أي خذه بجدّ وحرص واجتهاد، فالقوّة هنا معنويّة وهي الجدّ والعزم والثبات. و(الباء) هنا للملابسة، أي أخذاً ملابساً للثبات على الكتاب، أي على العمل به وحمل الأمّة على اتباعه؛ إذ قد أخذ الوهن والضعف يتطرّق إلى بني إسرائيل في العمل بدينها[1].

ثمّ يحكي الله أنّه أعطاه الحكمة والفهم ورجاحة العقل منذ الصغر: ﴿وآتيناه الحكم صبياً﴾. وقال ابن جرير الطبري فيما معناه: أعطاه الله الفهم لكتابه في حال صباه قبل بلوغه أسنان الرجال.

وقيل: إنّ الحكم هنا النبوّة. وهذا القول بعيد؛ لأنّ النبوّة مرتبة عظيمة تعطى عند بلوغ الأشد، ولو أوتيها أحد في صباه لأوتيها نبيّنا محمد ﷺ لكونه أفضل الأنبياء والمرسلين[2].

ثمّ يصف الله عبده يحيى بما تحلّى به من صفات عظيمة: ﴿وحناناً من لدنّا وزكاة وكان تقيّاً﴾ فقوله تعالى: ﴿وحناناً من لدنّا﴾ أي أنّ الله جعله ذا حنان، والحنان هو المحبّة في شفقة وميل ومنه التعطّف والرحمة، والمراد: إنّ الله آتاه رحمة من عنده وتحنّناً على العباد ليدعوهم إلى طاعة ربّهم.

وأمّا قوله: ﴿وزكاة﴾ أي أنّه كان زكيّ النفس مطهرها من الذنوب والآثام.

وقوله: ﴿وكان تقيّاً﴾: أي من المتقين الذين لم يعملوا بذنب لوقاية أنفسهم من

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ١٦/٤٢؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/١١٣.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ١٦/٤٢ ـ ٤٣؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/١١٣؛ التحرير والتنوير ١٦/٧٥.

سخط الله، ولطلب رضاه، والإشارة إلى ما كان عليه من التقوى فيه بيان لإخلاصه[1].

ويشبه هذا قول الله عنه وعن والديه في آية الأنبياء: ﴿إنّهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً[2] وكانوا لنا خاشعين﴾ فكان هو وأبواه في قمّة طاعة الله وهي المسارعة إليها والسبق فيها، والمسارعة هي أكبر ما يمدح به الإنسان؛ لأنّها تدلّ على حرص عظيم في طاعة الله وبلوغه أعلى درجات التقوى[3].

ولمّا ذكر الله طاعته له وأنّه جعله ذا رحمة وزكاة وتقوى عطف على ذلك بذكر طاعته لوالديه وبرّه بهما وبعده عن عقوقهما قولاً وفعلاً وأمراً ونهياً؛ وذلك لأنّه لا عبادة بعد تعظيم الله تعالى أعظم من برّ الوالدين، وذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وبرّاً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً﴾.

وقوله: ﴿ولم يكن جباراً﴾ أي: ليس هو ذاك الشخص الذي يستخفّ بحقوق الناس ولا يرى لأحد على نفسه حقاً؛ إذ أنّ هذا من باب تعظيم الإنسان لنفسه فيرى أنّه لا يلزمه قضاء لأحد، وكأنّه مشتق من الجبر وهو القسر والغصب لأنّه يغصب حقوق الناس[4].

وقوله: ﴿عصياً﴾: أبلغ من العاصي، والمراد وصف يحيى بالتواضع ولين الجانب[5].

ثمّ يذكر الله أخيراً بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاءه عليها فيقول: ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً﴾ أي: أنّ له الأمان في هذه الأحوال الثلاثة.

قال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطن: يوم يولد فيرى نفسه خارجاً ممّا كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم من قبل، ويوم يبعث

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/١١٣؛ تفسير الخازن ٤/٢٤٠.

(٢) (رغباً ورهباً) أي يفزعون إلينا فيدعوننا في حال الرخاء والشدّة، وقيل: يدعوننا وهم في حالة رجاء وخوف لأنّهما متلازمتان (تفسير القرطبي ١١/٣٣٦).

(٣) انظر: تفسير الخازن ٤/٣٢١.

(٤) انظر: تفسير الخازن ٤/٢٤٠؛ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٦/٧٧.

(٥) تفسير الخازن ٤/٢٤٠.

فيرى نفسه في محشر عظيم. فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا وأعطاه الأمن فيها[1].

وبهذا الكلام عن يحيى ينتهي حديثنا في هذا الفصل الذي بيّنا فيه ما ورد عن زكريا ويحيى عليهما السلام في القرآن الكريم، وننتقل بذلك إلى الفصل الثاني الذي سنتحدّث فيه عن العبر والفوائد بعون الله.

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/١١٣.

الفصل الثاني

العبر والفوائد

١ ـ العبر والفوائد من دعاء زكريا ربّه طلباً للولد:

* نستدلّ من دعائه عليه السلام ما يلي:

ـ إنَّ حب الولد فطرة في النفس البشريّة: ﴿زيِّن للناس حبّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضّة...﴾ الآية [آل عمران: ١٤]، وبالتالي فإنَّ الدين لا يجافي الفطرة، فها هو ذا زكريا نبيّ الله بلغ من العمر ما بلغ؛ وفات أوانه وأوان حمل زوجته، ولكنّه طرق باب الله بالدعوات في أن يرزقه الذرّية الصالحة فدعا الله قائلاً: ﴿ربِّ هب لي من لدنك ذرّية طيّبة...﴾ الآية(١).

وإنَّ تلك هي سنّة المرسلين والصدّيقين، قال تعالى: ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرّية...﴾ الآية [الرعد: ٣٨].

وقال تعالى مخبراً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ [الشعراء: ٨٤] وقد وصف الله عباده المتقين بقوله: ﴿والذين يقولون ربّنا هب لنا من أزواجنا وذرّياتنا قرّة أعين واجعلنا للمتقين إماماً﴾ [الفرقان: ٧٤].

كما أنّ النبي ﷺ حضّ على تزوّج المرأة الولود، فقال: «تزوّجوا الودود الولود فإنِّي مكاثر بكم الأمم»(٢).

ويروى أنّه ﷺ قد دعا لأنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ فقال: (اللهمّ أكثر ماله

---

(١) انظر: مع الأنبياء في القرآن الكريم لعفيف طبّارة ص ٣٣٠.

(٢) رواه أبو داود: كتاب النكاح، (٤٠) باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء، حديث (٢٠٥٠)؛ ورواه النسائي: كتاب النكاح، (١١) باب كراهية تزويج العقيم، حديث (٣٢٢٧).

وولده وبارك لـه فيما أعطيته)[1].

وقـد روي أيضـاً عن سعـد بن أبـي وقّـاص ـ رضي الله عنـه ـ أنّـه قـال: أراد عثمـان بن مـظعـون رضي الله عنـه أن يتبتّـل فنهـاه النبـيّ ﷺ، ولـو أجـاز لـه ذلـك لاختصينا[2].

والأحاديث في هذا كثيرة ومستفيضة وكلّها تدلّ على الحثّ بـطلب الولـد والندب إليه، وأنّ هذا هو سنّة الأنبياء والصدّيقين والصالحين.

ـ إنَّ الذي ينبغي هو طلب الولد الصالح خاصّة دون غيره؛ فإنَّ زكريا حين دعـا الله قال: ﴿واجعله ربِّ رضيًا﴾ وقال: ﴿. . . ذريّة طيّبة﴾.

فـالغـايـة ليست هي كثـرة الأولاد فحسب؛ وإنّمـا هي بـأن يكـون هؤلاء الأولاد صـالحين، فتقرّ بهم أعين آبـائهم؛ وينتفعـون بـدعـائهم لهم بعـد أن ينتقلوا إلى ربّهم «أو ولد صالـح يدعو لـه»، كما أنّ في طلب الولد الصالـح نـظراً إلى مصلحة الـدين والخوف من ضياعـه؛ ولذلـك قال زكـريا: (وإنّي خفت المـوالي من ورائي . . .) فإنّـه خـاف من يتولّى على بني إسـرائيل من بعـد موتـه ألاّ يقـومـوا بشـأن الـدين حقّ القيـام ولا يدعوا العباد إلى التوحيد فطلب من الله الولد الصالـح[3]. وهكذا ينبغي على الآباء أن ينظروا إلى مستقبل دين الله في مجتمعاتهم وأمّتهم؛ فالأولاد الصالحون هم أسـاس الخير في المجتمعات وعماده، وبهم يصلـح ما فسد، ومنهم تنشأ الأسر الصالحـة فيعمّ الخير هذه الأمّة. . .

* إنَّ دعاء زكريّا ــ عليه السلام ــ حوى آداباً عديدة للدعاء:

(أوّلها): في قوله تعالى: ﴿نداءً خفيّاً﴾ دلالة على أنّ أفضل الدعاء مـا كان هـذا حاله ويؤكده قولـه تعالى: ﴿ادعـوا ربّكم تضرعـاً وخفيةً. . .﴾ الآيـة [الأعراف: ٥٥]؛ ولأنّ الصوت مشعر بالقوّة والجلادة، وإخفاء الصوت مشعر بالضعف والانكسار، وعمدة

(١) رواه البخاري: كتاب الدعوات، باب الدعاء بكثرة المال مـع البركة، الحديثان (٧١، ٧٢).

(٢) رواه مسلم: كتاب النكاح، الأحاديث (٦، ٧، ٨).

(٣) انظر: تفسير الشيـخ عبد الرحمن السعدي ٥/ ٩٠ ــ ٩١.

الـدعاء الانكسـار والتبرّي عن حـول النفس وقوّتهـا، والاعتمـاد على فضـل الله تعـالى وإحسانه.

(وثانيها): إنَّ المستحبّ أن يذكر في بداية الدعاء عجز النفس وضعفها وإظهـار خضوعها لله؛ كما في قوله: ﴿وهنَ العظم منّي واشتعل الرأس شيباً﴾.

(وثالثها): إنَّ من المستحبّ كذلك ذكـر نعم الله على الدّاعي، وعـادات تفضّله عليه سبحانه في إجابته لدعواه، وذلك كما في قوله: ﴿ولم أكن بدعائك ربِّ شقياً﴾.

(ورابعها): أن يكون الدعاء لأجل شيء متعلق بالدين لا لمحض الدنيا كما قال: ﴿وإنّي خفت الموالي من ورائي...﴾.

(وخامسها): أن يكون الدعاء بلفظ: يا ربّ؛ على ما في هذا الموضـع[1].

أقول: وإضافةً إلى هذه الآداب هناك آداب أخرى للدعاء يحسن أن نذكرها ومن أهمّهـا ــ تحرّي الأوقـات الشريفـة: كيـوم عـرفـه من السنّـة، ورمضـان من الشهـور، والجمعـة من الأسبوع، والسحـر من الليل، وبين الأذان والإقـامة، وعقيب الصلوات، وعند نزول الغيث، وعند القتال في سبيل الله، وعند ختم القرآن، وفي السجود، وعند الإفطار، وعند حضور القلب ووجله.

ومن الآداب ــ أيضاً ــ أن يدعو الداعي وهـو مستقبل القبلة. وأن يبـدأ بذكـر الله عزّ وجلّ، ثمّ يصلي على النبـيّ ﷺ، ولا يتكلّف السجـع في الدعاء.

ومن أهمّ آدابه هو الأدب الباطن ــ وهو الأصل في الاستجابـة ــ التوبـة الصادقـة وردّ المظالم إلى أهلها[2].

* ومن البلاغة القرآنية في الآيات ما يلي:

يقول الجصّاص في كتابه (أحكام القرآن) حول قولـه: ﴿ربِّ هب لي من لدنـك ذرّية طيّبة﴾: (الهبة: تمليك الشيء من غير ثمن، ويقولـون: قد تـواهبوا الأمـر بينهم،

---

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢١/١٩٤؛ تفسير القرطبـي ١١/٧٧.

(٢) أحمـد بن عبـد الـرحمن بن قـدامـة المقـدسي، مختصـر منهـاج القـاصـدين، تعليق: شعيب وعبـد القادر الأرنؤوط (بيـروت: مؤسسة علوم القـرآن، دمشق: دار البيـان، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م) ص ٥٦.

وسمّى الله تعالى ذلك هبة على وجه المجاز؛ لأنّه لم تكن هناك هبة على الحقيقة، إذ لم يكن تمليك شيء وقد كان الولد حراً لا يقع فيه تمليك، ولكنّه لمَّا أراد أن يخلصْ له الولد على ما أراد من عبادة الله ووراثته النبوّة والعلم أطلق عليه لفظ الهبة، كما سمّى الله تعالى بذل النفس للجهاد في سبيل الله شراءً وهو تعالى مالك الجميع من الأنفس والأموال قبل أن يجاهدوا وبعده، وسمّي ذلك شراء لما أولاهم عليه من الثواب الجزيل)[1].

- جناس الاشتقاق في قوله: ﴿إذ نادى ربه نداءً خفياً﴾، فالجناس في: (نادى . . نداء)[2].

- إسناد الوهن إلى العظم دون غيره ممّا شمله الوهن في جسده؛ لأنّه أوجز في الدلالة على عموم الوهن جميع بدنه، لأنَّ العظم هو قوّام البدن وهو أصلب شيء فيه فلا يبلغه الوهن إلاَّ وقد بلغ ما فوقه، ففي قوله: ﴿وهن العظم منّي﴾ كناية عن ذهاب القوة وضعف الجسم مطلقاً[3].

- الاستعارة التبعية في قوله: ﴿واشتعل الرأس شيباً﴾؛ حيث شبّه انتشار الشيب وكثرته باشتعال النار في الحطب، واستعير الاشتعال للانتشار واشتقّ من اشتعل بمعنى انتشر[4].

كما أنّ إسناد الاشتعال إلى الرأس مجاز عقلي؛ لأنّ الاشتعال من صفات النار المشبّه بها الشيب، فكان الظاهر إسناده إلى الشيب، فلمَّا جيء باسم الشيب تمييزاً لنسبة الاشتعال حصل بذلك خصوصية المجاز وغرابته، وخصوصية التفصيل بعد الإجمال، مع إفادة تنكير (شيباً) من التعظيم، فحصل إيجاز بديع، وأصل النظم المعتاد، واشتعل الشيب في الرأس[5].

---

(١) أحكام القرآن للجصّاص: ٢/ ١١.

(٢) صفوة التفاسير للصابوني ٢/ ٢١٧.

(٣) انظر: صفوة التفاسير للصابوني ٢/ ٢١٧؛ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٦/ ٦٤.

(٤) صفوة التفاسير للصابوني ٢/ ٢١٧.

(٥) انظر: تفسير أبي السعود ٥/ ٢٥٣؛ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٦/ ٦٤.

ـ والخبران من قوله: ﴿وهن العظم ـ اشتعل﴾ مستعملان مجازاً في لازم الإخبار، وهو الاسترحام لحاله؛ لأنَّ المخبر عالم بما تضمّنه الخبران[1].

ـ وقوله: ﴿واجعله ربّ رضياً﴾ فيه أنّ توسيط كلمة (ربّ)بين مفعولي (اجعل) للمبالغة في الاعتناء بشأن ما يستدعيه[2].

٢ ـ العبر والفوائد من البشارة بيحيىٰ:

* إنَّ في استجابة الله لزكريا وتبشيره بيحيىٰ ما يدلّ على طلاقة المشيئة الربانية، فلا تحدّها حدود ولا تقيّدها قوانين، فاللّه سبحانه لا يعجزه شيء.. وحول هذه المعاني يتكلّم الشهيد سيد قطب فيقول: (وكذلك نجدنا أمام حادث غير عادي. يحمل مظهراً من مظاهر طلاقة المشيئة الإلٓهية وعدم تقيّدها بالمألوف للبشر الذي يحسبه البشر قانوناً لا سبيل إلى إخلافه، ومن ثمّ يشكّون في كل حادث لا يجيء في حدود هذا القانون! فإذا لم يستطيعوا تكذيبه لأنّه واقع صاغوا حوله الخرافات والأساطير. لقد استجيبت الدعوة ولم يحل دونها مألوف البشر الذي يحسبونه قانوناً ثم يحسبون أنّ مشيئة الله سبحانه مقيّدة بهذا القانون! وكلّ ما يراه الإنسان ويحسبه قانوناً لا يخرج عن أن يكون أمراً نسبياً لا مطلقاً ولا نهائياً. فما يملك الإنسان وهو محدود العمر والمعرفة.. وما يملك العقل وهو محكوم بطبيعة الإنسان هذه أن يصل إلى قانون نهائي ولا أن يدرك حقيقة مطلقة. فما أجدر الإنسان أن يتأدّب في جناب الله وما أجدره أن يلتزم حدود طبيعته وحدود مجاله، فلا يخبط في التيه بلا دليل وهو يتحدث عن الممكن والمستحيل، وهو يضع لمشيئة الله المطلقة إطاراً من تجاربه هو ومن مقرراته هو ومن عمله القليل ﴿كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ فالأمر مألوف مكرور معاد حين يردّ إلى مشيئة الله وفعله الذي يتمّ دائماً على هذا النحو. ولكنّ الناس لا يتفكّرون في الطريقة ولا يتدبّرون الصنعة ولا يستحضرون الحقيقة كذلك. بهذا اليسر وبهذه الطلاقة يفعل الله ما يشاء. فماذا في أن يهب لزكريا غلاماً وقد بلغه الكبر وامرأته عاقر؟ إنَّما هي مألوفات البشر التي يقرّرون قواعدهم عليها، ويتخذون منها قانوناً! فأمّا بالقياس إلى الله

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٦/٦٤.

(٢) تفسير أبـي السعود ٥/٢٥٥.

فلا مألوف ولا غريب. . كلّ شيء مردّه إلى توجّه المشيئة. والمشيئة مطلقة من كلّ القيود)[1].

* إنَّ من كرم الله وفضله العظيم على زكريا ــ عليه السلام ــ أن سمّى له ابنه الذي بشّره به. ولا يخفى أنّ هذا أمر عظيم. . الله عزّ وجلّ هو الذي يسمّي الولد بنفسه سبحانه!! إنَّ الواحد منّا ليسرّ أكبر سرور حين يسمّي ولده إنسان فاضل تقيّ ــ ولله المثل الأعلى ــ فكيف إذا كان الذي يسمّي هو الله صاحب الجلالة والعظمة ربّ كل شيء. . إنَّها منزلة عالية للأب زكريا وابنه يحيىٰ ــ أيضاً ــ الذي سمّاه الله.

كما أنّ الله اختار له اسماً لم يسبق وأن سمّي من قبل، وهذا أيضاً فضل عظيم ومنّة كبرى من الله؛ (فاسم يحيىٰ مبتكر، وللأسماء المبتكرة الفريدة الوحيدة مزايا منها: قوّة تعريف المسمّى بها لقلّة الاشتراك، إذ لا يكون مثله كثيراً مدّة وجوده، وكذلك مزية اقتداء الناس به من بعد حين يسمّون أبناءهم ذلك الاسم تيمّناً واستجادةً)[2].

وممّا يلاحظ أنّ تسمية الأبناء بأسماء مبتكرة جديدة فريدة يحرص عليها كثير من الآباء ويتسابقون فيها؛ وذلك لأنّ للاسم الجديد أو القليل أو النادر من مزايا جميلة، ولا حرج في هذا على الآباء.

وكأنّ في قوله: ﴿لم نجعل له من قبل سميّاً﴾ دلالة على امتياز الاسم الحسن الذي لم يسبق إليه من قبل. والله أعلم.

* إنَّ الله سبحانه يجازي عبده المطيع الخاشع له المتوكّل عليه بما لا يتوقّعه ومن حيث لا يحتسب، فهذا زكريا ــ عليه السلام ــ يدعو الله عزّ وجلّ أن يهب له ولداً صالحاً؛ فتأتيه البشارة بالولد وزيادة على ذلك الإخبار بما سيكون عليه ولده ــ المبشر به ــ في حياته من العلم والنبوّة والمنزلة الرفيعة. . وهذا شأن الله مع عباده الصالحين في كلّ زمان ومكان، ولا حدّ لفضل الله ونعمه؛ وما ذاك إلّا لعظيم شكرهم

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/٣٩٤ ــ ٣٩٥.

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٦/٦٩.

لله على كلّ نعمه عليهم، ويصدق على هذا قول الله تعالى: ﴿وإذا تأذّن ربّكم لئن شكرتم لأزيدنّكم. . . ﴾ الآية [إبراهيم: ٧].

٣ ــ العبر والفوائد من موقف زكريا من البشارة:

* إنَّ تعجّب زكريا ــ عليه السلام ــ كما قلنا ليس هو من باب الإنقاص والتقليل لقدرة الله فحاشا لنبي أن يعتقد ذلك عوضاً عن أي إنسان مؤمن بأنّ الله على كلّ شيء قدير؛ ولكن هي فرحة الأب المتلهّف الذي قد حرم من الأبوّة ومشاعرها طوال ستين سنة أو أكثر!! فما ملك هذا الأب حين سمع هذا الخبر إلاَّ أن تعجّب تعجّب فرح وسرور. وكأنّي أتصوّر حال زكريا ــ عليه السلام ــ بحال من مكث هو وامرأته فترة طويلة من الزمن ولم يكتب الله لهما الإنجاب؛ وفجأةً يبشّر ــ بعد هذه المدّة الطويلة ــ بأنّ زوجته قد حملت بمولود!!! إنَّه لموقف لا يستطيع القلم أن يعبّر عنه؛ لما يحتويه من المشاعر الفيّاضة واللحظات المغمورة بالسعادة.

وممَّا لا شكّ فيه أنّ موقفاً كهذا إذا مرّ بالإنسان المؤمن؛ ما يلبث إلاَّ وأن يزيد من إيمانه باللّه تبارك وتعالى وبقدرته المعجزة التي لا يعجزها شيء، وبأمره الذي لا يستطيع أحد أن يغيّره أو يبدّله. . .

وقد يبذل الرجل والمرأة محاولات عدّة وفحوصات متكرّرة للبحث عن سبَب عدم الحمل، وقد يصف الأطبّاء عدداً من العلاجات لإزالة العقم الموجود؛ ولكن ما أن تأتي المشيئة الربّانية ويقدّر الله تلك النفس المنفوسة إلاَّ ويأتي الحمل بقدرة الله وبعد أن عجز الجميع! وتلك نعمة الله يهبها لمن يشاء من عباده، ويحضرني في هذا المقام قوله تعالى: ﴿لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور. أو يزوّجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل ما يشاء عقيماً إنَّه عليم قدير﴾ [الشورى: ٤٩ ــ ٥٠]، ففي هذه الآية الكريمة يبيّن الله أنّه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنّه يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ولا مانع لِمَا أعطى ولا معطي لِمَا منع، وأنّه يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً، ويهب لمن يشاء الذكور، ويعطي لِمَنْ يشاء من الناس ذكراً وأنثى، كما أنّه سبحانه يجعل من يشاء عقيماً لا نسل له ولا ولد؛ وهو عليم سبحانه بمن يستحقّ كل قسم من هذه الأقسام قدير على ما يشاء من تفاوت الناس في ذلك.

وهذا المقام شبيه بقوله تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿ولنجعله آيةً للناس﴾ أي دلالة لهم على قدرته تعالى؛ حيث خلق الخلق على أربعة أقسام: فآدم ـ عليه السلام ـ مخلوق من تراب لا من ذكر ولا أنثى، وحوّاء مخلوقة من ذكر بلا أنثى، وسائر الخلق سوى عيسى من ذكر وأنثى، وعيسى من أنثى بلا ذكر؛ فتمّت الدلالة بخلق عيسى بن مريم عليه السلام. ولهذا قال تعالى: ﴿ولنجعله آية للنّاس﴾ فهذا المقام في الآباء والمقام الأول في الأبناء وكلّ منهما أربعة أقسام فسبحان العليم القدير[1].

* وممّا يلاحظ في إعطاء الله زكريا الآية في وجود الحمل؛ أنَّه سبحانه أمره بذكره فقال: ﴿آيتك ألّا تكلّم الناس ثلاثة أيام إلَّا رمزاً. واذكر ربّك كثيراً وسبّح بالعشي والإبكار﴾ وفي هذا يقول محمد بن كعب القرظي: لو رخّص لأحد في ترك الذكر لرخّص لزكريا، ولرخّص للرجل يكون في الحرب ﴿يا أيُّها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً. . .﴾ الآية [الأنفال: ٤٥][2].

وهذا ممّا يدلّ على أهمّية ذكر الله تعالى وعظم منزلته، وفيه حثّ على ذكر الله في جميع الأحوال.

وللإمام ابن قيّم الجوزيّة كلام جميل مفيد حول منزلة الذكر نذكر جزءاً منه للفائدة، يقول رحمه الله: وهي منزلة القوم الكبرى، التي منها يتزوّدون. وفيها يتّجرون. وإليها دائماً يترددون.

و (الذكر) منشور الولاية، الذي من أعطيه اتصل، ومن منعه عزل.

وهو قوت قلوب القوم، الذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبوراً. وعمارة ديارهم. التي إذا تعطّلت عنه صارت بوراً. وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق. وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الحريق. ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب. والسبب الواصل، والعلاقة التي كانت بينهم وبين علّام الغيوب.

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/١٢١.

(٢) تفسير القرطبي ٤/٨٢.

إذا مـرضنا تـداوينا بـذكـركم فنتـرك الـذكـر أحيـانـاً فننتكس

به يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكربات. وتهون عليهم بـه المصيبـات. إذا أظلّهم البـلاء فإليه ملجؤهم، وإذا نزلت بهم النوازل فإليه مفزعهم. فهو ريـاض جنّتهم التي فيها يتقلّبون. ورؤوس أموال سعادتهم التي بها يتّجرون. يدع القلب الحزين ضاحكاً مسروراً. ويوصل الذاكر إلى المذكور. بل يدع الذاكر مذكوراً.

وفي كلّ جارحـة من الجوارح عبـوديّة مؤقتـة، و (الذكـر) عبوديـة القلب واللسان وهي غيـر مؤقّتة. بـل هم يؤمرون بـذكـر معبـودهم ومحبـوبهم في كـلّ حـال: قيـامـاً، وقعـوداً، وعلى جنوبهم. فكمـا أنّ الجنّة قيعـان، وهو غـراسها. فكـذلك القلوب بـور خراب. وهو عمارتها، وأساسها.

وهو جلاء القلوب وصقالها. ودواؤها إذا غشيها اعتلالها. وكلّما ازداد الذاكـر في ذكره استغراقاً: إزداد المذكور محبّة إلى لقائه واشتياقاً. وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه: نسي في جنب ذكره كلّ شيء. وحفظ الله عليه كلّ شيء وكان لـه عوضاً من كلّ شيء.

بـه يزول الوقر من الأسماع، والبكم عن الألسن، وتنقشـع الظلمة عن الأبصـار. زيّن الله بـه ألسنة الذاكرين. كما زيّن بالنور أبصار الناظرين. فاللسان الغافـل: كالعين العمياء، والأذن الصّمّاء، واليد الشلّاء.

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته.

قال الحسن البصري رحمه الله: تفقّدوا الحـلاوة في ثلاثـة أشياء: في الصـلاة. وفي الذكر. وقراءة القرآن. فإن وجدتم... وإلّا فاعلموا أنّ الباب مغلق.

وبالذكر: يصرع العبد الشيطان. كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان.

وهـو روح الأعمال الصـالحة. فـإذا خلا العمـل عن الذكـر كان كـالجسد الـذي لا روح فيه. والله أعلم.

وهو في القرآن على عشرة أوجه:

الأول: الأمر بـه مطلقاً ومقيّداً.

الثاني: النهي عن ضدّه من الغفلة والنسيان.

الثالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته.

الرابـع: الثناء على أهله، والإخبار بما أعدّ الله لهم من الجنّة والمغفرة.
الخامس: الإخبار عن خسران من لها عنه بغيره.
السادس: إنه سبحانه جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم لـه.
السابـع: الإخبار أنّه أكبر من كلّ شيء.
الثامن: إنَّه جعله خاتمة الأعمال الصالحة، كما كان مفتاحها.
التاسـع: الإخبار عن أهله بـأنّهـم أهل الانتفـاع بآيـاته. وأنّهم أولـوا الألباب دون غيرهم.
العاشر: إنَّه جعله قرين جميـع الأعمال الصالحة وروحها. فمتى عـدمته كـانت كـالجسد بلا روح(١).

ولا يسعنا المقام بأن نفصّل بأكثر من هذا، وحسب ما ذكرنا دالاًّ على عظم الذكر وأهمّيته؛ وحاثّاً ودافعاً إليه.

* ومن البلاغة القرآنية ما يلي:

– قوله: ﴿وكانت امرأتي عاقراً﴾ حال منه مؤكّـدة للاستبعـاد إثر تـأكيد. أي كـانت امـرأتي عاقـراً لم تلد في شبابهـا وشبـابـي وهي الآن عجـوز وقـد بلغت أنـا من الكبـر ما بلغت(٢).

– قوله: ﴿وقد بلغت من الكبر عتيّاً﴾ فيه: أنّه شبّه عظامه هنا بالأعواد اليابسـة على طريق المكنية، وإثبات وصف العُتـيّ لها استعارة تخييلية(٣).

٤ ـ العبر والفوائد من مكانة يحيـىٰ عند الله:

* يتكلّم الشهيـد سيـد قـطب حـول هـذا المقـام فيقـول: «هـا هـو ذا أول مـوقف ليحيـىٰ. . هو موقف انتدابه ليحمل الأمانة الكبرى (يـا يحيـىٰ خذ الكتـاب بقوة) نـودي

---

(١) مـدارج الســالكين لابـن قيّـم الجـوزيــة ٢/٤٢٣ ـ ٤٢٥؛ تـهـذيب الـمـدارج للعـزّي، ص ٤٦٣ ـ ٤٦٤.
(٢) تفسير أبـي السعود ٥/٢٥٦.
(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ١٦/٧١.
والاستعارة التخييلية: هي ما كان المستعار لـه فيها غيـر محقّق لا حسّاً ولا عقـلاً، بل هـو صورة وهمية محضـة لا يشوبها شيء من التحقيق. (انظر: علوم البلاغة للمراغي ص ٢٨١ ـ ٢٨٢).

ليحمل العبء وينهض بالأمانة في قوّة وعزم لا يضعف ولا يتهاون ولا يتراجع عن تكاليف الوراثة.

﴿وآتيناه الحكم صبياً. وحناناً من لدنّا وزكاة وكان تقيّاً﴾ هذه هي المؤهّلات التي زوّده الله بها أعدّه على احتمال ما كلّفه إيَّاه. عندما ناداه آتاه الحكمة؛ فكان فذّاً في زاده كما كان فذّاً في اسمه وميلاده. فالحكمة تأتي متأخّرة ولكن يحيىٰ زوّد بها وهو صبيّ. وآتاه الحنان هبة لدنّية لا يتكلّفه ولا يتعلّمه، إنّما هو مطبوع عليه ومطبوع به، والحنان صفة ضروريّة للنبيّ المكلّف رعاية القلوب والنفوس وتألّفها واجتذابها إلى الخير في رفق. وآتاه الطهارة والعفّة ونظافة القلب والطبع يواجه بها أدران القلوب ودنس النفوس فيطهّرها ويزكّيها (وكان تقيّاً) موصولاً باللّهِ متحرجاً معه مراقباً له. يخشاه ويستشعر رقابته عليه في سرّه ونجواه»[1].

أقول: وفي ذكر الله لما كان عليه يحيىٰ من صفات أهّلته لحمل الأمانة لإشارة إلى كلّ داعية يحمل أمانة الدين وتبليغه بأنّ عليه أن يحمل في نفسه ما حمله يحيىٰ من العلم والحكمة، والشفقة والحنان على الناس، والنظر إلى إصلاح نفسه وتزكيتها، مع إصلاح عيوب الآخرين وتزكيتهم؛ مع مراقبة الله وخشيته في السرّ والعلن.. والداعية قدوة للآخرين في كلّ شيء، فليكن قدوة حسنة.

ألا فليعتبر الدعاة إلى الله وليحملوا ما حمله الأنبياء من مؤهّلات الدعوة والتبليغ.

* ولأهمّية صفة المراقبة لله عند الداعية وعظيم أثرها في سلوكه العام والخاصّ نودّ أن نتكلّم عن حقيقة هذه الصفة: (فالمراقبة هي: داوم علم العبد، وتيقّنه باطّلاع الحقّ سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه. فاستدامته لهذا العلم واليقين: هي (المراقبة) وهي ثمرة علمه بأنّ الله سبحانه رقيب عليه، ناظر إليه، سامع لقوله. وهو مطّلع على عمله كلّ وقت وكلّ لحظة، وكلّ نفس وكلّ طرفة عين.

وقد قيل: من راقب الله في خواطره، عصمه في حركات جوارحه.

وقال الجنيد: من تحقّق في المراقبة خاف على فوات لحظة من ربّه لا غير.

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/٢٣٠٤.

وقال ذو النّون: علامة المراقبة إيثار ما أنـزل الله، وتعظيم مـا عظّم الله، وتصغيـر ما صغّر الله.

وقال إبراهيم الخوّاص: المراقبة خلوص السرّ والعلانية لله عزّ وجلّ.

وقيـل: أفضل مـا يلزم الإنسان نفسـه في هذه الـطريق: المحاسبـة والمـراقبـة، وسياسة عمله بالعلم.

وقال أبو حفص لأبـي عثمان النيسابـوري: إذا جلست للناس فكن واعـظاً لقلبك ونفسك، ولا يغرّنّك اجتماعهم عليك، فإنَّهم يراقبون ظاهرك، والله يراقب باطنك.

وأرباب الطريق مجمعون على أنّ مراقبة الله تعالى في الخـواطر: سبب لحفـظها في حركات الظواهر. فمن راقب الله في سرّه، حفظه الله في حركته في سرّه وعلانيته.

و (المراقبة) هي التعبّد بأسمـائه (الـرقيب، الحفيظ، العليم، السميـع، البصير) فمن عقل هذه الأسماء، وتعبّد بمقتضاها: حصلت لـه المراقبة.

ومن ألطف ما وصفت بـه المراقبة أنّها:

مـراقبة الحقّ تعـالى في السيـر إليـه على الـدوام، بين تعـظيم مُـذهِـل ومـدانـاة حامـلة، وسرور باعث.

فأمَّا التعظيم المذهل فهو: امتـلاء القلب من عظمـة الله عزّ وجـلّ، بحيث يذهله ذلك عن تعظيم غيره، وعن الالتفات إليه. فلا ينسى هذا التعظيم عند حضور قلبـه مـع الله. بل يستصحبه دائمـاً. فإنَّ الحضـور مـع الله يوجب أنسـاً ومحبّة، إنَّ لم يقـارنهما تعـظيم، أورثاه خـروجـاً عن حـدود العبـوديّـة ورعـونـة. فكـلّ حبّ لا يقـارنـه تعـظيم المحبوب: فهو سبب للبعد عنه، والسقوط من عينه.

وبـذلك تضمّن الـوصف خمسـة أمـور: سيـر إلى الله، واستـدامـة هـذا السيـر، وحضور القلب معه وتعظيمه، والذهول بعظمته عن غيره.

وأمّا المداناة الحاملة فهي: الـدنوّ الحـامل لـه على هـذه الأمور الخمسـة، وهذا الدنوّ يحمله التعظيم الذي يذهله عن نفسه. وعن غيره. فإنّه كلّما ازداد قـرباً من الحقّ ازداد لـه تعظيماً، وذهولاً عن سواه، وبعداً عن الخلق.

وأمّا السرور الباعث فهو الفرحة والتعـظيم، واللذّة التي يجـدها في تلك المـداناة فإن سرور القلب باللّهِ وفرحه بـه، وقرّة العين بـه. لا يشبهه شيء من نعيم الدنيا البتّة. وليس لـه نظير يقاس بـه. وهو حال من أحوال أهـل الجنّة. حتى قـال بعض العارفين: إنّـه لتمرّ بـي أوقـات أقول فيهـا: إن كـان أهـل الجنّـة في مثـل هـذا، إنّهم لفي عيش طيب.

ولا ريب أنّ هذا السرور يبعثه على دوام السير إلى الله عـزّ وجلّ، وبـذل الجهد في طلبـه، وابتغاء مـرضاتـه. ومن لم يجد هـذا السرور، ولا شيئاً منه، فليتّهم إيمـانه وأعماله. فـإنَّ للإيمـان حلاوة، من لم يـذقها فليـرجـع، وليقتبس نوراً يجـد بـه حلاوة الإيمان)[1].

ألا فليتصف الدعاة بالمراقبة حتى يكونوا من الأتقياء. . .

ثمّ إنَّ ذكر صفة برّ الوالدين من ضمن فضـائله ـ عليه السـلام ـ فيه إشـارة إلى أنّ الإنسـان مهما يلـغ من المنـزلة والمكـانة الـدينية؛ فـإنّه يبقى أسـاس خلقه وخيـره بـرّه لوالديه. فمن كان فيـه خير لـوالديـه كان فيـه الخير للنـاس، ومن لم يكن فيه خيـر وبرّ لوالديه لم يكن فيه خيـر للناس ولا أهمّيـة لما يقـدّمه للنـاس إنْ كان أقـرب الناس إليـه وأحقّهم بالبرّ لا يبرّهما ولا يؤدي لهما حقّهما! وإنّـه لمن جهل بعض من يتصـدّى للدعوة إلى الله أن يعتذر بانشغاله بالدعوة عن برّه لوالديه.

ألا فليـعِ الـدعاة حقيقـة دورهم وواجبهم، وليعـطوا كـلّ ذي حقٍّ حقّـه، وليكن التوازن عنواناً لهم في حياتهم كلّها.

* إنَّ من نعمة الله عزّ وجلّ العظيمة على عبده يحيـىٰ أن أعطاه السلامة والأمان في يوم ولادته ويوم موته يوم بعثه.

وحول هذه الأحـوال يقول ابن كثيـر: (هذه الأوقـات الثلاثـة أشدّ مـا تكون على الإنسان؛ فإنّه ينتقل في كلّ منها من عالم إلى عالم آخر، فيفقد الأوّل بعد ما كـان ألفه وعرفه، ويصير إلى الآخر ولا يدري ما بين يديه، ولهذا يستهلّ صارخاً إذا خرج من بين

---

(١) انـظر مـدارج السـالكين لابن قيّم الجـوزيـة ٢/٦٥ ـ ٦٧، تـهـذيب الـمـدارج للعـزي ص ٣١١ ـ ٣١٢.

الأحشاء وفارق لينها وضمّها وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغمّها. وكذلك إذا فارق هذه الدار وانتقل إلى عالم البرزخ بينها وبين دار القرار وصار بعد الدور والقصور إلى عرصة الأموات سكّان القبور، وانتظر هناك النفخة في الصور ليوم البعث والنّشور، فمن مسرور ومحبور ومن محزون ومثبور، وما بين جبير وكسير وفريق في الجنّة وفريق في السعير.

ولقد أحسن أحد الشعراء حيث يقول:

ولدتك أمّك باكياً مستصرخاً ... والناس حولك يضحكون سروراً
فاحرص لنفسك أن تكون إذا بكوا ... في يوم موتك ضاحكاً مسروراً[1]

وإنّه ليكفينا التفكّر فيما صوّره ابن كثير من شدائد هذه الأهوال الثلاثة لنعلم عظم نعمة الله على عبده الذي يعطيه السلامة فيها.

* ومن البلاغة القرآنية في الآيات ما يلي:

ـ يقول أبو السعود حول قوله تعالى: ﴿وحناناً من لدنّا﴾: (عُطِفَ على (الحكم) وتنوينه للتفخيم وهو التحنّن والاشتياق، و(من) متعلّقة بمحذوف وقع صفة له مؤكّدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافية، أي: وآتيناه رحمة عظيمة عليه كائنة من جنابنا، أو رحمة في قلبه وشفقة على أبويه وغيرهما)[2].

ـ وفي قوله تعالى: ﴿يا يحيىٰ خذ الكتاب بقوّة﴾ الأخذ هنا استعارة للتفهّم والتدبّر والعمل بما فيه وإرشاد الناس إلى تعاليمه وحملهم عليها؛ كما يقال: أخذت العلم عن فلان؛ لأنَّ المقتني بالشيء يشبه الآخذ[3].

ـ الطباق بين (ولد ـ يموت) في قوله: ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت. . .﴾ الآية[4].

وبهذه العبر والفوائد يكمل حديثنا حول قصّة زكريّا ويحيىٰ عليهما السلام.

والحمد لله ربِّ العالمين.

* * *

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ٢/٤٧٠.
(٢) تفسير أبي السعود ٥/٢٥٩.
(٣) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٦/٧٦.
(٤) صفوة التفاسير للصابوني ٢/٢١٧.

الباب التاسع

مَريَمُ بنتُ عِمْرَان

مع أُمِّها وابنها عيسىٰ

وفيه تمهيد، وفصلان:

الفصل الأول: مريم بنت عمران مع أمّها، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: بيان القصة.

المبحث الثاني: العبر والفوائد.

الفصل الثاني: مريم بنت عمران مع ابنها عيسى عليهما السلام، وفيه تقديم ومبحثان:

المبحث الأول: بيان القصّة.

المبحث الثاني: العبر والفوائد.

تمهيد

إنّ الله عزّ وجلّ أنزل ثلاثة وثمانين آية في أوائل سورة آل عمران؛ للردّ على النصارى الذين زعموا أنّ لله ولداً تعالى الله عمّا يقولون علوّاً كبيراً.

وقد روي في سبب نزولها ما يلي: «إنّه قدم وفد نجران، وكانوا ستّين راكباً؛ على رسول الله ﷺ، وفيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، وفي الأربعة عشر ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم: العاقب وهو أمير القوم وصاحب مشورتهم الذي لا يصدرون إلّا عن رأيه، واسمه عبد المسيح. والسيّد ثِمالهم (إمامهم) وصاحب رحلهم، واسمه الأيهم. وأبو حارثة بن علقمة أسقفهم وحبرهم، وإمامهم وصاحب مِدْراسِهم، وكان قد شرف فيهم ودرس كتبهم؛ حتى حسن علمه في دينهم، وكانت ملوك الروم قد شرّفوه وموّلوه وبنوا له الكنائس لعلمه واجتهاده. فقدموا على رسول الله ﷺ، ودخلوا مسجده حين صلى العصر، عليهم ثياب الحِبَرات جِبابٌ وأردية، في جمال رجال بني الحارث بن كعب، يقول بعض من رآهم من أصحاب رسول الله ﷺ: ما رأينا وفداً مثلهم، وقد حانت صلاتهم، فقاموا فصلّوا في مسجد رسول الله ﷺ. فقال ﷺ: دعوهم. فصلّوا إلى المشرق. فكلّم السيد والعاقب رسولَ الله ﷺ فقال لهما رسول الله ﷺ: أسلما. فقالا: قد أسلمنا قبلك، قال: كذبتما، منعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولداً، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير. قالا: إن لم يكن عيسى ولداً لله فمن أبوه؟ وخاصموه جميعاً في عيسى، فقال لهما النبي ﷺ: ألستم تعلمون أنّه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟ قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أنّ ربّنا حيّ لا يموت، وأنّ عيسى يأتي عليه الفناء؟ قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أنّ ربّنا قيّم على كلّ شيء يحفظه ويرزقه؟ قالوا: بلى، قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فإنّ ربّنا

صوّر عيسى في الرّحم كيف شاء، وربّنا لا يأكل ولا يشرب ولا يحدِث. قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أنّ عيسى حملته أمّه كما تحمل المرأة، ثمّ وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثمّ غذّي كما يغذّى الصبيّ، ثمّ كان يطعم ويشرب ويحدث؟ قالوا: بلى، قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟ فسكتوا. فأنزل الله عزّ وجلّ صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية فيها»(١).

وإنّه لفي مطالعتنا لهذه الآيات الكريمة نجد أنّه سبحانه بيّن فيها أنّ عيسى عبد من عباده خلقه وصوّره في الرحم كما صوّر غيره من المخلوقات، وأنّه خلقه من غير أب كما خلق آدم من غير أب ولا أمّ وقال له كن فكان، وكذلك قد بيّن الله فيها أصل ميلاد أمّه مريم(٢)؛ وما كان من أمرها بعد ذلك، ثمّ كيف حملت بولدها عيسى... كما جاء بسط هذا في سورة مريم أيضاً(٣).

ففي بابنا هذا نجد أنفسنا أمام قصّتين: قصّة عيسى عليه السلام مع أمّه مريم، وقصّة مريم مع أمّها. وحسب الترتيب التاريخي يحسن بنا أن نبدأ بقصة مريم بنت عمران مع أمّها، ثمّ نتناول قصّة عيسى مع أمّه. فيكون بذلك:

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص ٩٠ ــ ٩١؛ لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ص ٥١ ــ ٥٣.

(٢) قال محمد بن إسحاق: هي مريم بنت عمران بن باشم بن أمون بن ميشا بن حزقيا بن أحريق بن موثم بن عزازيا بن أمصيا بن ياوش بن أحريهو بن يازم بن يهفا شاط بن إيشا بن إيان.
وقال أبو القاسم بن عساكر: مريم بنت عمران بن ماثان بن العازر بن اليود بن أخنز بن صادق بن عيازوز بن إلياقيم بن آبيود بن زر بابيل بن شالتال بن يوحينا بن برشا بن أمون بن ميشا بن حزقيا بن أحاز بن موثام بن عزريا بن يورام بن يوشافاط بن إيشا بن إيبا بن رحبعام بن سليمان بن داود عليه السلام. وفيه مخالفة لما ذكره ابن إسحاق، ولكن لا خلاف في أنّها من سلالة داود عليه السلام.
وكان أبوها عمران صاحب بني إسرائيل في زمانه، وكانت أمّها وهي: حنّة بنت فاقود بن قبيل من العابدات. وكان زكريّا نبيّ ذلك الزمان زوج أخت مريم «أشياع» في قول الجمهور، وقيل زوج خالتها أشياع. والأول هو الصحيح والثابت. والله أعلم (انظر: قصص الأنبياء لابن كثير ٢/٤٧٨ ــ ٤٧٩).

(٣) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير ٢/٤٧٨.

الفصل الأول: قصّة مريم مع أمّها. وفيه مبحثان:

المبحث الأول: بيان القصّة.

المبحث الثاني: العبر والفوائد.

ثمّ يليه الفصل الثاني: قصّة عيسى مع أمّه. وفيه مبحثان:

المبحث الأول: بيان القصة.

المبحث الثاني: العبر والفوائد.

ونسأله سبحانه التوفيق والسداد وهو المستعان.

* * *

الفصل الأول

قصة مريم بنت عمران مع أمّها

المبحث الأوّل

بيـان القصّـة

يقصّ الله علينا هذه القصّة في قوله:

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾[1].

ويذكر الله ــ كذلك ــ حول قضيّة كفالتها قوله:

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[2].

وسيكون بياننا للقصّة من خلال الآيات السابقة على النحو التالي:

١ ــ حقيقة النذر:

يروي محمد بن إسحاق وغيره: أنّ امرأة عمران كانت لا تحمل فرأت يوماً طائراً

(١) سورة آل عمران: الآيات ٣٥ ــ ٣٧.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٤٤.

يزق فرخه، فاشتهت الولد، فدعت الله تعالى أن يهبها ولداً فاستجاب الله دعاءها، فحاضت من فورها، فلمّا طهرت واقعها زوجها فحملت منه. ولمّا تحقّقت الحمل نذرت أن يكون محرّراً (خالصاً) مفرّغاً للعبادة ولخدمة بيت المقدس. فقالت: ﴿ربِّ إنّي نذرت لك ما في بطني محرّراً فتقبّل منّي إنّك أنت السميع العليم﴾ أي السميع لدعائي العليم بنيّتي[1].

وإطلاق المحرّر على هذا المعنى الذي ذكرناه إطلاق تشريف؛ لأنّه لمّا خلص لخدمة بيت المقدس فكأنّه حُرّر من أسر الدنيا وقيودها إلى حرّية عبادة الله تعالى[2].

وهي بهذا النذر كانت تظنّ أنّ ما سيكون في بطنها ذكراً، إذ لم يكن في شرعهم أن تحرّر أنثى لخدمة بيت المقدس، وإنّما يختصّ بهذا الذكور دون الإناث.

٢ ــ ولادة حنّة بأنثى:

كانت تتوقّع أنّ ما ستلده سيكون ذكراً، حتى يصحّ نذرها لخدمة بيت المقدس، ولكنّ الله يصرّف الأمور كيف يشاء وكما يريد؛ ففوجئت حين وضعت وليدها أنّه أنثى ﴿فلمّا وضعتها قالت ربِّ إنّي وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت[3] وليس الذكر كالأنثى﴾.

وهي لم تشترط ذلك في نذرها؛ فقالت خائفة أنّ نذرها لم يقع الموقع الذي يعتدّ به، ومعتذرة من إطلاقها النذر المتقدّم: ﴿ربِّ إنّي وضعتها أنثى﴾. فقولها هذا ليس على سبيل الإعلام لله تعالى، فالله لا يحتاج إلى إعلام، بل قالته على سبيل الاعتذار.

وقوله تعالى: ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ على قراءة (وضعتُ) بضمّ التاء، فهو على تقدير أنّه حكاية لكلامها، وتفيد أنّها لمّا قالت: ﴿إنّي وضعتها أنثى﴾ خافت أن يظنّ بها أنّها تخبر الله تعالى فأزالت الشبهة بقولها هذا، وقد ثبت آنفاً أنّها قالت

---

(١) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير ٢/٤٧٩؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٣٥٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٣/٢٣٢.

(٣) قرأ ابن عامر وأبو بكر: (وضعتُ) بضمّ التاء، جعلوها من كلام أمّ مريم، وقرأ الباقون: (وضعتْ) بسكون التاء على أنّه من كلام الله تعالى. (حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٦٠).

ذلـك للاعتـذار لا للإعـلام. وأمّا على قـراءة الجمهـور بـالجـزم أي بسكـون التـاء في (وضعتْ) فعلى أنّه كلام الله، وتفيد أنّ الله قال ذلك تعظيماً لولدها، وتجهيلاً لها بقـدر ذلك الولد، ومعناه: أنّ الله أعلم بالشيء الذي وضعت وبما علّق بـه من عظائم الأمور وأن يجعله وولده آية للعالمين.

وهي جاهلة بما في علم الله ولذلك تحسّرت بقولهـا: ﴿وليس الذكـر كالأنثى﴾، وكلامها هذا هو خبر مستعمل في التحسّر لفوات ما قصدتـه من أن يكون المـولود ذكـراً فتحرّره لبيت المقدس.

ويذكر الفخر الرازي ـ رحمه الله ـ معنيين لهذا القول:

الأول: إنّ مـرادها تفضيـل الولـد الذكـر على الأنثى، وسبب هذا التفضيـل من وجوه:

ـ إنّ شرعهم لا يجوّز تحرير الإناث.

ـ إنّ الذكر يصحّ أن يستمرّ على خدمة موضـع العبادة، ولا يصـحّ ذلك في الأنثى لمكان الحيض وسائر عوارض النساء.

ـ الـذكر يصلـح لقـوّته وشـدّته للخـدمـة دون الأنثى فـإنّهـا ضعيفـة لا تقـوى على الخدمة.

ـ إنّ الذكر لا يلحقه عيب في الخدمة والاختلاط بالناس وليس كذلك الأنثى.

ـ إنّ الذكر لا يلحقه من التهمة عند الاختلاط ما يلحق بالأنثى.

والمعنى الثاني: هو أنّها قصدت ترجيـح هذه الأنثى على الـذكر، كـأنّها قـالت: الذكر مـطلوبـي، وهذه الأنثى مـوهوبـة لله تعالى؛ وليس الـذكر الـذي يكون مـطلوبـي كالأنثى التي هي موهوبة لله. وهذا الكلام يدلّ على أنّها مستغرقة في معـرفة جـلال الله عالمة بأنّ ما يفعله الربّ بالعبد خير ممّا يريده لنفسه(١).

أقول: والمعنى الأول هو الـراجـح؛ لأنّه هـو المناسب لحـالها وشـأنها في ذلـك

---

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٨/٢٦ ـ ٢٧.

الوقت من الحدث، ولما ذكرناه من أنّ الذكر ليس كالأنثى من عدّة وجوه، وكما قال بهذا جمهور المفسّرين. والله أعلم.

٣ ــ تسمية المولدة وتعويذها:

ولكي تظهر ــ أمّ مريم ــ أنّها غير راجعة عن نيّتها؛ وإن كان ما وضعته أنثى، وأنّها وإن لم تكن خليقة بخدمة بيت المقدس فلتكن من العابدات فيه إذاً ﴿وإنّي سمّيتها مريم﴾ ومريم في لغتهم العابدة، فأرادت بهذه التسمية أن تطلب من الله تعالى أن يعصمها من آفات الدين والدنيا، والذي يؤكّد هذا قولها بعد ذلك: ﴿وإنّي أعيذها بك وذريّتها من الشيطان الرجيم﴾(١).

ونلاحظ أنّها قد كرّرت قولها (إنّي) في كلامها: ﴿وإنّي سمّيتها مريم وإنّي أعيذها...﴾، وهذا التكرار إنّما هو للتأكيد؛ لأنّه قد يشعر كلامها السابق أنّها كارهة ما جاءتها فستعرض عنها ولا تشتغل بها، فأكّدت في كلامها ــ هذا ــ إظهاراً لرضاها بما قدّر الله تعالى، ولذلك انتقلت للدعاء لها الدالّ على الرضا والمحبّة(٢).

وقد استدلّ الفخر الرازي من تسميتها لبنتها بأنّ أباها عمران كان قد مات في حال حملها بها؛ إذ تولّت هي تسميتها، والعادة أنّ ذلك يتولّاه الآباء(٣).

وأقول: إنّ هذا ليس سبباً صريحاً في عدم حياة الأب؛ فقد تتولّى الأمّ تسمية مولودها ولا مانع، ولكن ذكر الله لكفالة زكريّا ــ عليه السلام ــ لمريم يدلّ بوضوح على أنّ أباها لم يكن موجوداً آنذاك.

* وفي تعويذها لمريم يروى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: «ما من مولود إلّا والشيطان يمسّه حين يولد فيستهلّ صارخاً من مسّة الشيطان إلّا مريم وابنها» ثمّ يقول أبو هريرة: واقرؤا إن شئتم: ﴿وإنّي أعيذها بك وذرّيتها من الشيطان الرجيم﴾(٤).

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود ٢/ ٢٩؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ٨/ ٢٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٣/ ٢٣٤.

(٣) التفسير الكبير للفخر الرازي ٨/ ٢٧.

(٤) رواه البخاري: (٦٠) كتاب أحاديث الأنبياء، (٤٤) باب قول الله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب مريم...﴾، حديث (٣٤٣١)، (فتح الباري).

وتعويذها بالله يعني أنّها استجارت والتجأت بالله عزّ وجلّ من شرّ الشيطان.

وذريّتها هو ولدها عيسى عليه السلام، وهذا ما دلّ عليه الحديث الشريف أيضاً.

٤ ـ كفالة زكريّا ـ عليه السلام ـ لمريم:

وتأتي الإجابة سريعة من الله عزّ وجلّ لدعاء أمّ مريم: ﴿فتقبّلها ربّها بقبول حسن﴾ فقبل الله مريم ورضي بها في النذر مكان الذكر؛ ولم يكن ذلك مشروعاً من قبل.

وقد عرف هذا القول بوحي من الله لزكريا عليه السلام؛ لأنّ هذا الكلام ليس له طريق إلّا من الوحي عن الله[١].

ومع تقبّلها الحسن أنبتها نباتاً حسناً. أي: أنشأها نشأة صالحة بعيدة عن سبيل الشيطان.

كما أنّ الله يسّر لها أسباب صلاحها بأن كفّلها زكريا ـ (وكفّلها[٢] زكريا) ـ وكان نبيّ ذلك الزمن.

وفي شأن كفالتها قال محمد بن إسحاق: وما ذلك إلّا أنّها كانت يتيمة[٣].

وقد ذكر البعض أنّ أباها عمران قد توفّي وهي في بطن أمّها، وقال آخرون: إنّه توفّي وهي طفلة صغيرة محتاجة إلى من يكفلها ويقوم بشأنها[٤].

أقول: والخلاف في هذا بسيط وليس له أثر يذكر، والله أعلم بالصحيح من ذلك؛ إذ ليس هناك خبر صحيح يؤكّد أحد القولين، والمهمّ أنّ الله جعل كفيلها زكريا

---

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٣/٢٣٥.

(٢) قرأ عاصم وحمزة والكسائي: (وكفّلها) بالتشديد، وقرأ الباقون: (وكفلها) بالتخفيف (انظر: حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٦١).

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٣٥٩ ـ ٣٦٠.

(٤) قال بذلك محمد علي الصابوني في النبوة والأنبياء ص ١٨٩، وكذلك عبد الوهاب النجار في قصصه ص ٤٤٨، وطبارة ص ٣١٦. وخالفهم محمد أحمد جاد المولى في قصصه ص ٢٠٨، وذكر أنّها ولدت وأبوها قد مات.

ـ عليه السلام ـ لما أراده لها من النشأة الصالحة والتربية الحسنة المبنيّة على العلم النافع والعمل الصالح.

وكان زكريا ـ عليه السلام ـ زوجاً لأخت مريم، ويدلّ على هذا ما جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ ـ بحديث الإسراء ـ أنّه قال: «. . . ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهم صلوات الله. . . » الحديث(١).

وقد ذكر الله سبحانه أن العباد في بيت المقدس قد تنازعوا في كفالة مريم واختصموا حتى أنّهم احتكموا إلى القرعة فاقترعوا: ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيّهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ [آل عمران: ٤٤]، وما هذا إلّا لمقام أبيها عندهم من الإمامة، ولابتغاء الأجر والمثوبة بكفالتها كذلك. . . وقد ذكر عكرمة والسدّي وقتادة والربيع بن أنس وغيرهم: أنّهم ذهبوا إلى نهر الأردن واقترعوا هنالك على أن يلقوا أقلامهم فأيّهم يثبت مع جرية الماء فهو كافلها، فألقوا أقلامهم فاحتملها الماء إلّا قلم زكريا فإنّه ثبت، ويقال: إنّه ذهب صاعداً يشقّ جرية الماء، وكان مع ذلك هو كبيرهم وإمامهم ونبيّهم(٢).

وهكذا فإنّ زكريا ـ عليه السلام ـ هو الذي كفلها بإذن الله ومشيئته ولذلك قال سبحانه: ﴿وكفّلها زكريا﴾، وقد أوحى إليه الله أن يجعلها مقيمة في المسجد بعد ذلك للعبادة والخدمة ولم يكن ذلك للنساء قبلها.

ويستنتج الطاهر بن عاشور استنتاجاً حسناً فيقول: ولعلّ هذا إرهاص بأنّه سيكون منها رسول ناسخ لأحكام كثيرة من التوراة؛ لأنّ خدمة النساء للمسجد لم تكن مشروعة(٣).

٥ ـ كرامة الله لمريم:

وكانت مريم محلّاً لكرامة الله، والكرامة لا تكون إلّا لأوليائه الذين بلغوا غاية الصلاح والتقوى، وحقّت لها الكرامة وقد اصطفاها الله على نساء العالمين ممّن كان

---

(١) رواه مسلم: كتاب الإيمان، حديث (٢٤٦).

(٢) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير ٢ / ٤٨٠؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١ /٣٦٣.

(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٣ /٢٣٥.

قبلها وفي زمانها. وقد قال النبي ﷺ: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد»(١)، وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام، كَمُل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلّا مريم بنت عمران وآسيا امرأة فرعون»(٢).

ومن كرامة الله لها ما حكته لنا الآية: ﴿كلّما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنّى لك هذا قالت هو من عند الله إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾. فإنّه كلّما يدخل زكريا ـ عليه السلام ـ عليها المحراب الذي تتعبّد فيه؛ يجد عندها رزقاً ليس هو ممّا يعهد في هذا الوقت من الزمن. قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والنخعي والضحاك وقتادة وغيرهم: «أي وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف»(٣).

وحين يرى زكريا ذلك يسألها مستفسراً عن المكان الذي جاءتها منه هذه الفاكهة ﴿أنّى لك هذا؟﴾ فتجيبه: ﴿قالت هو من عند الله﴾ فمصدره من الله، ثمّ دلّلت على إمكانية ذلك بقولها: ﴿إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب...﴾ إنّه كرامة من كرامات الله لعباده الصالحين، فالله يرزق من يريد رزقه بما لا يُعرف مقداره؛ لأنّ ذلك موكول إلى فضل الله سبحانه.

وأمام هذا المشهد العظيم من الكرامة لمريم؛ ورؤية خارق العادة، يدعو زكريا متأثّراً وقد اشتاق إلى ولد صالح مثلها ـ وقد تكلّمنا فيما سبق عن هذا الموقف ـ ﴿هنالك دعا زكريا ربّه قال ربّ هب لي من لدنك ذريّة طيبة إنّك سميع الدعاء﴾.

وبهذا المشهد تمّت قصة مريم مع أمّها حنّة... مشهد كرامة الله لأوليائه الصالحين المتقين.

* * *

(١) رواه البخاري: كتاب الأنبياء، حديث (٢٣٠)، ٤/٣١٨.
(٢) رواه البخاري: كتاب الأنبياء، حديث (٢٣١)، ٤/٣١٨.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٣٦٠.

المبحث الثاني

العبر والفوائد

١ ــ العبر والفوائد من أمر النذر:

* إنّ من فضل الله على أمّ مريم؛ ومن معجزة الله فيها أن جعلها تحبل وهي قد بلغت من الكبر ما بلغت وقد كانت عاقراً في أيام حياتها السابقة، وما ذاك إلّا لمنزلتها...

* ومن ذلك ــ أيضاً ــ أنّ ابنتها التي وهبها الله لها ولدت هي ــ أيضاً ــ ولداً وحملت به من غير أب، ففي كلّ من مريم وأمّها عبرة ومعجزة.

* ويدلّ نذرها مولودها لله ــ بأن يكون خالصاً لعبادته وخدمة بيت المقدس ــ على ما تحلّت به من صدق الإيمان وقوّة المحبّة لله عزّ وجلّ. يقول الشهيد سيد قطب: «وقصّة النذر تكشف لنا عن قلب امرأة عمران ــ أمّ مريم ــ وما يعمره من إيمان، ومن توجّه إلى ربّها بأعزّ ما تملك. وهو الجنين الذي تحمله في بطنها. خالصاً لربّها، محرّراً من كلّ قيد ومن كلّ شرك، ومن كلّ حقّ لأحد غير الله سبحانه»(١).

* وبمناسبة قولها: «محرّراً» يحضرني ما اصطلح عليه بعض الناس من دعوى التحرّر على أنّها التفلّت من تعاليم الإسلام الحنيف، ولكن هذه هي العبودية للدنيا وشهواتها، وعبودية الجري وراء كلّ داعية شرّ... ولسيد قطب رحمه الله كلاماً حول هذه الحقيقة فيقول: «والتعبير عن الخلوص المطلق بأنّه تحرّر تعبير موح، فما يتحرّر حقّاً إلّا من يخلص لله كلّه؛ ويفرّ إلى الله بجملته وينجو من العبودية لكلّ أحد ولكلّ شيء ولكلّ قيمة، فلا تكون عبوديّته إلّا لله وحده... فهذا هو التحرّر إذن...

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/٣٩٢.

وما عداه عبوديّة وإن تراءت في صورة الحريّة! ومن هنا يبدو التوحيد هو الصورة المثلى للتحـرّر. فما يتحـرّر إنسان وهـو يدين لأحـد غير الله بشيء مـا في ذات نفسـه، أو في مجريات حياته، أو في الأوضاع والقيم والموازين والقوانين والشرائـع التي تصـرّف هذه الحياة. . . لا تحرّر وفي قلب الإنسـان تعلّق أو تطلّـع أو عبـوديّة لغيـر الله. وفي حياتـه شريعة أو قيم أو موازين مستمدّة من غير الله. وحين جاء الإسلام بالتوحيد جاء بالصورة الوحيدة للتحرّر في عالم الإنسان»[1].

ألا فليـع الذين ينعقون بدعوى الحرية ـ المحرّفة ـ حقيقة الحريّة!!

* إنّ العمل الصالـح لا يقبل إلاّ إذا كان خالصاً لوجه الله وفي ابتغـاء مرضـاته. . . وبهذه المعاني اتّجهت امرأة عمران إلى ربّها حين نذرت ولدها: ﴿فتقبّل منّي إنّك أنت السميـع العليم﴾ وتقبّـل الله نذرهـا: ﴿فتقبّلها ربّهـا بقبـول حسن. . .﴾. وحـول هـذا المعنى يقول سيد قطب أيضاً: «وهذا الدعاء الخاشـع من امرأة عمران بـأن يتقبّل ربّهـا منها نذرها ـ وهو فلذة كبدها ـ ينمّ عن ذلك الإسلام الخـالص لله والتوجّـه إليه كليّـة، والتحرّر من كلّ قيد والتجرّد إلاّ من ابتغاء قبوله ورضاه»[2].

* وعلى سبيل ذكر النذر نذكر الأمور التالية:

ـ إنّ النذر في حقيقته هو التزام الفعل بالقول، ممّا يكون طاعة لله عزّ وجـلّ، ومن الأعمال قربة.

وحـول الالتزام بـه نـذكر أنّـه لا يلزم نـذر المبـاح. والـدليـل عليـه مـا روي عن ابن عباس قال: بينا النبـي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم فسأل عنه فقالوا: أبو إسرائيـل نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظلّ ولا يتكلّم ويصوم. فقال ﷺ: «مروه فليتكلّم وليستظلّ وليقعد وليتمّ صومه»[3]. فأخبره بإتمام العبادة ونهاه عن فعل المباح. وأمّا المعصية فهي ساقطة إجماعاً؛ فقد ثبت عن النبـي ﷺ أنّه قـال: «من نذر أن يـطيـع الله فليطعـه ومن

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/٣٩٢.

(٢) المرجع السابق ١/٣٩٢.

(٣) رواه البخاري: كتاب الأيمـان والنذور، بـاب النذر فيمـا لا يملك وفي معصية، حـديث (٧٨)، ٨/٢٥٦.

نذر أن يعصه فلا يعصه»[1][2].

– والنذر في مثل ما نذرت بـه أمّ مريم صحيـح في الشريعـة الإسلاميـة، فللإنسان أن ينذر أن ينشىء ابنه الصغير على عبادة الله وطاعته، وأن لا يشغله بغيرهما وأن يعلّمه القـرآن والفقه وعلوم الـدين، وجميـع ذلـك نـذور صحيحـة؛ لأنّ فيهـا قـربـة إلى الله تعالى[3].

– وفي قـولها: ﴿نـذرت لك﴾ دلالـة على أنّـه يقتضي الإيجـاب، وأنّ من نـذر لله تعالى طاعة يلزمه الوفاء بهـا، ويدلّ كـلامها هـذا ـ أيضاً ـ على أنّ النـذور تتعلّق على الأخطار وعلى أوقات مستقبلة؛ لأنّه معلوم أنّ قولها: ﴿نذرت لك ما في بطني محرّراً﴾ أرادت بـه بعـد الـولادة وبلوغ الـوقت الـذي يجـوز في مثله أن يخلص لعبـادة الله تعالى[4].

– ويدلّ نذرها بهذه الصورة على جواز النذر بالمجهول؛ لأنّها نـذرته ولم تكن تعلم أذكر هو أم أنثى[5].

– ويـدلّ نذرهـا ـ أيضاً ـ على أنّ لـلأمّ شأنـاً في الولايـة على ولدهـا في تـأديبـه وتعليمه وإمساكه وتربيته، ولولا ذلك لما نذرته لله[6].

أقول: وهذا ما ينبغي أن تحرص عليـه كلّ أمّ تجـاه أبنائهـا، فخير الأمّهـات من اهتمّت بجانب تربية أبنائها وتنشئتهم على طاعـة الله... والأمّهات ـ كمـا هو معلوم ـ هنّ منشئـات الأجيـال، فـإن كنّ صـالحـات وأصلحن أولادهنّ، كـان مـا أخـرجن من الأجيال صالحاً وأداة خير ورفعة للأمّة. وكما يقول أحدهم:

الأمّ مـدرسـة إذا أعـددتـهـا أعـددت شعبـاً طيب الأعـراق

وكم ذخر تاريخنا الإسلامي بنماذج من هؤلاء الأمّهات الصالحات الـلاتي ضربن

---

(١) رواه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب النذر في الطاعة، حديث (٧٠)، ٢٥٤/٨.
(٢) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٢٦٨/١ ـ ٢٦٩.
(٣) (٤)، (٥)، (٦)، انظر: أحكام القرآن للجصّاص ١١/٢.

أروع الأمثلة في تربية الأولاد على الإسلام والقيام بأمره والدعوة إليه؛ فكان لأولادهنّ عظيم الأثر في نهوض الأمّة ورفعتها. . .

وعلى ما ذكرناه: ينبغي أن تأخذ الأمّ قسطاً وافراً من التعليم، ومعرفة دين الله على وجهه الصحيح، وكذا لا بدّ أن تتعلّم طرق التربية الإسلامية الصحيحة؛ حتى تستطيع القيام بمهمّتها كما يجب.

٢ ــ العبر والفوائد من ولادة حنّة بأنثى:

* حول قوله تعالى: ﴿فلمّا وضعتها قالت ربّ إنّي وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى. . .﴾ يقول سيد قطب: «كلامها على هذا النحو فيه شكل المناجاة القريبة. مناجاة من يشعر أنّه منفرد بربّه، يحدث بما في نفسه، وبما بين يديه، ويقدّم له ما يملك تقديماً مباشراً لطيفاً. وهي الحال التي يكون فيها هؤلاء العبّاد المختارون مع ربّهم. حال الودّ والقرب والمباشرة والمناجاة البسيطة العبارة، التي لا تكلّف فيها ولا تعقيد. . . مناجاة من يحسّ أنّه يحدّث قريباً ودوداً سميعاً مجيباً»(١).

وهذه الحالة تؤيّد ما ذكرناه سابقاً عن صدق إيمانها وحبّها لله وقوّة صلتها به. . .

* ومن البلاغة القرآنية ما يلي:

- قوله تعالى: ﴿إنّي وضعتها أنثى﴾ خبر يستعمل في إنشاء التحذير، لظهور كون المخاطب وهو الله عليماً بكل شيء(٢).

- وقوله: ﴿والله أعلم بما وضعتُ﴾ على قراءة الضمّ في التاء، فإنّ ذكرها لاسم الجلالة فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة، فيكون قرينة لفظية على أنّ الخبر مستعمل في التحسّر(٣).

- وقوله: ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ خبر مستعمل ــ أيضاً ــ في التحسّر؛ لفوات ما قصدته من أن يكون المولود ذكراً فتحرّره لخدمة بيت المقدس.

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/٣٩٢.

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٣/٢٣٢.

(٣) المرجع السابق ٣/٢٣٣.

وتعـريف الذكـر تعريف الجنس لمـا هو مـرتكز في نفـوس الناس من الـرغبة في مواليد الذكور، أي ليس جنس الذكر مساوياً لجنس الأنثى[1].

ـ وأخيراً فإنّ جملتي ﴿والله أعلم بما وضعت﴾، ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ جملتـان معترضتان لتعظيم الموضوع ورفـع منزلة المولود[2].

٣ ـ العبر والفوائد من تسمية المولودة وتعويذها:

* إنّ من فضل أمّ مريم ـ أيضاً ـ بلوغها منزلة الرضا بما قدّره الله؛ فهي قـد كانت ترجو أن ترزق ذكراً، ولكن قدّر الله أن يكون مولودها أنثى، فرضيت بذلك. وقد ذكرنـا من قبل أنّ تسميتها بمريم وانتقالها إلى الدعاء بتعويذها هو ممّا يظهر كمـال رضاهـا بما قدّر الله...

وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حال المؤمنين، فالمؤمن الحقّ واقف مـع اختيار الله لـه؛ معرض عن اختياره لنفسه. وهذا من قوّة معرفته بربّه تعالى، ومعرفته بنفسه...

وعلى سبيل ذكر الرضا نذكر قصّة اجتماع لبعض السلف الصـالـح أوردها الإمـام ابن القيّم في كتابه (مدارج السالكين) ليرينا حال المؤمن الصادق في رضاه.

يقـول رحمه الله: «وقـد اجتمـع وهيب بن الورد، وسفيـان الثوري، ويـوسف بن أسباط. فقال الثوري: قد كنت أكره موت الفجاءة قبل اليـوم. وأمّا اليـوم: فوددت إنّي ميّت.

فقال لـه يوسف بن أسباط: ولم؟

فقال: لِما أتخوّف من الفتنة.

فقال يوسف: لكنّي لا أكره طول البقاء.

فقال الثوري: ولم تكره الموت؟

قال: لعلي أصادف يوماً أتوب فيه وأعمل صالحاً.

---

(١) التحرير والتنوير ٣/٢٣٣.

(٢) صفوة التفاسير للصابوني ١/٢٠٠.

فقيل لوهيب: أيّ شيء تقول أنت؟

فقال: أنا لا أختار شيئاً، أحبّ ذلك إليّ أحبّه إلى الله.

فقبّله الثوري بين عينيه: وقال: روحانيّة وربّ الكعبة»[1].

* إنّ المطلب الحقيقي الذي ينبغي أن يطلبه الآباء لأبنائهم هو أن يحصّنهم الله من الشيطان وغوائله... وهذا ما طلبته أمّ مريم لبنتها حيث قالت: ﴿وإنّي أعيذها بك وذرّيتها من الشيطان الرجيم﴾. وقد أشار سيد قطب ـ رحمه الله ـ إلى هذا في قوله: «وهي الكلمة الأخيرة التي تودّع الأمّ هديّتها بين يدي ربّها، وتدعها لحمايته ورعايته، وتعيذها به وذرّيتها من الشيطان الرجيم. وهذه كلمة القلب الخالص، ورغبة القلب الخالص. فما تودّ لوليدتها أمراً خيراً من أن تكون في حياطة الله من الشيطان الرجيم»[2].

* ومن تسميتها لبنتها مريم استدلّ على بعض الأحكام وهي كالتالي:

ـ إنّ للأمّ تسمية ولدها، وتكون تسمية صحيحة؛ وإن لم يسمّها الأب، فالله عزّ وجلّ أثبت هذا الاسم لمولودها ولم ينكره[3].

ولكنّه في حالة عدم اتفاق الأبوين على تسمية الوليد فالتسمية من حقّ الأب، وقد دلّت الأحاديث الواردة في التسمية على ذلك، والقرآن قد صرّح بأنّ الولد ينسب لأبيه لا لأمّه. قال تعالى: ﴿أدعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله﴾ [الأحزاب: ٥]، وفي هذا إشارة إلى أولوية الأب في التسمية[4].

ـ جواز التسمية في يوم الولادة. وقد دلّ عليه قوله: ﴿وإنّي سمّيتها مريم﴾ وذلك حين وضعها إيّاه. كما أنّه قد ثبت في السنّة جواز ذلك فعن أبي موسى قال: ولد لي غلام فأتيت به النبي ﷺ فسمّاه إبراهيم وحنّكه بتمرة[5].

---

(١) مدارج السالكين لابن قيّم الجوزيّة ٢/٢١٥.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/٣٩٢.

(٣) أحكام القرآن للجصّاص ٢/١١.

(٤) تربية الأولاد في الإسلام لعبد الله علوان ١/٨٣.

(٥) رواه مسلم: كتاب الآداب، حديث (٢٥)، ٤/٨٥٤.

وقد ورد في السنّة ـ أيضاً ـ ما يدلّ على جواز التسمية يوم سابعه. قال النبي ﷺ: «كل غلام رهين بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه، ويسمّى فيه، ويلحق رأسه»(1).

وممّا سبق يتضح لنا بأنّ في الأمر سعة، فجازت تسميته في يوم ولادته، وجاز تأخيره إلى يوم سابعه وجاز قبل هذا وبعده. والله أعلم.

ـ ينبغي أن يختار الآباء لأبنائهم أفضل الأسماء، فإنّ أمّ مريم قد سمّت ابنتها مريم وهو من أفضل الأسماء عندهم وكما ذكرنا أنّ معناه العابدة. فعلى الآباء أن يتخيّروا لأبنائهم أحسن الأسماء وأجملها وأفضلها، وينبغي ـ بالتالي ـ تجنّب التسمية بما يلي:

ـ الاسم القبيح الذي يمسّ الكرامة ويكون مدعاة للسخرية والاستهزاء؛ وقد كان ﷺ يغيّر الاسم القبيح.

ـ الأسماء التي لها اشتقاق من كلمات فيها تشاؤم حتى يسلم الأولاد من مصيبة هذه التسمية وشؤمها.

ـ الأسماء المختصّة بالله سبحانه؛ فلا يجوز التسمية بالأحد ولا بالصمد ولا بالخالق ولا بالرازق... ولا بغيرها.

ـ الأسماء التي فيها يمن أو تفاؤل؛ حتى لا يحصل كدر عند مناداتهم وهم غائبون بلفظ (لا)، كالتسمية بأفلح، ونافع، ورباح، ويسار.

---

(1) رواه أبو داود: (10) كتاب الأضاحي، (21) باب من العقيقة، حديث (2838)، 3/260.
ورواه الترمذي: كتاب الأضاحي، (23) باب في العقيقة، حديث (1522)، وقال عنه: حديث حسن صحيح. 4/101.
ورواه النسائي: كتاب العقيقة، باب (5)، حديث (4220)، 7/166.
ورواه ابن ماجه: (27) كتاب الذبائح، (1) باب العقيقة، حديث (3165)، 2/1056 ـ 1057.

ـ الأسمـــاء المعبّـدة لغيــر الله، كعبـد العــزّى، وعبـد الكعبــة، وعبــد النبـي، وما شابهها؛ فإنّها محرّمة التسمية بها بالاتفاق.

ـ وكذلك ممّا لا ينبغي التسمية بـه الأسماء التي فيها تميّـع وتشبّـه وغرام. كهيـام، وهيفاء، ونهاد، وميّادة وغيرهـا...، لتميّز شخصيّـة أمّة الإسـلام ولتعرف بخصـائصها الخاصّة، وهذا هو هدي النبـي ﷺ[1].

* ومن البلاغة القرآنية:

في قـوله تعـالى: ﴿وإنّي أعيذهـا...﴾ قد جيء بصيغـة المضـارع في قـولـه: ﴿أعيذها﴾؛ للدلالة على الاستمرار والتجدّد[2].

٤ ـ العبر والفوائد من قبول الله لمريم وكفالة زكريا لها:

* إنّ الله يكافىء عبده التقيّ، ويتقبّل عنه بأفضل ممّا كان يتوقّـع. ويظهـر لنا هـذا في قول الله تعالى: ﴿فتقبّلها ربّها بقبول حسن﴾ فإضـافة لفظ (حسن) تـدلّ على كمال القبـول وبلوغه درجـة عاليـة عند الله عـزّ وجلّ. ويؤكّـد هذا ـ أيضـاً ـ كبيـر الاهتمـام والحفظ والعناية منه سبحانه في قوله: ﴿وأنبتها نبـاتاً حسنـاً وكفّلها زكـريا...﴾ وهـذا ـ بلا شكّ ـ من فضل الله على عباده المتقين.

* ويدلّنا تنازع العبّاد على كفالة مريم طلباً للثواب؛ على فضل كفالة اليتيم وعـظيم ثـوابه. ويشيـر إلى هذا الفضـل قول النبـي ﷺ: «أنـا وكافـل اليتيم في الجنّة كهـاتين» وأشار بالسبّابة والوسطى وفرّج بينهما شيئاً[3]. فإنّه من قام بـأمور اليتيم من نفقـة وكسوة وتأديب وتربية وغير ذلك؛ حصلت لـه هذه الفضيلة العظيمة.

وفي رواية الإمام مسلم: «له أولغيره» فالذي «لـه» كأن يكون قريباً من أقاربه، والذي «لغيره» فهو الأجنبي عنه. ولكليهما يحصل هذا الأجر[4].

---

(١) انظر: تربية الأولاد في الإسلام لعبد الله علوان ١/٧٦ ـ ٨١.

(٢) انظر: صفوة التفاسير للصابوني ١/٢٠٠.

(٣) رواه البخاري: كتاب الطلاق، حديث (٤٧) ورواه أيضاً في كتاب الأدب، باب فضل من يعـول يتيماً، حديث (٣٤). ورواه مسلم أيضاً: كتاب الزهد، حديث (٤٠).

(٤) شرح مسلم للنووي ٥/٨٣٣.

* وفي اقتراعهم على من يكفل مريم دلالة على مشروعية القرعة. يقول القرطبي رحمه الله: «استدلّ بعض علمائنا بهذه الآية: ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم...﴾ على إثبات القرعة، وهي أصل في شرعنا لكلّ من أراد العدل في القسمة، وهي سنّة عند جمهور الفقهاء في المستويين في الحجّة، ليعدل بينهم وتطمئنّ قلوبهم، وترتفع الظِنّة عمّن يتولّى قسمتهم، ولا يفضّل أحد منهم على صاحبه إذا كان المقسوم من جنس واحد، اتبّاعاً للكتاب والسنّة. ومن أدلتها هذه الآية.

ومن الحديث النبوي قوله ﷺ: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة...» الحديث[1]. وحديث أمّ العلاء وأنّ عثمان بن مظعون طار لهم سهمه في السكنى حين اقترعت الأنصار سكنى المهاجرين[2]. وحديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان النبي ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيّتهنّ خرج سهمها خرج بها[3].

وكذلك حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أنّ رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم الناس ما في النداء والصفّ الأول ثمّ لم يجدوا إلّا أن يستهموا عليه لاستهموا...» الحديث[4]. والأحاديث في هذا المعنى كثيرة»[5].

* ومن البلاغة القرآنية ما يلي:

- إنّ في اقتران كلمة (فتقبّلها) بلفظ الجلالة (ربّها) تشريف لمريم؛ فالله هو الذي يبلغها إلى كمالها اللائق بها[6].

---

(١) رواه البخاري: كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، حديث (١١). ورواه أيضاً في كتاب الشهادات، باب القرعة في المشكلات وقوله: ﴿إذ يلقون أقلامهم﴾، حديث (٤٩).

(٢) رواه البخاري: كتاب الشهادات، حديث (٥٠).

(٣) رواه البخاري: كتاب الشهادات، حديث (٥١).

(٤) رواه البخاري: كتاب الشهادات، حديث (٥٢).

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤/٨٧.

(٦) تفسير أبي السعود ٢/٢٩.

ـ وقوله: ﴿بقبول حسن﴾ فيه (الباء) زائدة، وجيء بها للتأكيد. فأصل نظم الكلام: فتقبّلها قبولاً حسناً. فأدخلت الباء على المفعول المطلق ليصير كالآلة للتقبّل، فكأنّه شيء ثان، وهذا لا شكّ فيه إظهار للعناية بها في هذا القبول[1].

ـ وفي قوله: ﴿وأنبتها نباتاً حسناً﴾ استعارة تبعية؛ إذ شبّهها في ترعرعها ونموّها بالزرع الذي ينمو شيئاً فشيئاً، والكلام مجاز عن تربيتها بما يصلحها في جميع أحوالها[2].

٥ ـ العبر والفوائد من كرامة الله لمريم:

* إنّ في إعطاء هذه الكرامة لمريم لدلالة على فضلها ومكانتها عند الله عزّ وجلّ وإنّها ما وصلت إلى هذه الدرجة الرفيعة إلّا لعظيم تقواها لله واستغراقها في عبادته والتقرّب إليه. . . وإنّها ـ عليها السلام ـ لقدوة لكلّ امرأة تريد التقرّب إلى الله عزّ وجلّ وتسعى لطلب ولايته سبحانه.

* **مسألة في العقيدة:**

إنّ هذه الآية ـ ﴿كلّما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً. . .﴾ ـ نصّ في إثبات الكرامة لأولياء الله المتقين ولذا يجب الإيمان بها وعدم إنكارها لهم.

وقد جاء في كلام الإمام الطحاوي ـ رحمه الله ـ حول أولياء الله قوله: «ونؤمن بما جاء من كراماتهم، وصحّ عن الثقات من رواياتهم».

ولشارح الطحاوية علي ابن أبي العز ـ رحمه الله ـ تعليقاً حول كلام الطحاوي هذا فيقول: «المعجزة في اللغة تعمّ كل خارق للعادة، وكذلك الكرامة في عرف أئمّة أهل العلم المتقدّمين، ولكنّ كثيراً من المتأخّرين يفرّقون في اللّفظ بينهما. فيجعلون المعجزة للنبي، والكرامة للولي. وجماعها الأمر الخارق للعادة»[3].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٣/٢٣٥.

(٢) انظر: صفوة التفاسير للصابوني ١/٢٠٠.

(٣) علي بن علي بن محمد بن أبي العزّ الدمشقي، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الطبعة الأولى. (نشر: دار البيان بدمشق، توزيع: دار المؤيّد بالطائف، ١٤٠١هـ/١٩٨١م) ص ٤٩٥.

وقد أنكر الكرامة ــ للأولياء ــ المعتزلة، «وقولهم في إنكار الكرامة ظاهر البطلان، فإنّه بمنزلة إنكار المحسوسات، وقولهم: لو صحّت لأشبهت المعجزة، فيؤدّي إلى التباس النبي بالوليّ، وذلك لا يجوز! وهذه الدعوى إنّما تصحّ إذا كان الوليّ يأتي بالخارق، ويدّعي النبوّة، وهذا لا يقع، ولو ادّعى النبوّة لم يكن ولياً، بل كان متنبّئاً كذّاباً»(١).

وبهذا نكون قد انتهينا من الكلام حول هذا الفصل (مريم بنت عمران مع أمّها).

والحمد لله ربّ العالمين.

* * *

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العزّ ص ٤٩٩.

الفصل الثاني

مريم بنت عمران مع ابنها عيسى عليه السلام

تقـديم:

إنَّ تفرّغ مريم لعبادة الله، واجتهادها في صلتها بـه؛ أبلغهـا درجة رفيعـة عند الله فكـانت محلاً لاصـطفـاء الله واختيـاره.. اصـطفـاء لعبـادتـه وطهـارة لهـا من الأكـدار والـوساوس، واصـطفاهـا ثانيـاً لأمر عـظيم وهو حمـل عيسى وولادتـه. وبهـذا جـاءت الملائكة تخبرها: ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إنَّ الله اصطفاك وطهّرك واصـطفاك على نساء العالمين﴾.

وأمّا اصطفاؤها من بين نساء العالمين بحمل نبـيّ من أنبياء الله وولادتـه؛ فقد تمّ على تدرّج من حيث إخبارها بـه وحملها ثمّ ولادته وموقف قومها منها.. إلى غير ذلـك ممّا يمرّ في هذه القصة ويمثّل أحد أحداثها...

وقد أخبرنا الله عن هذه القصّـة مفصّلة في سورة مـريم وأشار إلى بعض أجـزائها في غيرها من السور كآل عمران والنساء والمائدة والمؤمنون والأنبياء والتحريم.

لذا فسيكون ما في سورة مريم هو ما تدور عليه القصّة، وغيره من المواضـع يذكر على حسب ما يناسبه من فقرات القصّة في مريم. والله المستعان.

* * *

المبحث الأول

بيان القصّة

يذكر الله لنا هذه القصّة ـ مفصّلة كما ذكرنا ـ في سورة مريم بقوله:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن
دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ
إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ[1] لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ
يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ
وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ
بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا
وَكُنتُ نَسۡيٗا[2] مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ[3] أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا
﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ[4] عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ

---

(١) قرأ أبو عمرو وورش والحلواني عن نافع: (ليهب لك) بالياء، وقرأ الباقون: (لأهب لك) (حجّة القراءات لابن زنجلة: ص ٤٤٠).

(٢) قرأ حمزة وحفص (نَسْياً) بفتح النون، وقرأ الباقون: (نِسْياً) بالكسر وهو الاسم (انظر: حجة القراءات لابن زنجلة: ص ٤٤١).

(٣) قرأ أبو عمرو وابن كثير وابن عامر وأبو بكر: (فناداها مَن تَحتَها) بفتح الميم والتاء، وقرأ الباقون (مِن تحتِها) بكسر الميم والتاء. (انظر: حجة القراءات لابن زنجلة ص ٤٤١).

(٤) قرأ حفص (تُساقِط) بضمّ التاء وكسر القاف، وقرأ حمزة: (تَساقَطْ) بفتح التاء والتخفيف؛ أراد تتساقط ثمّ حذف التاء لاجتماع التاءين، وقرأ الباقون: (تسّاقط) بالتشديد؛ أدغموا التاء في السين، وقرأ حمّاد: (يسّاقط) بالياء؛ ذهب إلى الجذع والآخرون إلى النخلة. (حجة القراءات لابن زنجلة ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣).

فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾
فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ
أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ
صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ
وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾
وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾(1).

وسيكون بيان القصّة كالآتي :

١ ـ مجيء جبريل ـ عليه السلام ـ إلى مريم للنفخ فيها :

وحين تنحّت واعتزلت مريم أهلها وذهبت إلى شرقيّ المسجد الأقصى للتعبّد، وجعلت بينها وبينهم ساتراً وحاجزاً؛ أرسل الله إليها جبريل ـ عليه السلام ـ فجاءها في صورة إنسان تامّ كامل، ففوجئت بدخوله عليها وهي في خلوتها؛ وهو في أبهى صورة وفي جمال فائق، وحسبته أنّه يريدها عن نفسها؛ فذكّرته باللّه وخوّفته من عقابه. فأجابها عليه السلام ـ مطمئناً ومذهباً الخوف عنها ـ بأنّه رسول من عند الله عزّ وجلّ ليهب لها غلاماً طاهراً نزيهاً من الذنوب. فاطمأنّت وسكنت من هذا الجانب ولكنّها تعجّبت من جانب آخر وهو أنه كيف يكون لها ولد ولم يمسّها بشر، فذلك مخالف للمعتاد من أمر البشر، وذلك قولها: ﴿قالت أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيًّا﴾ فليست هي بذات زوج ولا يتصوّر أنّها من أهل الفجور، والبغيّ هي الزانية بمعنى التي تبغي الرجال.

فأجابها جبريل راداً على تعجّبها: ﴿قال كذلك قال ربّك هو عليّ هيّن ولنجعله آية للناس ورحمةً منّا وكان أمراً مقضيّاً﴾ فالله على ما يشاء قادر، وهذا أمر هيّن سهل والله لا يعجزه شيء، ولهذا قال: ﴿ولنجعله آيةً للناس﴾ أي دلالة وعلامة للناس على قدرة الله خالقهم وبارئهم الذي نوّع في خلقهم فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق

(١) سورة مريم: الآيات ١٦ ـ ٣٣.

حـوّاء من ذكـر بـلا أنثى، وخلق بقيّـة النـاس من ذكـر وأنثى إلاّ عيسى خلقـه من أنثى بلا ذكر؛ فتمّت القسمة الرباعيّة الدالّة على كمال قدرته وعظيم سلطانه.

﴿وكان أمراً مقضياً﴾ لا يتغيّر ولا يتبدّل؛ إذ أنّه سابق في علم الله الأزلي.

ويحتمل أن تكون هذه الجملة كلاماً خبراً من الله لرسوله ﷺ، وأنّه كنّى بهذا عن النفـخ في فرجها كمـا قال تعـالى: ﴿ومريم بنت عـمـران التي أحصنت فرجهـا فنفخنا فيها من روحنا. . .﴾ الآية [الأنبياء: ٩١].

ونلاحظ أنّ هاتين الآيتين بيّنتا الصفة التي حملت مريم بها عيسى، ولا منافاة بين الآيتين في قوله: ﴿فنفخنا فيه ــ فنفخنـا فيها﴾؛ لأنّ النفـخ وصـل إلى الفرج فكـان منه حمل عيسى[1]، وقد قيل: إنّ جبريل نفـخ في جيب درع مريم فنزلت النفخة فـولجت في فرجها[2].

وهذه هي الكلمة من الله، فهناك قد قال تعالى: ﴿إنّمـا المسيـح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مـريم وروح منه﴾ [النسـاء: ١٧١] أي خلقه بـالكلمة التي أرسل بها جبريل إليها فنفـخ فيها من روحه، وتلك النفخة هي بمنـزلة لقـاح الأب للأم والجميـع مخلوق لله تعالى، وقد بيّن الله هـذه الكلمة في قـوله: ﴿إنّ مثـل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثمّ قال لـه كن فيكون﴾ [آل عمران: ٥٩] ولهـذا يقال عن عيسى أنّـه كلمة الله وروح منـه، لأنّه لم يكن لـه أب تـولّد منـه وإنّما هـو نـاشىء عن الكلمة التي قال لـه بها كن فكان، فليست الكلمـة صارت عيسى ولكن بـالكلمة صـار عيسى.

وليست كلمة (من) في قوله: ﴿وروح منه﴾ للتبعيض، كما تقولـه النصارى، بـل هي لابتداء الغايـة، فهو مخلوق من روح مخلوقـة، وأضيفت الروح إلى الله على وجـه التشـريف كما أضيفت النـاقة والبيت إلى الله ﴿هـذه ناقـة الله ــ طهّر بيتي﴾ وكقـولـه: ﴿وسخّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾ أي من خلقه ومن عنده. . .

---

(١) انـظر: تفسير القـرآن العظيم لابن كثير ٣/١١٤ ــ ١١٥؛ أضواء البيـان للشنقيـطي ٤/٢٣٧ ــ ٢٤٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٣٩٤.

ثمّ إنَّ مجيء جبريل ــ عليه السلام ــ إليها شمل النفخ فيها وتبشيرها بمنزلة من سيجيء منها:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ . . . وَيُعَلِّمُهُ(١) ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ . . .﴾ [آل عمران: ٤٥ ــ ٤٨].

فهذه الآيات الكريمة حوت عدداً ممّا يكون عليه عيسى ــ عليه السلام ــ من صفات عظيمة.

أوّلها ــ وجيهاً في الدنيا والآخرة: أي له المكانة الرفيعة والمنزلة العالية عند الله وعند الناس.. في الدنيا بما يوحيه الله إليه من الشريعة، وبما ينزل عليه من الكتاب، وغير ذلك ممّا منحه الله به، وفي الآخرة بما يأذن الله له من الشفاعة ويقبلها منه(٢).

وثانياً ــ يكلّم الناس في مهده وكهولته:

أمّا كلامه في المهد ــ وهو مضجع الصبيّ في رضاعه ــ فإنّه كلّمهم حين برّأ أمّه فقال: ﴿إنّي عبد الله . . .﴾ الآية.

وأمّا كلامه في الكهولة(٣) ــ قيل: الكهولة في الأربعين وقيل: ثلاث وثلاثين ــ فإنّه يكلّمهم بالنبوّة والرسالة(٤).

ووجّه الأهميّة في هذه الصفة أنّ كلامه في المهد فيه آيات وبراهين على صدقه ونبوّته وبراءة أمّه، وكلامه في كهولته فيه نفعه العظيم للخلق وكونه واسطة بينهم، وبين

---

(١) قرأ عاصم ونافع: (يعلّمه) بالياء، وقرأ الباقون: (نعلّمه) بالنون. (انظر: حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٦٣).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٥٨٩ ــ ٥٩١.

(٣) الكهل في اللغة: ما اجتمع قوّته وكمل شبابه، وهو مأخوذ من قول العرب: اكتهل النبات إذا قوي (التفسير الكبير للفخر الرازي: ٥١/٨).

(٤) انظر: تفسير القرطبي ٤/٨٨ ــ ٩٢.

ربّهم في وحيه وتبليـغ دينه وشرعه[1].

وثالثها ـ تعليمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولاً إلى بني إسرائيل:

وهذه أمور أربعة معطوف بعضهـا على بعض بواو العـطف، والمراد من الكتـاب تعليم الخط والكتـابة، ثمّ المـراد بالحكمـة تعليم العلوم وتهذيب الأخـلاق؛ لأنّ كمال الإنسـان في أن يعرف الحقّ لـذاته والخيـر لأجل العمـل بـه ومجمـوعهـا هـو المسمّى بالحكمة، ثمّ بعد أن صار عالماً بالخط والكتابة ومحيطاً بـالعلوم العقلية والشـرعيّة علّم التـوراة، وإنّما أخّـر تعليم التوراة عن تعليم الخط والحكمـة؛ لأنّ التـوراة كتـاب إلهيّ وفيه أسرار عظيمة، والإنسان ما لم يتعلّم العلوم الكثيرة لا يمكنه أن يخوض في البحث على أسـرار الكتب الإلّهية. ثمّ قـال في المرتبـة الرابعـة: الإنجيـل، وإنّمـا أخّـره عن التـوراة لأنّ من تعلّم الخط ثمّ تعلّم علوم الحقّ ثمّ أحاط بـأسرار الكتـاب السابق فقـد عظمت درجته في العلم، فإذا أنزل الله عليـه بعد ذلـك كتابـاً آخراً وأوقفـه على أسراره فذلك هو الغاية القصوى والمرتبة العليـا في العلم والفهم، والإحاطـة بالأسـرار العقلية والشرعيّة والاطلاع على الحكم العلوية والسفلية[2].

٢ ـ حمل مريم بعيسى عليه السلام:

وبعد أن نفـخ جبريـل ـ عليه السـلام ـ في مريم، وحملت بـإذن الله ثمّ ظهرت علامات حملها؛ ضاقت ذرعاً ولم تدر ماذا تقول للناس، فإنّها تعلم أنّهم لن يصدّقوها فيما ستخبـرهم بـه من أمرهـا الذي قدّره الله وقضاه؛ فذهبت بعيداً عنهم لئلاّ تراهم ويرونها: ﴿فحملتـه فانتبـذت بـه مكانـاً قصيّاً﴾.

واختلف المفسّرون في مدة حملها بعيسى، فالجمهور على أنّها حملت بـه تسعة أشهر.

وروي عن عكرمة: ثمانية أشهر.

وروي عن ابن عبّاس أنّه قال: لم يكن إلاّ أن حملت بـه فوضعت.

---

(١) تفسير الشيـخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ١/٣٨٢.

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ٨/٥٤.

وقد ردّ على كلام ابن عبّاس ـ إن صحّ هذا عنه ـ : وكأنّ هذا القول مأخوذ من قوله تعالى: ﴿فحملته فانتبذت... فأجاءها المخاض...﴾ الآية للفاء التعقيبية. ولكن الفاء وإن كانت للتعقيب فكل شيء بحسبه، فهذه الفاء للتعقيب بحسبها، وهي كما في سورة «المؤمنون» ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثمّ جعلناه نطفةً في قرار مكين. ثمّ خلقنا النطفة علقة...﴾ الآية [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤] وقد ثبت في الصحيحين أنّ بين كلّ صفتين أربعين يوماً[١].

وأقول ـ أيضاً ـ من جهة أخرى: إنّه لا يترتّب على كمال قدرة الله أن تضع بعد الحمل مباشرةً؛ فمظهر القدرة والإعجاز هو في أنّها حملت به من غير أب، لا أنّها تلده بعد حمله مباشرةً. ولو كان ذلك ـ أيضاً ـ لما كان لذهابها بعيداً عن قومها فائدةً؛ إذ أنّها هربت لئلّا توجّه إليها الاتهامات، كما أنّ ظهور علامات الحمل هو ممّا يحتاج إلى فترة ـ كما ذكرنا ـ فهل هذا ممّا يكون في ساعته. فالصحيح ـ والله قادر على كلّ شيء ـ أنّها حملت به كما تحمل النساء بأولادهنّ.

٣ ـ ولادة مريم بعيسى عليه السلام:

وتمّت مدّة الحمل، وجاءها الطلق ـ وهو ألم الولادة ـ ، فألجأها واضطرّها من شدّته إلى أن تمسك بجذع نخلة في المكان الذي تنحّت فيه ـ الجمهور على أنّ هذا المكان هو بيت لحم ـ وذلك قوله: ﴿فأجاءها المخاض[٢] إلى جذع النخلة﴾. وحين ذلك تذكّرت ما سيلحقها من اتّهامات قومها لها بسبب ولادتها لهذا الولد الذي سيخرج منها؛ وهي العابدة الناسكة، وما سيقع الناس فيه من المعصية والفتنة بسبب كلامهم عليها، ولذلك ﴿قالت: يا ليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسيّاً﴾، فهي بكلامها ـ هذا ـ تتمنّى لو أنّها ماتت، أو أنّها لم تخلق ولم تك شيئاً يذكر. (نسياً) شيئاً تافهاً شأنه أن ينسى ولا يعتدّ به أصلاً. (منسيّاً) لا يخطر ببال أحد من الناس[٣].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/١١٥ ـ ١١٧.

(٢) المخاض: المخض هو الحركة الشديدة، ومنه: مخضت المرأة إذا تحرّك الولد في بطنها للخروج (تفسير أبي السعود ٥/٢٦١).

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/١١٥ ـ ١١٧؛ تفسير أبي السعود ٥/٢٦١ ـ ٢٦٢؛ أضواء البيان للشنقيطي ٤/٢٤٠ ـ ٢٤٤.

وفي هذه اللحظات العصيبة الشديدة على مريم يطمئنها الله على لسان ولدها، ويريها معجزته التي تزيد في اطمئنانها وتذهب من روعها:

﴿فناداها من تحتها ألاّ تحزني قد جعل ربّك تحتك سريّا. وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيّاً. فكلي واشربي وقرّي عيناً فإمّا ترينّ من البشر أحداً فقولي إنّي نذرت للرحمن صوماً فلن أكلّم اليوم إنسيّاً﴾.

ويناديها من؟! ابنها الذي وضعته في توّها ولحظتها هذه!! ، نعم، إنّها قدرة الله التي أنطقت الحجر والشجر، ولا يعجزه شيء سبحانه.

وإنّه ليناديها ابنها الذي هو سبب قلقها وخوفها، فيناديها مطمئناً لها بأنّ الله قد أجرى من تحتها نهراً لكي تشرب منه وتروي ظمأها، وأمرها ـ أيضاً ـ أن تحرّك جذع النخلة إلى جهتها وتجذبه إليها فيسقط بذلك الرطب المثمر الذي لم يجفّ ولم ييبس وهو مهيّؤ لمن يجتنيه يأخذه فيأكله، وقيل: كان الوقت شتاء ولم يكن النخل في إبان ثمره، وهذه كذلك معجزة لها أخرى.

ومن ثمّ امتنّ الله عليها بأن جعل عندها طعاماً وشراباً، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وهو صاحب الفضل العظيم سبحانه.

وقد قيل: (إنَّ النهر كان يابساً لا ماء فيه وكذا النخل، فالنهر جاءه الماء والنخل اخضرّ بعد يبسه وأثمر)[1].

أقول: والذي أميل إليه ـ والله أعلم ـ أنّ النخلة كانت خضراء وليست يابسة، ولكن ـ كما ذكرت ـ كانت في غير موعد ثمرها فأثمرت، وكذا النهر لم يكن جارياً فأجراه الله وكثّر ماءه، وهذا كاف في الإعجاز ولا ضرورة إلى القول بغير هذا، فليس هناك ما يفيده، وهل يقال للنخلة نخلة إن كانت يابسة، وهل يقال للنهر نهر إن كان لا أثر له.. ولو كان كذلك لأوشك أن ينصّ عليه القرآن.

وهكذا.. بالطعام والشراب طمأنها من جهة السلامة من ألم الولادة، ولكن بقي ما هو أهمّ بالنسبة لها وهو أن تطمئنّ من جهة قالة الناس واتهامهم لها، فطمأنها من هذه

(١) انظر: تفسير أبي السعود ٥/٢٦٢.

الناحية أيضاً وأمرها قائلاً: ﴿فإمّا ترينّ من البشر أحداً فقولي إنِّي نذرت للرحمن صوماً فلن أكلّم اليوم إنسياً﴾ إي أنّه إذا رأت أحداً من الناس فلتقل لهم ــ والقول هنا على وجه الإشارة لئلّا ينافي: ﴿فلن أكلّم اليوم إنسيّاً﴾، قال الفرّاء: والعرب تسمّي كلّ ما وصل إلى الإنسان كلاماً بأيّ طريق وصل ما لم يؤكّد بمصدر، فإذا أكّد لم يكن إلّا حقيقة الكلام. ــ أنّها صائمة ولن تستطيع الكلام، وقد كان في شريعتهم أنّهم إذا صاموا يحرّم عليهم الطعام والكلام (نصّ على هذا السدّي وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم).

وإنّما أمرت بذلك لكراهة مجادلة السفهاء ومناقلتهم، والاكتفاء بكلام عيسى؛ إذ أنّ كلامه آية ومعجزة تدلّ على طهرها وعفافها وتنبىء عن حقيقة ولدها(١).

مسألة:

قيل أنّ الذي ناداها هو جبريل ــ عليه السلام ــ والراجح ما ذكرناه وهو المشهور وما عليه أكثر المفسّرين من أنّه عيسى. وقد ذكر الإمام الفخر الرازي عدّة وجوه تؤيّد ما ذهبنا إليه وهي كما يلي:

ــ إنَّ قوله: ﴿فناداها من تحتها﴾ بفتح الميم، وهي قراءة متواترة، وهذا القول لا يكون إلّا إذا عُلم قبله أنّ تحتها أحد، والذي علم كونه حاصلاً تحتها هو عيسىٰ فوجب حمل اللفظ عليه. وأمّا القراءة بكسر الميم فهي لا تقتضي أيضاً كون المنادي جبريل.

ــ إنَّ ذلك الموضع موضع اللوث والنظر إلى العورة، وذلك لا يليق بالملائكة.

ــ إنَّ قوله: ﴿فناداها﴾ فعل، ولا بدّ أن يكون فاعله قد تقدّم ذكره، ولقد تقدّم قبل هذه الآية ذكر جبريل وذكر عيسى؛ إلّا أنّ ذكر عيسى أقرب لقوله: ﴿فحملته فانتبذت به...﴾ الآية والضمير ههنا راجع إلى عيسى فكان حمله عليه أولى.

ــ ما قاله الحسن بن علي ــ رضي الله عنهما ــ: إنَّ عيسى لو لم يكن كلّمها لما علمت أنّه ينطق وما كانت من بعد تشير إليه بالكلام. والله أنطقه لها حين وضعت

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/١١٧ ــ ١١٨؛ تفسير أبي السعود ٥/٢٦٢ ــ ٢٦٣؛ تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ٥/١٠٠ ــ ١٠١.

تطبيباً لقلبها وإزالة للوحشة عنها حتى تشاهد في أول الأمر ما بشّرها بـه جبريل ــ عليـه السلام ــ من علوّ شأنه[1].

٤ ــ موقف قوم مريم منها:

وبعـد أن اطمأنّت مريم ذهبت إلى قومهـا تحمل ابنهـا، وحين رأوها تحمله وهي لم تتـزوّج بعد؛ أنكـروا عليها ذلـك، وتعجّبـوا من فعلتهـا؛ وهي في نـظرهم العـابـدة الطاهرة العفيفة. وحُقّ لهم أن يستغربوا ذلك قبل أن تتضـح لهم حقيقة الأمر.

ويصـوّر لنا القـرآن هذا المـوقف في الآيتين التاليتين: ﴿فـأتت بـه قومهـا تحمله قالوا يا مريم لقـد جئت شيئاً فـريّاً. يـا أخت هارون مـا كان أبـوك امرأ سـوء وما كـانت أمك بغيّاً﴾.

فهم اتّهموها بأنّها جاءت بأمر عظيم، كالآتي بالشيء يفتريه، ويعنـون ــ أيضاً ــ بقولهم: فريّاً الزنا؛ لأنّ ولد الزنا كالشيء المفترى المختلق، إذ الـزانية تـدّعي إلحاقـه بمن ليس أبـاه، ويدلّ عليـه قولـه تعالى: ﴿. . . ولا يـأتين ببهتان يفتـرينه بين أيـديهنّ وأرجلهنّ. . .﴾ الآية [الممتحنة: ١٢].

وقال أبو عبيـدة: الفري: العجيب النـادر. وقال الأخفش: فريـاً عجيباً، والفـري القطـع، كأنّه ممّا يخرق العادة أو يقطـع القول بكونه عجيباً نادراً.

وقـد قال الله تعـالى دالاًّ على رميهم لها بـالـزنى ﴿. . . وبكفـرهم وقـولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾ [النساء: ١٥٦][2].

وزادوا في تأنيبها وتوبيخها بقولهم: ﴿يا أخت هارون ما كان أبوك امـرأ سوء ومـا كانت أمّك بغيّاً﴾.

وفي معنى قـولهم لهــا: يـا أخت هـارون قـال البعض: قيــل لهـا: ﴿يــا أخت هــارون﴾ أي أخي مـوسى، وكــانت من نسله، كمـا يقــال للتميمي: يــا أخــا تميم وللمضـري: يا أخـا مضر. وقـال بعضهم أيضاً: إنّهم شبّهـوها بـرجل فـاسق كان فيهم

---

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٠٤/٢١.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ٩٩/١١؛ أضواء البيان للشنقيطي ٢٧٠/٤.

اسمه هارون. وقيل: إنّها نسبت إلى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون؛ إذ كانت تتأسّى به في العبادة والزهادة.

أقول: وهذا الرأي الأخير هو الراجح؛ لما ورد في الصحيح عن المغيرة بن شعبة، قال: لمّا قدمت نجران سألوني فقالوا: إنّكم تقرءون يا أخت هارون؛ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلمّا قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك فقال: «إنّهم كانوا يسمّون بأنبيائهم والصالحين قبلهم»[1]. وقد رجّح هذا الرأي عمدة المفسّرين الإمام الطبري[2].

كما أنّ إطلاق اسم الأخ على النظير والمشابه معروف في القرآن الكريم وفي كلام العرب؛ فمن القرآن: ﴿وما نريهم من آية إلاّ هي أكبر من أختها﴾ [الزخرف: ٤٨] وكذلك ﴿إنّ المبذّرين كانوا إخوان الشياطين﴾ [الإسراء: ٢٧]، ومن كلام العرب قولهم: إخوان العزاء أي أصحاب الصبر... إلى غير ذلك[3].

وكذلك فإنّ القول بتشبيهها برجل فاسق قول بعيد؛ لأنّ الخطاب هنا في مقام بيان أصلها الطيّب وعفّتها. والله أعلم.

وقولهم: ﴿ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمّك بغيّاً﴾ تتمّة لما بدءوه معها في توبيخها وكأنّهم يقولون لها بكلامهم هذا: إنّك من بيت طاهر طيّب معروف بالصلاح والعبادة والزهادة والتقوى فكيف يصدر منك هذا الخروج على عادتك وعادة أهلك!!

٥ ــ ظهور براءة مريم على لسان عيسى:

وهي مع ما سمعته من الكلام في طهرها وعفافها؛ فإنّها لم تنطق بحرف واحد، فقد نذرت للرحمن صوماً، وأبانت لهم هذا النذر بالإشارة، ثمّ أشارت إلى ابنها الذي تحمله بأنّ عليهم أن يكلّموه هو ويخاطبوه هو!!! فظنّوا أنّها تستهزىء وتلعب بهم؛

---

(١) رواه مسلم: كتاب الآداب، باب النهي عن التكنّي بأبي القاسم وبيان ما يستحبّ من الأسماء، حديث (١١)، ٤/٨٤٦.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ١٦/٥٩.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ١٦/٥٩؛ تفسير القرطبي ١١/١٠٠؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/١١٨ ــ ١١٩؛ أضواء البيان للشنقيطي ٤/٢٧١ ــ ٢٧٣.

إذ كيف يخاطبون من هو في سنّ صغيرة لا يدرك معها الخطاب، ولا يستطيع فيها الكلام، وذلك قوله تعالى: ﴿فأشارت إليه قالوا كيف نكلّم من كان في المهد صبيّاً﴾.

ولكن يقطع الصغير بكلامه ما اعتقدوه؛ مبرّئاً أمّه من الاتهام الخطير، ومبيّناً ماهيّته وحقيقة أمره:

﴿قال إنّي عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً. وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّاً. وبرّاً بوالدتي ولم يجعلني جبّاراً شقيّاً. والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيّاً﴾.

وممّا نلاحظه ـ في هذه الآيات ـ أنّ أول أمر نطق به عيسى ـ عليه السلام ـ أن نزّه الله وبرّأه عن الولد، وأثبت لنفسه العبوديّة لله.. وإنّه لينطق بهذه المسألة التي ضلّ فيها فيما بعد النصارى بأقوالهم المختلفة المنحرفة البعيدة عن الحقيقة التي قالها عليه السلام وهو في مهده.

وبعد بيانه لهذه القضيّة الهامّة أخذ يعدّد ما سيؤول إليه أمره في مستقبله، فذكر أنّ الله حكم له بإيتائه الكتاب (الإنجيل)، ويجعله نبيّاً، كما أنّه تعالى جعله ذا بركات ومنافع في الدين والدعوة إليه وتعليمه أينما كان.. وقد أوصاه الله بالصلاة والزكاة ليؤدّيهما إذا أدركه سنّ التكليف وأمكنه الأداء ما دام حيّاً وهذا كقوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿واعبد ربّك حتى يأتيك اليقين﴾ [الحجر: ٩٩]، وإضافةً إلى هذا أوصي ببرّ والدته ولم يجعله تعالى جباراً بالاستكبار عن عبادته وطاعته وبرّه لوالدته فيشقى بذلك. وقال بعض السلف: (لا تجد أحداً عاقاً لوالديه إلّا وجدته جبّاراً شقيّاً)(١).

ثمّ يختم عيسى كلامه بقوله: ﴿والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيّاً﴾.

وهكذا يجيء في الختام ـ أيضاً ـ كما جاء في البدء.. إثبات من عيسى لعبوديته لله عزّ وجلّ، وأنّه مخلوق من خلق الله.. يُحيى ويُمات ويبعث كسائر

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ١١/١٠٣؛ تفسير ابن كثير ٣/١١٩ ـ ١٢٠؛ تفسير أبي السعود ٥/٢٦٣ ـ ٢٦٤؛ تفسير الخازن ٤/٢٤٥.

الخلائق، ولكن لـه السلامة في هذه الأحوال التي هي أشقّ ما يكون على الناس، وفي هذا تأكيد لحقيقته وماهيته بحيث لا يترك مجالاً لمفتر على الله(١).

وهكـذا، فإنَّـه بظهـور معجزة نـطق عيسى وهو في مهـده، وبيـانـه لحقيقـة أمـره وما سيؤول إليه حاله؛ ما يدلّ قـطعاً على بـراءة أمّه ممّـا نسب إليها من البغي والـزنا. . وإنَّما المدبّر هو الله.

وبعـد ختام هـذه القصّة يقـرّر الله عزّ وجـلّ بطلان مـا عليـه بعض النصـارى من نسبهم لـه ولداً وهو عيسى؛ بعد بيانـه لحقيقته، وهي الحقّ الـذي ينبغي أن يؤخذ بـه. يقول تعالى: ﴿ذلك عيسى بن مريم قول الحقّ الذي فيه يمترون. مـا كان لله أن يتّخـذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنَّما يقـول لـه كن فيكون﴾(٢). فـإنَّما هي الكلمـة وأمر الله ونفـخ جبريل من روحه سبحانه.

وبهـذا التعقيب الإلـهي ينتهي كـلامنـا حـول بيـان قصّـة مـريم مـع ابنهـا عيسى عليه السلام.

ومن ثمّ ننتقـل إلى استخـلاص العبـر والفـوائـد منهـا في المبحث القـادم. والله المستعان.

* * *

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ١٢٠.

(٢) سورة مريم: الآيات ٣٤ ــ ٣٥.

قرأ عاصم وابن عامر (قَول الحق) بنصب اللام على المصدر، وقرأ الباقون: (قولُ الحق) بالرفـع (حجة القراءات لابن زنجلة ص ٤٤٣). وقرأ ابن عامر (كن فيكونَ) بـالنصب (المرجـع السـابق ص ٤٤٤).

المبحث الثاني

العبر والفوائد

١ ـ العبر والفوائد من حال مريم قبل تلقّي النفخة:

* إنّ مريم لتعطي أعظم أنموذج لكل فتاة مؤمنة؛ في عبادتها وقوّة صلتها بالله؛ إذ أنّها جعلت حياتها كلّها لعبادة الله دونما أيّ شغل آخر ﴿يا مريم اقنتي لربّك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾. ونحن لا نقول ينبغي أن تسلك الفتيات هذا المسلك وتعطي كلّ وقتها للصلاة والركوع والسجود. لا. فلا رهبانيّة في الإسلام، ولكن عليهنّ أن لا يهملن جانب الصلة بالله عزّ وجلّ، بل لا بدّ أن يعطى هذا الجانب اهتماماً بالغاً، حتى يصلن إلى محبّة الله ويكنّ في مصافّ الصالحات القانتات مع مريم بنت عمران عليها السلام.

وأقول أيضاً: إن كان هذا حال النساء مع ضعفهنّ وعوارضهنّ فالرجال من باب الأولى أن يهتمّوا بهذا الجانب المهمّ؛ خصوصاً وأنّ قوّة الصلة بالله ممّا يهيِّىء النفس للقيام بالأمور العظائم من أمور الدين كالدعوة إليه وغير ذلك من مقتضيات هذا الدين الحنيف.

* إنّ الله قد جعل من قنوت وعبادة مريم وطهارتها مؤهّلاً لتلقّي هذا الفضل واستقبال هذا الحدث العظيم. وها هي ذي تتلقّى لأوّل مرّة التبليغ عن طريق الملائكة بالأمر الخطير... اختارها الله واصطفاها لتلقي النفخة المباشرة العلوية كما تلقّاها أول هذه الخليقة آدم عليه السلام، وعرض الله هذه الخارقة على البشرية من خلالها وعن طريقها... اصطفاها الله لأمر فريد في تاريخ البشرية؛ وذلك لما وصلت إليه من رفعة ومحبّة عند الله أثراً للقنوت والعبادة[١].

---

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ١/٣٩٥ ـ ٣٩٦.

* وفي قوله تعالى: ﴿إنّ الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين﴾ نلحظ ـ أيضاً ـ أنّ الله أشار إلى طهر مريم وذلك له مغزى عظيم. يقول سيد قطب: «وذلك لما لابس مولد عيسى من شبهات لم يتورّع اليهود أن يلصقوها بمريم الطاهرة، معتمدين على أنّ هذا الولد لا مثال له في عالم الناس فيزعموا أنّ من ورائه سراً لا يشرّف قبّحهم الله!! وهنا تظهر عظمة هذا الدين، ويتبيّن مصدره عن يقين، فها هو ذا محمد ﷺ رسول الإسلام الذي يلقى من أهل الكتاب ومنهم النصارى؛ ما يلقى من التكذيب والعنت والجدل والشبهات. ها هو ذا يحدّث عن ربّه بحقيقة مريم العظيمة، وتفضيلها على نساء العالمين. بهذا الإطلاق الذي يرفعها إلى أعلى الآفاق. وهو في معرض مناظرة مع القوم الذين يعتزّون بمريم ويتّخذون من تعظيمها مبرراً لعدم إيمانهم بمحمد وبالدين الجديد! أيّ صدق وأيّ عظمة! وأيّة دلالة على مصدر هذا الدين وصدق صاحبه الأمين»(١).

٢ ـ العبر والفوائد من مجيء جبريل إلى مريم للنفخ فيها:

* نريد أن نبيّن أوّلاً: أنّ إرسال جبريل عليه السلام إلى مريم في قوله: ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾ إنّما هو لغرض معيّن وليس إرسالاً من أجل نبوّتها، وقد بيّن جبريل ذلك بقوله: ﴿قال إنّما أنا رسول ربّك لأهب لك غلاماً زكيّاً﴾؛ فهو إنّما أرسل إليها ليهب لها هذا الغلام بالنفخ فيها كما أمره الله. وقد اتفق على أنّه لا يوحى بالنبوة لامرأة ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى﴾ [يوسف: ١٠٩].

فإرسال جبريل ليس على وجه النبوة ـ كما قلنا ـ وإنّما هو كرامة لها وإرهاصاً لنبوة عيسى عليه السلام(٢).

* ولنا ـ في هذا الموقف أيضاً ـ عبرة للفتيات فيما ينبغي أن يكون عليه حالهنّ من تقوى الله في ابتغاء الحلال والبعد عن الحرام، فإنّ مريم حين دخل عليها جبريل في أبهى صورة ـ قيل: جاءها في أبهى صورة رجل لاختبارها وسبر عفّتها ـ وهي في

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/٣٩٥ ـ ٣٩٦.

(٢) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٨/٤٢ ـ ٤٣؛ تفسير أبي السعود ٢/٣٥.

خلوتها وبعدها عن أعين الناس قالت: ﴿إنّي أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيّاً﴾ فكلامها هذا شاهد على أنّه لم يخطر ببالها شائبة ميل إليه... وإنّها لقمّة الورع والعفاف، كما أنّها ذكرت الله بعنوان الرحمانية للمبالغة في العياذ به واستجلاب آثار الرحمة الخاصّة التي هي العصمة ممّا دهمها[1].

وهكذا كانت مريم عليها السلام مثالاً يحتذى به في كلّ شيء... في العبادة والتقوى والطهر والعفاف.

* وحول النفخة من روح الله التي أمر بها جبريل ونفخها... ذلك السرّ الذي لا يعلمه أحد... سرّ الحياة يحدثنا سيد قطب عنه فيقول فيما خلاصته: ما هي هذه النفخة وكيف تنفخ في الموات فينشأ هذا السرّ اللطيف الخافي على الأفهام؟ ما هي وكيف؟ هذا هو الذي لم يخلق العقل البشري لإدراكه لأنّه ليس من شأنه. إنّ معرفة ماهية الحياة وطريق النفخة لا يجديه شيئاً في وظيفته التي خلقه الله... وظيفة الخلافة في الأرض وإنّه لن يخلق حياة من موات، فما قيمة أن يعرف طبيعة الحياة وماهية النفخة من روح الله، وكيفية اتصالها بآدم أو بأول سلم الحياة التي سارت فيه السلالة الحية؟ والله يقول إنّ النفخة من روحه في آدم هي التي جعلت له الامتياز والكرامة حتى على الملائكة، فلا بد إذن أن تكون شيئاً آخر غير مجرّد الحياة الموهوبة للدود والميكروب، وهذا ما يقودنا إلى اعتبار الإنسان جنساً نشأ نشأة ذاتية وأنّ له اعتباراً خاصّاً في نظام الكون ليس لسائر الأحياء... وقد شاء الله بعد نشأة آدم نشأة ذاتية مباشرة أن يجعل لإعادة النشأة الإنسانية طريقاً معيّناً... طريق التقاء ذكر وأنثى واجتماع بويضة وخليّة تذكير. فيتمّ الإخصاب ويتمّ الإنسال. والبويضة حيّة غير ميتة، والخلية حيّة كذلك متحرّكة. ومضى مألوف الناس على هذه القاعدة... حتى شاء الله أن يخرق هذه القاعدة المختارة في فرد من بني الإنسان فينشئه نشأة قريبة وشبيهة بالنشأة الأولى. وإن لم تكن مثلها تماماً. أنثى فقط. تتلقى النفخة التي تنشىء الحياة ابتداء فتنشأ فيها الحياة[2].

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود ٥/ ٢٦٠.

(٢) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ١/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨.

* وفي نفخ اللّه من روحه في مريم وهي بكلمة «كن» ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾، فقوله: ﴿وروح منه﴾ «من» هنا لابتداء الغاية مجازاً، لا تبعيضية؛ كما زعمت النصارى فقالوا إنّه ابن الله.

وفي هذا الشأن يروى أنّ طبيباً نصرانياً حاذقاً للرشيد ناظر علي بن الحسين الواقدي المروزي ذات يوم فقال له: إنّ في كتابكم ما يدلّ على أنّ عيسى ـ عليه السلام ـ جزء منه تعالى، وتلى هذه الآية.

فقرأ بعدها الواقدي قول الله عزّ وجلّ: ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾ [الجاثية: ١٣]، وقال: إذن يلزم أن يكون جميع تلك الأشياء جزءاً منه تعالى علواً كبيراً. فانقطع النصراني وأسلم، وفرح الرشيد فرحاً شديداً ووصل الواقدي بصلة فاخرة(١).

وقد أوضحنا هذه المسألة في بيان القصّة بما فيه الكفاية إن شاء الله.

* وفي قوله تعالى: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله يبشّرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين. ويكلّم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين... ويعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولاً إلى بني إسرائيل...﴾ [آل عمران: ٤٥ ـ ٤٨] نذكر ثلاثة أمور:

أولها ـ في سبب تسميته بالمسيح:

المسيح هو لقبه عليه السلام، وهو من الألقاب المشرّفة كالصدّيق، وأصله بالعبرية مشيحاً (بالشين) ومعناه: المبارك.

وروي أنّ معناه هو الصدّيق. قاله إبراهيم النخعي.

وقال بعض السلف: سمّي مسيحاً لكثرة سياحته. وقيل: لأنّه كان مسيح القدمين لا أخمص لهما. وقيل: لأنّه كان إذا مسح أحداً من ذوي العاهات برىء بإذن الله. وقيل: لأنّه مسح بالطهر من الذنوب. وقيل: مسحه الله أي خلقه خلقاً حسناً مباركاً، ومقابله: «مسخه» أي خلقه خلقاً قبيحاً. والله أعلم بمراده.

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود ٢/ ٢٥٩.

وعلى سبيل الفائدة قد يخطر ببال أحد لم سمّي الدجّال مسيحاً. فنقول: لأنّه ممسوح إحدى العينين وبه سمّي الأعور. وقيل: سمّي بذلك لأنّه يطوف الأرض كلّها إلّا المدينة ومكة وبيت المقدس، فعيسى يطوفها منحة، والدجّال محنة(١).

وثانيها ــ إنّ في ذكر أحوال عيسى المتباينة المختلفة ﴿يكلّم الناس في المهد وكهلاً... يعلّمه... ورسولاً...﴾ إشارة إلى أنّه بمعزل عن الألوهية(٢).

وثالثها ــ ما أورده أبو يحيى زكريا الأنصاري من أنّه ما هي المعجزة في تكليم عيسى الناس في كهولته؟ وأجاب عليه بقوله: إنّ المعجزة هي تكلّمه في الحالتين بكلام الأنبياء من غير تفاوت بين الطفولة والكهولة التي يستحكم فيها العقل وتنبأ فيها الأنبياء(٣).

* ومن البلاغة القرآنية في الآيات ما يلي:

ــ قول مريم: ﴿إنّي أعوذ بالرحمن منك «إن كنت تقيّاً»﴾ فيه: أنّ مجيء هذا التذكير بصيغة الشرط المؤذن بالشك في تقواه قصد لتهييج خشيته، وكذلك اجتلاب فعل الكون الدالّ على كون التقوى مستقرّة فيه، وهذا أبلغ وعظ وتذكير وحثّ على العمل بتقواه(٤).

ــ وقول جبريل: ﴿لأهب لك غلاماً زكياً﴾ فيه: أنّ إسناد الهبة إلى نفسه مجاز عقلي؛ لأنّه سبب الهبة(٥).

ــ وقولها: ﴿ولم يمسسني بشر﴾ فيه كناية لطيفة، فالمسّ هنا كناية عن المعاشرة الزوجية بالجماع(٦).

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ٤/٨٨ ــ ٩٢؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٣٦٣ ــ ٣٦٤؛ تفسير أبي السعود ٢/٣٧.

(٢) تفسير أبي السعود ٢/٣٧ ــ ٣٨.

(٣) انظر: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى زكريا الأنصاري ص ٨٨ ــ ٨٩.

(٤) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٦/٨١.

(٥) المرجع السابق ١٦/٨١.

(٦) صفوة التفاسير للصابوني ٢/٢١٧.

ـ ثم إنّ قولها: ﴿ولم يك بغيّاً﴾ فيه ـ أيضاً ـ كناية عن التنزّه عن الوصم بالبغاء بقاعدة الاستصحاب. والمعنى: ما كنت بغيّاً فيما مضى أفأعد بغيّاً فيما يستقبل(١).

٣ ـ العبر والفوائد من بقيّة القصّة:

* إنّ في قوله تعالى على لسان مريم عند مخاضها: ﴿يا ليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً﴾ دليل على جواز تمنّي الموت عند الفتنة، فإنّها قد خافت أن يفتن الناس بسببها في كلامهم عليها واتهامهم إيّاها بالزنا فيصيبهم ذنب عظيم(٢).

* إنّ تكلّم عيسى في مهده إعجاز عظيم. وقد جاء في الصحيح أنّه قد تكلّم في المهد غيره دلالة على قدرته سبحانه وتعالى التي أنطقت الحجر والشجر؛ فروى أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنّ النبي ﷺ قال: «لم يتكلّم في المهد إلاّ ثلاثة: عيسى، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جرَيْج كان يصلي جاءته أمّه فدعته. فقال: أجيبها أو أصلي فقالت: اللهمّ لا تمته حتى تريه وجوه الموسات. وكان جريج في صومعته فتعرّضت له امرأة وكلّمته فأبى، فأتت راعياً فأمكنته من نفسها فولدت غلاماً. فقالت من جُرَيْج، فأتوه فكسروا صومعته وأنزلوه وسبّوه، فتوضأ وصلى ثمّ أتى الغلام فقال: من أبوك يا غلام. قال: الراعي. قالوا: نبني صومعتك من ذهب. قال: لا إلاّ من طين. وكانت امرأة ترضع ابناً لها من بني إسرائيل فمرّ بها رجل راكب ذو شارة، فقالت: اللهمّ اجعل ابني مثله، فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال: اللهمّ لا تجعلني مثله، ثمّ أقبل على ثدي أمّه يمصّه ـ قال أبو هريرة: كأنّي أنظر إلى النبي ﷺ يمصّ إصبعه ـ ثمّ مُرّ بأمة فقالت: اللهمّ لا تجعل ابني مثل هذه، فترك ثديها فقال: اللهمّ اجعلني مثلها. فقالت: لم ذاك؟ فقال: الراكب جبّار من الجبابرة وهذه الأمة يقولون: سرقت زنيت ولم تفعل»(٣).

---

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٦/٨٢.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ١١/٩٨.

(٣) رواه البخاري: كتاب الأنبياء، حديث (٢٣٣)، ٤/٣٢٠.
ورواه مسلم: كتاب البرّ، حديث (٦)، ٥/١١٤ ـ ١١٦.

* وحول قوله تعالى: ﴿وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً﴾ نذكر ما يلي:

- يقول القرطبي المفسّر رحمه الله: استدل بعض الناس من هذه الآية على أنّ الرزق وإن كان محتوماً فإن الله تعالى قد وكل ابن آدم إلى سعي ما فيه مناله؟ لأنّه أمر مريم بهزّ النخلة لترى آية، وكانت الآية تكون بألّا تهزّ، والأمر بتكليف الكسب في الرزق سنّة الله تعالى في عباده، وذلك لا يقدح في التوكّل[1].

وفي هذا المقام نذكر لأحد الشعراء قوله:

ألم تر أنّ الله قال لمريم وهزّي إليك الجذع يسّاقط الرطب
ولو شاء الله أن تجنيه من غير هزّها جنته ولكن كلّ شيء له سبب

- وفي أمرها بهزّ جذع النخلة لتناول الرطب يقول الربيع بن خثيم: ما للنفساء عندي خير من الرطب لهذه الآية، ولو علم الله شيئاً هو أفضل للنفساء من الرطب لأطعمه مريم. ولذلك قالوا: التمر عادة للنفساء من ذلك الوقت، وكذلك التحنيك به للمولود. وقيل: إذا تعسّرت ولادة المرأة لم يكن لها خير من الرطب[2].

وقد أثبتت البحوث العلمية التي أجريت على الرطب أنّه يحتوي على مادّة قابضة للرحم، تقوّي عمل عضلات الرحم في الأشهر الأخيرة من الحمل، ممّا يساعد على الولادة من جهة، كما تقلل كميّة النزيف الحاصل بعد الولادة من جهة أخرى.

كما تشكّل السكّريات البسيطة سهلة الهضم الموجودة في الرطب المصدر الأساسي للطاقة اللازمة خلال عملية الولادة. فسبحان الله العظيم!

* ويذكر الرازي لطيفة حول قوله تعالى: ﴿فكلي واشربي وقرّي عيناً﴾ فيقول: «قدّم الأكل على الشرب لأنّ احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشدّ من احتياجها إلى شرب الماء؛ لكثرة ما سال منها من الدماء»[3].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ١١/٩٥.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ١١/٩٦.

(٣) التفسير الكبير للفخر الرازي: ٢١/٢٠٦.

* وإنّ في ظهور براءة مريم على لسان ابنها لمظهر من مظاهر تأييد الله لها وكرامتها لمنزلتها الرفيعة؛ بأن قال: ﴿إنّي عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً. وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيّاً. والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيّاً﴾.

- وقال أنس بن مالك - رضي الله عنه - في هذه الآيات: «ما أشدّها على أهل القدر! أخبر عيسى - عليه السلام - بما قضي من أمره، وبما هو كائن إلى أن يموت».

- وقد روي عن ابن زيد وغيره: إنّهم لمّا سمعوا كلام عيسى أذعنوا وقالوا: إنّ هذا لأمر عظيم.

- كما أنّه روي أنّ عيسى إنّما تكلّم في طفولته بهذه الكلمات؛ ثمّ عاد إلى حالة الأطفال حتى مشى على عادة البشر إلى أن بلغ مبلغ الصبيان، فكان نطقه إظهاراً لبراءة أمّه؛ لا أنّه كان ممّن يعقل في تلك الحالة، وهو كما يُنطق الله الجوارح يوم القيامة.

- وقد دلّت هذه الآيات على أنّ الصلاة والزكاة وبرّ الوالدين كان واجباً على الأمم السابقة والقرون الماضية، فهو ممّا يثبت حكمه ولم ينسخ في شريعة أمره مع اختلاف صوره[1].

وهذا ممّا يدلّ على أهميّة هذه الأمور؛ إذ أنّ الصلاة تمثّل جانب حسن الصلة بالله وتأتي في الدرجة الأولى، والزكاة تأتي في جانب حسن الصلة بالآخرين، وبرّ الوالدين يمثّل جانب حسن الصلة بهما؛ وأفردا بالذكر دون غيرهما لعظم حقّهما على الإنسان.

* ومن البلاغة القرآنية في الآيات ما يلي:

- قوله تعالى: ﴿قرّي عيناً﴾ فيه الكناية عن السرور بطريق المضادّة، وفي كونه قرّة عين كناية عن ضمان سلامته ونباهة شأنه[2].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ١١/١٠٣ - ١٠٤.

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٦/٨٩.

ـ السجع في نهايات الآيات: (سريّاً، بغيّاً، صبيّاً، نبياً) وهو من المحسنات البديعية[1].

وبهذه العبر والفوائد حول قصّة مريم مع ابنها عيسى ـ عليهما السلام ـ نكون قد انتهينا من هذا الباب (مريم مع أمّها وابنها عيسى عليهم السلام).

والحمد لله ربّ العالمين.

* * *

(١) صفوة التفاسير للصابوني ٢/٢١٧.

الباب العاشر

مَوَاقِفُ لِعَدَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم

وفيه تمهيد وثلاثة فصول:

الفصل الأول: موقف لأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

الفصل الثاني: موقف لسعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه.

الفصل الثالث: مواقف لعدد من الصحابة رضي الله عنهم.

تمهيد

في هذا الباب سنتناول بالذكر بعض الآيات التي لها صلة ببحثنا؛ وكان سبب نزولها قصصاً بين الآباء والأبناء، ممّا يوضّح لنا جوانب مهمّة ـ من هذه العلاقة ـ تكون متمّمة لبحثنا.

وهذه المواقف التي ندرسها من خلال الآيات القرآنية هي لصحابة رسول الله ﷺ خير قدوة لنا بعده عليه الصلاة والسلام، وهم ـ رضي الله عنهم ـ قد اقتبسوا من منهجه في كلّ شيء وكانوا خير من اقتدى به.

فإذاً مواقفهم التي سندرسها في هذا الباب إنّما هي بمثابة أنوار لنا في سيرنا في هذا الأمر العظيم نهتدي بها ونترسّم خطاها.

وسيحتوي بابنا هذا على ثلاثة فصول:

أمّا الفصل الأول فهو: موقف لأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وفيه تقديم وثلاثة مباحث:

الأول: ذكر سبب النزول.

الثاني: بيان الآيتين الكريمتين.

الثالث: العبر والفوائد.

وأما الفصل الثاني فهو: موقف لسعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه.

وفيه تقديم وثلاثة مباحث:

الأول: ذكر سبب النزول.

الثاني: بيان الآيتين الكريمتين.

الثالث: العبر والفوائد.

والفصل الثالث والأخير: مواقف لعدد من الصحابة رضي الله عنهم من خلال قوله تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله...﴾ الآية [المجادلة: ٢٢].

ويشتمل هذا الفصل على تقديم وثلاثة مباحث أيضاً:

الأول: ذكر سبب النزول.

الثاني: بيان الآية.

الثالث: العبر والفوائد.

ونسأل الله عزّ وجلّ التوفيق والسداد.

* * *

الفصل الأول

موقف أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه

تقديم:

قد تكررت الوصايا ببرّ الوالدين في القرآن الكريم في مواضع عديدة، وكذلك حثّ النبي ﷺ عليه في أحاديثه الشريفة، فكان برّ الوالدين أجلى مظهراً في هذه الأمّة المحمدية منه في غيرها، وكان من بركات أهلها بحيث لم يبلغ برّ الوالدين مبلغاً في أمّة مبلغه في المسلمين.

ومن الآيات القرآنية التي جاءت بالوصية ببرّ الوالدين قوله تعالى:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا[1] حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا[2] وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ[3]

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي: (إحساناً) بالألف، وقرأ الباقون: (حُسْناً). (انظر: حجّة القراءات لابن زنجلة ص ٦٦٣).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: (كَرْهاً ووضعته كَرْهاً) بفتح الكاف، وقرأ الباقون بالضمّ (كُرْهاً). (انظر: حجّة القراءات لابن زنجلة ص ٦٦٣ ـ ٦٦٤).

(٣) قرأ الكسائي وحمزة وحفص: (نتقبل) بالنون، (أحسنَ) بالنصب، (ونتجاوز) بالنون. وقرأ الباقون: (يتقبّل) بالياء، (أحسنُ) بالرفع، (ويتجاوز) بالياء. (انظر: حجة القراءات لابن زنجلة ص ٦٦٤).

﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦﴾[1].

وهاتان الآيتان كان لهما سبب نزول يعبّر عن حالة من البرّ بالوالدين عظيمة. وسنبيّن هذا السبب ومن ثمّ نوضّح ما أشارت إليه الآيتان وأخيراً ــ كالمعتاد ــ نستخرج العبر والفوائد.

والله المستعان.

* * *

(1) سورة الأحقاف: الآيتان ١٥ ــ ١٦.

المبحث الأول

ذكر سبب النزول

إنّ من المعلوم أنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهاتان الآيتان تشيران إلى وجوب برّ الوالدين فهما على عمومهما؛ ولكن هذا لا يمنع أن يذكر السبب الخاص الذي نزلتا فيه، فهو لا يتعارض مع العموم، بل قد يضيف معنى وعبرة يستفاد بهما من الآيات بصورة أفضل مع العموم، وهذه من فوائد معرفة أسباب النزول؛ إذ بها يكون أثر الآيات أعمق وأوقع في النفوس لما تجده من القدوات أمامها متمثلة في حقيقتها.

ولذلك نحن نذكر من نزلت فيه هاتين الآيتين لا لحصرهما فيه ـ كما أشرنا ـ بل هما تنطبقان على الكلّ وتشيران إلى ما ينبغي أن يكون عليه حال الأبناء مع آبائهم.

فقوله: ﴿حتى إذا بلغ أشدّه وبلغ أربعين سنة. . .﴾ الآية يقول ابن عباس في رواية عطاء: «أنزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وذلك أنه صحب رسول الله ﷺ وهو ابن ثماني عشرة سنة، ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة، وهم يريدون الشام في التجارة، فنزلوا منزلاً فيه سدرة، فقعد رسول الله ﷺ في ظلّها، ومضى أبو بكر إلى راهب هناك يسأله عن الدين، فقال له: من الرجل الذي في ظلّ السدرة؟ فقال: ذاك محمد بن عبد الله بن عبد المطلب؛ قال: هذا والله نبيّ، وما استظلّ تحتها أحد بعد عيسى بن مريم إلّا محمد نبيّ الله. فوقع في قلب أبي بكر اليقين والتصديق، فكان لا يفارق رسول الله ﷺ في أسفاره وحضوره. فلمّا نبّيء رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين سنة، وأبو بكر ابن ثمان وثلاثين سنة أسلم وصدّق رسول الله ﷺ، فلما بلغ أربعين سنة، قال: ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي

أنعمت علي . . . » الآية[1].

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: في أبي بكر أسلم أبواه جميعاً ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أن أسلم أبواه غيره، وأوصاه الله بهما ولزم ذلك من بعده.

وفي قوله: ﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾ قال ابن عباس: أجابه الله تعالى فأعتق تسعة من المؤمنين يعذّبون في الله منهم بلال، ولم يرد شيئاً من الخير إلاّ أعانه الله عليه.

وقوله: ﴿وأصلح لي في ذرّيتي﴾ أجابه الله عليه فلم يكن له ولد إلاّ آمن، فاجتمع لأبي بكر إسلام أبويه: أبي قحافة عثمان بن عمرو. وأمّه أمّ الخير بنت صخر بن عمر، وابنه عبد الرحمن وابن عبد الرحمن أبي عتيق محمد. فهؤلاء أربعة: أبو بكر وأبوه وأمّه وابنه وابن ابنه محمد كلهم أدركوا النبي ﷺ وأسلموا ولم يجتمع ذلك لأحد من الصحابة غير أبي بكر[2].

* * *

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٤٠١ ـ ٤٠٢.

(٢) انظر: تفسير الخازن والبغوي عليه ٦/١٥٩ ـ ١٦٠؛ الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٧/٤٤٣؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨/١٤ ـ ١٩؛ جامع النقول في أسباب النزول لابن خليفة عليوي ٢/٢٩١ ـ ٢٩٢.

المبحث الثاني

بيان الآيتين الكريمتين

أوصى الله عزّ وجلّ الإنسان وأمره بالإحسان إلى الوالدين والحنوّ عليهما وبـرّهما في حياتهما؛ وبعد مماتهما بالـدعاء لهمـا وإيصال رحمهمـا. ثمّ خصّ الله الأمّ بالـذكر لعظم حقّها مبيّناً ما تلاقيه من الشدائد فهي التي قاست بسببه في حال حمله مشقة وتعباً من وحم وغثيـان وثقل وكـرب إلى غير ذلـك ممّا تنـال الحوامـل من التعب والمشقّـة، وكذلك وضعته في وقت مولده بمشقّة أيضاً من الطلق وآلامه وشدّته.

ثمّ وضّـح الله أنّ مدّة حمله وفطامه شرب اللبن ثلاثون شهراً.

وبعـد ذلك وصف الله تعـالى الحالـة التي ينبغي أن يكـون عليهـا الإنسـان حين بلوغه الأشُدّ وهو سنّ الثلاثة والثلاثين وحين بلوغـه الأربعين عامـاً، وهي حالـة الإنسان الذي هداه الله لرشده وعرّفه حقّه عليه فيما ألزمه من برّ الوالدين، فيقـول: ربّ ألهمني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ في تعـريفك إيّـاي توحيـدك، وهدايتـك لي للإقـرار بذلك والعمل بطاعتـك، وعلى والديّ من قبلي وغيـر ذلك من نعمـك علينا. ـ أصـل أوزعني: من وزعت الرجل على كذا إذا دفعته عليه ـ وهو مع شكره هذا يدعو ربّه بـأن ييسّـر لـه عمل الصـالحـات، وأن يصلـح لـه ذريّتـه ﴿وأصلـح لي في ذرّيتي﴾ ونـزّلت الذريّة منزلة الظرف ممّا يفيد تمكّن الإصلاح من الذريّة وتغلغله فيهم.

ثمّ ما ينسى هذا الإنسان السويّ مع شكره ودعائه أن يقرن ذلك بـالتوبـة إلى الله عزّ وجلّ والإنابة إليه وحسن الرجعة. . .

وبعد أن ذكر الله صفات هذه الفئة السويّة من الناس بيّن مـا أعدّه لهم من عـظيم الأجـر والثواب عنـده فقال: ﴿أولئـك الذين تتقبّـل عنهم أحسن ما عملوا ونتجـاوز عن

سيّئاتهم في أصحاب الجنّة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾. فهؤلاء هم الذين يتقبّل اللّـه عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيّئاتهم فيغفر لهم الكثير من الزلل ويتقبّل منهم اليسير من العمل ويجعلهم في جملة أصحاب الجنّة. وهـذا هو حكمهم عنـد الله كما وعد الله من تاب إليه وأناب[1].

* * *

(١) انـظر: تفسير ابن جـريـر الـطبـري ٢٦/١١ ـ ١٢؛ تفسيـر القـرآن العـظيم لابن كثيـر ١٥٦/٤ ـ ١٥٨.

المبحث الثالث

العبر والفوائد

* يقول الشهيد سيد قطب ــ رحمه الله ــ حول الإيصاء بالوالدين في هذا المقام: «هذا الشوط يسير مع الفطرة في استقامتها وفي انحرافها، وفيما تنتهي إليه حين تستقيم، وما تنتهي إليه حين تنحرف.

ويبدأ بالوصية بالوالدين وكثيراً ما ترد هذه الوصية لاحقة للكلام عن العقيدة في الله أو مصاحبة لهذا الحديث. ذلك أنّ وشيجة الأبوّة والبنوّة هي أول وشيجة بعد وشيجة الإيمان في القوّة والأهميّة وأولاها بالرعاية والتشريف. وفي هذا الاقتران دلالتان:

أولاهما: هذه.

والثانية: أنّ آصرة الإيمان هي الأولى وهي المقدّمة، ثمّ تليها آصرة الدم في أوثق صورها.

﴿ووصينا الإنسان بوالديه﴾ فهي وصيّة لجنس الإنسان كلّه، قائمة على أساس إنسانيّته، بدون حاجة إلى أيّة صفة أخرى وراء كونه إنساناً. وهي وصيّة بالإحسان مطلقة من كلّ شرط ومن كلّ قيد، فصفة الوالدية تقتضي هذا الإحسان بذاتها بدون حاجة إلى أية صفة أخرى كذلك.

وهي وصية صادرة من خالق الإنسان، وربّما كانت خاصّة بهذا الجنس أيضاً. فما نعرف في عالم الطير أو الحيوان أو الحشرات وما إليها أنّ صغارها مكلّفة برعاية كبارها.

والمشاهد الملحوظ هو فقط تكليف فطرة هذه الخلائق أن ترعى كبارها صغارها في بعض الأجناس. فهي وصية ربّما كانت خاصّة بجنس الإنسان.

وتتكـرّر في القرآن الكـريم وفي حديث رسـول الله ﷺ الـوصيـة بـالإحسـان إلى الوالدين، ولا ترد وصية الـوالدين بـالأولاد إلا نادرة، ولمنـاسبة حـالة معيّنـة. وذلك أنّ الفطرة وحدها تتكفّل برعاية الوالدين للأولاد، رعاية تلقائية مندفعة بذاتها لا تحتـاج إلى مثير. وبالتضحية النبيلة الكاملة العجيبة التي كثيراً ما تصل إلى حـدّ الموت فضـلاً على الألم بدون تردد، ودون انتظار عوض، ودون منّ ولا رغبة حتى في الشكران! أمّا الجيل الناشيء فقلّما يتلفّت إلى الخلف... قلّما يتلفّت إلى الجيل المضحّي الـواهب الفاني لأنّه بدوره مندفـع إلى الأمام، يطلب جيلاً ناشئاً منه يضحّي لـه بدوره ويـرعاه! وهكـذا تمضي الحياة»[1].

* إنّ تخصيص الأمّ بالذكر بعد الوصيّة العامّة بالوالدين يدلّ على عظم حقّها.

وفي هذا الشأن يذكر أبو حيّان لطيفة فيقـول: «ذكر تعـالى الأمّ في ثلاث مـراتب في قوله (بوالديه) وحمله وإرضاعـه المعبّر عنـه بالفصـال، وذكر الـوالد في واحـدة في قوله: (بوالديه)؛ فناسب ما قال الرسول ﷺ من جعل ثلاثـة أرباع لـلأمّ والربـع لـلأب في قوله للرجل: «أمّك ثمّ أمّـك ثمّ أمّك ثمّ أبـوك، في سؤاله عن أحقّ النـاس بحسن الصحبة»[2].

* وقد دلّ على عظم حقّ الأمّ على أولادهـا ما تـواجهه من المشـاقّ في رحلة وجود كلّ منهم في حمله ثمّ وضعه ومن ثمّ إرضاعه.

ويصف لنا سيد قـطب ــ رحمه الله ــ هـذه المشاقّ فيقـول: «ويُصوّر القـرآن هنا تلك التضحية النبيلة الكريمة الواهبة التي تتقدّم بها الأمومة التي لا يجزيها أبداً إحسـان من الأولاد مهمـا أحسنوا القيـام بوصيّـة الله في الوالـدين. ﴿حملته أمّـه كرهـاً ووضعته كرهاً﴾ وتركيب الألفاظ وجرسها يكـاد يجسّم العناء والجهـد والضنى والكلال ﴿حملتـه أمّه كرهاً ووضعته كرهاً﴾ لكأنّها آهة مجهد مكروب ينوء بعبء ويتنفّس بجهـد، ويلهث بالأنفاس! إنّها صورة الحمل وبخاصّة في أواخر أيّـامه، وصورة الوضـع وطلقه وآلامه. البويضة بمجرّد تلقيحها بـالخليّة المنـويّة تسعى لـلالتصاق بجـدار الرحم. وهي مـزوّدة

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٦/٣٢٦١.

(٢) تفسير البحر المحيط لأبـي حيّان ٨/٦١.

بخاصيّة أكّالة تمزّق جدار الرحم الذي تلتصق به وتأكله، فيتوارد دم الأمّ إلى موضعها، حيث تسبح هذه البويضة الملقّحة دائماً في بركة من دم الأمّ الغني بكلّ ما في جسمها من خلاصات وتمتصّه لتحيا به وتنمو. وهي دائمة الأكلان لجدار الرحم. دائمة الامتصاص لمادة الحياة. والأمّ المسكينة تأكل وتشرب وتهضم وتمتصّ، لتصبّ هذا كله دماً نقياً غنيّاً لهذه البويضة الشرهة النهمة الأكول!

وفي فترة تكوين عظام الجنين يشتدّ امتصاصه للجير من دم الأمّ فتفتقر إلى الجير. ذلك أنّها تعطي محلول عظامها في الدم ليقوم به هيكل هذا الصغير وهذا كلّه قليل من كثير.

ثمّ الوضع وهو عملية شاقة ممزّقة، ولكن آلامها الهائلة كلّها لا تقف في وجه الفطرة ولا تنسي الأمّ حلاوة الثمرة... ثمرة التلبية للفطرة ومنح الحياة لنبتة جديدة تعيش وتمتدّ... بينما هي تذوي وتموت! ثمّ الرضاع والرعاية. حيث تعطي الأمّ عصارة لحمها وعظمها في اللبن وعصارة قلبها وأعصابها في الرعاية. وهي مع هذا كلّه فرحة سعيدة رحيمة ودود. لا تملّ أبداً ولا تكره تعب هذا الوليد. وأكبر ما تتطلّع إليه من جزاء أن تراه يسلم وينمو. فهذا هو جزاؤها الحبيب الوحيد. فأنّى يبلغ الإنسان في جزاء هذه التضحية مهما يفعل. وهو لا يفعل إلّا القليل الزهيد!»[1].

* ومن قوله تعالى: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾ استدلّ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ مع التي في لقمان ﴿وفصاله في عامين﴾ [لقمان: ١٤]، على أنّ أقلّ مدّة الحمل ستة أشهر. وهو استنباط قويّ وصحيح، ووافقه عليه عثمان بن عفّان ـ رضي الله عنه ـ وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

ومن جهة أخرى روى عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهراً، وإذا وضعت لسبعة كفاه ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعت لستة فحولين كاملين...»[2].

* وحول قوله تعالى: ﴿حتى إذا بلغ أشدّه وبلغ أربعين سنة قال ربّ أوزعني أن

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٦/٣٢٦٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/١٥٧.

أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ. . .﴾ الآية يقول سيد قطب رحمه الله: «وفي هذه السنّ تتجه الفطرة المستقيمة السليمة إلى ما وراء الحياة وما بعد الحياة. وتتدبّر المصير والمآل. ويصور القرآن هنا خوالج النفس المستقيمة وهي في مفرق الطريق بين شطر من العمر ولّى وشطر آخر يكاد ينتهي وهي تتوجّه إلى الله ﴿ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ﴾ دعوة القلب الشاعر بنعمة ربّه المستعظم المستكثر لهذه النعمة التي تغمره وتغمر والديه قبله فهي قديمة العهد به المستقلّ المستصغر لجهده في شكرهما، يدعو ربه أن يعينه بأن يجمعه كله (أوزعني) لينهض بواجب الشكر فلا يفرّق طاقته ولا اهتمامه في مشاغل أخرى غير هذا الواجب الضخم الكبير.

﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾ وهذه أخرى فهو يطلب العون للتوفيق إلى العمل الصالح يبلغ من كماله وإحسانه أن يرضاه ربّه فرضى ربّه هو الغاية التي يتطلّع إليها وهو وحده الرجاء الذي يأمل فيه.

﴿وأصلح لي في ذرّيتي﴾ وهذه ثالثة وهي رغبة القلب المؤمن في أن يتّصل عمله الصالح في ذريته، وأن يؤنس قلبه شعوره بأنّ في عقبه من يعبد الله ويطلب رضاه. والذرية الصالحة أمل العبد الصالح وهي آثر عنده من الكنوز والذخائر. وأروح لقلبه من كلّ زينة الحياة. والدعاء يمتدّ من الوالدين إلى الذرّيّة ليصل الأجيال المتعاقبة في طاعة الله. . .»[1].

أقول: وبمثل هذه المعاني ينبغي أن يعيش المؤمن في حياته، تطلّعاً إلى المصير، وشكراً للنعم، ورغبة في الثبات على العمل الصالح طلباً لرضى الله، وابتغاء أكيداً للذريّة الصالحة المستقيمة.

* وفي قوله تعالى: ﴿حتى إذا بلغ أشدّه وبلغ أربعين سنة. . .﴾ الآية إشارة ـ أيضاً ـ إلى أنّ ما وصّي به الإنسان من الإحسان إلى الوالدين فهو مطلوب ـ أيضاً ـ في وقت بلوغه الأشدّ، فلا يفتر عن الإحسان إليهما بكلّ وجه حتى بالدعاء لهما.

وخصّ زمان بلوغه الأشدّ لأنّه زمن يكثر فيه الكلف بالسعي للرزق، إذ يكون للرجل فيه زوجة وأبناء، وتكثر تكاليف الحياة. كما أنّه في جانب المرأة فإنّه يكون لها

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٦/٣٢٦٢ ـ ٣٢٦٣.

في هـذا السنّ زوج وبيت وأبناء، وبـالتالي يكـون كـلّ من الـرجـل والمـرأة مـظنّـة أن تشغلهما التكاليف عن تعهد والديهما والإحسان إليهما؛ فجاء التنبيه لهما لئـلّا يفترا عن الإحسان[1].

* وإضـافة إلى مـا ذكره سيـد قطب حـول قولـه: ﴿وأصلـح لي في ذريّتي﴾ نذكـر كلاماً للطاهربن عاشور يقول: «استطراد في أثناء الوصاية بالدعاء للوالدين بأن لا يغفـل الإنسان عن التفكر في مستقبله بأن يصرف عنايته إلى ذريّته كما صرفها إلى أبويه ليكون لـه من إحسان ذرّيته إلى مثل ما كان لأبويه، وإصلاح الذرية يشمل إلهامهم الدعاء إلى الوالد»[2].

أقـول: وقد نلحظ بعض الناس من يصرف همّـه وشغله في أبويـه، ويهمـل حقّ أبنائه، وهذا من الخطأ الواضـح؛ إذ لكلّ من الأبـوين والولـد حقّ ينبغي أن يؤدّى... وكلا الطرفين واجب ومسؤول عنه الإنسان أمام ربّه... برّه بوالديه وإصلاحه لولده.

فإذاً لا بدّ من التوازن وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه.

* وإنّ في إدماج تلقين الدعاء بإصلاح ذريّته مع أنّ سياق الكـلام في الإحسان إلى الـوالدين: إيمـاء إلى أنّ الإنسان يلقى من إحسـان أبنائـه إليه مثل مالقي أبواه من إحسانه إليهما[3].

أقول: وهذه حقيقةُ الواقـع يصـدّقها، فـإنّا نـلاحظ أنّ من عقّ والديـه فإنّ أولاده ـ على الغالب ـ يكونون عاقّين لـه، وكذلك من كان محسناً كـان أولاده محسنين لـه. وهذا من جزاء الله في الدنيا لمن أحسن وعلى من أساء في هذا الـواجب العظيم. والله أعلم.

* وفي قـوله تعـالى: ﴿... إنّي تبت إليـك وإنّي من المسلمين﴾ إرشـاد لمن بلـغ الأربعين أن يجدّد التوبة والإنابة إلى الله عزّ وجلّ ويعزم عليها.

وقد روى أبو داود في سننـه عن ابن مسعود ـ رضي الله عنـه ـ أنّ رسول الله ﷺ

---

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦/٣٢.

(٢) المرجـع السابق ٢٦/٣٣.

(٣) انظر: المرجـع السابق ٢٦/٣٣.

كـان يعلمهم أن يقولـوا في التشهّد: «اللهمّ ألّف بين قلوبنـا وأصلـح ذات بيننا واهـدنا سبل السلام ونجّنا من الظلمـات إلى النور، وجنّبنـا الفواحش مـا ظهر منهـا وما بـطن، وبارك لنا في أسماعنا وأبصـارنا وقلوبنـا وأزواجنا وذرّيـاتنا وتب علينـا إنّك أنت التـوّاب الرحيم، واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك قابليها وأتّمها علينا»[1].

وسئل مسروق متى يؤخذ الرجل بذنوبه؟ فقال: إذا بلـغ الأربعين فليأخذ حذره.

وقـد قال الحجـاج بن عبـد الله الحليمي أحـد أمـراء بني أميّـة بـدمشق: تـركت المعاصي والذنوب أربعين سنة حياءً من الناس ثمّ تركتها حياء من الله عزّ وجلّ[2].

وبهذه الفائدة الأخيرة ينتهي كلامنا حول هذا الفصل.

والحمد لله ربّ العالمين.

* * *

---

(١) رواه أبو داود: كتاب الصلاة، (١٨٢) باب التشهد، حديث (٩٦٩)، ١/٥٩٢.
وأخـرجـه الحـاكم في المستـدرك ١/٢٦٥، وقـال: هـذا حـديث صحيـح على شـرط مسلم ولم يخرّجاه، وذكر لـه شاهد، وأقرّه الذهبي في التلخيص.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/١٥٧ ــ ١٥٨.

الفصل الثاني

سعد بن أبي وقّاص مع أمّه

تقديم :

وفي هذا الفصل سنتناول بالدراسة موقفاً لأحد العشرة المبشّرين بالجنّة من صحابة رسول الله ﷺ وهو سعد بن أبي وقّاص ـ رضي الله عنه ـ ، وذلك مع أمّه حين أسلم وأنزل الله قوله :

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝٩﴾(١) .

وسنتناول دراسة هاتين الآيتين ليتضح لنا هذا الموقف من خلال معرفة سبب النزول، ثمّ شرح الآيتين، وأخيراً ذكر العبر والفوائد.

والله المستعان.

* * *

(١) سورة العنكبوت: الآيتان ٨، ٩.

المبحث الأول

ذكر سبب النزول

روى الإمام مسلم ــ رحمه الله ــ في صحيحه أنّ مصعب بن سعد حدّث عن أبيه أنّه نزلت فيه آيات من القرآن الكريم وفيه: أنّه قال: حلفت أمّ سعد ألاّ تكلّمه أبداً حتى يكفر بدينه ولا تأكل ولا تشرب. قالت: زعمت أنّ الله وصّاك بوالديك وأنا أمّك وأنا آمرك بهذا. قال: مكثت ثلاثاً حتى غشي عليها من الجهد، فقام ابن لها يقال له عمارة فسقاها فجعلت تدعو على سعد فأنزل الله عزّ وجلّ في القرآن هذه الآية ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً. . .﴾، وفيه أنّهم إذا أرادوا إطعامها شجروا فاها بالعصا(١).

فهذه الرواية تدلّ على أنّ الله أنزل بشأن سعد مع أمّه قوله تعالى: ﴿ووصّينا الإنسان بوالديه حسناً. . .﴾، ثمّ أكمل الراوي وأخطأ في إكماله للآية فقال: ﴿على أن تشرك بي. . .﴾ وبداية الآية في العنكبوت وليس فيها ﴿على أن تشرك﴾ بل فيها ﴿لتشرك بي. . .﴾ ثمّ أكمل وقال فيها: وصاحبهما في الدنيا معروفاً وقوله هذا ليس بصحيح، فليس في آية العنكبوت ذلك، بل هذه في سورة لقمان. فالواقع أنّه خلط بين الآيات التي في العنكبوت والتي في لقمان، وبداية الآية هي المعوّل عليها، ويدلّ على صحة ما قلناه أنّه روي عن سعد بن أبي وقّاص قوله: أنزلت فيّ هذه الآية ﴿وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾(٢) وهذا نصّ آية العنكبوت،

---

(١) رواه مسلم: كتاب فضائل الصحابة، فضل سعد بن أبي وقّاص، حديث (٤٦)، ٥/٢٧٨ ــ ٢٧٩.

(٢) انظر: أسباب النزول للواحدي ص ٣٥٧.

ويدلّ عليه ـ كذلك ـ ما رواه الإمام الترمذي[1] في أنّه نزلت هذه الآية ﴿ووصّينا الإنسان بوالديه حسناً. . .﴾ ولم تكمل الآية، ففيه دلالة على أنَّ المراد آية العنكبوت. والله أعلم.

وفي رواية أخرى: إنّ أمّة حمنة بنت أبي سفيان بن أميّة بن عبد شمس لمّا أسلم وكان من السابقين الأولين وكان باراً بأمّه قالت له أمّه: ما هذا الذي أحدثت. والله ما آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه أو أموت فتعيّر بذلك أبد الدهر ويقال: يا قاتل أمّه. ثمّ إنّها مكثت يوماً وليلة لم تأكل ولم تشرب ولم تستظلّ فأصبحت وقد جهدت، ثمّ مكثت كذلك يوماً آخر وليلة فجاءها فقال: يا أمّاه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني فكلي إن شئت وإن شئت فلا تأكلي، فلمّا أيست منه أكلت وشربت فأنزل الله هذه الآية وأمره بالبرّ بوالديه والإحسان إليهما وأن لا يطيعهما في الشرك فذلك قوله تعالى: ﴿وإن جاهداك لتشرك بي﴾[2].

وقد قال البعض أنّ آيتي لقمان نزلت أيضاً في شأن سعد، والذي أراه غير ذلك ـ مع أنّه لا مانع من أن تنزل عدّة آيات بسبب حادثة واحدة ـ وذلك لأنّ السياق في آيات لقمان وهو الحديث عن وصيّة لقمان غير مناسب، كما أنّ آية العنكبوت هي المناسبة لسبب النزول؛ لأنّها أخليت من الأوصاف التي فيها ترقيق على الأمّ بخلاف هذه ﴿حملته أمّه وهناً على وهن وفصاله في عامين. . .﴾ فهذه عامّة في الوصية بالوالدين وما لهما من فضل، ثمّ أردفت بما سيق من النهي عن الشرك في الآية السابقة لها: ﴿يا بنيّ لا تشرك بالله. . .﴾ فناسب أن تجيء بعدها كما ذكرنا في وصيّة لقمان.

وما دام وقت نزول الآيتين مختلف فالأَوْلى حملها على ما كانت بسببه نزلت، كما أنّه قد جاء التصريح في صحيح مسلم بآية العنكبوت أنّها نزلت في شأن سعد، وكذا الكلام المنقول عن سعد نفسه يدلّ على هذا.

---

(١) رواه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب (٣٠) سورة العنكبوت، حديث (٣١٨٩).

(٢) انظر: تفسير البغوي على الخازن ٥/١٨٨؛ أسباب النزول للواحدي ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧؛ لباب النقول للسيوطي ص ١٦٦ ـ ١٦٧؛ جامع النقول في أسباب النزول لابن خليفة عليوي ٢/٢٦٣ ـ ٢٦٤.

كما أنّ صاحب التحرير والتنوير يذكر وجهاً يؤيّد ما ذكرناه فيقول: (ذكر في لقمان ﴿على أن تشرك بي﴾ وفي العنكبوت: ﴿لتشرك بي﴾ فأمَّا حرف (على) فهو أدلّ على تمكّن المجاهدة، أي مجاهدة قويّة للإشراك، والمجاهدة: شدّة السعي والإلحاح، والمعنى: إن ألحّا وبالغا في دعوتك إلى الإشراك بي فلا تطعهما. وهذا تأكيد للنهي عن الإصغاء إليهما إذا دعوا إلى الإشراك. وأمَّا هنا في العنكبوت فجيء فيها بلام العلّة لظهور أنّ سعداً كان غنيّاً عن تأكيد النهي عن طاعة أمّه لقوّة إيمانه)[1]. والله أعلم.

* * *

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢١/ ١٦٠.

المبحث الثاني

بيان الآيتين الكريمتين

يأمر الله عباده ــ هـا هنا ــ بالإحسان إلى الوالدين، وهذا كما قال سبحانه:

﴿وقضى ربّك ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه وبالوالدين إحساناً إمَّا يبلغنّ عنك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً. واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربّياني صغيراً﴾[1] [الإسراء: ٢٣ ــ ٢٤].

ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان لما هما أهل لـه قال: ﴿وإن جاهداك لتشرك بـي ما ليس لك بـه علم فلا تـطعهما إليّ مـرجعكم فأنبّئكم بمـا كنتم تعملون﴾ أي وإن حرّضا عليك وأمراك بأن تتابعهما في شركهما وكفرهمـا بالله فـإيَّاك أن تـطعهما في ذلـك؛ فهـذا أمـر بمعصيـة الله. . . وأيّ معصيـة أعـظم من الكفـربـاللّهِ التي يخلّد صاحبها في النار. والحال أنّ المـرجـع بعد ذلـك كلّه إلى الله سبحانـه في يوم القيـامة فيجـازي الله المحسن إحسانـاً ــ برحمتـه وفضله ــ والمسيء بإسـاءته عـدلاً منه، والله سبحانه يحشر كل فرقة مـع بعضهم البعض، فـأنت يحشرك في زمـرة الصالحين لا في زمرة والديك وإن كانوا هم أقرب الناس إليك في الدنيا، وأمّا في الآخرة فالمرء مـع من أحبّ ــ أي حبّاً دينياً ــ ولهذا قال تعالى: ﴿والذين آمنـوا وعملوا الصالحـات لندخلنّهم في الصالحين﴾[2].

ويذكر الزمخشري أنّ في قوله تعالى: ﴿إليّ مرجعكم﴾ أمران:

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٤٠٥.

(٢) قـرأ حمزة والكسـائي (إمّا يبلغـانّ) على الاثنين، وقرأ البـاقـون (إمّـا يبلغنّ) على واحـد. وقـرأ ابن كثير وابن عامر (أفَّ) بفتـح الفاء، وقـرأ نافـع وحفص (أفٍّ) بـالتنوين، وقـرأ البـاقـون (أفِّ) خفضاً بغير تنوين. (حجة القراءات لابن زنجلة ص ٣٩٩).

الأول: إنّ الجزاء إليَّ فلا تحدث نفسك بجفوة والديك وعقوقهما لشركهما، ولا تحرمهما برّك ومعروفك في الدنيا كما أنّي لا أمنعهما رزقي.

والثاني: التحذير من متابعتهما على الشرك والحثّ على الثبات والاستقامة في الدين بذكر المرجع الوعيد[1].

ويضيف الفخر الرازي ـ حول هذا المقطع ـ فيقول: (يعني عاقبتكم ومآلكم إليَّ، وإن كان اليوم مخالطتكم ومجالستكم مع الآباء والأولاد والأقارب والعشائر، ولا شكّ أنّ من يعلم أنّ مجالسته مع واحد خالية منقطعة وحضوره بين يدي غيره دائم غير منقطع لا يترك مراضي من تدوم معه صحبته لرضا من يتركه في زمان آخر)[2].

وحول قوله ﴿فأنبئكم بما كنتم تعلمون﴾ يذكر الفخر الرازي ـ أيضاً ـ لطيفة فيقول: (كأن الله تعالى يقول: (لا تظنّوا أنّي غائب عنكم وآباؤكم حاضرون فتوافقون الحاضرين في الحال اعتماداً على غيبتي، وعدم علمي بمخالفتكم إيَّاي، فإنِّي حاضر معكم أعلم ما تفعلون ولا أنسى فأنبّئكم بجميعه)[3].

* * *

(١) الكشّاف للزمخشري ٣/١٩٨.

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٥/٣٦.

(٣) المرجع السابق ٢٥/٣٦.

المبحث الثالث

العبر والفوائد

* يؤخذ من قوله تعالى: ﴿ووصّينا الإنسان بوالديه حسناً﴾ دليل على ما جاءت الآية بشأنه وهو عدم جواز متابعة الأبوين في الكفر، وذلك لأنّ الإحسان بالوالدين وجب بأمر الله تعالى، فلو ترك العبد عبادة الله بقول الوالدين لترك طاعة الله تعالى فلا ينقاد لما وصّاه به، فلا يحسن إلى الوالدين، فاتباع العبد أبويه لأجل الإحسان إليهما يفضي إلى ترك الإحسان إليهما وما يفضي وجوده إلى عدمه باطل، فالاتباع باطل، وأمّا إذا امتنع من الشرك بقي على الطاعة والإحسان إليهما من الطاعة فيأتي به، فترك هذا الإحسان صورة تفضي إلى الإحسان حقيقة(١).

ويقول صاحب فتح القدير: (وإذا لم تجز طاعة الأبوين في هذا المطلب مع المجاهدة منهما له، فعدم جوازها مع مجرّد الطلب بدون مجاهدة منهما أوْلى. ويلحق بطلب الشرك منهما سائر المعاصي؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)(٢).

وأقول: نعم. فإنّ نفس المؤمن عزيزة ودين الله عزيز عليه، لا يفرّط في دينه من أدنى كلمة تقال له، فهو عليه مستقيم لا ينحرف عنه لأي سبب كان. . .

ولا يقول المؤمن في صغائر الذنوب إنّها صغائر يمكن التساهل في أمرها لطلب رضا الأبوين. ولكن هذا الكلام مرفوض . . فالنظر ليس لصغر المعصية وحدها، بل النظر الحقيقي إلى من يعصي . . فإنّه يعصي الله الكبير المتعالِ . . صاحب الفضل والمنّة، فلا يعصي المؤمن ربه ليرضي أبويه.

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٥/٣٥ ـ ٣٦.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٤/١٩٣.

وأجمل الإمام القرطبي ـ رحمه الله في تفسيره ـ ما ينبغي الطاعة فيه وما لا ينبغي، فقال فيما معناه: طاعة الأبوين لا تراعى في ركوب كبيرة ولا صغيرة من المعاصي، ولا في ترك فريضة على الأعيان، كما أنّه في مقابل ذلك تلزم طاعتهما في الأمور المباحة شرعاً، ويستحسن طاعتهما في ترك الطاعات المندوب إليها ومنها مثلاً أمر الجهاد الكفاية(١).

* إنَّ ورود هذه الآية في سورة العنكبوت ـ التي مطلعها يتحدّث عن حقيقة الفتن والابتلاءات وأنّها تميّز بين الصادق والكاذب في إيمانه ﴿ألم. أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يُفتنون ولقد فتنّا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذي صدقوا وليعلمنّ الكاذبين﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣]، ليعطينا دليلاً أكيداً على سبب النزول وأنّه مختصّ بقصّة سعد، ولا يُناسب مقام غيره هذه القصّة.. القصّة التي تحكي الابتلاء الذي عاناه سعد من أحبّ الناس إليه في ردّه عن دينه.

ويشابه قصّة سعد هذه قصّة عيّاش بن أبي ربيعة المخزومي رضي الله عنه، وقد قيل إنّ آيتي العنكبوت اللتين نزلتا في سعد نزلتا بشأن عيّاش وهذا أمر محتمل إذ قد يكون النازل واحد والأسباب متعدّدة، وقصّته: أنّه هاجر مع عمر بن الخطّاب حتى نزلا المدينة، فخرج أبو جهل والحارث أخواه لأمّه أسماء فنزلا بعيّاش وقالا له: إنَّ من دين محمد ﷺ صلة الأرحام وبرّ الوالدين، وقد تركت أمّك لا تطعم ولا تشرب ولا تأوي بيتاً حتى تراك فأخرج معنا، واستشار عمر فقال: هما يخدعانك ولك عليّ أن أقسم مالي بيني وبينك، فما زالا به حتى أطاعهما وعصى عمر فقال عمر: أمَّا إذا عصيتني فخذ ناقتي فليس في الدنيا بعير يلحقها فإن رابك منهما ريب فارجع. فلمّا انتهوا لى البيداء قال أبو جهل: إنَّ ناقتي قد كلّت فاحملني معك فنزل ليوطىء لنفسه وله فأخذاه فشدّاه وثاقاً وجلده كلُّ واحد مائة جلدة، وذهبا به إلى أمّه فقالت: لا تزال في عذاب حتى ترجع عن دين محمد(٢).

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ١٤/٦٤.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود ٣١/٧؛ البحر المحيط لأبي حيّان ١٤٢/٧؛ تفسير القرطبي ٣٢٨/١٣.

وإنّه للابتلاء في الدين الذي مرّ بالمؤمنين من صحابة رسول الله ﷺ، وإنه لسنّة الله في عباده المؤمنين.. وهذا صنف من الناس فتن وابتلي من قبل آبائهم وأمّهاتهم وأقربائهم؛ يستخدمون معهم سلاح العاطفة والمودّة والرّحم. ولذلك جاءت وصية الله بالإحسان إلى الوالدين ثمّ نبّه إلى عدم طاعتهما إذا أكرها على الشرك، إذ كل حقّ وإن عظم ساقط إذا عارض حقّ الله ولا طاعة لمخلوق في معصية الله، فجاءت هاتان الآيتان تثبيتاً من عند الله لعباده الصادقين في محنتهم وابتلائهم.

وفي هذا الشأن يتكلّم سيد قطب ــ رحمه الله ــ فيقول: «ثمّ يجيء إلى لون من ألوان الفتنة: فتنة الأهل والأحبّاء، فيفصل في الموقف الدقيق بالقول الحازم الوسط، لا إفراط فيه ولا تفريط.. إنَّ الوالدين لأقرب الأقرباء وإنَّ لهما لفضلاً، وإنَّ لهما لرحماً، وإنَّ لهما لواجباً مفروضاً: واجب الحبّ والكرامة والاحترام والكفالة. ولكن ليس لهما من طاعة في حقّ الله وهذا هو الصراط.. إنّ الصلة في الله هي الصّلة الأولى، والرابطة في الله هي العروة الوثقى. فإن كان الوالدان مشركين فلهما الإحسان والرعاية لا الطاعة والاتّباع. وإن هي إلَّا الحياة الدنيا ثم يعود الجميع إلى الله، ويفصل ما بين المؤمنين والمشركين، فإذا المؤمنون أهل ورفاق، ولو لم يعقد بينهم نسب ولا صهر ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنّهم في الصالحين﴾، وهكذا يعود الموصولون باللّهِ جماعة واحدة، كما هم في الحقيقة، وتذهب روابط الدم والقرابة والنسب والصهر، وتنتهي بانتهاء الدنيا، فهي روابط عارضة لا أصيلة لانقطاعها عن العروة الوثقى التي لا انفصام لها...

بهذه الآيات ثبت سعد وغيره من المؤمنين وانتصر الإيمان على فتنة القرابة والرحم، واستبقي الإحسان والبرّ، وإنَّ المؤمن لعرضة لمثل هذه الفتنة في كلّ آن، فليكن بيان الله وفعل سعد هما راية النجاة والأمان»(1).

* وإنَّ موقف سعد بن أبي وقّاص ــ رضي الله عنه ــ مع أمّه ليعطينا نموذجاً مثالياً للمؤمن الصادق المتمسّك بعقيدته.. الذي لا يساوم عليها أبداً.

وهو موقف المؤمن الذي واجه الابتلاء بالصبر والثبات، فلم تؤثر فيه عاطفة

---

(1) في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/٢٧٢٢ ــ ٢٧٢٣.

الأمومة فيضعف أمامها فتردّه عن عقيدته. . ولا شكّ أنّ عاطفة الأمومة أمر شاقّ عسير يصعب على الكثير الوقوف أمامه والصمود، ولكن هو الإيمان الصادق الذي لا يقف أمامه شيء.

وهذه هي حقيقة الإيمان، والابتلاء إنّما يمرّ بالمؤمنين ليظهر هذه الحقيقة فإن صبروا وثبتوا نجحوا واستفادوا. وكما يقول سيد قطب:

(إنَّ الإيمان ليس كلمة تقال إنّما هو حقيقة ذات تكاليف وأمانة ذات أعباء، وجهاد يحتاج إلى صبر، وجهد يحتاج إلى احتمال، فلا يكفي أن يقول الناس آمناً. وهم لا يتركون لهذه الدعوى حتى يتعرّضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم خالصة قلوبهم. كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به ـ وهذا هو أصل الكلمة اللغوي وله دلالته وظلّه وإيحاؤه ـ وكذلك تصنع الفتنة بالقلوب)[1].

وأقول: فما أحوج الدعاة إلى الله إلى مثل هذه الدروس في الصبر والثبات أمام المحن والابتلاءات على أمر الدين. . فلتكن القدوة صحب رسول الله ﷺ في صبرهم وثباتهم وبقائهم على طريق العقيدة دون أيّة مساومة.

* ويجدر بنا ونحن في هذا المقام أن نذكر بعض الحقائق المهمّة عن الفتنة والابتلاء في الدين على ما يلي:

ـ إنَّ الفتنة على الإيمان أصل ثابت وسنّة جارية في ميزان الله، والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء، ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوف لعلم الله، مغيب عن علم البشر، فيحاسب الناس إذاً على ما يقع من عملهم لا على مجرّد ما يعلمه سبحانه من أمرهم. وهو فضل من الله من جانب، وعدل من جانب، وتربية للناس من جانب، فلا يأخذوا أحداً إلّا بما استعلن من أمره، وبما حقّقه فعله فليسوا بأعلم من الله بحقيقة قلبه.

ـ وإنَّ الفتن أنواع: فتنة الأذى من الباطل وأهله ولا يجد المؤمن مسانداً

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/ ٢٧٢٠.

ولا نصيراً، وفتنة الأهل والأحبّاء، وفتنة إقبال الدنيا، وفتنة رؤية الدول المشاقّة لله في عزّ وفي منعه وغنى.. وغيرها.. ولكل من هذه الفتن آلامها وإغراءاتها ومصاعبها، وقد يمتحن البعض ببعضها وقد تجتمع وتعدّد على بعض المؤمنين ــ وهنا يكون الأمر أشدّ وأصعب ــ والصادقون هم الصابرون، والصابرون هم الثابتون.

ــ وفائدة الفتنة أنّها إعداد لتحمّل الأمانة الكبرى.. أمانة الله في الأرض، فإنّها لا يحملها إلاّ من هم أهل لها بصدق قلوبهم وتجرّدها وإخلاصها.. بإيثارهم لها على الراحة والدعة والأمن والسلامة والمتاع والإغراء.. وهي أمانة الخلافة والقيادة التي لا يضطلع بها إلاّ طراز خاص يصبر على الابتلاء، والنفس تصهرها الشدائد فتنفي عنها الخبث، وتستجيش كامن قواها المذخورة فتستيقظ وتتجمّع.. وتطرقها بشدّة وعنف فيشتدّ عودها ويصلب ويصقل. وهؤلاء هم من يسلّم الأمانة وهي عزيزة على نفوسهم بما أدّوا لها من غالي التضحيات وبالتالي فلا يسلّمونها رخيصة بعد كلّ ما أدّوه من أجلها[1].

وبهذه الكلمات عن حقيقة الفتنة والابتلاء ينتهي كلامنا حول هذا الفصل سائلين منه سبحانه أن يثبتناعلى دينه. والحمد لله ربِّ العالمين.

* * *

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/ ٢٧٢٠ ــ ٢٧٢١.

الفصل الثالث

مواقف لعدد من الصحابة رضي الله عنهم

تقـديم :

في هذا الفصل نقف على مشاهد عظيمة ملؤها الإيمان والاعتزاز بهذا الدين. . . مشاهد المؤمنين مع أقربائهم، بل مع أقرب الناس إليهم. . . وذلك من خلال مواقفهم التي أنزل الله بشأنها قرآناً يتلى، ليعرف الناس عظم الرسالة الإلـهية ورفعتها على كلّ شيء في الوجود. وهذا ما جاء في قوله تعالى :

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾(١).

وسنوضح هذه المواقف من هذه الآية الكريمة بذكر سبب نزولها وبيانها وما ترشد إليه من عبر وفوائد.

والله المستعان.

* * *

---

(١) سورة المجادلة: الآية ٢٢.

المبحث الأول

ذكر سبب النزول

ذُكِر أنّ هذه الآية أنزلت إلى آخرها في أبي عبيدة عامر بن عبد الله الجرّاح رضي الله عنه، حين قتل أباه يوم بدر.

وقد فصّل آخرون فيها فقالوا: قوله: ﴿ولو كانوا آباءهم﴾ نزلت في أبي عبيدة قتل أباه يوم بدر، وقوله: ﴿أو أبناءهم﴾ في الصدّيق همّ بقتل ابنه عبد الرحمن، وقوله: ﴿أو إخوانهم﴾ في مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ، وقوله: ﴿أو عشيرتهم﴾ في عمر قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يومئذ أيضاً، وفي حمزة وعليّ وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ. وهذا التفصيل أشمل وقد ناسب كلّ كلمة حدث؛ وفي وقت واحد، فصحّ أن يكون كذلك. والله أعلم(١).

* * *

(١) انظر: أسباب النزول للواحدي ص ٤٤٠؛ لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ص ٢٠٨؛ البغوي على الخازن ٧/٥٤؛ تفسير ابن كثير ٤/٣٢٩ ـ ٣٣٠.

المبحث الثاني

بيـان الآيـة

أخبر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أنّ إيمان المؤمنين يكون في غاية النقصان بمـوادّة الكافـرين، وأنّ من كان مؤمنـاً لا يوالي من كفـر؛ لأنّ من أحبّ أحداً امتنـع أن يحبّ عدوّه، فهؤلاء قد شاقّوا الله ورسوله وكانوا لهما معادين فـوجب من المؤمنين عدم محبتهم والميـل إليهم ونصـرتهم؛ وإن كـانـوا أقـرب النـاس إليهم كـآبـائهم وأبنـائهم وإخوانهم، أو من عشيرتهم التي هم منها.

يقول الإمام الصـاوي في حاشيتـه على الجلالين: «وقـدّم أولاً الآباء لأنّهم تجب طـاعتهم ثمّ الأبناء لأنّهم أعلق بـالقلب ثمّ الإخوان لأنّهم النـاصرون للشخص بمنـزلـة العضد من الذراع، ثمّ بالعشيرة لأنّ بها يستغاث وعليها يعتمد»[1].

ثمّ إنّ أولئـك الذين امتنعـوا من مـوادّة الكـافـرين قـد امتنّ الله عليهم بـأن أثبت التصديق في قلوبهم، فقلوبهم مؤمنة موقنة مخلصة.

وقيل: (كتب) أي قضى وحكم لهم بالإيمان، وإنّما ذكـر القلوب لأنّها مـوضعه، فكتب لهم بـذلـك الإيمـان السعـادة الحقيقيـة المـطلوبـة، وهـذا كقــولـه سبحــانـه: ﴿. . .ولكنّ الله حبّب إليكم الإيمـان وزيّنـه في قلوبكم وكـرّه إليكم الكفـر والفسـوق والعصيان أولئك هم الراشدون﴾ [الحجرات: ٧].

وأمّا تأييد الله لهم بروح منه فمعناه أنّه قوّاهم ونصرهم ببرهـان منه ونـور وهدى. ثم يجزيهم الله في الآخرة على صـدق إيمانهم وثبـاتهم بأن يـدخلهم جنات (بسـاتين) تجري من تحت أشجارها الأنهار ماكثين فيها أبـداً، وهو قـد رضي عنهم ــ سبحانـه ــ

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ١٨٥.

بطاعتهم إيّاه في الدنيا، وهم قد رضوا عنه في الآخرة بإدخاله إيّاهم في الجنّة.

ويقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ حول قوله: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾: «إنّ فيها سرّاً بديعاً: وهو أنّه لمّا سخطوا على القرائب والعشائر في الله تعالى عوّضهم الله بالرضا عنهم وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوز العظيم والفضل العميم»[1].

ومن ثمّ يختم الله عزّ وجلّ هذه الآية بخير ختام يرفع فيه المؤمنين ويخفض فيه أعداءه ويميّز فيه أولياءه عن غيرهم، فيقرّر أنّ من كان في تلك الصفات العظيمة السابقة الذكر فهم جند الله وأولياؤه وخاصّته الذين يمتثلون أوامره ويقاتلون أعداءه وينصرون أولياءه، وفي أضافتهم إلى الله سبحانه تشريف لهم عظيم وتكريم فخيم... وهؤلاء هم وحدهم المفلحون الفائزون الذين أدركوا ما طلبوا والتمسوا بطاعتهم لله وطلب رضاه فحازوا بالرضوان من الله وأيّ رضوان!![2].

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٣٣٠.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ٢٨/١٨ ـ ١٩؛ تفسير القرآن العظيم ٤/ ٣٢٩ ـ ٣٣٠؛ تفسير البغوي والخازن ٦/ ٥٤ ـ ٥٥؛ فتح القدير للشوكاني ٥/١٩٣.

المبحث الثالث

العبر والفوائد

* إنّ ما تضمّنته الآية الكريمة من النهي والزجر العظيم عن موالاة أعداء الله جاء موضّحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنّا برءآؤا منكم وممّا تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده...﴾ الآية [الممتحنة: ٤]، وقوله تعالى: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشدّاء على الكفار رحماء بينهم...﴾ الآية [الفتح: ٢٩]، وقوله أيضاً: ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبّهم ويحبّونه أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين...﴾ الآية [المائدة: ٥٤]، وقوله: ﴿وليجدوا فيكم غلظة﴾ [التوبة: ١٢٣]، وكذلك قوله: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم...﴾ الآية [التحريم: ٩][1].

وهذه الآيات كلّها تحمل الحقيقة التي ينبغي أن يكون عليها المؤمنون تجاه أعداء الله سواءً كانوا أقرباءهم أو غير ذلك. وفي هذا يقول الشهيد سيد قطب ـ رحمه الله ـ فيما خلاصته: وفي النهاية تجيء القاعدة الثابتة التي يقف عليها المؤمنون أو الميزان الدقيق للإيمان في النفوس. إنّها المفاصلة الكاملة بين حزب الله وحزب الشيطان والانحياز النهائي للصفّ المتميّز والمتجرّد من كلّ عائق وجاذب، والارتباط في العروة الوثقى الواحدة بالحبل الواحد، فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، وما يجمع إنسان في قلب واحد ودّين. ودّ الله ورسوله. وودّاً لأعداء الله ورسوله! فإمّا إيمان أو لا إيمان. أمّا هما معاً فلا يجتمعان. ﴿ولو كانوا آباءهم...﴾

---

(١) انظر: أضواء البيان للشنقيطي ٧/ ٨٢٥.

فروابط الدم والقرابة هـذه تتقطّع عنـد حدّ الإيمـان وإنّها يمكن أن تـراعى إذا لم تكن هناك محادّة وخصومة بين اللوائين: لواء الله ولواء الشيطان.

والصحبة بالمعروف للوالدين المشركين مأمور بها حين لا تكون هناك حـرب بين حزب الله وحزب الشيطان. فأمّا إذا كانت المحـادّة والمشاقّـة والحرب والخصـومة فقـد تقطّعت تلك الأواصر التي لا ترتبط بالعروة الواحدة وبالحبل الواحـد، ومن ثَمَّ انقطعـوا عن كـلّ شيء سوى الله ووصلوا أنفسهم بـه فتقبّلهم في كنفـه وأفسـح لهم في جنـابـه وأشعرهم برضاه فرضوا. رضيت أنفسهم هذا القرب وأنست بـه واطمأنّت لـه...

وهكذا تنقسم البشرية إلى حزبين اثنين: حزب الله وحزب الشيطان، وإلى رايتين اثنتين: راية الحق وراية الباطل، فإمّا أن يكون الفرد من حزب الله فهو واقف تحت راية الحق، وإمّـا أن يكون من حـزب الشيطان فهـو واقف تحت راية البـاطل، وهمـا صفّان متميّـزان لا يختلطان ولا يتميّعـان!! لا نسب ولا صهـر، ولا أهـل ولا قـرابـة، ولا وطن ولا جنس ولا عصبية ولا قومية... إنّما هي العقيدة، والعقيدة وحدها. فمن انحـاز إلى حزب الله ووقف تحت راية الحق فهو وجميـع الواقفين تحتها إخوة في الله وإن اختلفت ألوانهم وأوطانهم وعشائرهم وأسرهم، فتذوب الفوارق كلّها تحت الراية الواحدة. وأمّـا من استحوذ عليه الشيطان فوقف تحت راية الباطل فلا تربطه بـأحد من حـزب الله رابطة لا من أرض ولا من جنس ولا من وطن ولا من لـون ولا من عشيرة ولا من نسب ولا من صهـر... لقد انبتّت الـوشيجة الأولى التي تقـوم عليهـا هـذه الـوشـائـج فـانبتّت هـذه الوشائج جميعاً[1].

ونذكر كلاماً ـ هنا ـ لصاحب محاسن التأويل ـ نؤكّـد فيه نقـطة مهمّة قـد أشار إليها سيد قطب في كلامه حول الولاء ـ حيث يقول: «يفهم من قوله تعالى: ﴿من حادّ الله ورسوله﴾ وقوله في آية أخرى: ﴿لا تتخذوا عدوّي وعدوكم أولياء...﴾ أنّ المـراد بهم المحاربون لله ولرسوله، الصادّون عن سبيله المجـاهرون بـالعداوة والبغضـاء وهم الذين أخبر عنهم قبل بأنّهم يتناجوْن بـالإثم والعدوان ومعصيـة الرسـول. فتشمل الآيـة المشـركين وأهل الكتـاب المحاربين المحـادّين لنا، أي الـذين على حدّ منّـا ومجانبـة

---

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٦/٣٥١٤ ـ ٣٥١٥.

لشؤوننا تحقيقاً لمخالفتنا، وترصّداً للإيقاع بنا. وأمّا أهل الذمّة الذين بين أظهرنا، ممّن رضي بأداء الجزية لنا وسالمنا واستكان لأحكامنا وقضائنا، فأولئك لا تشملهم الآية، لأنّهم ليسوا بمحادّين لنا بالمعنى الذي ذكرناه، ولهذا كان لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، وجاز التزوّج منهم ومشاركتهم والإتجار معهم وعيادة مرضاهم، فقد عاد النبي ﷺ يهودياً وعرض عليه الإسلام فأسلم كما روى هذا الإمام البخاريّ(١).

وعلى الإمام حفظهم ومنع أذاهم واستنقاذ أشرارهم، لأنّه جرت عليهم أحكام الإسلام وتأبّد عهدهم فلزم ذلك كما لزم المسلمين... والأصل في هذا قوله تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إنّ الله يحبّ المقسطين. إنّما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم ومن يتولّهم فأولئك هم الظالمون﴾ [الممتحنة: ٨ ـ ٩](٢).

* ولقد ألحق العلماء بهؤلاء من يستخفّ بحرمات الإسلام مثل أهل الظلم والعدوان في الأعمال المتجاهرين بالكبائر والفواحش الساخرين من الزواجر والمواعظ، ومثل أهل الزيغ والضلال في الاعتقاد ممّن يؤذن حالهم بالإعراض عن أدلّة الاعتقاد الحقّ، وإيثار الهوى والعصبية على أدلّة الاعتقاد الحق.

ومن هذا أنّهم قالوا: يجوز أو يجب هجران ذي البدعة الضالّة أو المجاهر بالكبائر إذا لم يقبلا الموعظة(٣).

ومن هذا ـ أيضاً ـ ما روي عن الإمام مالك أنّه سئل عن مجالسة القدرية التي تدّعي أنّها تخلق كما يخلق الله وأنّها تأتي بما يكره الله ولا يريده، ولا يقدر على ردّ ذلك فقال: لا تجالس القدرية وعادهم في الله لقوله: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله...﴾ الآية(٤).

---

(١) رواه البخاري: كتاب المرضى والطب، حديث (١٨)، ٧/٢١٤.
(٢) محاسن التأويل للقاسمي ١٦/٩٠ ـ ٩١.
(٣) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٨/٥٩ ـ ٦٠.
(٤) انظر: تفسير القرطبي ١٧/٣٠٨؛ أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٧٦٣.

* وإنّه لمن المواقف الشبيهة بموقف أبي عبيدة مع أبيه موقف عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول ابن رأس المنافقين، وذلك أنّه حين لقي رسول الله ﷺ بني المصطلق على المريسيع وهو ماء لهم وهزمهم وقتل منهم، وازدحم على الماء جهجاه بن سعيد أجير لعمر يقود فرسه، وسنان الجهني حليف لعبد الله بن أبي بن سلول فاقتتلا، فصرخ جهجاه: يا للمهاجرين، وسنان: يا للأنصار، فأعان جهجاه جعال من فقراء المهاجرين ولطم سناناً، فقال عبد الله لجعال: وأنت هناك. وقال: ما صحبنا محمداً إلّا لنلطم، والله ما مثلنا ومثلهم إلّا كما قال سمّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ ـ عنى بالأعزّ نفسه وبالأذلّ رسول الله ﷺ ثم قال لقومه: ماذا فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله ولو أمسكتم عن جعال وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم ولأوشكوا أن يتحوّلوا عنكم فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضّوا من حول محمد. فسمع بذلك زيد بن أرقم ـ رضي الله عنه ـ وهو غلام حدث فقال: أنت والله الذليل القليل المبغض في قومك، ومحمد في عزّ من الرحمن وقوّة من المسلمين. فقال عبد الله: اسكت فإنّما كنت ألعب. فأخبر زيد رسول الله ﷺ فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق يا رسول الله. فقال: إذن ترعد أنف كثيرة بيثرب. قال: فإن كرهت أن يقتله مهاجري فأمر به أنصارياً. قال: فكيف إذا تحدّث الناس أنّ محمداً يقتل أصحابه؟ وقال النبي ﷺ لعبد الله: أنت صاحب الكلام الذي بلغني؟ قال: والذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك، وإنّ زيداً لكاذب. فقال الحاضرون: يا رسول الله شيخنا وكبيرنا لا تصدّق عليه كلام غلام عسى أن يكون قد وهم. . .[1].

وسمع عبد الله ما قاله أبوه في النبي ﷺ ولنرى موقفه العظيم: فقد ذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أنّ الناس لمّا قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله على باب

---

(١) انظر: تفسير الكشاف للزمخشري ٤/١١٠؛ أسباب النزول للواحدي ٤٥٧ ـ ٤٦١؛ لباب النقول للسيوطي ص ٢١٤؛ جامع النقول لابن خليفة عليوي ٢/٣١٥ ـ ٣١٦؛ صحيح البخاري: كتاب التفسير، سورة المنافقون، الأحاديث (٣٩٤ ـ ٤٠١)؛ صحيح مسلم: كتاب صفات المنافقين، حديث (١)؛ الترمذي: كتاب التفسير، (٦٤) باب سورة المنافقون، أحاديث (٣٣١٢ ـ ٣٣١٥). وروي في غيرها من الكتب أيضاً. .

المدينة واستلّ سيفه فجعل الناس يمرّون عليه فلمّا جاء أبوه قال له: وراءك. فقال: ما لك ويلك؟ فقال: والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنّه العزيز وأنت الذليل، فلمّا جاء النبي ﷺ وكان إنّما يسير في مؤخّرة الجيش ينظر المتخلّف والضالّ والمحتاج لمعونة شكا إليه عبد الله ابنه فقال ابنه: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له. فأذن له ﷺ فقال: أمّا إذا أذن لك ﷺ فجز الآن[1].

وفي رواية للترمذي أنّه قال لأبيه: والله لا تنفلت حتى تقرّ أنّك الذليل ورسول الله ﷺ العزيز، ففعل[2].

كما أنّ الإمام الطبري يروي له موقفاً آخر مع أبيه وهو: أنّه أتى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله إنّه بلغني أنّك تريد قتل أبي فيما بلغك عنه فإن كنت فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان فيها رجل أبرّ بوالده منّي وإنّي أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أن انظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر... فأدخل النار. فقال النبي ﷺ: بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا[3].

وإنّه ــ بلا شكّ ــ موقف عظيم... الابن يريد قتل أبيه؛ لأنّ أباه مشاقّ لله ولرسوله... إذ لا وزن عنده لشيء مقابل دين الله وإن كان الأب والأمّ، وإنّما هو الإسلام أمّه وأبوه وكلّ شيء. وإذا حارب أحد أبويه الإسلام كان الابن المسلم متخلياً عن أبويه راجعاً إلى أصله ونسبه الحقيقي الذي أنعم به الله عليه «الإسلام»...

إنّ هذا الموقف لا يصدر إلاّ عن كاملي الإيمان الذين قدّموا دينهم على كلّ شيء، وقدّموا حبّ الله ورسوله ــ أيضاً ــ على كل شيء، وهذا الكمال في الإيمان الذي عبّر عنه النبي ﷺ في قوله: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من ولده

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٣٧٢.

(٢) رواه الترمذي: كتاب التفسير، (٦٤) سورة المنافقون، حديث (٣٣١٥) وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) تفسير ابن جرير الطبري ٢٨/٧٦.

ووالده والناس أجمعين»[١].

وهذا عبد الله بن أبي بن سلول المنافق يؤذي رسول الله ﷺ بالقول فيقول عنه الذليل، فيتصدّى له ابنه، ويريد أن يترجم لأبيه حقيقة أنّه هو الذليل؛ ورسول الله ﷺ هو العزيز، فيرغمه أن يقول ذلك فيقول، ويمنعه من الدخول إلى المدينة حتى يأذن له رسول الله ﷺ، ويفعل فلم يدخل المدينة حتى جاء رسول الله ﷺ وأذن له مثبتاً بذلك أنّ أباه الذليل والرسول هو الكريم العزيز!.

إنّه لقمّة الإيمان وكماله، ولعلّه من الصعب والعسير أن يملك الإنسان عاطفته ويسيّرها كما يريد، وخصوصاً عاطفة البنوّة التي هي من أقوى العواطف المعبّرة عن أقوى الصلات. ولكنّما هي نفس المؤمن الكامل التي لا تعرف سوى رضا ربّها ورضا رسولها منهجاً وطريقاً...

وهكذا يرفع الإسلام أصحابه إلى القمم العليا، وهكذا يصنع الإسلام الرجال. وكما يقول الشهيد سيد قطب: «ألا إنّها لقمّة سامقة تلك التي رفع الإيمان إليها أولئك الرجال. رفعهم إلى هذه القمّة، وهم بعد بشر بهم ضعف البشر، وفيهم عواطف البشر، وخوالج البشر... وهذا هو أجمل وأصدق ما في هذه العقيدة حين يدركها الناس على حقيقتها، وحين يصبحون هم حقيقتها التي تدبّ على الأرض في صورة أناسيّ تأكل الطعام وتمشي في الأسواق...»[٢].

ولعلّه يكفينا ـ ونحن نشاهد هذه المواقف العظيمة ـ لنعرف عظم عقيدة التوحيد، وما ينبغي تجاهها من أصحابها...

ولنعرف ـ كذلك ـ كم بذل صحابة رسول الله من التضحيات في سبيل هذا الدين وبأعزّ ما يملكون... وفي هذا دافع للمؤمنين الصادقين إلى المحافظة على أمر الدين وإلى أن يضحّوا في سبيله بكلّ شيء، حتى تعود للإسلام كلمته وللدين قوّته وعزّته... ولجنده الرفعة والمكانة السامية.

---

(١) رواه البخاري: كتاب الإيمان، باب حبّ الرسول ﷺ من الإيمان، حديث (١٣، ١٤).
ورواه مسلم: كتاب الإيمان، حديث (٦٧).

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ٣٥٧٨/٦.

* ومن البلاغة القرآنية في الآية ما يلي:

- إنّ هذه الآية وردت بلفظ الخبر (لا تجد...) والمراد بها الإنشاء، وهو النهي البليغ والزجر العظيم عن موالاة أعداء الله. وإيراد الإنشاء بلفظ الخبر أقوى وأوكد من إيراده بلفظ الإنشاء كما هو معلوم في محلّه[1].

وبهذه الفائدة البلاغية العظيمة ينتهي كلامنا حول هذه المواقف لصحب رسول الله ﷺ.

وبانتهائنا من هذا الفصل نكون قد ختمنا كلامنا حول هذا الباب الذي يمثّل آخر أبواب بحثنا في القصص بين الآباء والأبناء.

والحمد لله ربّ العالمين.

* * *

---

(١) أضواء البيان للشنقيطي ٧/٨٢٤.

خاتمة البحث

أختم بحثي ـ هذا ـ بذكر أهمّ النتائج المستخلصة من دراستنا لجانب القصص القرآني بين الآباء والأبناء. وسيكون التركيز في هذه النتائج على ما يختصّ ويتصل بجانب الآباء والأبناء مع ذكرنا لأهمّ ما يختصّ بغيره. وهذه النتائج كما يلي:

١ ـ تحدّثنا أوّلاً عن موقف نوح ـ عليه السلام ـ مع ابنه المعارض لدين الله. وأهمّ ما ظهر لنا ـ في هذا الموقف ـ الآتي:

* إنّ على الآباء إدراك مسؤوليتهم العظيمة تجاه أبنائهم في دعوتهم إلى الالتزام بدين الله، ولآخر لحظة من لحظات إمكان التبليغ.

* إنّ من الأسباب القوية في فساد الأبناء البيئة الفاسدة، فيلزم من الآباء توفير البيئة الصالحة داخل البيت وخارجه.

* إنّ عقوق الأبوين أو أحدهما له نتائج سيئة على الابن العاقّ في الدنيا والآخرة. وهذا ما شاهدناه في ابن نوح حين عقّ أباه ولم يجب دعوته؛ فأهلك في الدنيا بالغرق وحقّ القول عليه بالعذاب في الآخرة.

* وفي إجابة الله لنوح: ﴿إنّه ليس من أهلك إنّه عمل غير صالح﴾ يظهر لنا أنّ العبرة بقرابة الدين لا بقرابة النسب.

* إنّ الصلاح لا علاقة له بالوراثة والأنساب.

* إنّه قد يبتلى بعض الصالحين من الآباء بفساد أبنائهم... وفي موقف نوح ـ عليه السلام ـ مع ابنه عزاءٌ لهم...

٢ ـ ثمّ تحدّثنا في الباب الثاني بفصله الأول عن موقف إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع أبيه الكافر، وأهمّ ما نستخلصه منه ما يلي:

* إنّ واجب كلّ داعية أن يبدأ في دعوته مع أهله وأقربائه؛ لأنّها المسؤولية الأولى الواجبة عليه.

* ضرورة حرص الأبناء على إصلاح آبائهم إن وجدوا فيهم انحرافاً، مع مراعاة الأدب في دعوتهم وإصلاحهم من اللطف وحسن الخطاب، والتدرّج والتنوع في الأساليب. وهذا حال الداعية إلى الله... يدعو كلّ إنسان بما يناسب حاله ومكانته.

* ومن عنف آزر مع ابنه إبراهيم ـ مع أنّ الطبيعي أن يكون جانب الآباء أكثر شفقة من جانب الأبناء ـ يظهر لنا أثر البعد عن الله في تغيير الفطرة البشرية والطبيعة الإنسانية.

* إنّ على الآباء أن يكونوا مصدراً لدعوة أبنائهم إلى الحقّ؛ لا إلى الضلال.

* إنّ على الأبناء إذا ابتلوا بآباء يدعونهم إلى الضلال فعليهم أن ينهجوا نهج إبراهيم عليه السلام. إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

* وتكلّمنا من بعد عن موقفه ـ عليه السلام ـ مع أبنائه. فشهدناه في موقف البشارة بابنه إسماعيل... وقد طلبه من الله صالحاً ليعينه على أمر الدعوة... وهذا ما ينبغي أن يطلبه الآباء ويسعوا جاهدين في تحقيقه.

* كما أنّ على الآباء أن يشعروا بضرورة أن يكون أبناؤهم ممّن يقومون بواجب الدعوة، وليسعوا في إعدادهم لهذا الأمر.

* ثم شهدناه وهو يترك ابنه وزوجه في واد غير ذي زرع تلبية لأمر الله... وإذ لم تمنعه عاطفة الأبوّة عن طاعة الله. فكان مثالاً لكلّ الآباء في تقديم طاعة الله على ما تنعطف عليه النفس من الولد والزوجة.

* كما أنّا شاهدنا هاجر ـ زوجه ـ في إعانته على الطاعة، ولم يمنعها خوفها على هلاك ابنها وهلاكها من التردّد في الاجابة (إذن لا يضيّعنا)، فكانت قدوة لكل زوجة في ثقتها بالله وإعانة زوجها على طاعة الله.

* وشهدناه ـ عليه السلام ـ مرّة أخرى وهو يريد ذبح ابنه طاعة لأمر الله... فكان

مثلاً لما ينبغي أن يكون عليه الآباء من حسن عرض أوامر الله على أبنائهم ليوطّنوهم على الامتثال (فانظر ماذا ترى). . .

* كما أنّا شاهدنا موقف الابن البارّ المضحّي بنفسه ـ من إسماعيل ـ في سبيل طاعة الله وطاعة أبيه.

* ثمّ شهدنا موقفهما ـ عليهما السلام ـ وهما مجتمعان على طاعة الله في بناء بيته ويظهر لنا من هذا الموقف العظيم أن من أفضل الأحوال في الآباء والأبناء أن يكون كلاهما مجتهداً في طاعة الله. . .

* وهذه أعظم سعادة للآباء حيث أنّهم يرون أبناءهم صالحين مثلهم، وهي ـ أيضاً ـ أعظم سعادة بالنسبة للأبناء حيث يرون أباءهم على منهج الله. . . ففي هذا الأمر سعادة الجميع.

* وفي دعائهما لذريّتهما تعليم لكلّ أب في أن يدعو بذلك.

* ثمّ شاهدنا منّة الله وإعجازه في تبشير إبراهيم بإسحاق بعد أن كانت زوجه عاقراً لا تلد، وهو قد كبر سنّه. وأعظم نتيجة لهذا الحدث هو أنّ إرادة الله، مطلقة لا يحدّها شيء من النواميس؛ إذ أنّ الناموس يجري وينفذ بقدر من الله في كلّ مرّة ينفذ فيها، فإذا قدّر الله في مرّة أن يجريه بصورة أخرى كان ما أراد ـ سبحانه ـ من قدره. . .

* ثمّ تعرضنا أخيراً لمشهد وصيته لأبنائه أجمعين ونستنتج منها: ضرورة تعهّد الآباء أبناءهم بالوصايا الدينية المهمّة. وعلى أنّ الوصيّة بعقيدة التوحيد وبما تشتمل عليه من سلوك هي أُهمّ ما يوصي به الآباء أبناءهم في كلّ أطوار حياتهم.

٣ ـ ثم كان الباب الثالث في قصة يعقوب ـ عليه السلام ـ مع أبنائه. وأهمّ النتائج فيه ما يلي:

* ضرورة مراعاة الآباء للحالة النفسية بين الأبناء، والعدل بينهم، وعدم إظهار تفضيل أحدهم على الآخر، فهذا ممّا يحفظ أخوّتهم.

* ضرورة معالجة أخطاء الأبناء بحكمة من قِبَل الآباء.

* ينبغي على الأبناء أن يحرصوا على عدم إدخال الحزن على آبائهم.

* على الآباء قطع كلّ الأسباب المؤدّية إلى احتمال إصابة أبنائهم بأيّ سوء، فهذا من واجبات الآباء تجاه أبنائهم. ونشهد هذا في موقف يعقوب ـ عليه السلام ـ حين طلب إخوة يوسف اصطحاب أخيهم بنيامين معهم فقال: ﴿هل آمنكم عليه إلّا كما أمنتكم على أخيه من قبل. . .﴾، وكذلك حين أمرهم أن يدخلوا مصر من أبواب متفرّقة لا من باب واحد ليصرف عنهم العين.

* إنّ ما وصل إليه يعقوب من فقده لبصره نتيجة الحزن على يوسف ليعطينا دلالة كافية على فضل الآباء على الأبناء وعظم حقّهم عليهم.

* إنّ الرأفة والرحمة بالأولاد وقبول معذرتهم أمر مطلوب من الآباء ـ خصوصاً إذا شهدوا صدق حالهم ـ وهذا ما كان من أمر يعقوب مع أبنائه حين صلح حالهم ﴿قال سأستغفر لكم ربي﴾، فإنّه ممّا يثلج صدور الآباء رجوع أبنائهم عن الخطأ؛ والعبرة في حال العبد بكمال النهاية لا بنقص البداية.

* وجوب إكرام واحترام وتقدير الأبوين، فهذا يوسف ـ عليه السلام ـ رفع أبويه على سريره وأجلسهما عليه. . . فإنّه مهما بلغ الإنسان من مكانة ومنزلة فإنّ أبويه هما أبواه وهو ابنهما فعليه حقّ برّهما واحترامهما.

* ثمّ نرى حاله ـ عليه السلام ـ عند احتضاره في وصيته لأبنائه. . . في اطمئنانه على التركة والإرث . . . تركة العقيدة والدين. وهذه هي التركة الحقيقية التي ينبغي أن تشغل بال الآباء في حرصهم على إيصالها لأبنائهم، وفي الاطمئنان على وجودها.

٤ ـ ثم تناولنا قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع أمّه وأهمّ ما نستخلصه منها من نتائج ما يلي:

* الإشارة إلى عظم حقّ الأمّ لما لها من كبير العاطفة على أبنائها، فينبغي بالتالي مراعاة الأبناء لعاطفة الأمومة.

* إنّ الخوف الطبيعي لا ينافي الإيمان ولا يزيله ﴿فإذا خفت عليه﴾.

* إنّ حال المؤمن الصادق أن يكون واثقاً بأمر الله ووعده، فثقة أمّ موسى بوعد الله هي التي جعلتها تلقي بابنها الرضيع في اليمّ.

* إنّ الله إذا أراد أمراً هيّأ أسبابه المفضية إليه بترتيب وتدرّج محكم. فالله أراد

هلاك فرعون والأخذ بناصر المستضعفين، فكانت حياة موسى كلّها وتنقّله من حال إلى حال إشارة إلى هذا.

٥ ــ وفي الباب الخامس تحدّثنا عن قصة فتاتي مدين مع أبيهما وأهمّ النتائج منها ما يلي:

* ضرورة تحلّي الفتيات بخلق الحياء، لما فيه من إغلاق باب الفتن والفساد.

* ضرورة اعتناء الآباء بتربية بناتهم ــ عناية خاصّة ــ على الطهر والعفاف وتقوى الله.

* ينبغي أن لا يمنع الآباء بناتهم من حقّ إبداء آرائهنّ فيما فيه وجه للرأي، وهذا ما شاهدناه في قول الفتاة مبدية لرأيها ﴿يا أبت استأجره...﴾. وهذا الجانب مهمّ في التربية إذ يهيِّىء الفتاة من بعد لمواجهة ظروف الحياة المتغيّرة واتخاذ القرار المناسب، كما أنّ هذا يكسبها الثقة بنفسها وعدم الضعف أمام أيّ متغيّر.

٦ ــ ثمّ جاء الحديث في الباب السادس عن داود وابنه سليمان ــ عليهما السلام ــ ويظهر لنا فيه ما يلي:

* إنّ العلم أمر ينبغي أن يتنبّه إليه الآباء، فعليهم أن يحرصوا أن يكون أبناؤهم من طلّاب العلم ــ وهذا حال السلف الصالح مع أبنائهم ــ وعليهم بالتالي أن ييسّروا لهم كلّ سبل تلقّي العلم وأن يشجّعوهم على ذلك كلّ التشجيع.

* كما أنّ على الآباء أن لا ينسوا هذا الفضل لأنفسهم، فإنّ أفضل الأحوال أن يكون الأب وأبناؤه طلاباً للعلم مجتهدين فيه كلّ الاجتهاد.

* ضرورة العلم بالنسبة للدعاة إلى الله ــ خاصة ــ إذ أنّ فاقد الشيء لا يعطيه، وهذا ما كان من إيتاء الله العلم لداود وسليمان وهما كانا من الدعاة إلى الله.

* وفي حكمهما في قضيّة الزرع استنتجنا أنّه لا مانع من أن يقول الولد الصواب ويُعْلم أباه به ولو كان قد رأى الأب ما يخالف رأي الابن؛ فالغاية هي الوصول إلى الحقّ والصواب.

* وأنّ على الآباء أن يستمعوا لآراء أبنائهم، بل واستشارتهم ــ إن لزم الأمر ــ ومعرفة آرائهم؛ فلعلّ الله يجعل الحقّ على ألسنتهم.

* إنّ على الأبناء إذا أرادوا عرض آرائهم على آبائهم فليعرضوها بكلّ أدب وهذا ما شاهدناه في قول سليمان لأبيه: إنّي رأيت ما هو أرفق بالجميع.

* إنّ خير الإرث إرث الأنبياء، وهو العلم.

٧ ــ ثمّ عرضنا في الباب السابع لموقف الموعظة والإرشاد من جانب لقمان لابنه ولنا فيه ما يلي:

* إنّ الوضع السليم بين الآباء والأبناء هو أن يكون الآباء دائماً في إرشاد أبنائهم، وهذا هو السير الصحيح في طريق التربية... الوعظ وبشتّى الأساليب والوسائل. وقد ذكرنا عدداً من طرق الوعظ، إذ أنّه لا يقتصر الوعظ والإرشاد على الخطاب الكلامي المباشر فحسب.

* ينبغي أن تكون مواعظ الآباء لأبنائهم شاملة لكلّ أمور الدين وجوانبه، فلا يُقتصر على جانب معيّن وتترك الجوانب الأخرى، وهذا ما لمحناه في موعظة لقمان لابنه ففيها العقيدة والسلوك والمعاملات وغيرها...

* إنّه يجب أن تبدأ المواعظ بأهمّ الأمور وهو أمر العقيدة...

٨ ــ وانتقلنا بعد ذلك في الحديث عن زكريا وابنه يحيى عليهما السلام. وأهمّ النتائج التي نستوحيها من هذا الباب ما يلي:

* إنّ حبّ الولد فطرة في النفس البشرية، وتلك هي سنة المرسلين، فكثير منهم ذكر القرآن عنهم طلبهم للولد، وهذا نبيّ الله زكريّا يطلب من الله الولد.

* ونشهد كذلك ــ هنا ــ طلاقة المشيئة الربانية.

* ضرورة تسمية الأبناء بالأسماء الحسنة، والأسماء الحسنة المبتكرة لها ميزة فريدة عن غيرها.

* إنّ المؤمن ينبغي أن لا يسوؤه إذا لم يهب الله له ولداً، فلعلّ الله قد جعل له في ذلك خيراً وصرف عنه شرّاً.

* أهمّية ذكر الله وفضله في كلّ حال... وقد تكلّمنا عن فضيلة الذكر بما فيه الكفاية والحمد لله.

* ضرورة حمل الدعاة لما حمله الأنبياء والمرسلون من مؤهلات الدعوة والتبليغ

(العلم والحكمة ــ الشفقة والحنان على الناس ــ إصلاح النفس وتزكيتها ــ إصلاح الآخرين ــ مراقبة الله وخشيته ــ الجدية في أمر الدعوة) وهذا ما حمله يحيى ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوّة. . .﴾ الآيات.

٩ ــ ثمّ تكلّمنا في الباب التاسع بفصله الأول عن قصة مريم ــ عليها السلام ــ مع أمّها وأهمّ النتائج فيه ما يلي:

* إنّه يجوز أن ينذر الآباء أبناءهم لعبادة الله، أو لتعليم شرع الله ــ أو ما إلى ذلك من الطاعات ــ ولا يشغلوهم بغيرها.

* لا بدّ أن يهتمّ الآباء بجانب الصلة الروحية بالله عند أبنائهم ويتفقّدوا أحوالهم دائماً في هذا الجانب، لأنّ الصلة بالله عزّ وجلّ هي أساس الخير وهي أعظم مدد للإنسان في حياته ودعوته.

* إنّ رضى أمّ مريم بقدر الله، بأن وهبها الله أنثى مع أنّها كانت تريده أن يكون ذكراً؛ ليدلّ على إيمانها وإخلاصها. وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حال المؤمن من الرضا بما قدّر الله.

* إنّه لا بدّ من الاهتمام بالآداب النبوية في تسمية الولد وتعويذه وغير ذلك ممّا يكون عند الولادة وبعدها.

* ثمّ انتقلنا فيما بعد في الفصل الثاني للحديث عن مريم بنت عمران مع ابنها عيسى عليهما السلام ولنا هنا ما يلي:

* كانت مريم بنت عمران ــ وما تزال ــ مثالاً رائعاً لكل فتاة تريد التقرّب إلى الله وبلوغ رضاه. كما أنّها مثال في التقوى والطهر والعفاف.

* ظهور براءة مريم على لسان ابنها عيسى هو مظهر من مظاهر تأييد الله لها وكرامته إيّاها.

* إنّ هذه القصة بما فيها حجّة قويّة لإبطال كل ما يزعمه النصارى حول عيسى عليه السلام وأمّه.

١٠ ــ وكان آخر أبواب البحث يعالج الآيات التي كان سبب نزولها مواقف للصحابة ــ رضي الله عنهم ــ مع آبائهم أو أبنائهم وأهمّ ما نذكره هنا ما يلي:

* إنّ برّ الوالدين صفة أساسية دائمة من صفات المؤمن، فينبغي أن لا ينشغل الابن عن برّ أبويه في أيّ فترة من فترات حياته التي يكون فيها مظنّة للشغل في أمور العيش والحياة.

* إنّ حقّ الأمّ أعظم من حقّ الأب. وهذا ما شهد به القرآن والسنّة.

* قد يبتلى المؤمن بأحد أبويه أو كليهما، ليصدّاه عن دين الله... وهما يستخدمان معه سلاح العاطفة والرّحم... فما على المؤمن إلاّ أن يذكر مواقف صحب رسول الله ﷺ في ثباتهم على هذا الدين.

* إنّ أمر العقيدة لا يقبل المساومة. وإنّما هو موقف واحد لا يتغيّر. فعقيدة التوحيد هي أعزّ ما يملكه الإنسان.

* إنّ الولاء لا يكون إلاّ للمؤمنين ﴿إنّما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا...﴾.

* إنّ القاعدة الثابتة في هذا الدين هي المفاصلة بين حزب الله وحزب الشيطان.

* وإنّ بهذه المواقف ليدرك الواحد منّا عظم أمر عقيدة التوحيد، وما ينبغي تجاهها في الحفاظ عليها من أصحابها.

وأقول في نهاية خاتمتنا هذه: إنّ قصص القرآن الكريم فوائده عظيمة ولا تنتهي، وهذا هو شأن كتاب الله كلّه. وإنّ الذي يأتي من بعد ويفتح الله عليه سيُخرج ما لم يُخرجه غيره من هذه العبر والفوائد. وإنّ جانباً واحداً ـ بدراسة متواضعة ـ من جوانب القصص القرآني وهو ما كان بين الآباء والأبناء أخذ ما أخذ من الكلام! وهنا يقف الإنسان مستشعراً عظمة كتاب الله عزّ وجلّ وعلوّه.

وهذا القصص القرآني هو جزء من كتاب الله فكيف بكتاب الله كلّه!!!

وما ذلك إلاّ ليعلم الناس أنّ هذا الكتاب العظيم هو الذي ينبغي أن يهيمن على سائر شؤون الحياة الخاصّة والعامّة. وإنّها للسعادة في الدنيا والآخرة.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

والحمد لله ربّ العالمين.

* * *

مراجع البحث

١ ــ أحكام القرآن: الكيّا الهرّاسي، عماد الدين بن محمد الطبري. الطبعة الأولى . ٤ ج . بيروت ــ لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٢ ــ أحكام القرآن: الجصّاص، أبو بكر بن علي الرازي. الطبعة الأولى . ٣ ج . لاهور ــ باكستان: سهيل اكيديمي.

٣ ــ أحكام القرآن: ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله. تحقيق: علي محمد البجاوي. ٤ مج. القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٤ ــ أحكام القرآن: الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس. جمعه: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي. كتب هوامشه: عبد الغني عبد الخالق . ٢ ج . بيروت ــ لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

٥ ــ أخلاقية الداعية: علوان: عبد الله ناصح. الطبعة الأولى. بيروت ــ حلب ــ القاهرة: دار السلام، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

٦ ــ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: أبو السعود، محمد بن محمد العمادي. ٩ ج . بيروت ــ لبنان: دار إحياء التراث العربي.

٧ ــ أسباب نزول القران: الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد. تحقيق: السيد أحمد صقر. الطبعة الثانية. جدة ــ المملكة العربية السعودية: دار القبلة للثقافة الإسلامية، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

٨ ــ الأسرة المثلى في ضوء القرآن والسنّة: نجيب، عمارة. الطبعة الأولى. الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

٩ ــ أصول الدعوة: زيدان، عبد الكريم. الطبعة الثالثة. مكتبة المنار الإسلامية، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

١٠ ــ أصول الفقه: أبو زهرة، محمد. القاهرة: دار الفكر العربي.

١١ ــ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني. ١٠ مج. طبع على نفقة الأمير أحمد بن عبد العزيز آل سعود، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.
١٢ ــ إعجاز القرآن: الخطيب، عبد الكريم. الطبعة الثانية. بيروت: دار المعرفة، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.
١٣ ــ الإكليل في استنباط التنزيل: السيوطي، جلال الدين. بيروت: دار الكتب العلمية.
١٤ ــ الأمومة في القرآن الكريم والسنة النبوية: الزعبلاوي، محمد السيد محمد. الطبعة الأولى. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
١٥ ــ أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي. ٥ ج. بيروت: مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع..
١٦ ــ البداية والنهاية: ابن كثير، إسماعيل بن عمر. تحقيق: أحمد أبو ملحم ــ علي نجيب عطوي ــ فؤاد السيد ــ مهدي ناصر الدين ــ علي عبد الساتر. الطبعة الأولى. ١٤ مج. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
١٧ ــ برّ الوالدين في القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة: سكجها، نظام. الطبعة الثانية. عمّان ــ الأردن: المكتبة الإسلامية، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
١٨ ــ البرهان في علوم القرآن: الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الطبعة الثالثة. ٤ مج. القاهرة: دار الفكر، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.
١٩ ــ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: الفيروزابادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. تحقيق: محمد علي النجّار. ٦ مج. بيروت: دار الكتب العلمية.
٢٠ ــ تأمّلات في سورة مريم: باجودة، حسن محمد. القاهرة: دار النصر للطباعة الإسلامية. دار الاعتصام، ١٩٧٨م.
٢١ ــ تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم. تحقيق: السيد أحمد صقر. الطبعة الثانية. القاهرة: دار التراث، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.
٢٢ ــ تبصير الرحمن وتيسير المنّان: المهايمي، علي بن أحمد بن إبراهيم. الطبعة الثانية. ٢ مج. بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
٢٣ ــ تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: المباركفوري، أبو العلى محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم. أشرف على طباعته: عبد الوهاب عبد اللطيف. الطبعة الثالثة. ١٠ مج. بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

٢٤ ــ تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب: الأندلسي، أثير الدين أبو حيّان. تحقيق: سمير المجذوب. الطبعة الأولى. بيروت ــ دمشق: المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٢٥ ــ تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف: المزّي، يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن يوسف. تحقيق: عبد الصمد شرف الدين، إشراف: زهير الشاويش. الطبعة الثانية. ١٤ مج. بمباي ــ الهند: الدار القيّمة، بيروت ــ دمشق: المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٢٦ ــ تربية الأولاد في الإسلام: علوان، عبد الله ناصح. الطبعة الثالثة. ٢ مج. بيروت: دار السلام، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

٢٧ ــ ترتيب القاموس المحيط: الزاوي، الطاهر أحمد. الطبعة الثالثة. ٤ مج. بيروت: دار الفكر.

٢٨ ــ التسهيل لعلوم التنزيل: ابن جزي الكلبي، محمد بن أحمد. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٢٩ ــ تفسير البحر المحيط: أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي الغرناطي. الطبعة الثانية. ٨ مج. بيروت: دار الفكر، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٣٠ ــ تفسير التحرير والتنوير: ابن عاشور، محمد الطاهر. ٣٠ ج. تونس: الدار التونسية للنشر ــ الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٤م.

٣١ ــ تفسير الجلالين: السيوطي ــ المحلّي، جلال الدين. الطبعة الأولى. بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٣٢ ــ تفسير روح البيان: البرسوي، إسماعيل حقي. ١٠ مج. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٣٣ ــ تفسير غريب القرآن: ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم. تحقيق: السيد أحمد صقر. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

٣٤ ــ تفسير القرآن العظيم: إبن كثير، إسماعيل بن عمر. ٤ مج. بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

٣٥ ــ التفسير القيم: ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي. جمعه: محمد أويس الندوي. حقّقه: محمد حامد الفقي. بيروت: دار العلوم الحديثة.

٣٦ ـ تفسير المراغي: المراغي، أحمد مصطفى. ٣٠ج . بيروت: دار إحياء التراث العربي.
٣٧ ـ تفسير المنار: رضا، محمد رشيد. الطبعة الثانية. ١٢ج . بيروت: دار المعرفة.
٣٨ ـ تفسير النسفي: النسفي، عبد الله بن أحمد بن محمود. ٤ ج . بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٠٢هـ / ١٩٨٢م.
٣٩ ـ التفسير الواضح: حجازي، محمد محمود. الطبعة الأولى. ٢ مج. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
٤٠ ـ التفسير والمفسرون: الذهبي، محمد حسين. الطبعة الثانية. ٢ مج. القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.
٤١ ـ تفصيل آيات القرآن الكريم: وضعه بالفرنسية جول لابوم، نقله إلى العربية محمد فؤاد عبد الباقي. الطبعة الثانية. بيروت: دار الكتاب العربي.
٤٢ ـ تقريب التهذيب: ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي. تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف. الطبعة الثانية. ٢ مج. بيروت: دار المعرفة، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.
٤٣ ـ تهذيب مدارج السالكين: العزّي، عبد المنعم صالح العلي. وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف ـ دولة الأمارات المتحدة.
٤٤ ـ تيسير الرحمٰن في تفسير كلام المنّان: السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. تحقيق: محمد زهري النجار. ٧ ج. الرياض: الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ١٤٠٤هـ.
٤٥ ـ التيسير في القراءات السبع: الداني، أبو عمر عثمان بن سعيد. عني بتصحيحه: أوتوبرتزل. الطبعة الثانية. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
٤٦ ـ جامع البيان في تفسير القرآن: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. ٣٠ ج . بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
٤٧ ـ الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري. الطبعة الثانية. ٢٠ ج . بيروت: دار الكتاب العربي.
٤٨ ـ جامع النقول في أسباب النزول: عليوي، ابن خليفة. الطبعة الأولى. ٢ مج. الرياض ـ المملكة العربية السعودية: مطابع الإشعاع، ١٤٠٤هـ.
٤٩ ـ الجواهر الحسان في تفسير القرآن: الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف. ٤ مج . بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

٥٠ ـ حاشية الصاوي على تفسير الجلالين: الصاوي، أحمد بن محمد. ٤ مج. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٥١ ـ حجة القراءات: ابن زنجلة، أبو زرعة عبد الرحمن بن محمد. حققه وعلّق عليه: سعيد الأفغاني. الطبعة الثانية. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

٥٢ ـ درّة التنزيل وغرّة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز: الخطيب الإسكافي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله. الطبعة الثانية. بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٧م.

٥٣ ـ الدرّ المنثور في التفسير المأثور: السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين. الطبعة الأولى. ٨ مج. بيروت: دار الفكر، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٥٤ ـ دستور الأخلاق في القرآن: دراز، محمد عبد الله. تحقيق وتعريب وتعليق: عبد الصبور شاهين. مراجعة: السيد محمد البدوي. الطبعة الرابعة. بيروت: مؤسسة الرسالة، الكويت: دار البحوث العلمية، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

٥٥ ـ دعوة الرسل إلى الله تعالى: العدوي، محمد أحمد. بيروت: دار المعرفة، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

٥٦ ـ الدعوة إلى الله في سورة إبراهيم الخليل عليه السلام: ابن الحبيب، محمد بن سيدي. الطبعة الأولى. جدة ـ المملكة العربية السعودية: دار الوفاء، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

٥٧ ـ دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية: تحقيق: محمد السيد الجليند. الطبعة الثانية. ٦ ج. دمشق ـ بيروت: مؤسسة علوم القرآن، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

٥٨ ـ دلائل الإعجاز: الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد. تعليق: محمود محمد شاكر. القاهرة: مكتبة الخانجي ـ مطبعة المدني.

٥٩ ـ دور المنهج الربّاني في الدعوة الإسلامية: النحوي، عدنان. الدمام ـ المملكة العربية السعودية: دار الإصلاح.

٦٠ ـ الرؤى والأحلام: البيانوني، أحمد عز الدين. الطبعة الثانية. سوريا: دار السلام، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

٦١ ـ الرسل والرسالات: الأشقر، عمر سليمان. الطبعة الأولى. بيروت: دار النفائس ـ الكويت: مكتبة الفلاح، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

٦٢ ــ روائع البيان تفسير آيات الأحكام من القرآن: الصابوني، محمد علي. الطبعة الثانية. ٢ مج. دمشق: الوكالة العامة للتوزيع ــ مكتبة الغزالي، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

٦٣ ــ روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني: الآلوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود. ٣٠ ج. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٦٤ ــ زاد المسير في علم التفسير: ابن الجوزي، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد. الطبعة الثالثة. ٩ مج. دمشق ــ بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

٦٥ ــ زاد المعاد في هدي خير العباد: ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي. تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرنؤوط. الطبعة السادسة. ٥ مج. بيروت: مؤسسة الرسالة ــ مكتبة المنار الإسلامية، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

٦٦ ــ سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام: الصنعاني، محمد بن إسماعيل الأمير اليمني. صححه وعلق عليه: محمد عبد العزيز الخولي. ٤ ج. القاهرة: مكتبة عاطف.

٦٧ ــ سلسلة الأحاديث الصحيحة: الألباني، محمد ناصر الدين. الطبعة الثالثة. ٤ مج. بيروت ــ دمشق: المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٦٨ ــ سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: الألباني، محمد ناصر الدين. الطبعة الرابعة. ٢ ج. بيروت ــ دمشق: المكتب الإسلامي، ١٣٩٨هـ.

٦٩ ــ سنن أبي داود: أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي. إعداد وتعليق: عزت عبيد الدعاس ــ عادل السيد. الطبعة الأولى. ٥ مج. سوريا ــ لبنان: دار الحديث، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م.

٧٠ ــ سنن ابن ماجه: ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. ٢ مج. بيروت: دار الفكر.

٧١ ــ سنن الترمذي: الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة. تحقيق: أحمد محمد شاكر ــ محمد فؤاد عبد الباقي ــ إبراهيم عطوة عوض. ٥ مج. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٧٢ ــ سنن الدارقطني: الدارقطني، علي بن عمر. تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني المدني. ٤ ج. القاهرة: دار المحاسن للطباعة.

٧٣ ــ سنن الدارمي: الدارمي، أبو محمد عبد الله بن بهرام. ٢ مج. القاهرة: دار الفكر، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

٧٤ ــ سنن النسائي: النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر بن سنان بن دينار. اعتنى به ورقمه وصنع فهارسه: عبد الفتاح أبو غدة. الطبعة الأولى. ٩ ج. بيروت ــ لبنان: دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع ــ الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

٧٥ ــ السيرة النبوية دروس وعبر: السباعي، مصطفى. الطبعة الرابعة. بيروت: المكتب الإسلامي، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

٧٦ ــ شرح العقيدة الطحاوية: أبو العز، علي بن علي بن محمد. تحقيق: شعيب الأرنؤوط. الطبعة الأولى. دمشق: دار البيان للنشر ــ الطائف: مكتبة المؤيد للتوزيع، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

٧٧ ــ صحيح البخاري: البخاري، أبو عبد الله محمد بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ابن بردزبة. الطبعة الرابعة. ٩ ج. بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

٧٨ ــ صحيح مسلم بشرح النووي: القشيري، مسلم بن الحجاج ــ النووي، يحيى بن شرف. تحقيق وإشراف: عبد الله أحمد أبو زينة. ٥ مج. القاهرة: كتاب الشعب.

٧٩ ــ الصحيح المسند من أسباب النزول: الوادعي، مقبل بن هادي. الطبعة الثانية. الكويت: دار الأرقم.

٨٠ ــ صفوة التفاسير: الصابوني، محمد علي. الطبعة الرابعة. ٣ مج. بيروت: دار القرآن الكريم، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

٨١ ــ العدّة شرح العمدة: المقدسي، بهاء الدين عبد الرحمن بن إبراهيم. الرياض: مكتبة الرياض الحديثة.

٨٢ ــ علاقة الآباء بالأبناء في الشريعة الإسلامية ــ دراسة فقهية مقارنة: الصالح، سعاد إبراهيم. الطبعة الثانية. جدة ــ المملكة العربية السعودية: تهامة، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

٨٣ ــ علوم البلاغة: المراغي، أحمد مصطفى. راجعه: أبو الوفا مصطفى المراغي. الطبعة الخامسة. القاهرة: المكتبة المحمودية التجارية.

٨٤ ــ علوم القرآن: زرزور، عدنان محمد. الطبعة الثانية. بيروت ــ دمشق: المكتب الإسلامي، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

٨٥ ــ العمدة في غريب القرآن: القيسي، أبو محمد مكي بن أبي طالب. تحقيق: يوسف

عبد الرحمن المرعشلي. الطبعة الثانية. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
٨٦ ــ العوائق: الراشد، محمد أحمد. الطبعة الثانية. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.
٨٧ ــ الغاية في القراءات العشر: النيسابوري، أبو بكر أحمد بن الحسين بن مهران. تحقيق: محمد غياث الجنباز. الطبعة الأولى. الرياض: شركة العبيكان للطباعة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
٨٨ ــ غريب القرآن وتفسيره: الزيدي، أبو عبد الرحمن عبد الله بن يحيى بن المبارك. تحقيق: محمد سليم الحاج. الطبعة الأولى. بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
٨٩ ــ فتح الباري شرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي. قرأ أصله تصحيحاً وتحقيقاً: عبد العزيز بن باز ــ رقمه: محمد فؤاد عبد الباقي ــ أشرف على طبعه: محب الدين الخطيب. ١٣ مج. الرياض: مكتبة الرياض الحديثة.
٩٠ ــ الفتح الربّاني ترتيب مسند الإمام أحمد: البنّا، أحمد عبد الرحمن. ٢٤ ج. القاهرة: دار الشهاب.
٩١ ــ فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: الأنصاري، أبو يحيى زكريا. تحقيق: محمد علي الصابوني. الطبعة الأولى. بيروت: دار القرآن الكريم، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
٩٢ ــ فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية في علم التفسير: الشوكاني، ابن علي بن محمد. ٥ مج. بيروت: دار المعرفة.
٩٣ ــ الفتوحات الإلّهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية: الجمل، سليمان بن عمر العجيلي الشافعي. ٤ مج. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
٩٤ ــ فقه الدعوة في إنكار المنكر: البلالي، عبد الحميد. راجعه وقدّم له: سالم البهنساوي. الطبعة الأولى. الكويت: دار الدعوة، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
٩٥ ــ فقه السنة: سابق، السيد. الطبعة الأولى. ١٤ ج. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م.
٩٦ ــ الفقه الإسلامي وأدلّته: الزحيلي، وهبة. الطبعة الثانية. ٨ ج. دمشق: دار الفكر، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

٩٧ ــ في ظلال القرآن: قطب، سيد. الطبعة السادسة. ٦ مج. بيروت ــ القاهرة: دار الشروق، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.
٩٨ ــ فيض القدير شرح الجامع الصغير: المناوي، عبد الرؤوف. الطبعة الثانية. ٦ مج. بيروت: دار المعرفة ١٣٩١هـ / ١٩٧٢م.
٩٩ ــ قصص الأنبياء: ابن كثير، إسماعيل بن عمر. تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز. ٢ مج. القاهرة: دار مصر للطباعة ــ دار الحديث.
١٠٠ ــ قصص الأنبياء: النجار، عبد الوهاب. الطبعة الثالثة. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
١٠١ ــ القصص الرمزي في القرآن: جمال، أحمد محمد. الطبعة الرابعة. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
١٠٢ ــ القصة في القرآن الكريم: السباعي، مريم عبد القادر عبد الله. رسالة دكتوراة بجامعة أمّ القرى، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
١٠٣ ــ قصص القرآن: جاد المولى، محمد أحمد. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.
١٠٤ ــ قصص القرآن: محمد أحمد جاد المولى ــ محمد أبو الفضل إبراهيم ــ علي محمد البجاوي ــ السيد شحاتة. بيروت: دار الفكر.
١٠٥ ــ القصص القرآني في منطوقه ومفهومه: الخطيب، عبد الكريم. بيروت: دار المعرفة.
١٠٦ ــ قصص من التنزيل: عسّاف، أحمد محمد. الطبعة الأولى. بيروت: دار لبنان للطباعة والنشر، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
١٠٧ ــ الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة: الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز. الطبعة الأولى. ٣ مج. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
١٠٨ ــ كتابة البحث العلمي ومصادر الدراسات الإسلامية: أبو سليمان، عبد الوهاب إبراهيم. الطبعة الثانية. جدة: دار الشروق، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
١٠٩ ــ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر. ٤ مج. بيروت: دار المعرفة.
١١٠ ــ لباب التأويل في معاني التنزيل: الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي. ٧ ج. بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

١١١ ــ لباب النقول في أسباب النزول: السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين. الطبعة الثالثة. بيروت: دار إحياء العلوم، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

١١٢ ــ لسان العرب: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمدّ بن مكرم. ١٥ مج. بيروت: دار الفكر ــ دار صادر.

١١٣ ــ لسان الميزان: ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي. الطبعة الثانية. ٧ مج. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٣٩٠هـ / ١٩٧١م.

١١٦ ــ متشابه القرآن: الهمذاني، عبد الجبار بن أحمد. تحقيق: عدنان محمد زرزور. القاهرة: دار التراث.

١١٧ ــ مجاز القرآن: ابن المثنّى التيمي، أبو عبيدة معمر. علق عليه: محمد فؤاد سزكين. الطبعة الثانية. ٢ مج. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

١١٨ ــ محاسن التأويل: القاسمي، محمد جمال الدين. علق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي. الطبعة الثانية. ١٧ ج. بيروت: دار الفكر، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

١١٩ ــ مختصر سنن أبي داود: المنذري، عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله بن سلامة بن سعد. تحقيق: أحمد محمد شاكر ــ محمد حامد الفقي. ٨ مج. بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

١٢٠ ــ مختصر منهاج القاصدين: ابن قدامة المقدسي، أحمد بن عبد الرحمن. تعليق: شعيب وعبد القادر الأرنؤوط. دمشق: مكتبة دار البيان، بيروت ــ دمشق: مؤسسة علوم القرآن، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

١٢١ ــ مدارج السالكين: ابن قيّم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي. تحقيق: محمد حامد الفقي. ٣ مج. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.

١٢٢ ــ مذكرة أصول الفقه على روضة الناظر لابن قدامة: الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار. المدينة المنورة: المكتبة السلفية.

١٢٣ ــ المستدرك على الصحيحين: الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله. ٤ مج. بيروت: دار الكتاب العربي.

١٢٤ ــ مع الأنبياء في القرآن الكريم: طبّارة، عفيف عبد الفتاح. الطبعة الحادية عشرة. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٢م.

١٢٥ ـ معالم التنزيل: البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء. (على هامش الخازن).

١٢٦ ـ معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم: الديلمي، عبد الوهاب بن لطف. الطبعة الأولى. ٢ مج. جدة: دار المجتمع، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

١٢٧ ـ معاني الحروف: الرمّاني، أبو الحسن علي بن عيسى. تحقيق: عبد الفتاح إسماعيل شلبي. الطبعة الثالثة. جدة: دار الشروق، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

١٢٨ ـ معاني القرآن: الأخفش، سعيد بن مسعدة البلخي المجاشعي. دراسة وتحقيق: عبد الأمير محمد أمين الورد. الطبعة الأولى. ٢ مج. بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

١٢٩ ـ معاني القرآن: الفرّاء، أبو زكريا يحيى بن زياد. الطبعة الثالثة. ٣ مج. بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٣هـ.

١٣٠ ـ المعجزة الكبرى «القرآن»: أبو زهرة، محمد. القاهرة: دار الفكر العربي ـ دار غريب للطباعة.

١٣١ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: عبد الباقي، محمد فؤاد. استانبول ـ تركيا: المكتبة الإسلامية، ١٩٨٤م.

١٣٢ ـ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي: الاتحاد الأممي للمجامع العلمية، وضعه مجموعة من المستشرقين، ونشره: أ. ي. ونسنك. ٧ مج. استانبول ـ تركيا: المكتبة الإسلامية.

١٣٣ ـ مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): الفخر الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين. الطبعة الثالثة. ٣٠ ج. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

١٣٤ ـ مفتاح كنوز السنة: وضعه بالإنكليزية: أ. ي. فنسنك، نقله إلى العربية: محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

١٣٥ ـ المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد. تحقيق: محمد سيد كيلاني. بيروت: دار المعرفة.

١٣٦ ـ ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل: الثقفي العاصمي الغرناطي، أحمد بن إبراهيم بن الزبير. تحقيق: سعيد الفلاح. الطبعة الأولى. ٢ مج. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

١٣٧ ـ مناهـج الجدل في القرآن الكريم: الألمعي، زاهر عواض. الطبعة الثانية. الرياض: مطابـع الفرزدق التجارية، ١٤٠٠هـ.
١٣٨ ـ مناهل العرفان في علوم القرآن: الزرقاني، محمد عبد العظيم. ٢ مج. بيروت: دار الفكر.
١٣٩ ـ منهاج التربية الصالحة: البيانوني، أحمد عزّ الدين. حلب ـ سوريا: مكتبة الهدى، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.
١٤٠ ـ منهج التـربية الإسـلامية: قـطب، محمد. الـطبعة الخـامسـة. ٢ مج. جـدة: دار الشروق، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
١٤١ ـ منهـج الأنبيـاء في الدعـوة إلى الله: زين العابـدين، محمد بن سـرور نايف. الـطبعة الأولى. ١ ج. الكويت: دار الأرقم، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
١٤٢ ـ منهج القـرآن في الدعـوة إلى الإيمان: الفقيهي، علي بن محمـد نـاصـر. الـطبعـة الأولى. ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
١٤٣ ـ منهـج القصـة في القـرآن: شـديـد، محمـد. الـطبعـة الأولى. جـدة: دار عكـاظ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
١٤٤ ـ المـوطأ: مـالك بن أنس. صححـه وعلق عليه: محمـد فؤاد عبد البـاقي. القاهـرة: كتاب الشعب.
١٤٥ ـ النبوة والأنبياء: الصابوني، محمد علي. الطبعة الثانية. ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.
١٤٦ ـ النبـوة والأنبيـاء في ضـوء القـرآن: النـدوي، أبـو الحسن علي الحسني. الـطبعـة السادسة. دمشق: دار القلم، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
١٤٧ ـ نزهة الأعين والنواظر في علم الوجوه والنظائر: ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفـرج عبـد الرحمن. تحقيق ودراسـة: محمد عبـد الكريم كـاظم الراضي. الـطبعـة الأولى. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
١٤٨ ـ النشـر في القراءات العشـر: ابن الجزري، أبـو الخير محمـد بن محمـد الـدمشقي. أشرف على تصحيحه ومـراجعته: علي محمـد الضباع. ٢ مج. بيروت: دار الكتب العلمية.
١٤٩ ـ النكت والعيـون: المـاوردي، أبــو الحسن علي بن حبيب. تحقيق: خضـر محمـد خضر. راجعه: عبد الستار أبو غدّة. الطبعة الأولى. ٤ مج. الكويت: طبـاعة مقهـوى، وزارة الأوقاف والشؤون الإسـلامية ـ التـراث الإسلامي، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة :	٧
تمهيـد : في أهمية القصص القرآني وأغراضه	١٣
الباب الأول : نوح عليه السلام مع ابنه	١٥
تمهيد الباب الأول	١٧
الفصل الأول : بيان القصة .	٢١
الفصل الثاني : العبر والفوائد	٣٧
الباب الثاني : إبراهيم عليه السلام مع أبيه وأبنائه	٥٥
تمهيد الباب الثاني	٥٧
الفصل الأول : إبراهيم عليه السلام مع أبيه	٥٧
المبحث الأول : بيان القصة	٥٩
المبحث الثاني : العبر والفوائد	٧٢
الفصل الثاني : إبراهيم عليه السلام مع أبنائه	٨٩
المبحث الأول : مع ابنه إسماعيل عليه السلام	٨٩
المطلب الأول : البشارة بـه	٨٩
المطلب الثاني : تركه وأمّه في واد غير زرع	٩٣
المطلب الثالث : قصة رؤيا ذبحه	٩٧

الموضوع	الصفحة
المطلب الرابـع : قصة بناء الكعبة	١١٨
المبحث الثاني : مع ابنه إسحاق عليه السلام	١٢٩
البشرى بـه	١٢٩
المبحث الثالث : مع أبنائه أجمعين	١٣٩
وصيته لهم	١٣٩
الباب الثالث : يعقوب عليه السلام مع أبنائه	١٤٥
تمهيد الباب الثالث	١٤٧
الفصل الأول : يعقوب عليه السلام مع أبنائه في قصة يوسف	١٥١
المبحث الأول : كيد الإخوة بيوسف	١٥١
المبحث الثاني : تعرف يوسف على إخوته	١٧٥
المبحث الثالث : اجتماع الشمل	٢٠١
الفصل الثاني : وصية يعقوب لأبنائه	٢٢٩
الباب الرابـع : قصة موسى عليه السلام مع أمّه	٢٣٧
تمهيد الباب الرابـع	٢٣٩
الفصل الأول : بيان القصة	٢٤٣
الفصل الثاني : العبر والفوائد	٢٥٣
الباب الخامس : قصة فتاتي مدين مع أبيهما	٢٦٥
تمهيد الباب الخامس	٢٦٧
الفصل الأول : بيان القصة	٢٦٩
الفصل الثاني : العبر والفوائد	٢٨١
الباب السادس : داود وسليمان عليهما السلام	٢٩٣
تمهيد الباب السادس	٢٩٥
الفصل الأول : هبة سليمان من الله لداود	٢٩٩

الموضوع	الصفحة
الفصل الثاني: إيتاؤهما العلم	٣٠٣
الفصل الثالث: حكمهما في قضية الزرع	٣٠٩
الفصل الرابع: وراثة سليمان لداود	٣١٩
الباب السابع: لقمان الحكيم مع ابنه	٣٢٥
تمهيد الباب السابع	٣٢٧
الفصل الأول: بيان المواعظ	٣٣١
الفصل الثاني: العبر والفوائد	٣٤١
الباب الثامن: زكريا ويحيى عليهما السلام	٣٦١
تمهيد الباب الثامن	٣٦٢
الفصل الأول: بيان القصة	٣٦٥
الفصل الثاني: العبر والفوائد	٣٧٧
الباب التاسع: مريم بنت عمران مع أمها وابنها عليهم السلام	٣٩١
تمهيد الباب التاسع	٣٩٣
الفصل الأول: قصة مريم مع أمّها	٣٩٧
المبحث الأول: بيان القصة	٣٩٧
المبحث الثاني: العبر والفوائد	٣٩٧
الفصل الثاني: قصة عيسى مع أمّه	٤٠٤
المبحث الأول: بيان القصة	٤١٥
المبحث الثاني: العبر والفوائد	٤١٦
	٤٢٨
الباب العاشر: مواقف لعدد من الصحابة	٤٣٧
تمهيد الباب العاشر	٤٣٩
الفصل الأول: موقف لأبي بكر الصديق رضي الله عنه	٤٤١
الفصل الثاني: موقف لسعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه	٤٥٣

الموضوع	الصفحة

الفصل الثالث: مواقف لعدد من الصحابة رضي الله عنهم ٤٦٥
الخاتمة ٤٧٧
مراجع البحث ٤٨٥
فهرس الموضوعات ٤٩٧

* * *